

النسر والصقر
بداية الصراع
/http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly
ابراهيم أسعد محمد

# النسر والصقر

## بداية الصراع

تأليف

إبراهيم أسعد محمد

مطبعة المعرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

إن فترة الأربعين عاما التى بدأت فى أواخر حكم امنحوتب الثالث حوالى ١٣٧٥ ق. م. حتى اعتلى حور محب العرش سنة ١٣٣٤ ق. م. كانت فترة اضطرابات شديدة مرت على مصر .

كان امنحوتب الثالث ، زير نساء ، عبدا لشهواته ، حتى أنه وهو فى العقد السادس من عمره تزوج من الأميرة تادجيبا التى كانت لا تزال فى العقد الثانى من عمرها والتى كان توسراتا ، ملك ميتانى ، قد أرسلها إليه .

وحدث الإنقلاب الدينى العظيم الذى قام به إخناتون وما تبع ذلك من انقسام بين طوائف الشعب ، ومؤامرات من كهنة آمون . وكان من نتيجة الانقسام أن حدثت محاولات عديدة لاغتيال اخناتون ، وأشهرها محاولة أحبطها « محو » رئيس حراسة ، الملقبين بالمازوى ، الذين كانوا ينتقون من أبناء النوبة .

وبنى أخناتون مدينة آخت آتون ، تل العمارنة ، وجعلها عاصمة ملكه ، وانتقل بأهله ورجال حاشيته وبلاطه إليها ، تاركا آبه ، طيبه ، العاصمة القديمة .

وارتحلت الملكة تى ، أوتاى ، والدة أخناتون ، وزوجة امنحوتب الثالث ، إلى أخت آتون ، ومكثت فترة مع ولدها ، وحاولت أن تحول اخناتون عن دينه .

وحدث شقاق كبير بين اخناتون وزوجته الملكة نفرتيتى ، أجمل بنات الأرض — فانفصلت عنه ، وأقامت منفردة فى قصر أتون ، حات أتون بضاحية جنوبى المدينة .

وشعر أعداء مصر فى آسيا بضعف فرعون فبدأوا يهاجمون المدن ويضمونها الواحده تلو الأخرى إلى ممتلكاتهم . وبرز من هؤلاء عزيرو ملك المموريين الذى راح يقتطع لنفسه من امبراطورية مصر فى سوريا ، وفينيقيا ، وفلسطين . ولم تفلح خطابات الاستغاثة التى أرسلها حكام هذه المدن الموالين لفرعون فى أن تخرج اخناتون من اغراقه فى أحلامه الدينية .

وتحالف عزيرو مع الحيثيين ضد مصر ، وهاجموا مدينة اسمها تونيب ، واستغاث حاكم المدينة ، كما استغاثت من قبله مدينة نبى ، ولم يتحرك فرعون مصر . وبدأت تنهار الامبراطورية التى بناها تحتمس الثالث وخلفاؤه .

وزاد الطين بلة ان شخصا أجنبيا يدعى دودو ، أو توتو ، كان ساقيا لفرعون وأصبحت له الكلمة العليا فى القصر . ويبدو أنه كان يعمل لحساب عزيرو ، وكلما هم الفرعون باتخاذ إجراء أحبط توتو من عزيمته ، وألهاه عنه .

حتى حينما تحرك أخيرا فرعون مصر . وأرسل شخصا لتحقيق شكاوى حكام المدن ضد عزيرو انقلب هذا الشخص خائنا يعمل لحساب العدو .

وأفلحت الملكة « تى » فى أن يتحول الفرعون إخناتون قليلا عن مذهبه مما سبب غضب نفرتيتى ، ثم نجحت فى أن يتولى سمنخ كارع العرش مع اخناتون على غير رغبة نفرتيتى . وزاد الطين بله حينما نجحت « تى » فى أن يرتحل سمنخ كارع مع زوجه مريت آتون ، ابنة اخناتون الى طيبه .

وبعد عامين مات اخناتون ، ولا يذكر التاريخ هل مات حقيقة أم قتل . ولم يعثر على جثته ، أو على الأقل اختلف المؤرخون اختلافا شديدا حول جثة وجدت فى قبره لرجل فى العقد الثالث من عمره .

ولا يعلم أحد علم اليقين ماذا حدث لنفرتيتى ، هل ماتت أم قتلت بعد زوجها ، كما لم يعثر أيضا لها على جثة فى أى قبر من القبور .

وبعد عام واحد من وفاة اخناتون ، مات أيضا سمنخ كارع ، ولم يعلم أيضا كيفية وفاته ، فى حين لا يورد التاريخ ذكرا لزوجته مريت اتون فقد اختفت تماما كأنها لم تكن .

وتولى العرش الأخ الثالث توت عنخ اتون ، الذى ارتد كلية عن الدين الجديد ، وغير اسمه الى توت عنخ آمون ، ونقل عاصمة ملكه الى طيبه .

وظهر نفوذ آى ، أحد رجال القصر ، الذى كان يدير دفة البلاد فعلا إذ أن توت عنخ امون كان فى أوائل العقد الثانى من عمره حينما اعتلى العرش .

ومات توت عنخ امون فى أوائل العقد الثالث من عمره بعد أن حكم مدة لا تزيد على أحد عشر عاما .

وكتبت ملكة مصر الى أمير خيتا تطلب منه أن يزوجها أحد أبنائه ليكون فرعونا على مصر ذاكره أنها تكره ان تتزوج من أحد رعاياها . وأجابها ملك خيتا إلى طلبها، وأرسل إليها أحد أبنائه ، ولكن بعض المواطنين قتلوه .

واعتلى آى العرش، وحكم سنتين مع توت عنخ آمون ، وحينما مات انفرد بالحكم سنة أخرى ثم مات بدوره .

أخيرا آل العرش الى حور محب ، الذى كان قائدا أعلى للجيش منذ عهد اخناتون، وبدأت مصر تتمتع برخاء حقيق ثلاثين عاما متتالية .

وعلى أن الوقائع السابقة تاريخية لاريب فيها ، فقد ذهب المؤرخون فى تفسيرها مذاهب شتى . فقد اختلفوا على اخناتون ، فمنهم من ذهب إلى أنه كان نبيا يبشر بدين جديد . بل إن منهم من قال إن موسى ( عليه السلام ) إنما استق دينه من أسس التوحيد التى ابتدعها اخناتون ومن المؤرخون من ذهب الى حد القول بأن الفرعون إنما كان به خبال ، وأنه كان شاذا جنسيا .

وقالوا إن زوجته نفرتيتى إنما أغضبها عند ارتداده عن دينة ، وقالوا بل هى الغيرة أكلت قلبها حينما رأته يدلل أخاه سمنخ كارع ، الذى كانت تمقته وتفضل عليه الأخ الآخر ، توت عنخ آتون . وزاد حقدها حينما زوجه اخناتون بابنة نفرتيتى مريت اتون ، وولاه العرش معه . وزعموا أن الأخين سمنخ كارع وتوت عنخ آتون ، لم يكونا أخوى اخناتون ، وانما كانا ابنيه . وتباينت اراؤهم فى نهاية اخناتون . فنهم من أكد أن جثته هى التى عثر عليها فى القبر الذى يحمل اسمه ، ومنهم من ذهب الى أن بعض المخلصين له ولدينه قد خطفوا الجثة وأخفوها فى مكان خفى ، وأبدلوها شابا فى العقد الثالث من عمره .

وترددت الآراء عن الملكة التى كتبت الى سوبيلوليوماس ملك الحيثيين

تخطب له أحد أبنائه : هل هى نفرتيتى أرملة أخناتون ؟ أم هى عنخس — أن — با آتون أرملة توت عنخ آمون ؟ ولكل فريق حججه التى يدعم بها الرأى الذى انتهى إليه .

هذه هى الحقبة من تاريخ مصر التى اختارها الكاتب لتكون مسرحا لرواياته. وهو هنا يحاول أن يضع تصورا للوقائع التاريخية يربطها ببعضها معتمدا على أصح الآراء ، وأكثرها قربا الى المنطق والعقل . وهو أن كان قد استعمل خيال الروائى ، إلا أنه لم يحد عن الوقائع التاريخية الثابتة .

وتقف هنا أسئلة حيرى تحتاج الى اجابات .

من الذى أنقذ اخناتون المرة تلو الأخرى من بطش كهنة آمون ؟

من الذى اضطره الى ارسال مندوب عنه للتحقيق فى شكاوى الأمراء ضد عزيرو ؟

ما الذى حدث لنفرتيتى بعد غضبها على اخناتون ؟ وأين ذهبت ؟ وهل هربت واختفت ؟ من الذى ساعدها على الاختفاء ؟

من الذى اخفى جثة اخناتون حتى لا تعبث بها أيدى كهنة امون ، وأبدل مكانها جثة أخرى ؟

من الذى قتل ابن ملك الحيثيين ، ومنعه بذلك من الزواج من ملكة مصر ؟

يبدو لى من كل هذا أنه كانت هنالك جماعة ، فرد ، أو أفراد يعملون لصالح مصر فى الخفاء ولم يرد لهم ذكر فى التاريخ ، فالتاريخ إنما يذكر الوقائع الكبرى وكم من بطل أهمل ذكره .

وهذه القصة هى محاوله لربط الحوادث التاريخية عن طريق تصور أبطال مجهولين لم يرد لهم ذكر ، وان كانت أعمالهم تشير الى حتمية وجودهم .

ونظرا لطول الفترة فقد قسمتها إلى أربعة فترات .

الاولى تبتدىء منذ بداية ظهور الدين الجديد ، واخناتون مازال أميرا ، وتنتهى هذه الحقبة بإعلان اخناتون فرعونا على مصر يحكم مع أبيه أمنحتب الثالث.

وتبدأ الثانية حيث انتهت الأولى لتنتهى بعد وفاة امونحتب الثالث وانفراد اخناتون بالعرش وانتقاله بالعاصمة الى تل العمارنة ( اخت آتون ) .

وتدور حوادث الفترة الثالثة فى الحقبة التى حكم فيها اخناتون بمفرده فى تل العمارنه ، وتنتهى بوفاته .

والرابعة اختتم بها سلسلة الحوادث التى تلت وفاة اخناتون وارتقاء توت عنخ آمون العرش ثم آى ، لتنتهى باعتلاء حور محب وعودة الرخاء .

---

## المذكرات المعروفة ببردية آخر المارقين

( اليوم هو السابع من الشهر الثالث من شهور آخت (١) فى السنة الثانية من حكم جسر خبرو(٢) رع فرعون تامرى (٣) .

هذه مذكراتى .. أسطر فيها الوقائع كما حدثت .. أروى فيها قصة الصراع بين الفرعون ، وكهنة آمون .. ربما تكون قد اشتركت فيها أو نما إليك علم ..

ولعلك سمعت عنى ، فلست أحسب أن فى تامرى كلها من أعالى حابى (٤) إلى أسافله شخصا لا يعرفنى .. أنا الذى وصموه بالمروق على دين أسلافه .. وبالخيانة لأهله وعشيرته .. أنا الذى حاربوه ، وحاولوا قتله ، مرات لست أعتنى بذكر عددها .. أنا الذى غير مصير تامرى .. وربما مصير العالم أجمع .. صديق الفراعنة العظام ، وصانع بعضهم .. أجلستهم على العرش العظيم ، ووضعت أوريوس « التاج الفرعونى » على رؤوسهم .. كان من اليسير على أن أتربع مكانهم ، ولكننى تركته زهدا ، ووفاء .. فكان جزائى أن حاول أحدهم القضاء على ..

حاربت الطومياح، والرتنو ، والعابيرو ، والشاسو ، وحاسوت (٥) .. خضت المستنقعات المليئة بالأفاعى ،والتماسيح .. وتوغلت فى أحراش نوب ، وواوات .. أنا قاتل سوبيلو ليوماس والد مورسيليس صاحب خيتا (٦) ..

---

(١) آخت : هى الشهور الأربعة المقابلة للأشهر من أول سبتمبر إلى آخر ديسمبر (٢) حور محب (٣) الأرض المحبوبة مصر (٤) النيل

(٥) الطومبياج : قبائل ليبية ـ الرتنو : سوريا العابيرو : الاسرائليون ـ الشاسو : الرعاه ـ حاسوت : الهكسوس . (٦) ملك الحيثيين .

أنا الذى أزهق روح دودو ساقى الفرعون .. أنا الذى أخفى نفرتيتى زوجة الفرعون ، وهربها بعيدا عن أعين الأعداء الذين كانوا يطمعون فى موتها .. أنا من مات فرعون مصر العظيم إخناتون على يديه .. أنا من حمل جثة الفرعون ، وأخفاها عن الأيدى العابثة بعيدا عن العيون ، ولم يستطع حتى كهنة آمون ، مع كل ما لهم من سطوة وقوة ، وعلم بالمادة وما ورائها ، أن يعثروا عليها .. لا بل لن يعثر عليها أحد حتى تتبدل الأرض غير الأرض ..

ولكن لعلك أيها القارىء تطلع على مذكراتى فى البردية الطويلة بعد أن أكون قد ذهبت إلى أمنتى(١) .. لعلك تقرأ بعد أن أكون قد رحلت بعشرات السنين ، وربما بالمئات أو حتى الآلاف ، فالكلمة خالدة ، وخات(٢) فان .. دعنى إذا أبدأ من حيث بدأت .. دعنى أقدم لك نفسى . . . . . . . . . .

(١) الغرب : وهو تعبير عن الموت (٢) الجسد .

# الفصل الأول

أنا كاى رع سنب « خرحب (١) » فى معبد آمون بطيبه . وأبى تترى رع سنب ، النبى الثالث فى المعبد ، وكان جدى منخبر رع سنب ، أور — ماو ، الكاهن الأكبر ، والنبى الأول فى عهد فرعون مصر العظيم من — خبر — رع ( تحتمس الثالث )، وكان أبوه من قبله — حابو — رع — سنب ، أول أور — ماو ( الكاهن الأكبر ) فى عهد ماعت — كا — رع (حتشبسوت) .

ولأنى أنا كاى رع سنب بن تترى رع سنب ، بن منخبر رع سنب ، بن حابو رع سنب ، فان «ماعت » على لسانى . « ماعت » الحقيقة المجردة ، والحق المطلق . وما أكتبه الآن على ورق البردى ، وهو الصدق لا أحيد عنه حرفا ، ولا أنقص منه شيئا .

ومن الطبيعى أن اسمى الحقيقى ليس كاى رع سنب ، وإنما هو الاسم الذى عرفنى الناس به، أما إسمى الحقيقى فلا يعرفه أحد سوى أبى ، وأنا . لقد همس به أبى فى أذنى يوم ولدت مره ، ثم همس به مرة أخرى وأنا فى السابعة من عمرى، ولم ينطق به أبدا بعد ذلك ، ولا بحت أنا به لأحد . ولن يستطيع أحد أن يستعمل السحر ضدى ، إذ كيف يستعمل أحد السحر ضد من لا يعرف إسمه الحقيقى .

بحسبك يا من تقرأ أن تعرف أن اسمى الذى عرفت به بين الناس هو كاى رع سنب ، وإننى درست فى برغنج (دار الحياه) (٢) . تعلمت اللاهوت ، والطب والهندسة ، وحفظت حكمة فتاح حوتب ، ونبوءة الحكيم أبو — رو وتعلمت كتاب الطريقين ، وكتاب الموتى . قرأت بردية عازف الجيتار ، وكتابات امينى،

---

(١) درجه كهنوتية فى معبد آمون .

(٢) دار الحياه مدرسة للكهنه فى عهد آمون حتب .

وسنيف ، وبرديه كاوه البشر ، وأعدت مرارا أقوال الفلاح الفصيح .

أناذلك الذى فمه يعرف . تعلمت السحر ، وعرفت المعدات السحرية الجنائزية، والقربان ونظم الحفلات ، والأعياد ، واقتربت من قدس الأقداس فى معبد آمون .

اجتزت العقبات السبع ، وغصت فى أعماق أسرار إيزيس — كلا لن أقول ما هى العقبات . يكفيك أن تعلم أنك إن دخلتها فأمامك أحد ثلاثة لا رابع لها . أن إما تجوزها ، أو أن تموت وتضيع روحك هباء بين الأرواح التائهة . أو أن تفقد عقلك لتصير أبلها ، ما بقيت « البا » الروح ، فى الخات — الجسد .

أجل تعلمت كل هذا ، وعلمت ما لا أبوح به من الأسرار . وأقاموا لى احتفال المعرفة فى الثامنة والعشرين من حكم فرعون تامرى (مصر) نب — ماعت — رع (أمنحوتب الثالث)(١) ولم يكن عمرى قد جاوز السادسة عشرة بكثير .

ولعلك ، أيها القارىء ، قد تعجبت كيف أجرؤ ، وأنا خرحب فى معبد آمون ، أن أكتب اسمه ، أو أن أذكره دون ألفاظ التجلة ، والإحترام الواجبة، ولكننى أطالبك ببعض الصبر حتى تنتهى من قراءة قصتى ، وعنـــدئذ سوف يطالعك السبب ، أما الآن بحسبك هذا ولاعود إلى سرد ما بدأته .

فى تلك الليلة ، أعنى ليلة الاحتفال بإتمامى دراسة ما تعلمته فى دار الحياه ، كان الجميع يشربون الجعة ، والنبيذ ، ويأكلون اللحوم ، والفاكهة ، فى قصر أبى، وكنت أجلس خارج أحد أبواب القاعة الكبيرة أستمع إلى خليط من أصوات الحاضرين ، وانشاد المنشدين ، وأصوات آلات الطرب من القيثار والعود .

إستقر نظرى بفخر على أبى ، وقد جلس على يمين مايا ، النبى الأول ، فى حين جلس إلى يساره الخرحب الأول مدير العبادة فى المعبد ، وإلى يمين أبى كان يجلس رع موسى ، مدير معبد بيت آتون ، وكان أيضا كاهنا لآمون ، واستاذى الأول فى دار الحياه ، ثم أنبياء آمون : آثن ، وآى ، وسى موت .

ودارت عيناى فى قاعة القصر الفسيحة لأرى الموائد المتعددة وقد جلس

---

(١) سنة ١٣٧١ ق . م . بحسب تقويمنا على أصح الآراء .

إليها كهنة المعبد(١) بحسب ترتيبهم ، ودرجاتهم . فعلى الموائد الأولى ، عدا من ذكرت ، كان يجلس بعض أمراء البيت المالك ، ويليهم كهنة خرحب ثم المسمون ( وعب ) أو الأتقياء ، وطبقة محبوبى الاله ، وأخيرا بعض طبقة خدمة الاله .

كان المدعوون يزيدون على سبعين شخصا من مختلف الطوائف ، وكان حاملو الطعام، والسقاة ، يروحون ويجيئون خلفهم فى أدب جم ، وصمت تام . ووقف حملة المراوح خلف ضيوف المائدة الرئيسية يحركون، مراوحهم الضخمة فى تؤدة وحذر ، فى حين راحت الفرقة الموسيقية تعزف ألحانا ترقص على نغماتها بعض فتيات المعبد .

كان المنظر رائعاً ، فقد كان جميع الضيوف يرتدون ملابس خفيفة من الكتان متعدد الألوان يغلب عليها الأبيض ، وأضافت المشاعل والمصابيح المعلقة على الجدران فى كل مكان أضواء قوية زادت من بهاء القاعة . وشاهدت النبى الاول يميل على أبى ويسر إليه ببعض كلمات أشار بعدها الى أحد الخدم. واقترب الخادم يلبى منحنيا ، واستمع الى كلمات أبى ثم تراجع فى احترام ، وخرج من القاعة .

مضت فترة وأنا أرقب الحفل من مكانى لا أتحرك . ثم ظهر الخادم ورائى ، وأحسست بوجوده فاستدرت إليه . وانحنى الرجل بخضوع وتمتم قائلا :

— مولاى ، إن نيافة السيد الأكبر يطلبك .

تسارعت نبضات قلبى ، وتساءلت فى نفسى عن السبب الذى يريدنى أبى من أجله . وظلت قسمات وجهى جامدة ، وأنا أتخطى الخادم متجها الى المدخل الرئيسى للقاعة . وتراجع الرجل مبتعدا فى أدب ، بينما دلفت من المدخل متخطيا الحارسين .

---

(١) لم يكن المصريون يعرفون نظام المائدة الواحدة أو الكبيرة وإنما كانت هنالك موائد متعددة يجلس على كل منها شخصان أو ثلاثة ،أو أربعة على الأكثر.

كانت هذه أول مرة فى حياتى أدخل فيها القاعة الرئيسية أثناء حفلة عامة. شعرت بغصة فى حلق ، ورهبة تغشانى ، ولكنى سرت بخطى ثابتة متجها الى المائدة الرئيسية دون أن ألتفت يمنة أو يسرة . خيل إلى أن الموسيقى قد توقفت عن العزف ، وأن الراقصات قد إنتحين جانبا ، وأن أعين جميع الحاضرين قد ثبتت على ، ترقب كل خطوة أخطوها ، وتحصى كل خلجة فى قسمات وجهى .

أحسست برغبة شديدة فى الهرب عدوا ، ولكننى تماسكت وإزدادت خطواتى تؤدة .

توقفت على مسافة قصيرة من المائدة الرئيسية ، أمام قداسة النبى الأول ، وابى واستاذى . وانحنيت خاشعا صامتا لا أبدى حراكا ، منتظر أن يبدآنى بالكلام. وكان قداسة النبى الأول هو الذى تكلم . خيل إلى أن صوته قد إرتفع حتى رن عاليا فى القاعة الفسيحة .

— إذا فهذا هو الصبى الذى سينضم إلى جماعتنا فى يوم من الأيام . إنه يبدو قويا . إقترب ياغلام وأرنا وجهك ، كم قلت إن عمره ياتقوى ؟

تقدمت خطوة ، ورفعت رأسى قليلا لتلتقى عيناى بعينين نفاذتين مشتتين كأنما لتسبران أعماق نفسى . ووصل إلى سمعى صوت أبى كأنما يأتى من غور بعيد .

— لقد جاوز السادسة عشر .

— إنه يبدو فى الثامنة عشر ، أو ربما العشرين . إقترب قليلا ياغلام ولا تكن بك رهبة ؛ إذا فقد أتممت دراستك الأولى واجتزت العقبات ، وأصبحت من الرائين ، من كان أستاذك ؟

وتكلم رع موسى فقال :

— أنا يا مولاى .

لاحت على جبين قداسة النبى الأول تقطيبة لم يحاول أن يخفيها ، والتفت باستياء ظاهر إلى والدى ، ثم تحول نظره إلى أستاذى . وقال :

— نرجو أن لا تكون قد لقنته تلك الآراء الحديثة التى وصلت إلينا . لقد سمعنا همسا بأن بعض المنشقين ينادون بدين جديد وبالكفر بآلهتنا جلت طلعتة ، وعلا سناؤه ، وطرح دين آبائنا الأقدمين . بل لقد تناهى إلينا أن سمو الأمير نفر خبرو رع (اخناتون) قد صبأ . وأنه يقود هذه الجماعة المنشقة الكافرة . ألم تكن تجالسه كثيرا يارع موسى ؟

لم تتحرك عضلة من وجه الكاهن إزاء هذا الاتهـــام الصريح ، وأجاب بصوت هادىء :

— كان لى شرف مجالسة الأمير ياقداسة النبى الأول فى أكثر من مناسبة .

وزم النبى الأول شفتيه ، وخرجت الكلمات من فمه كالسياط :

— ولعلك حاولت أن تهديه الطريق القويم ، وتبعده عن التردى فى مثالب الآراء الحديثة . وتبصره بخطورة مسلكه ، وخطئه .

كانت اللهجة مزيجا من السخرية والتهديد . ولم يكن هنالك شك فيما يعنيه النبى الأول ، إذ أن الشائعات كانت تملأ الأسماع بأن رع موسى كان هو الأصل الذى استقى منه الأمير التعاليم الجديدة للدين الذى يدعو إليه .

لكن الكاهن لم يبد عليه أنه فهم . وكان صوته مازال هادئا لا أثر فيه لأى اضطراب حينما تكلم :

— إن سمو الأمير فى الثامنة عشرة ، وهو عاقل متزن لا تهور لديه أو اندفاع ، أما مناقشاتنا فكانت تدور حول الدين القديم .

كانت الإجابة ظاهرها الخضوع . ولكننا كنا جميعاً نعلم أن طائفة المنشقين كانوا يدعون أن عبادة ربنا الأعلى (آمون) هو الدين الحديث ، وأن دين آتون هو الدين القديم ، دين السلف .

وتحول النبى الأول مغاضبا ، وانتقل بالحديث مع أبى .

— وماذا ستفعل بابنك يا نترى ؟

— سوف أرسله يا مولاى الى الحظائر الملكية بتيوت (منف) ليتعلم

فنون المصارعة ، والقتال ، وركوب الجياد ، والتجديف ، وما إليها ، فاذا ماأتمها بنجاح سيعود إلى طيبة ليتم دراسته فى الفنون ،والآداب ، والهندسة والطب ، وسائرالعلوم قبل أن يلتحق بالمعبد .

ووجه النبى الأول الخطاب إلى :

ـــ إذهب الآن يابنى الى المعبد ، وقدم للإله الأكبرفروض الولاء شكرا على ما أنعم به عليك . وادعو له أن يوفقك ، ويسدد خطاك فى سفرك ، وغربتك ، وتعليمك .

كان الإيماء هنا أيضا واضحا . فقد أراد النبى الأول أن يتأكد من انى لم أصبأ عن دين الاله ، وأن استاذى لم يؤثر على ، كما أراد أن يوجه إليه لطمة أن تلميذه ، مازال يعبد آمون بالرغم مما قد يكون الاستاذ قد بذل من مجهودات . تحولت عيناى إلى أبى أستأذن فى الانصراف فهز رأسه بحركة خفيفة آذنا .

تراجعت خطوات إلى الوراء . وقبل أن أستدير متوجها إلى مدخل القاعة لاحظت عيناى ثلاث نظرات ترمقنى . الأولى للنبي الأول ، نظرة متفرسة فاحصة تتغلغل فى أعماق النفوس ، والثانية من أبى ، فيها حنان ولا تخلو من فخر ، والأخيرة من استاذى رع موسى ، نظرة كلها حنان ، وإشفاق .

تسابقت قدماى دون وعى للخروج من رهبة الصالة الكبيرة ذات المشاعل والمصابيح المتوهجة . وغامرنى شعور بالراحة حينما تخطيت الحارسين الواقفين على الباب ، وكأنما انزاح من كاهلى عبء ثقيل . أحسست برغبة شديدة أن أقطع الشرفة الواسعة عدوا ، وأهبط الدرج وراءها قفزا ، لكننى كنت أعلم أنه مازال هناك من يراقبنى . سرت بتؤدة مفتعلة ، وهبطت الدرج إلى الطريق الحجرى الذى يخترق الحديقة الكبيرة بزهورها ،وأشجارها ، والتماثيل الكثيرة المبعثرة فيها ، والتى تمثل الآلهة المختلفة

كنا فى ليلة اليوم السابع من الشهر الأول من شهور الشمو (١) . كان الاله

(١) هى الشهور الأربعة المقابلة لأشهر من أغسطس حتى آخر نوفمبر .

إلمح(١) فى اكتماله ساطعا يرسل أياديه الفضية تتحسس ما صنع الاله خنوم(٢) ويحيل الليل الى ضياء . سرت على مهل متجها إلى المعبد ، والأفكار تتضارب فى رأسى . ولم تكن الأرض تسعنى فرحا وأنا أنظر بلهفة الى مستقبلى القريب ، ورحلاتى المنتظرة الى نيوت (منف). وتخيلت نفسى ممتطيا صهوة جواد أسابق به الرياح ، وأتلقى التعليمات فى رمى الرمح والسهم ، وفنون القتال المختلفة . كنت بحسب بنيتى ، وتكوينى الجسدى أميل كثيرا الى هذه الأنواع من الدراسة ، ومع أن بيئتى ونشأتى كانتا تؤهلانى لتلقى التعاليم الدينية إلا أن رغبتى الحقيقية كانت تتجه الى الممارسات البدنية .

حملتنى ساقاى بغير شعور . ووجدت نفسى أسير بين قصر آمون والمعبد . على الطريق الجديد الذى اختطه المهندسان التوأمان ، سوتى ، وحور ، وأقاما على جانبيه تماثيل كباش آمون ، ذات رأس الكبش ، وجسد الأسد — ونقلت قدماى على الطريق المرصوف بالصخور والحجارة . وبدت الكباش رابضة كأنما تنظر الى ساخرة . وأحسست بالرهبة تتزايد كلما اقتربت من المعبد ، ولكننى سرت فى طريقى قويا إذ اننى لم أكن أبغى أن — يعرقل آمون سفرى . كنت أرغب فى السفر ، وأتوقعه ، وأتمنى النجاح فيه ، ولهذا كان على أن فروض أقدم الطاعة الى رب الأرباب ، وألتمس منه التوفيق والنجاح .

كان المكان خاليا لا أثر فيه لإنسان ، أو حيوان . حتى الرياح كانت ساكنة لا تحرك غصنا ولا شجرة . وأسرعت فى سيرى . وفجأة طرق أذنى صوت رزين خفيض يسألنى من أنا ؟ تسمرت قدماى فى الأرض ، وتوقف قلبى لحظة عن نبضه . ثم اندفع فى دقات متتالية كأنما يريد أن يعوض ما فاته . وأرغمت نفسى على أن أنظر الى مصدر الصوت . كان هنالك شخص قد تدثر فى رداء من الكتان الأبيض الرقيق يجلس على قاعدة أحد تماثيل الكباش ، وكان مجلسه عند عجز التمثال مما أخفاه عنى وأنا سائر فى الطريق .

---

(١) القمر (٢) إله الخلق والصناعة = إله الفخار .

وقف الشخص ، ثم تقدم بخطوات وئيدة متمهلة . وسطع ضوء القمر على القامة القصيرة ، والبطن المنتفخ ، والكتفين الضيقين المنحدرين ، والجسم النحيل ، وظهرت الرأس المستديرة ، كما بدت ملامح الوجه المستطيل جلية .

كان أظهر ما فيه تلكما الشفتين الضخمتين ،والذقن المتدلية . أما العينان فكانتا واسعتين تنظران فى تأمل كأنما صاحبهما يفكر فى مكان بعيد . وعرفت الشخص . كان سمو الأمير نفر خبرو رع(١) .

دارت الأفكار فى رأسى سريعة تتلاحق . كنت بحكم مولدى ، ومركز والدى من الذين تفتح أمامهم أبواب القصر الفرعونى ، وكثيرا مادخلته منذ استطعت السير بمفردى، بل وكثيرا مالعبت مع الأطفال الامراء على ضفاف البركة الفرعونية.ولم يكن الأمير نفر خبرورع غريبا على ، ولا أنا كنت غريبا عنه ، وإن لم تقم بيننا أية صلة وثيقة .

كنت أراه يسير فى حدائق القصر ، وبرفقته زوجته الأميرة نفرآتون(٢) الجميلة. ولم تكن عيناى تفارقان وجه الأميرة ، ولطالما شعر قلبي الصغير بالغيرة منهما وهما يسيران جنبا إلى جنب فى حب ظاهر يتهامسان فيما بينهما . ولكم تساءلت كيف تحب مثل هـــذه الزهرة التى كانت بلا شك أجمل فتيات زمانها ، هذا الرجل الذى يكاد أن يكون شبحا مشوها ؟ هل أحبت فيه عقله ،وأفكاره ، وهدوءه ، واتزانه ؟ ماالذى يمكن أن يجمع بين هذا الملاك الجميل وذلك الشخص القمىء ؟ ولم يكن فى الامكان الإجابة على هذا السؤال إلا إجابة واحدة ، هو الدين الجديد ، هو السمو فى الآراء ،والتفكير الذى ارتفع بصاحبه إلى مستوى هذا الملاك ، وربما تعداه .

أين استقى تعاليمه ؟ أهو وحى نزل عليه ، أم هو مجرد تفكير شخصى ؟ لقد سمعت همسا يدور أن والده، نب — ماعت — رع(٣) فرعون مصر،له الحياة والرفاهية، والصحة ، لم يكن يحب كهنة آمون ، رب الأرباب ، ولقد ظهر هذا جليا فى خروجه على التقاليد ، وزواجه من الملكة تى ، والدة الأمير نفسه ، وهى مجرد فرد من عامة الشعب .وأنا أعلم أنه قد أسمى سفينته الملكية « آتون »

---

(١) اخناتون — فيما بعد (٢) نفرتيتى (٣) امونحوتب الثالث .

يلتمع . وأنه كثيراً ما شجع كهنه رع ، وبتاح ، إلهي نيوت ( منف ) . بل أنه أرسل ابنه الأكبر ، الأمير وارث العرش ، تحوتمس ، إلى منف ، وجعله كبير الكهنة في معبد الآله بتاح ، وما زال الأمير هنالك . فهل هو الأب الذى غذى ابنه بهذه التعاليم ليحارب بها كهنة آمون ويحد من سلطتهم ؟ أم هي عقلية الأمير الهادئة المتزنة ؟

لكن هذه الأفكار لم تكن لتخطر لي على بال في هذه الليلة ، وكل ما طاف بخاطرى هو ما شعرت به من رهبة إزاء هذا الشخص المنطوى الذى كثيرا ما شوهد أثناء الليل يجوس بمفرده ، أو يستغرق في تأمل في ركن منزو .

تقدم مني الأمير ، وركعت على الأرض خشوعاً لا أرفع رأسي إلى وجهه . وتناهى إلى إذني الصوت الخفيض .

— من كاى ؟قم ، وارفع رأسك .

تمتمت باحترام .

— خادمك يامولاى .

نظر إلى الأمير بتعجب وهو يسأل .

— إلى أين أنت ذاهب في هذه الساعة ؟ .

شعرت أن في سؤاله تحد لرب الأرباب آمون له التجلة . وذكرت أقوال النبي الأول أن الأمير مارق عن الدين . وإنتابتني حميـــة الصبا ، ففردت قامتي إلى أقصى ارتفاعها . وبالرغم من أن الأمير كان يكبرني بحوالى سنتين ألا أنني كنت أطول منه قامة بفارق كبير . وكان ردى رسميا جافا يتناسب ما أشعر به .

— إنني ذاهب يامولاى لاتعبد إلى رب الأرباب آمون ، خالق كل شيء ومسير كل حي . أنني مسافر في القريب إلى نيوت ، منف ، وأرجو أن أنال بركة رب الأرباب جلت طلعته ، وعلا سناؤه .

فجأة ، وكأنما أفاق الأمير من حلم ، التفت إلى وفي عينيه غضب جامح حتى أنني تراجعت خطوة إلى الوراء . علا صوته مهتدجا من الانفعال ، والغضب ، واندفعت الكلمات من فمه بسرعة مذهلة .

— من هو رب الأرباب هذا يا غلام ؟ من هو خالق كل شيء ومسير كل حي ؟ أهذا الحجر الأصم الذى صاغته أيدى النحاتين ، ورسمته أيدى التوأمين سوتى وحور ؟ تبا لتفكير القوم الذين لقنوك هذا . هل يصاغ خالق ؟ وهل يحتاج الخالق ، والسيد الذى جلت طلعته، وعلا سناؤه إلى أرباب آخرين يساعدونه فى مهمته ؟ أهى عصبة يترأسها زعيم ، أم هو واحد لا يحتاج إلى مساعدة من أحد ؟ أرب واحد أم أرباب متعددون؟ . تبا لقوم لقنوك !

وكما تملكه الغضب فجأة ، انفثأ عنه بسرعة . هدأ الجسد النحيل المرتجف ، وخفت ضوء العينين ، وامتدت اليد النحيلة لتقبض على كتفى برفق ، وتهدىء من روعى . جاء الصوت حنونا كأنما من مكان سحيق مرة أخرى .

— لا عليك يا كاى . إنك غلام ذكى ، وسوف تكون رجلا قويا ، وكم أود أن ترى النور ، لكننى أحسب أنى أثقلت عليك ، وأنك مازلت فى ميعة الصبا ، تأخذ ما تعطى ، وتتعلم ما تدرس ، اذهب إلى رب الأرباب إن شئت ، ودعنى وما أحلم به .

كان الأمير يتكلم وكأنه شيخ عجوز وأنا صبى صغير ، مع أنه كما قلت لم يكن يكبرنى بأكثر من عامين . ترك كتفى ، واستدار متجها نحو القصر . كانت هذه هى المرة الأولى التى يوجه فيها الأمير إلى خطابا جادا يخرج عن مجرد كلمات المجاملة البسيطة . وسحرتنى تلك الشخصية الهادئة التى تخفى وراءها بركانا ثائرا . وقبل أن يبتعد خطوات وجدت نفسى أقول :

— لكننى درست أيضا آتون ، وأعرف رأى سموكم .

وتوقف الأمير . وحينما استدار بدا وجهه فى القمر واضحا وقد علت الشفتين الضخمتين ابتسامة باهتة .

— وماذا تعلم عن آتون يا كاى ؟

— اعلم أن مولاى يدعى أن آتون هو الإله الواحد ، وأنه لا توجد آلهة أخرى ، وأنه هو الذى خلق كل شيء ، وأنه لا يوجد آمون ، أو بتاح ، أو سخمت ، أو رع ، أو غيرهم من الآلهة .

أقترب الأمير خطوة وهو ينظر إلى كمن يسلى نفسه برؤية شيء غريب، أو كمن يداعب طفلا لا يفقه من أمور الدنيا شيئا . وحينما تكلم سأل سؤالا لم أكن أتوقعه .

— من كان أستاذك الأول فى الدراسة يا كاى ؟

— الكاهن رع موسى يامولاى .

— لقد ظننت ذلك .

وأدار الأمير ظهره ، وواصل سيره الوئيد .

إنتابنى غضب جامح . حقيقة أننى صغير السن ، وحقيقة أنه أمير ، وابن فرعون مصر العظيم ، لكننى أيضا كاى رع سنب ، بن تتى رع سنب ، بن منخبر رع سنب ، إبن أول أور ماو لمعبد آمون ، وما كان لأمير ، أو غير أمير ، أن يعاملنى بهذا الأسلوب . تجمعت الدموع فى عينى ، لكن ما كان لمثلى أن يبكى . لقد علمونى كيف لا أبكى ، ولا أصرخ ، بل ولا أضحك ، أو أهلل كما يفعل الصبية من الرعاع . علمونى هذا ، فنسيت ما هو الحزن ، والفرح ، والألم ، والسعادة ، بل ونسيت كيف يمكن أن أظهر الحب لمن أكنه أو الكره لمن يبغض قلبى ، نسيت كل هذا منذ أن تخطيت السابعة من عمرى .

شيء واحد لم يستطع أحد أن يعلمنى إياه ، على قدر ما حاولوا ، كيف أستطيع أن أكبح جماح غضبى !؟

بقيت لحظات ، وأنا أتابع الأمير بنظرى . ثم استدرت بدورى ، واتجهت إلى المعبد وما زالت كلماته ترن فى أذنى . هل يحتاج خالق ؟ هل يحتاج قادر إلى معونة من أحد ؟ أأرباب متعدده أم واحد قادر ؟ .

تبا لقوم لقنوك ؟ .

# الفصل الثانى

# المؤامرة الاولى

اليوم هو أول أيام عيد العرس ، أوبت ، الذى يقام فى كل سنة فى آخر الشهر الثانى من شهور الشمو(١) .أيام معدودات ينتقل فيها رب الأرباب من دار الحب ( معبد الكرنك ) إلى قصره الخاص عند أوبت (الأقصر ) يسكن فيها إلى أزواجه .

يبدأ الاحتفال بتقدمه يرفعها الفرعون أمام قارب رب الارباب ، كما يقوم الكهنة المقربون أمام عائلة الرب ، موت وخنسو ، وأمام قارب الفرعون . ويشق الموكب طريق الكباش يتهادى محمولا على محفة ذات أحد عشر حاملا ، ولا يقل من يحملونها عن ثلاثين من خدم الإله .

ترى رب الأرباب متربعا على عرشه، وقورا عاليا ، متلألئا فى تمثاله الذهبى ، وقد حبته أشعة رع بنورها فضاعفت من بهائه حتى لا يتمالك شعبه من السجود له .

يسير الموكب يتقدمه جندى ينفخ فى النفير محمولا على أكتاف الكهنة ، خدم الإله ، وهم يرتدون ثيابهم البيضاء الناصعة التى لا أثر فيها لوسخ ، أودنس . ويحف بالموكب ممثلو الآلهة من جميع أنحاء تامرى ، بل ومن الأقطار المجاورة . كلهم يأتون ليحيوا الرب . ولم لا ؟ أليس هو رب الارباب جميعا ؟ ألا تحيا تامرى ، سيدة العالم ، ببركته وسلطته ؟ ألا تسمى آبه ( طيبة ) واست أى السلطة والقوة ؟

اليوم ترى الآلهه جمعاء ، وقد أتت لتقدم تهانيها إلى ربها ، وتحنى رؤوسها خضوعا له وتيمنا به . ويرتفع التمثال الذهبى عاليا فوق الرؤوس بعظمة وجلال.

---

(١) يوافق شهر بؤونة أو يونيو .

ويتهادى الموكب وسط آلاف ... المهنئين والمتبركين . هنا يرى الشعب جميع آلهته وقد تجمعت فى صعيد واحد .

هنا يسير كهنة الآلهة ، المتعددة وكل كاهن يرتدى ما يمثل إلهه . حتحور البقرة المقدسة ، إلهة الجمال ، والحب ، حورس الصقر . أنوبيس إله الموتى على شكل ابن آوى ، أبيس ، العجل ، إله الزراعة : طائر الأبيص ذو المنقار الطويل يمثل تحوت رسول رب الأرباب وإله الكتابة والسحر ، والطب . بوتو الحية ، سيدة الحياة ، حارسة تاج فرعون .

العقاب الإله الثانى ، حارس فرعون ، وإلى جواره نخبت ، النسر ، هو أيضا من حراس الفراعنة العظام . ىتوتت المرأة ذات رأس الثعبان سيدة الحقول . سلكت إله العقارب ، سبوك ، التمساح ، بخت ، على شكل لبؤة ، آبى فرس النهر ( سيد قشطة ) ، نبرى سنابل القمح ، آحى الطفل يلعب بشخليلته ، وعنقت سيدة ماء النيل ، الغزالة ، ومنتو إله الحرب بسهامه ودرعه ، وبس القطة ، وست الحمار ، وغير هؤلاء عشرات . الآلهة شو ، وتفنوت ، ونوت ، وإيزيس ، وتفنيس ، وساتس ، وحابى ، وخنوم ، وبتاح ، سيد الصناع ، إله نيوت ( منف ) ، ومين إله الفلاحة ، وجب إله الأرض . وأتوم . ورع . وخبرى ، جميعها أتت ممثلة فى أشكالها المختلفة ، وأزيائها البديعة الزاهية ، ورؤوسها المتعددة لتؤدى فروض الولاء لرب الأرباب .

فى مقدمة الموكب سار النبى — أور — ماو ، وعن يمينه كاهن الإله ، خم نثر . وإلى يساره الأب الإلهى اتف نثر ، وخلفهم كان رهط من الكهنة المتطهرين . وعب . والكهنة المرتلون . خرى حب وهم ينشدون قصائد الدعاء والمديح .

ويقف الفرعون رائعا فى أبهى حلله فى المكان المخصص له ، من الحجر الرملى يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدما ، وقد طعم بالذهب والأحجار الكريمة . فرعون إبن الرب والتجسد الحى له يقف ليرقب موكب أبيه يمر أمامه فى أجلى عظمته .

وعلى منصات متفاوتة العلو وقف الأمراء والوزراء وكبار موظفى الدولة والحكام والقضاة . ورؤساء الجيش ، والشرطة والحجاب ، والصيادون ، ورؤساء القطعان ، الملكية ومدير البيت الملكى ، ورئيس عمال الإنشاء ، والخازن بل سفراء الدول وممثلوهم .

تمتلىء الساحات ، والشوارع ، والأزقة بالناس نساء ، ورجالا ، شيوخا ، وشبابا ، وأطفالا كلهم خرج ليحتفل برب الأرباب ويشاركوه عيده ، وعرسه وليروا آلهتهم فى أبهى مظاهرها ، وفرعونهم فى أجل أبهته .

وفى أماكن متفرقة ينتوع بعض أصحاب الحرف ، والبائعون أماكن يعرضون فيها بضائعهم وماعندهم . هنا ترى الناس يتزاحمون على بائع الفطائر المحلاة بالعسل ، وهناك بائع فاكهة ، تين وبلح ، ورمان ، وعنب ، وتفاح . إلى جواره تاجر يعرض ماعنده من أجود الأقمشة الكتانية الرقيقة . أو الحريرية المستوردة ذات الألوان الزاهية ، وآخر يبيع المشاعل ، والقناديل ، والمصابيح ، وثالث للرايات ، والأعلام ، ورابع الخمور ، والنبيذ والبيرة ، وآخر يبيع التماثيل المنحوتة . وترى تجمعا من ناس تشرئب أعناقهم يتطلعون إلى مشعوذ يعرض .. ألعابه السحرية ، وقريبا منه آخرون يتراهنون على مصارعين ضخمين ، أو ملاكمين يتقابلان . ولم يكن البهلوانات أقل حظا من سابقيهم ولا المهرجون . ترى منصة يعلوها شخص أو إثنان يرويان الأقاصيص الشعبية ... ويشخصان الأبطال وينشدان الأناشيد ، والناس تستمع مذهولة لأفعال الأبطال ، وقصص الغرام .

يصل الموكب إلى شاطىء حابى ( النيل ) وتدلى الزوارق فى المياه . ويمتلىء المجرى بمئات الزوارق الصغيرة من الخشب ، والبردى ، وكلها فى فى أبهى مظاهرها . يتبع الفرعون ، والملكة الموكب فى زورقهما الخاص . ويبدأ عشرات الرجال فى جر القوارب صعدا إلى أعلى النيل ، إلى أوبت ، قصر الحريم الإلهى . ويتحرك الموكب يحف به الجنود . وضباطهم فى أزيائهم النظيفة المعتنى بها . ويجرى الشعب على الشاطىء مرافقا الموكب الربانى فى سيره فى النيل . وتدوى الهتافات عالية تصم الآذان ، ويقفز الناس فرحا وكأن بهم مس ، وهم يتطلعون إلى الموكب الفخم يضم رب الأرباب ، وعائلته الربانيـــة . موت وخنسو ، وفرعونهم العظيم ، وزوجته .

تظل المواكب تشق طريقها ضـــد تيار النيل ببطء شديد نظرا لشدة التيار العكسى ، ولـكنك لاترى فى وجوه الذين يجرونها بالحبال أية مشقة ، أو كلال بل أنهم افخورون إذ يخدمون رب الأرباب . ويتسابق من الناس من يريد أن يحتفظ لنفسه بمكان عند الشاطىء ، حيث ترسو المراكب عند أوبت ، قصر

الحريم . ويصاحب آخرون الموكب على الشاطىء يتمتعون بالمناظر الفخمة ، ويستمعون إلى الطبول ، والأناشيد ، ويراقبون الراقصين ، والراقصات ، وهم يؤدون أدوارهم فى خفة ، ونشاط .

تصل المراكب إلى المرفأ المخصص لرب الأرباب . وينضم المركبان إلى بعضيهما ليتما الرحلة المباركة إلى القصر الربانى . يزداد صياح الجماهير ، وتعلو الهتافات إلى عنان السماء ، وتتمايل الراقصات فى غلالاتهن الرقيقة بحركات رشيقة جريئة ، وتستمر الأناشيد ، والتراتيل . ويترنم الموسيقيون بالآتهم ، ويرتفع صوت النفير ، ويتقدم الجموع .

زفاف الرب وأى رب ، إن ابه واست ، تحتفل به بأسرها ، لا بل إن تامرى ( مصر ) كلها ، تستمر فى أفراح نهارها وليلها ، ولا تنتهى الأفراح إلا حينما يعود الموكب حاملا الرب إلى المعبد . ستة أيام وليالى ترى الراقصات ، والمغنين ، والموسيقيين ، يدورون فى الطرقات ، والفسحات ، ويصبح فيها الليل نهارا من كثرة أضواء المشاعل .

أما البيت الأبيض ، قصر الفرعون تامرى ، له الحياة ، والصحة ، والرفاهية ، فقد كانت تقام فيها الحفلات كل ليلة من ليالى العرس لا تنقطع . كان وهجا يتلألأ . أضاءت المشاعل كل حجراته وقاعاته . حتى الحديقة تناثرت فيها الأشجار والزهور . ولم ينقص نصيب البركة الفرعونية ، والقارب الفرعونى ، آتون يلتمع ، من المشاعل بل إن إنعكاس الأضواء على صفحة المياه الساكنة كان أخاذا يسحر العيون .

الليلة . ليلة عرس الرب . فكيف لا يبتهج عبيده ؟ أية ليلة أحق بالابتهاج والسرور من هذه ؟ وكان الفرح مضاعفا بالنسبة لنا . لم يكن يمنع عنا شىء ، وكنا نعطى مزيدا من الحرية فى السهر ، والخروج ، كان القصر الفرعونى مفتوحا لأبناء ، وبنات الكهنة ، ولا يمنعون من ارتياد أى مكان فيه عدا الجناح الخاص بفرعون ، وجناح الفرعونة والحريم . أما سائر الحجرات وصالات الاحتفالات ، والحدائق ، والبحيرة الصناعية ، بل والحظائر فكانت مباحة للجميع .

وكانت الحظائر بالذات هى أحب مكان إلى . كنت أحب النظر إلى تلك الحيوانات الرائعة ذات السيقان القوية الدقيقة ، والعيون المخلصة . كانت

لدى الفرعون مجموعة بديعة من الجياد سواء منها أفراس الصيد ، أو الركوب ، وجر العجلات ، ولـكنه ماكان يسمح لأحد أن يستعملها سوى بعض الأمراء المقربين .

حملتنى قدماى نحوها . كانت البناية تقع على مسافة بعيدة فى الناحية القبلية فى القصر ، وكان على أن اخترق جزءا كبيرا من الحديقة لأصل إليها . سرت متشدا أعجب من أضواء المشاعل الـكثيرة ، وظلال الأشجار الباسقة التى كانت فرعون مصر ماعت — كا — رع ( حتشبسوت) قد جاءت بها من جميع أقطار الأرض .

كانت خطواتى خفيفة على العشب الأخضر ، ولهذا لم يكن يسمح لها صوت . وفجأة تناهت إلى أذنى أصوات خفيضة لإثنين يتهامسان . توقفت عن السير ، وانكمشت فى ظل شجرة ضخمة وراحت عيناى تتطلعان نحو مصدر الصوت . لم أكن أقصد فى بادىء الأمر أن انصت إلى الحديث ، وإنما كانت كل رغبتى ألا يرانى أحد ويؤخرنى عن الذهاب إلى مكانى المفضل .

تناهت أصوات الإحتفال فى القصر بعيدة هامسة ، فى حين جاء صوت المتهامسين واضحا جليا . لم أر صاحبى الهمس ، لـكننى علمت أنهما يقفان على بعد خطوات قليلة من مكانى يخفيهما ظل شجرة من أشجار الحديقة الواسعة . وتناهت إلى أذنى الـكلمات واضحة .

— لـكننى لا أستطيع أن أخفى مثل هذا الخبر طويلا .

— أنا لا أقول لك أن تخفيه ، وإنما كل ماأطلبه منك أن تصبر قليلا حتى تمر فترة الأعياد أى أقل من أسبوع .

— لا أظن أن ذلك مما يرضى ضميرى . أننى لم أتخذ طريق النهر ، وإنما امتطيت صهوة جواد — قطعت به كل المسافة بين نيوت (منف) إلى هنا لاختصر بعض الوقت . وعلم الرب جلت طلعته كم تعبت فى هذا السفر ، وكم لاقيت من مشاق ، ومخاطر ، ومع ذلك فقد وصلت أسرع من أية مركب ، ووفرت ثلاثة أيام على الأقل . وها أنت تقول لى أن أصبر سبعة أيام . علام اذا كانت هذه المشاق ؟ .

— إسمع ياجسر(١) هل يرضيك أن تحمل إلى الفرعون مثل هذا الخبر في أول أيام أعياد العرس ؟ .

ما الضرر الذي يعود عليك أو على الأمة من الصبر بضعة أيام ؟ .

— لكن ماذا أقول للفرعون إذا ما سألني عن السبب في تأخري في إبلاغه النبأ ؟ .

— لن يسألك الفرعون . دعني أنا أتولى عنك مهمة نقل هذا النبأ السوء . وأنا الكفيل بأن أبعد عنك المساءلة .

لم أكن أعلم من هو جسر هذا ، وإن كنت قد تصورت أنه شخص يحمل رتبة ما في الجيش وهو أيضا شخص من العامة لاينحدر من عائلة مرموقة نبيلة ، أو من أصل كهنوتي . أما الآخر فقد تبينه من صوته . كان خبر(٢) ذلك الشخص المغامر الذي كان فارسا في الجيش ثم تزوج من محيت التي أرضعت الأميرة نفر — نفرو — آتون ( نفرتيتي ) الجميلة .

ولو أنه كان من المعتاد أن تكون مربيات الأميرات الصغيرات في القصر الفرعوني من الأميرات، إلا أن مرضعة الأميرة لم تكن كذلك، ولكنها كانت من قريبات الملكة تي « الزوجة الأولى للفرعون » ، التي كانت بدورها من العامة رفعها الفرعون إلى مرتبة الملك متحديا بذلك جميع التقاليد السابقة . وكان من أثر زواج خبر « آي » من محيت أن ترك الجيش ، والتحق بخدمة القصر . وسعت الملكة تي حتى منحه الفرعون رتبة كهنوتية ، ما كان ليستحقها ، وأضحى وزوجه من أقرب المقربين إلى الملكة تستمع إلى نصائحهما وتنقلها بدورها إلى الفرعون .

أما الفرعون فقد كان غارقا في بحر من الملذات والشهوات ، لاهم له إلا الشراب ، والجري وراء النساء . وساعده على ذلك الأموال الطائلة التي كانت ترد إلى البلاد من شتى أنحاء الإمبراطورية، والرخاء الدائم الذي ساد البلاد بعد أن إستمرت في سلام بلا حرب سنين طويلة . وما كان أحد من الأعداء ، أو من

---

(١) جسر خبرو رع — الذي أضحى فيما بعد حور محب فرعون مصر .
(٢) خبر خبرو رع — الذي أضحى فيما بعد آي فرعون مصر .

البلاد المتاخمة ، أو القبائل المتبربرة ليجرؤ على مهاجمة الإمبراطورية بعد الدروس القاسية التى تلقوها على أيدى الفرعون المظيم من خبرو رع(١) وخليفيه القويين ، حا — خبرو — رع(٢)، ومن خبرو — رع(٣) .

لم يكن خبر ، و آى ، فى ذلك الوقت قد جاوز الأربعين ، ومع هذا فقد كان يمثل قوة فى القصر ، وبالتالى فى تامرى ، لا يستهان بها . كانت قامته النحيلة الطويلة ، ورأسه الضخم المستدير، ونظراته الهادئة النفاذة تنم عن ذكاء مفرط ودهاء كبير .

تحرك الإثنان من مكانهما يتجهان إلى القصر ... وهنا سطع ضوء القمر عليهما . تأكدت أولا من أن أحدهما كان خبر و آى ، كما توقعت ، أما الآخر الذى ناداه آى باسم جسر ، فقد ظهر أنه كان ضابطا فى الجيش . كانت كل ملامحه تدل على شخصية قوية شريفة ، وكان وجهه صريحا، مخلصا، واضحا لا أثر فيه لدهاء صاحبه ، كما كان يبدو أن عمره أقل كثيرا من عمر صاحبه . وتكلم الضابط — جسر :

— يبدو أنك لم تفهمنى يا آى ! إننى لا أخاف أحدا ، حتى الفرعون ، له الحياة، والصحة ، والرفاهية ، لكننى أحاول أن أؤدى واجبى كما أراه . ولست أرى أن التأخير فى إبلاغ النبأ يتمشى مع ما أراه من واجبى .

إزداد إعجابى بالضابط الشاب . هـــذه لهجة تساير القوة الخلقية ، والقوة البدنية . وجاء صوت خبر هادئا ناعما يحاور صاحبه .

— هل تعلم من سيكون ولى العهد ؟ إنه نفر — خبرو — رع(٤) أنه ذلك الشاب المتهور الذى ينادى بهدم دين آبائنا . أنا شخصيا لا يهمنى أى الأرباب يعبد، وإنما الذى يقلقنى ماسوف تؤول إليه حال الدولة إذا ماحدث هذا ، ومايجره وراءه من إنقسام . هل تظن أن كهنة آمون، رب الأرباب ، سوف يسكتون على هذا الشاب ؟ ماذا سوف يحدث فى البلاد إذا انقسمت على بعضها ، منها من يتمسك بدين السلف ، ومنها من يتبع ماينادى به نفر — خبرو — رع ؟

وجاء جواب جسر ثابتا .

---

(١) تحوتمس الثالث .

(٢) امنحتب الثانى .

(٣) تحوتمس الرابع .

(٤) اخناتون

— قد يكون كل هذا صحيحا ، لكنه لا علاقة لى به ، إننى لست رجل سياسة وإنما أنا رجل حرب . وقد أمرنى رئيسى أن أبلغ جلالة الفرعون ، له الحياة والصحة ، والرفاهية ، بنبأ وفاة ولى العهد تحوتمس فى أسرع وقت ، وهذا ما سأفعله . وعلى كل حال فماذا سوف تستفيد إذا — تأخرت فى إبلاغه إلى ما بعد أيام الأعياد .

— إن هذا يعطينى فرصة لأن أدبر أمرا ربما تجنبت فيه ما قد يصيب البلاد من شر — فكر ياجسر إنك رجل عسكرى . وهذا حق . هل تظن أن أعداء البلاد فى الخارج ، أصحاب خيتا ، وميتانى ، المنوست الشاسو(١) والعامو(٢)، والمنتوستت (٣) والحابيرو ، وقبائل الطوميباح(٤) الذين يقطنون أرض التمح (٥) سوف يظلون على هدوئهم إذا ما رأوا فى الفرعون أى ضعف ، أو شاهدوا انقساما يمزق البلاد ؟

ورد جسر بالصلابة السابقة نفسها ، وبهدوء الواثق من نفسه .

— لا شك فى أن كل ما تنطق به ياصديقى صحيح ، لكننى مازلت أقول إنى جندى ، وأن كل هذا لا علاقة له بى ، وإنما أحب أن أضيف أن جيش تامرى فى أحسن حال . وأن أية إشارة من الفرعون سوف تحركه ليقضى على أية قلاقل ، ويلقن الأعداء دروسا طالما تلقوا مثلها فى الماضى .

كان الإثنان يسيران ببطء شديد وهما يتحدثان . وتوقفا أثنـــاء مناقشتهما الأخيرة أمام المكان اختبىء فيه ، ولم تكن المسافة بيننا لا تزيد على ثلاث خطوات . كانت الأفكار تتابع فى رأسى وهما يتكلمان . إذا فقد مات تحوتمس ابن الفرعون . مات ذلك الشاب الظريف ولى العهد ، الذى أرسله أبوه إلى نيوت ، منف، ليتعلم فنون القتال ، ثم عينه كاهنا أكبر فى معبد رع ، كأنما ليغيظ بذلك كهنة آمون ، ويمعن فى إحتقارهم والسخرية منهم .

وخبر لا يريد أن يبلغ النبأ إلى الفرعون ، أو على الأقل يريد أن يؤخره بضعة أيام حتى يستطيع فيها أن يتصرف فى الأمر . إنه هو نفسه من كهنة آمون ، أو لعله ، كما قال ، لا يأبه لأى دين . لكنه يعلم ما لكهنة آمون من مكانة ، ولعله

(١) الرعاة . (٢) الآسيويون . (٣) البدو .
(٤) قبائل ليبية . (٥) ليبيا .

يريد أن يستعين بهم للقضاء على اخناتون(١) ، قبل أن يصبح ولى العهد الجديد ، وتضفى عليه حصانته لا يتقبل معظم الشعب أن تنتهك .

كنت أنا نفسى من كهنة آمون رب الأرباب ، أو على الأقل كانوا يعدوننى لأن أكون كاهنا ، حتى أن النبي الأول قد تفضل وسمح أن أكون فى رتبة غلام الإله . وكانت كل الآراء التى أبداها آى من صالح آمون وكهنته ، وكم سمعت مناقشات تجرى بين والدى والكهنة الآخرين عن خطورة المذهب الجديد الذى ينادى به اخناتون بل وسمعت أحد الكهنة ذات مرة يحمد الرب آمون على أن اخناتون ليس وليا للعهد ، وانه بالتالى لاخطر منه . وسمعت آخر يعارض الرأى ، ويرى أن المذهب الجديد خطر على آمون ، وعلى كهنته ، حتى وإن كان اخناتون ليس وليا للعهد ، بل وذهب صاحب هذا الرأى إلى حد طلب التخلص منه . ولم يكن لدى شك فى أن آى لو أفلح فى إقناع حورمحب بتأجيل إخطار الفرعون بموت ولى عهده ، فإنه سيهرع إلى النبى الأول، لآمون ليخطره . وستكون النتيجة الحتمية هى التخلص السريع من اخناتون .

ودون أية مبالاة بما يحيق بى من خطر ، عزمت على أن أوقف هذا . لم أكن أقبل أن يقتل ذلك الشاب الهادىء الوديع الملىء بالحماس . خرجت من مخبىء ، وبخطوة أو خطوتين كنت مع المتآمرين . علت الدهشة وجهيهما . ونظر آى إلى بعين غير مصدقة ، لكنه سرعان ماتمالك نفسه ، ووجه الخطاب بلهجته الهادئة الناعمة .

— منذ متى أنت هنا ياغلام ؟

تأففت من أن أحدا من غير أصل نبيل يكلمنى بهذه اللهجة . وظهر الإمتعاض على وجهى ، وأنا أجيب على سؤاله بعنف .

— منذ مدة تكفى لأن أعلم ماتحاول أن تدبره .

بان الغضب على وجه آى ، وتقدم منى خطوة جعلتنى فى مواجهته تماما ، وقبض على كتفى بيدين من حديد . وأ كاد أن أقسم أنه لو ترك لنفسه لحاول قتلى فى هذه اللحظة لولا أن النجدة جاءت من حيث لا يحتسب كلانا .

— رفقا يا آى ، وابتعد عن الغلام .

---

(١) لسهولة العرض سوف أشير إلى الأشخاص التاريخية بأسمائهم المعروفة التى إشتهروا بها .

كان المتكلم هو حور محب . كان صوته هادئا رزينـــا ، لـكنه كان يحمل حد السيف فى نبراته . ويبدو أن آى كان قد نسى تماما وجود حور محب إبان ثورته حتى أنه أخذ حينما سمع الصوت ، والتفت إليه فى دهشة مسقطا يديه من كتفى . وقفت متحديا أنتظر ماسوف يفعلان . وران الصمت لحظات، قطعته أخيرا ضحكة جذلة أطلقها حور محب ، والتفت إلى آى قائلا :

— هذا فصل الخطاب، لقد ذهبت محاولتك أدراج الرياح يا آى، ولن تستطيع الآن أن تؤجل إعلان النبأ . إن مؤامرتك قد فشلت فى مهدها بسبب هذا الغلام . وإن كنت شخصيا لم يكن فى نيتى أن أسايرك الرأى .

التفت حور محب إلى ناحيتى ومازالت الابتسامة اللطيفة تعلو شفتيه ،وحينما تكلم جاء صوته هادئا حنونا .

— ما اسمك يا بنى ؟ وماذا كنت تفعل هنا ؟ هل أرسلك خلفنا أحد ؟

وعلا صوتى متحديا وأنا أقول بفخر .

— إن السيد آى يعلم جيدا من أنا . أنا كاى رع سنب، بن تترى رع سنب النبى الثالث فى معبد رب الأرباب . ولم يرسلنى أحد وراءكما ، وإنما كنت فى طريقى إلى الحظائر الفرعونية لأرى الخيول والأفراس ، وسمعت صوتكما قبل أن أراكما .

كانت الابتسامة ماتزال على شفتى حور محب حينما تكلم .

— إنى أعجب ياغلام هل تعلم مدى مافعلت ؟ إنك ربما تكون قد غيرت تاريخ تامرى فى هذه اللحظات ؟ بل ربما تكون قد غيرت تاريخ العالم . هل تدرى هذا ؟

لم أحول نظرى عن آى وأنا أجيب .

— أحل انى أعلم اننى أحبطت مؤامرة ضد سمو ولى العهد الجديد .

— أكثر من هذا يا بنى لقد جعلت أية مؤامرة مقبلة أيضا غير ممكنة ، على الأقل لفترة قصيرة ، بل لقد جعلت صديقنا آى حارسا على حياة سموه . فإن أى شىء يحدث له الآن سيجد صدى ضد آى ، وأحسب أن لك من يصدقك فى البلاط .

التفت بغضب إلى حور محب وأنا أجيبه .

— اننى كاى رع سنب ، ولا يجرؤ أحد أن يكذبنى . ولن يستطيع آى أو غيره أن يمس سمو الأمير بسوء .

تكلم آى أخيرا ، وحينما خرج صوته كان هادئاً متمالكا نفسه لا أثر فيه لاية عاطفة

— أتظن ذلك يا بنى ؟

كانت هذه إشارة تهديد لم أفهم معناها ، لكن الضابط الشاب حول رأسه إلى آى ، ونظر إليه بحدة وهو يقول :

— آى ، إننى لن أسمح أن تمس شعرة من رأس الغلام ، إنه غلام شجاع ، ولن أسمح لمطامعك أن تطأه .

هنا فقط فهمت ما كان يهدف إليه آى . إنه لو استبعدنى ، إذا لعاد الموقف كما كان ، ولأضحى يستطيع أن يقنع الضابط بعدم ابلاغ النبأ ، فان لم يفلح فربما قتله هو أيضاً ، أو ربما انتظر ، وتخلص من الأمير فيما بعد فى هدوء . وعجبت الضابط الشاب كيف أنه لم يخش أن يذهب هو نفسه ضحية لمطامع الكاهن الطموح ، وكيف أن تفكيره انما انحصر فى سلامتى الشخصية . وتكلم آى :

— لا تخش شيئا على الغلام ياحور محب ، إنى أرى أن الأقدار ضدى . علم الرب أننى إنما أحاول فقط أن أجنب تامرى شرا مستطيرا أراه يهدد من سلامتها ، وينبىء بانقسامها . ولكن ما شاء الرب يكون .

كانت كلماته هادئة لا أثر فيها لانفعال ، وبدأت أشك فى أن تفكيرى كان فيه ظلم للرجل ، فربما لم يكن يهدف إلى مصلحة شخصية ، وكان اعتقاده الحقيق أن تولى اخناتون العرش سوف يهدد البلاد بكارثة . وراح عقلى يزن الرجل فى ضوء جديد . وتكلم آى للمرة الثانية :

— هل يمكننى إذاً أن اقنعكما بأن تؤجلا ابلاغ النبأ إلى ما بعد الأعياد على الأقل حتى لا ينقلب العيد مأتما . إن الفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والرفاهية ، معتل الصحة بالرغم من أنه مازال صغيرا لا يجاوز الاربعين . لقد أفرط فى ملاذه وشهواته حتى أنه أضحى صاحب أمراض وعلل ، وربما قضى عليه النبأ . انتظرا إلى مابعد الأعياد ، وسوف أمهد الطريق حتى يتحمل الصدمة .

لا ترفضا حتى أقول كلمتى . أنك يا حور محب ترى أن وجوب ابلاغ النبأ بأسرع ما يمكن من واجبك كجندى ، لكن أليس فى ابلاغى أنا ، وأنا رجل مسئول فى البلاط الفرعونى ، ما ينقل العبء عن كاهلك ليضعه على كاهلى ؟ ألم يصبح واجب إبلاغ الفرعون مسئوليتى الشخصية بعد أن علمت رسميا منك ؟

وتردد حور محب . إن منطق الرجل كان سديدا ، وصحة الفرعون،له الحياة والصحة والرفاهية ، لم تكن فى أغلب الظن لتساعده على تحمل صدمة تلقى نبأ وفاة أكبر أبنائه وأحبهم إليه ، وولى عهده . صحيح أن ابلاغ النبأ سوف يقلب أفراح تامرى أحزانا . ولا شك أيضا فى أن حور محب ، يستطيع أن يريح ضميره العسكرى بأنه قد أبلغ النبأ إلى البلاط فى أسرع وقت ممكن — لم يطل تردد الضابط الشاب ، وسرعان ما بدا عليه أنه استقر على رأى .

— حسنا ، لن أبوح بالنبأ لأحد يا آى ، إذا ابلغته أنت إلى الملكة تى فورا ، وإتفقتما على ألا تبلغاه للفرعون له الحياة والصحة والرفاهية .

تنهد آى بارتياح ظاهر وقال :

— سأنتهز أول فرصة الليلة لأخبر جلالة الملكة . والآن ماذا يقول صاحبنا الصغير ؟

كنت أتوقع أن يلقى على هذا السؤال ، ولهذا كان عقلى يعمل بسرعة يقلب الامور على أوجهها . كنت ما ازال غير مطمئن إلى الكاهن ، رجل البلاط . ولهذا كانت إجابتى حاسمة :

— وأنا بدورى لن أتكلم ، ولكن لى شرطين . الاول أن يقسم آى أنه لن يبوح به لأحد ، أيا كان سوى الملكة تى ، وذلك إلى أن يعين وقت إخطار الفرعون والعالم . والثانى أن يتعهد آى شخصيا بأن يحمى حياة الامير ، على الأقل حتى يتم إعلان النبأ .

لم تترك الابتسامة شفتى آى وهو يقسم بما أمليه عليه من شروط . وهكذا أصبحت ثالث اثنين فى مؤامرة بريئة ، كانت أولى المؤامرات ، ولم تكن آخرها . ولا كانت المؤامرات التالية فى مثل براءة هذه لكنها وضعت حجر أساس لصداقة وثيقة إستمرت سنين طويلة ، وأتت ثمارها فى أحلك الأوقات

تعرضت فيها تامرى للشدة ، وما كنت أعلم وقتئذ ما كان يدخره القدر لشريكى فى المؤامرة ، وأن كلا منهما سوف يحيا ليتربع على عرش الفرعون . وتكلم حور محب .

— أظن أنه من المستحسن الآن أن أختفى عن الأنظار حتى لا يسألنى أحد عن سبب قدومى من منف .

ورد آى قائلا :

— مطلقا إن الأيام أعياد العرس ، ولا عجب فى أن يحضر إلى طيبه أى شخص من أى مكان . متع نفسك بمباهج المدينة والقصر . أتذكر صديقنا الثالث من يحتى رع(٢) الضابط فى فيلق الرماه ؟ إنه هنا ، وقد رأيته منذ قليل يصول بين أحضان الغانيات . إذهب إليه فلعلك تحظى بنصيب ، وحينما تنتهى من مرحك تعالى إلى مسكنى . أنت تعلم أين أقيم ، سوف تجد حجرتك معدة . أما أنت يا صديقى الصغير ، فيبدو أن القدر ربطنا ، وعسى أن يكون فى ذلك الخير . خيل إلى أننى سمعت أنك ستذهب إلى ، نيوت ، منف ، لتلقى العلوم العسكرية والتمرس فى الفنون القتال ، إن كنت ستفعل فخير معلم لك هو حور محب . ضع نفسك بين يديه ، وسوف تصبح جنديا كبيرا .

وبحركة من يده تركنا آى بمفردنا واتجه إلى القصر الفرعونى . ونظر إلى حور محب متفرسا وقال :

— إننى أكرر الدعوة ، ولن تندم على قبولها . وأعتقد الآن أنه يستحسن أن أتركك لأبحث عن من يحتى رع .

وجدت نفسى منفردا ، فوقفت قليلا وأنا متردد أى إتجاه اسلك حينما سمعت صوتا ينادينى ، وحينما التفت رأيت صديقى واج قادما .

— كاى كنت أعلم أنك إما فى الإسطبلات ، وإما فى طريقك إليها ، أو فى طريق عودتك منها . فأيها ؟

— إليها .

---

(١) اضحى فيما بعد فرعون مصر رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة .

ـــ إذا هيا بنا . إننا أكبر من أن نلعب مع الصبية ، وأصغر من أن نحتفل مع الكبار . من ذلك الضابط الشاب الذى كان معك منذ دقائق ؟

ـــ إنه يدعى حور محب ، ويبدو أنه شخص لطيف . لقد دعانى أن أزوره فى نيوت ، منف لأتلق على يديه الفنون العسكرية ووسائل القتال ، وربما فعلته .

انتظم سيرنا جنبا إلى جنب ، ونحن نتجه إلى الإسطبلات . كان واج يكبرنى بسنتين ولكننى كنت أطول منه قامة . كان والده رع ور الخرحب الاول ، وكان خاله النبى الأول ، فكانت بالتالى نشأته أقرب إلى نشأتى . وتوطدت بيننا الصداقة حينما كنا معا فى دار الحياه ، وتلقينا تعاليمنا معا على يد استاذنا رع موسى . ولم يبد واج أى ميل حقيقى للدراسة . لم يحاول إجتياز العقبات السبع ، أو التعمق فى أسرار ايزيس ، لكنه كان يميل بكليته إلى الفنون والحفر ، والرسم ، والنحت . كان كثيرا ما يهزأ بالكهنة ، بل وبالجيوش والضباط ، ويقول إن الحياة الحقيقية بعد الموت ، إنما هى للفنان فيما ترك من فن . وكانت أحب الموضوعات إليه الكلام عن الفن والفنانين ، ومن الطبيعى أن حديثه ونحن سائران كان عن الفن .

ـــ هل رأيت ياكاى آخر ما أنتجه ايدى مصورا آمون ، نب رع ، وابنه حاى . لقد أبدعا فى رسوماتها فى الجبانة . ولكنى سأفوقهما حينما أكبر . سوف أغير من هذه الرسومات الجانبية التى لا حياة فيها . لن أرسم للموت ، وإنما سأرسم للحياة . لن تكون رسوماتى عن القتال ، والحياة ما بعد الموت ، والحساب ، وآمون ، وسائر المعبودات لكننى سأصور الناس كما هم عليه . لن أجعل الفرعون إلها ، وسأصوره كبشر مثلنا . سأرسم الطيور والوحوش ، والزواحف . سأصور السماء ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والزهور ، والأشجار والمياه . سأصور ماأشعر به ، وما يشعر به الناس فى حياتهم العادية ، لا مايطلبه منى الفرعون ، والكهنة .

لم أتفوه بكلمة أثناء هذا وإن كان عقلى يعمل مقارنا بين أفكار واج ، وأفكار الأمير نفر ـــ خبرو ـــ رع . كلاهما كان يهاجم القديم ، وكلاهما

ينادى من وجهه نظرة ، بآراء جديدة . هذا فى الدين ، وذلك فى الفن .

كنت بحسب طبيعتى أميل إلى التمسك بالقديم ، والتقاليد . وجاءت نشأتى ، وجاء تعليمى ليؤكدا هذا فى حين أن طبيعة واج الفنية كانت أميل إلى الثورة على كل ما هو قديم بالرغم من أن خاله كان النبى الاول .

وفجأة توقفت عن السير إذ سمعته يقول :

— لقد عرضت آرائى على سمو الامير نفر — خبرو — رع ، وناقشنى فيها ، بل وتحمس للفكرة ، ووعد بمساعدتى .

نظرت إلى واج طويلا . وتوقف عن السير بدوره وراحت عيناه تحاولان تفادى الالتقاء بعينى . ودارت الافكار فى رأسى ، إذا فان واج يخفى عنى سرا ، ولكنه لم يستطع أن يكتمه تماما فباح بجزء منه . وتجلت لى الحقيقة كاملة . إن الامير ، ولى العهد ، قد أقنع واج وضمه إلى صفوف مؤيديه فى الدين الجديد . وتراقصت ابتسامة على شفتى حينما خطر فى بالى أن واج ، إبن اخت النبى الاول لامون ، قد أصبح من أتباع إخناتون .

واستأنفت السير إلى جانب صديقى دون أن أتكلم .

# الفصل الثالث

## المنقذ

مضت أكثر من ساعة على لقائى التاريخى مع آى، وحور محب، وعدنا — واج وأنا، من الحظائر الفرعونية، ولم يتوقف واج لحظة عن الثرثرة. كنت أصغى إليه وعقلى شارد أفكر فيما حدث. هل سيخبر آى حقيقة الملكة تى؟ هل سوف يحترم وعوده بألا يخبر الكهنة بنبأ وفاة ولى العهد؟ لسبب مالم يكن عندى شك فى أنه سيفعل كل هذا، ليس لثقتى فيه، وفى أنه سوف يحترم كلمته، وإنما لثقتى فى حور محب، وأنه سوف لايقبل أى خداع، فلم يكن يبدو عليه أنه الشخص الذى يخدع، أو يقبل أى خداع من أحد.

مع هذا كان على أن أطمئن إلى أن آى قد أوفى بوعده بإخبار الملكة النبأ. وكان الطريق الوحيد إلى ذلك أن أعود إلى القصر الفرعونى لأشاهد مايجرى هنالك من أحداث. والتفت إلى صديقى.

— واج لماذا لانذهب لنرى مايجرى فى قاعة الاحتفالات الكبرى فى القصر؟

بدت الدهشة على وجه صديقى وسألنى باهتمام.

— كاى ماذا بك؟ إننى أثرثر منذ أكثر من ساعه فى حين لم تكد تنطق بكلمة، بل إنه خيل إلى أنك لم تكن معى على الإطلاق.

ترددت، كانت ثقتى فى صديقى مطلقة لاحد لها، وكان السر الوحيد الذى أحمله ثقيلا على صدرى. وكم كان الإغراء شديدا فى أن أخفف من وطأته. ومع هذا فهل من حقى أن أتكلم؟ كنت قد تعلمت أن — أطبق فمى على ماتسمع أذناى، وأن يكون كلامى بقدر، لايصدر إلا بعد تفكير طويل. وابتسمت لصديقى وأنا أجيبه.

— لاشىء فى الواقع سوى أننى كنت أفكر فى رحلة نيوت ( منف ).

عادت روح صديقى المرحة إلى طبيعتها ، وعاد بالتالى إلى ثرثرته فى موضوعه المحبوب . الفن والرسم والحفر ، والنحت . واتجهنا صوب القاعة الكبرى فى القصر الفرعونى .

كانت القاعة غاصة بالمدعوين والمحتفلين . ورصت موائد الشراب، والطعام فى جميع الأركان ، كما تصدر الفرعون الواجهة . كان الفرعون نفسه يجلس على عرشه المرتفع ، وقد بدأ جسمه فى الترهل ،ولاحت على وجهه إمارات التعب والإرهاق ، بل والملال . لم يكن الراقصون والراقصات ليثيرونه . ولم يهتم بالألعاب البهلوانية التى كانت تعرض أمامه ، ولم يبتسم للمهرجين ولا التفت إلى المشعوذين ، كانت عيشته ناعمة هانئة لا يعكر صفوها أى شاغل حتى أنه قضى حياته سعيا وراء ملذاته وشهواته . افرط فى الشراب ، وأفرط فى الجرى وراء النساء ووسائل التسلية الأخرى ، حتى أنه وقد بلغ الأربعين كان يبدو شيخا فى الستين . سئم مكدود .

وتحت قدمى الفرعون قبع كلبان ضخمان أحمرا اللون راحا يرقبان الجموع وهما يماثلان سيدهما فى السأم . وإلى يمينه جلست على عرش أصغر من عرش الفرعون الملكة تى ، الزوجة الأولى ، جميلة متلألئة بالجوهرات والذهب ، تبدو عليهما إمارات الذكاء ، وقوة الإرادة واضحة . كانت القوة الفعلية التى تحرك العرش ، وبالتالى التى تسيطر على مصير تامرى . وخلف الفرعون وزوجته الأولى وعلى بعد بسيط ، وقف بعض رجال الحرس الفرعونى ، المازوى .

وقفنا ، صديقى وأنا ، فى ركن عند مدخل القاعة هيابين من الدخول . وبدا واج مبهورا بمظاهر الترف التى تحيط بنا. راحت عيناه تلتهمان المنظر برمته . الموائد المليئة بالطعام والشراب . والراقصات ، والمشعوذين ، والمهرجين ، والبهلوانات ، والأمراء والأميرات ، الوزراء ، وحكام الأقاليم ، وعشرات النبلاء والنبيلات . بعض كهنة آمون الذين لا يقومون بأدوار فى طقوس الأعياد ، وبعض الكهنة من معابد الأرباب الأخرى . رع ، وبتاح ، وسخمت ، وحوريس ، وخنوم ، وغيرها . ولم لا أليس اليوم عيد آمون ؟ أليس آمون هو رب الأرباب جميعا ؟

ودارت عيناى فى بطء . شاهدت الفرعون على عرشه . والملكة إلى جواره .

وخلفها وقف آى — يميل عليها ويحادثها وفمه قريب من أذنها . وانشغل عنهما الفرعون ، ولم يعرهما إلتفاتا ، فى حين بدت على الملكة إمارات الاهتمام والجد. هل كان آى يخطرها بالنبأ المحزن ؟ خيل إلى أن آى رآنى ، وأنه قال للملكة شيئا عنى ، إذ أنها التفت إلى ناحيتى ، واستقرت عيناها على لحظات عادت بعدها لتنصت فى إنتباه إلى مايهمس به الكاهن .

حولت نظرى عنهما بحثا عن الأمير ، ولى العهد الجديد . نفر خبرو رع ( اخناتون ) . لمحته عيناى منزويا فى أحد جوانب القاعة الكبيرة ، وقد وقفت إلى جانبه زوجته ، الأميرة نفر الجميلة ، ومعهما أستاذى الأول رع موسى . كان الثلاثة يتبادلون الحديث ، وكأنهم بمفردهم فى القاعة الفسيحة ، وما كانت نظراتهم لتتجه إلى وسائل اللهو حولهم . ويبدو أن واج أيضا رأى الجماعة إذ أنه هم بالإتجاه إليهم لولا أننى قبضت على ذراعه وتكلمت :

— أنظر إلى الناحية اليمنى ، هنالك الآن جوار تمثال تيسى بمفيس صديقنا الجديد حور محب الذى يقف مع الشاب الطويل القامة ، ترى من هو ؟ يبدو جنديا ، وهو بالتأكيد ليس من أهالى طيبة ، وليس برجل بلاط .

كنت أعلم تماما أن المذكور غالبا ما يكون الصديق الثالث لآى وحور محب ، وأعنى به ذلك الذى قال آى إن إسمه من بحتى رع . لكننى لم أكن أعلم أن القاعة الكبرى للإحتفالات تضم الآن خمسة من فراعنة مصر ، وأن من بحتى رع الجندى النكرة سوف يتربع فى وقت ما على العرش الذى يبعد عنه خطوات . وأنه سوف يؤسس أسرة حاكمة ويطلق على نفسه رمسيس الأول .

أدار واج رأسه ببطء وراح ينظر إلى الشابين بنظرة حالمة ، وكأنه لا يراهما . ولاحت من حور محب نظرة نحونا ، ورأيته يميل نحو صديقه يسر إليه شيئا . والتفت الضابط نحونا ، وأومأ برأسه لرفيقه ، ثم سار الإثنان صوبنا . ولسبب أجهله إنتابنى ذعر غريب وددت معه أن تحملنى قدماى بأسرع ما أستطيع خارج القاعة بعيدا عن الإثنين ، وعن الفرعون ، والملكة ، وآى ، والإبن ولى العهد الذى لا يعلم ، وزوجته ، وأستاذى السابق ، وكل من بالقاعة . كان عقلى الذى إمتلأ بالعلم والحكمة ، ربما قبل الأوان ، لا يستطيع أن يتحمل عبء الإشتراك فى مؤمرات البلاط ، ولو كانت بريئة .. كنت لا أستطيع أن أثق ثقة كاملة

فى أن آى كان بريئا تماما فى طلبه ، بل خيل إلى أن له من وراء مطالبه الجرىء هدفا آخر ليس فى مثل البراءة التى أظهرها . كنت لا أتصور أنه لن يستغل الموقف لصالحه ، بشكل أو بآخر . ولا يعنى هذا حتما أنه سوف يخل بكلمته ، وينكث فى وعده . ولكننى كنت أكاد أكون متأكدا من أنه سوف يجد الطريقة التى يحتفظ فيها بهذا الوعد ، يستغل الموقف لصالحه فى آن واحد . لالم يكن آى بالشخص الذى يترك مثل هذه الفرصة الذهبية التى ألقاها القدر تحت قدميه . ولكن كيف ؟

أفقت من أحلامى على صوت حور محب الرصين وهو يقدم زميله .

— من بحتى دعنى أقدم لك كاى . لقد تعرفت إليه منذ ساعتين ، لكننى أشعر أننا سوف نصبح أصدقاء ، وأرجو أن يكون صديقك كذلك .

كانت لهجته كلها إخلاص وصراحة . إخلاص رجل شريف ، وصراحة جندى قوى . وتكلم الشاب الطويل القامة فكان صوته لينا ناعما . وعلى العكس من ذلك أحسست بأن نظراته تكاد أن تخترق عظام رأسى — لتجوس خلال عقلى ، وأفكارى تقرأ خباياها كما تقرأ الكتاب المفتوح .

— إن آى صديق لى ، إنك بجدود الحظ أيها الصغير ، إن صداقة حور محب ليست بالشىء الهين .

وتمتمت ببعض كلمات مجاملة ، وقدمت إليهما

صديقى واج الذى أحنى رأسه فى أدب .

كانت عيناى تراقبان آى وقد ترك مكانه خلف الملكة تى حينما وصل إلى أذنى صوت حور محب .

— إن رع مس سو سوف يقوم بتدريبك على السهام . إنه أبرع من رمى سهما فى الجيش ، وإن كان للأسف لايريد أن يستقر معنا فى نيوت ، منف ، بل يبغى الذهاب إلى أحد الحصون على الحدود .

وتطلعت إلى وجه رع مس سو ، لكنه لم يكن يعير الحديث انتباها ، وإنما كانت عيناه النفاذتان مستقرتين على آى وقد وصل إلى حيث كان ولى العهد المرتقب ووقف يحادثه ورفاقه فى لهجة واضحة الود . توقف حور محب عن الكلام ، وحول نظره إلى حيث ينظر صديقه ، ورأيت جبينه يقطب قليلا ثم إنفجر ضاحكا فى مرح .

— إن آى لا يمكن أن يترك فرصة دون الاستفادة منها . ثق من ذلك .

لم يكن يبدو أنه يوجه الكلام إلى أحد . وبانت الحيرة على وجه صديقى واج إذ لم يفهم ما يهدف إليه الضابط ، لكنه إبتسم فى أدب ومجاملة ، فى حين حول الضابط الآخر نظرة ببطء وقد لاحت ابتسامة باهتة على شفتيه . ترى هل كان يعلم عن النبأ المفجع ؟؟ وازداد تقديرى لحور محب . كنا تعلمنا نحن صغار الكهنة أن الجنود لا عقل لهم . وأنهم لا يهتمون بثقافتهم ، ولهذا لم يكن إحترامنا لهم كبيرا . وها أنا ذا أرى جنديا حاد الذكاء يتكلم بلغة تبدو فيها الثقافة واضحة .

دار الحديث بعد ذلك فى مجالات أخرى لبضع دقائق ، ثم إنسحب الضابطان وسارا جنبا إلى جنب فى بطء متجهين إلى خارج القاعة . والتفت واج إلى .

— ماذا يحدث ياكاى ؟ ان هناك أمورا تجرى لا أفهمها .

هززت كتفى ، وتأبطت ذراعه وأنا أقوده إلى الخارج .

— أية أمور ؟ هيا بنا نعود إلى منزلنا فقد تأخر الوقت علينا .

باتت « مصر » تامرى فى متعـــة وشراب ، وأصبحت فى لهو وطرب . وأمست فى رقص ، وموسيقى ولعب . أيام وليالى فى أفراح وأعياد لا يعكر صفوها شىء . ولم ألتق هذه الليلة أو الأيام التالية بالضابطين ، وإن كنت لمحتهما يسيران فى خطواتهما العسكرية البطيئة فى شوارع المدينة مرتين أو ثلاث ، لكننى لم أتحدث إليهما بعد تلك الليلة ، كان السر الذى أحمله مازال ثقيلا على صدرى وكنت أعد أيام الأعياد ، وأتمنى أن تنتهى حتى يذاع النبأ الحزين ، وينزاح الثقل من كاهلى وإن كان مرور الأيام قد خفف نسبيا من وطأته ، وإزداد اطمئنانى إلى أن آى قد إحتفظ بوعده ، وبر بكلمته .

فى صباح اليوم الرابع أخبرنى واج لدهشتى أن الأمير نفرو خبرو رع ، ولى العهد ، الذى لا يعرف أنه ولى العهد ، يريد أن يقابلنى ، وأنه قد حدد موعد المقابلة بعـــد غروب الشمس بقليل عند الطرف الشرقى لبحيرة القصر وسألت واج عن سر المقابلة ، لكنه أجاب بأنه لا يعرف . ولما استفسرت منه عما إذا كان سوف يحضر المقابلة ، تردد قليلا ثم أجاب بالإيجاب .

أمضيت بقية النهار فى حيرة أسائل نفسى عما إذا كان الأمير قد عرف بنبأ موت أخيه ، وبأنه أضحى ولى العهد ووريث العرش ، وانني كنت أعلم النبأ ،

وأحجمت عن إذاعته ، تزايد قلق كلما أمعنت فى التفكير ، وكلما قرب الوقت لملاقاة الأمير ، وفكرت أكثر من مرة أن أخطر والدى ، وأتخذ مشورته ولكننى — تذكرت وعدى ألا أبوح بالسر لأحد فلذت بالصمت .

مالت الشمس نحو الغروب ، وأكملت إستعدادى للذهاب إلى الموعد المحدد . وإتجهت نحو قصر النبي الأول ، إلى الغرب من معبد رب الأرباب . وهناك قابلنى واج عند المدخل واتجهنا إلى البحيرة — المقدسة . كان الظلام قد حل تماما حينما وصلنا إلى ضفاف البحيرة ، ووقفنا ننتظر فى المكان المعهود ليصل إلينا سمو الأمير ، إنتقينا شجرة ضخمة ، ومضينا نتحادث همسا فى ظلها ، كان الظلام دامسا ، وزاد ظل الشجرة من الظلمة ، فلم يكن من الممكن أن يلحظ وجودنا أى شخص إذا لم يكن يعلم مكاننا . ولم تكن المشاعل المتناثرة على ضفاف البحيرة ، لتخفف كثيرا من شدة الظلام الذى احتوانى وصديقى .

تناهت إلى سمعنا أصوات القصر بعيدة نائية . ووصل إلى آذاننا عواء ذئب يضفى وحشة على المكان ، ولاح شبح شخص يظهر كلما تعرض لضوء المشاعل ، ويختفى حينما تبلعه ظلال الأشجار الباسقة . وبالرغم من الظلام ، ومن أن الشبح كان ما يزال بعيدا نسبيا فلم يكن هنالك أدنى شك فى أنه الأمير . كانت مشيته الهادئة البسيطة ، وجسمه النحيل ، وطريقة حركته واضحة تكشف عن شخصيته .

تركنى واج ليستقبل الأمير . وآثرت التريث قليلا لأترك لهما فرصة الإنفراد لحظات عسى أن يريد الأمير شيئا من صديقى على بعد من مسمعى . ولكن قبل أن يتمكن واج من إظهار نفسه ، شاهدنا شخصا آخر يخرج من بين ظلال الأشجار ، وينقض على الأمير . ورفع الشبح يده إلى أعلى ، والتمع شىء فى الهواء ليهبط على ظهر الأمير .

وسمرتنا المفاجأة فى مكاننا ، وأيقنت أن الأمير قد قضى عليه . ولكن الخنجر لم يكمل هبوطه إذ ظهر شبح ثالث ليقبض على اليد المرفوعة قبل أن تصل إلى هدفها . ودار عراك بين الشبحين فى حين انتحى الأمير جانبا ، ولعله كان يتحين الفرصة ليساعد منقذه . ولست أدرى ما حدث تماما . ولا كيف إستطاع القاتل أن يفلت من قبضة المنقذ ، ولإنما رأيته بعد ذلك يجرى بكل قوته محاولا

الإختفاء بين الأشجار ، فى حين أسرع المنقذ وراءه يطارده .

حدث كل ذلك فى ثوان لم تدع لنا فرصة التدخل ، و تركتنى وصديقى مشدوهين لا نستطيع حراكا . لكن ما أن بدأت المطاردة حتى كنت إستعدت رباطة جأشى ، وأطلقت ساقى للريح وراء الشبحين . قلت إننى كنت ضخم الجثة ، وأن جسمى كان أكبر من سنى ، وساعدتنى ساقاى الطويلتان لاقطع المسافة بسرعة ، وسرعان ما لحقت بالمنقذ المجهول . وبدأت المسافة بينى وبين القاتل تقل شيئا فشيئا . وأعطانى أملى فى اللحاق به قوة أكبر فزدت من سرعتى . اتجه المطارد نحو غابة صغيرة آملا أن يختفى بين ظلال أشجارها ، لكن المسافة بينه وبينهما كانت كبيرة . ولم يكن عنده أمل حقيقى فى أن يصل إليها قبل أن ألحقه ، وكنت أريد أن أمنعه عن ذلك وأعطله حتى يلحق بنا ذلك الذى أنقذ الأمير ، ونتعاون سويا للقبض عليه إذ أننى مع ضخامة جسمى النسبية مازالت أصغر من أن أتولى القبض على شخص مسلح بخنجر بمفردى .

فجأة أحسست بشخص آخر يعدو إلى جوارى وكأنما يحاول مساعدتى فى اللحاق بالهارب . ووضع القادم قدمه أمامى فتعثرت فى عدوى ، وبشكل أو آخر وجدت نفسى وقد إنكفأت على وجهى ، ووقع الآخر على الأرض . حاولت النهوض سريعا ، لكن الآخر أمسك بى فى حركة ظاهرها محاولته هو الآخر للنهوض . وانتابنى غضب جائح . إن القادم لم يكن يريدنى أن ألحق بالهارب ، وكان يحاول أن يتظاهر بالمساعدة فى حين أنه كان يؤخرنى عامدا حتى يستطيع الآخر الإفلات . وحينما نهضنا أخيرا لم يكن هنالك أثر للهارب .

التفت إلى الرجل بجانبى والغضب يتملكنى . ولأول مرة تحققت من وجهه . كان آى وقد وقف مبتسما ومازالت أنفاسه تتردد سريعة . وتكلم الرجل .

— أنت للمرة الثانية ؟ يبدو أنك توجـــد دائما حيث لا مكان لك ، لقد منعتنى ياغلام أن ألحق بالهارب الذى حاول قتل أميرنا المحبوب .

ازداد غضبى . إن الرجل وصلت به الوقاحة أن يرمينى بما فعله عامدا ولم أستطع أن أنبس ببنت شفه ، فقد ألجمنى الغضب عن الكلام . فاكتفيت بأن ألقى عليه نظرة غاضبة ، وعدت أدراجى إلى حيث كان الأمير واقفا مع صديقى واج . ووصلنا ، آى وأنا ، إلى الإثنين . وتقدم الأمير نحو آى قائلا ؟

— لقد أنقذت حياتى ياصديقى ، وإنى مدين لك ماحييت ، وأرجو فى وقت ما أن أرد إليك بعض صنيعك .

هنا فقط أدركت الحيلة التى لجأ إليها الرجل الماكر . إنه كان يعلم أن الأمير قد أضحى ولى العهد ، وأنه سوف يكون فى وقت ما فرعون تامرى . وقد أقسم ألا يبوح بالسر إلى أحد سوى الملكة تى ، ولم يرد فى الوقت نفسه أن يضيع على نفسه الفرصة الذهبية ، فافتعل حادث محاولة القتل ليظهر للأمير أنه المنقذ ، ويطوقه بجميل لاينساه . ومن البدهى أنه لم يكن يريد أن يقبض على الهارب حتى لاتفتضح مؤامرته ، وكاد ظهورى المفاجىء أن يفسد عليه مآربه ، ولهذا حال بينى وبين اللحاق بالهارب ، ثم راح يتهمنى باعاقته .

إنفثأ غضبى ، وبالرغم منى إزداد تقديرى لعقلية الرجل الداهية . وإن كان هذا التقدير لم يخل من تضرر للحيلة التى إستعملها معى . وأحنى آى رأسه مطأطئا لكلمات الأمير . وانتظرت أن يتهمنى بإعاقته عن اللحاق بالهارب لكنه لزم الصمت ، ونظر إلى ، وكأنما يذكرنى بكلماته التى قالها حينما عرف أننى أنا الذى كدت أفسد مؤامرته . وفهمت مقصده . إنه يحذرنى إن أنا إتهمته فسوف يوجه الإتهام إلى . ولن يصدق سوى ذلك الذى أنقذ حياته . وآثرت الصمت بدورى — وتكلم آى :

— إذا سمح لى سمو الأمير برجاء .

هز الأمير رأسه بالإيجاب .

— أرجو من مولاى أن يأمر بألا يذاع شىء عن هذه المؤامرة الدنيئة حتى لايعلم أحد أن للأمير أعداء . وحتى لاتشجع هذه المحاولة أحدا آخر على الإقدام على غيرها ، وأود يامولاى، أن أعتذر عن هرب المجرم .

تزايد إعجابى . أن الرجل لايريد يصل خبر محاولة القتل هذه إلى أذنى الملكة التى تعرف السر ، حتى لايتطرق إلى ذهنها شك فيه . إن الداهية يفكر فى كل شىء . وأطرق الأمير برهة ثم رفع رأسه ووجه كلامه إلينا .

— حسنا . لك منى هذا يا آى . وأرجو من صديقاى الصغيرين أن يعدانى بألا يخرج السر عنا نحن الأربعة . أما عن الهارب فلعل هروبه كان خيرا . إننى أكره سفك الدماء ، حتى للعقاب .

لم يكن أمامى إزاء طلب الأمير إلا أن أجيب، أما واج فما كان أسرع منه فى تلبية الرجاء . يالخبث الرجل ! لقد استغل الموقف الجديد لصالحه فلم يكفه أنه بد المنقذ ، وإنما ظهر أيضا بمظهر البطل الذى ينكر ذاته حرصا على حياة الأمير . وتكلم نفر خبرو رع .

كنت أود أن أحادثك قليلا يا كاى . لكن يبدو أن الوقت غير مناسب ، وربما إستطاع صديقى واج أن أن يخاطبك فيما وددت أن أقوله .

وبهذه الكلمات صرفنا من حضرته ، واتجه بكليته إن آى ، وأخذه من من تحت إبطه وسار به فى طرقات الحديقة عائدا إلى القصر الفرعونى .

إتجهنا ، واج وأنا ، فى الطريق المكسى على شاطىء البحيرة — وصمت واج ، وودت أن أترك له الفرصة كاملة للتفكير ليقول ماشاء بطريقتـــه الخاصة ، وفى الوقت الذى يناسبه ، فلم أسأله عما كان يريده . وساد الصمت بيننا فترة طويلة . وأخيرا إستقر رأى واج .

— كاى أريد منك قبل أن أتكلم أن تعدنى بأن تبوح بما سوف أقوله إلى أى مخلوق .

وبدت الابتسامة على شفتى إذ بدا لى أننى أصبحت فجأة مستودعا للأسرار . ولم يكن هنالك من بأس إذ أننى كنت بحسب إعدادى لمهنتى مستعدا لتلقى جميع أنواع الأسرار . لكن هذه الوعود المتكررة فى أيام قلائل أثارت اهتمامى . وانتظر واج صابرا أن أعطيه وعدى . ولم أكن بطبعى كثير الكلام، وكان يعلم عنى ذلك فاكتفى منى بالصمت .

— أنت تعلم ياكاى أن سمو الأمير يتبع دينا جديدا . وعن هـــذا الدين أريد محادثتك .

ثار عجبى ، ألهذا يدعونى الأمير ؟ ولهذا يريد منى واج أن أعده بالصمت والكتمان ؟ أن تهنى ( طيبه ) بأثرها تعلم عما يدعو إليــــه ، بل إننى أشك ان تامرى كلها قد وصلتها الأنباء . ويبدو أن واج كان ينتظر منى تعليقا على ماقاله ، لكن رأسى كان مزدحما بالأفكار . ان واج يعلم بالمناقشة التى دارت رحاها

بين كهنة آمون بخصوص هذا الدين الذى يعتنقه الأمير ، ويعلم أن بعضهم قد إقترح قتله ، والانتهاء من دينه . وعارض آخرون حتى إنتهى الأمر إلى أنه لاخطر منه ، وعلى أى حال فإن مايدعو إليه الأمير لم يكن دينا جديدا حقيقة ، وإنما هو دين قديم صب فى قالب جديد . إن معابد آتون كانت متناثرة فى البلاد شأنه شأن أى إله آخر . وماذا كان يحدث على أى حال لو زادت الأرباب أربا جديدا ؟ إن آمون هو رب الأرباب الذى لا يمكن لأحد أن يتحدى سلطانه .

وطال صمتى ، ولم يستطع واج الثرثار بطبيعته ان يجارينى فى الصمت فمضى يتحدث .

— إنى أعلم أن هناك أفكارا خاطئة تشاع عما يهدف إليه الأمير ، وأعلم أن الأمر قد تناوله الناس والكهنة ، ولكنهم جميعا مخطئون . ليس مايدعو إليه الأمير هو الذى يفكر فيه الناس ، وإنما يهدف إلى أن يكون آتون هو الرب الأعلى الذى لا يدانيه أحد .

تركت واج يتكلم . ولم أكن فى الواقع أنصت إليه ، وإنما تركت لأفكارى العنان . على قدر مايندفع واج فى عواطفه ، وعلى قدر مايحب الكلام ، فقد كان جليا أنه تنقصه الخبرة ، والمقدرة فى عرض أفكاره والاقناع بها . كان الفارق واضحا بين مايقوله الآن وما قاله لى الأمير أثناء لقائنا عن طريق الكباش المقدسة ، ولم يكن كل ماقاله واج حتى الآن سرا ، فكل من يعبد ربا يريد أن يكون هو الرب الأعلى ، ولم يمنع ذلك من أن يظل آمون هو رب الأرباب رغم أنف عابدى الأرباب الأخر وتحمس واج ، فراح يقول فى صوت متهدج من الانفعال .

— لا يجوز أن يكون هناك إله سوى آتون ، إن الآلهة الإخرى جميعا باطلة ، أما آتون فهو الإله الحق ، لا يجوز أن يكون هناك معابد أخرى فى البلاد ، وليس فى جميع تامرى فحسب وإنما فى كل البلاد الأخرى ، ولدى جميع القبائل . هو الإله الحق ولا إله غيره .

واستنفد الانفعال حيوية واج ، فمضى يلهث كمن يجرى شوطا بعيدا . ووقفت مبهوتا لشدة تلك الأحاسيس التى ترك زمامها يفلت فتملكته تماما ، وطغت

على التعاليم الكنسية التى حاول ذووه أن يسقوه إياها . لقد تغلبت روح الفنان على روح الكاهن . ولم تكن دهشتى لمجرد إنفعال صديقى فحسب، وإنما لما بدا لى من ضخامة المشكلة. كانت المشكلة أكبر حتى مما يتصور واج. لم تكن مجرد أن أحد أمراء البيت المالك يذهب فى رأيه إلى عبادة إله دون آخر. ولا أنه يدعو إلى هذه العبادة فئة من الناس ، ولا حتى أنه من ضمن هذه الفئة جماعة من خدم الإله آمون الذين سوف يكون منهم فى وقت ما كهنة ، وإنما أضحت المشكلة أن هذا الأمير الذى يدعو إلى الدين الجديد أصبح ولى العهد ، وسوف يكون فى وقت ما فرعون مصر ، بما له من سلطة وقوة ورهبة .

ورنت فى أذنى كلمات آى التى سمعتها فى الحديقة أثناء حديثه إلى حورمحب . هل تظن أن كهنة آمون سوف يسكتون على هذا الشاب ؟ ماذا يحدث فى البلاد إذا إنقسمت على بعضها ، منها من يتمسك بدين السلف ، ومنها من يتبع ماينادى به خوبرو رع .

# الفصل الرابع

# نيت أفرت

---

اليوم هو آخر أيام الأعياد . كانت مراسم عودة رب الأرباب من قصره بين عرائسه إلى معبده قد تمت بين تهليل الجماهير وهتافاتها . وكنت أحد خدم الآله الذين اشتركوا فى المراسم . وكان المفروض أن يكون واج أحدهم أيضاً ، لـكنه تعلل بالمرض ، ولزم داره . وحضر الحفل فرعون مصر العظيم ، كما حضره جمع امراء البيت المالك . وكان آى بين الذين حضروا ، لـكنه حينما انصرف كان فى معية الأمير نفر خبرو رع . وأثناء عودتى من المعبد التقيت بصديقى الجديد حور محب ، يسير برفقة الضابط الطويل الذى قدمنى إليه فى القصر تحت إسم من يحى رع . وتلقانى حور محب باحدى إبتساماته الصريحة الجذابة .

ـــ ها أنت ياصديقى الصغير ! إنى كنت أبحث عنك إذ أننى سوف أعود فى الغد إلى نيوت (منف) ، وكان يجب فى الواقع أن أسافر قبل هذا ، لـكننى إنتظرت حتى تتم رسالتى ، ويعلم الفرعون بالنبأ المحزن .

ومر أمامنا أثناء كلامه موكب الأمير نفر خبرو ، وقد سار إلى جواره آى يتهامسان فى مودة ظاهرة . وانحنينا تحية للأمير ، وهز الأمير رأسه ، وهو ينظر إلينا نظرة عابرة ملقيا التحية ، ثم همس شيئاً فى أذنى آى الذى رد عليه بكلام لم نسمعه ، لـكن الأمير عاد ينظر إلى الضابطين بتمعن أكثر ثم سار على مهل يتبعه ركبه .

وتـكلم حور محب .

ـــ إننى أعجب كيف أمكن لآى أن يصادق الأمير بمثل هذه السرعة ، مع أننى أعلم أنه ممن يدعون بعبادة آمون ، أو على الأقل ليس ممن يتبعون الدين الجديد .

وتكلم رع مس سو .

— ثق أن آى يستغل دائماً أية معلومات لصالحه ولست أدرى شخصيا ماهى الوسيلة التى أمكن بها أن يصبح على ما يبدو عليه من وفاق مع الأمير ، لكنه لا شك قد إبتدع حيله مقنعة .

والتفت حور محب إلى وهو يقول :

— لعل صديقنا الصغير هنا يعلم شيئا لا نعلمه .

واجهت عيناى الثابتتان عينى الضابط الحادتين . لكن لسانى لم يتعلثم وأنا أنتقى كلماتى .

— إن تعجبى لصداقة الأمير لآى لا يقل عن تعجبكما .

ولم يبد على حور محب أنه اقتنع بالاجابة ، وهم بأن يتابع أسئلته ، لكنه راجع رأيه فجأة وقال :

— على أى حال إننى اكرر يا صديقى الصغير دعوتى لك فى، نيوت ،منف وترحيبى بقدومك .

أحنيت رأسى شاكراً ومودعا ، ثم انسحبت بسرعة متمتما ببضع كلمات مناسبة ، واستدرت مبتعداً عن العينين النفاذتين . كنت قد وعدت ألا أبوح بكلمة عما حدث من محاولة قتل الامير ، وما كنت لأخون الوعد . لكن كان من الجلى أيضا أن الضابط الذكى قد لمح فى وجهى شيئا علم منه ما أخفى ، وإن لم يشأ أن يثقل على .

ومضيت اخترق طرقات تهنى ( طيبة ) الغاصة بالمحتفلين على شتى أجناسهم ، وطبقاتهم ، متجها إلى قصر صديقى واج . لم أكن فى حالة تسمح لى بالإشتراك مع المحتفلين فى سرورهم ، فقد كانت أفكارى تدور مع آى ومؤامراته التى لا تنتهى . كان من اليسير على أن أضع الرجل فى مكانه الصحيح ، فهو يبدو ماكرا خبيثاً يسعى لمصلحته الشخصية ، ولكنه من ناحيه أخرى كان متزنا فى أقواله ثاقبا فى تفكيره ،وهو وان كان قد إستغل الموقف لصالحه ، إلا أنه ، والحق يقال ، قد حافظ على عهده،ولم يتفوه بأية كلمة سوى للملكة تى . وغدا يكون عليه أن يبلغ النبأ الحزين إلى الفرعون . لم يكن هنالك أدنى شك فى أنه

كان يفكر أيضا فى مصلحة تامرى ، ويعمل لها ، ولم يكن هناك عيب فى كل هذا ، إذا لم تتعارض المصلحتان . أما إذا تعارضتا فترى أى المصلحتين يغلب ؟ لم تكن لدى إجابة قاطعة على هذا السؤال . ولست أعتقد أن أحدا كان يستطيع الإجابة ، فالأيام وحدها وما تحمله من حوادث ، هى التى سوف تكشف عن خبايا نفس الرجل .

احتوتنى الأفكار حتى أنى لم أشعر إلا حينما وجدت نفسى أمام باب القصر الخارجى ، ولم يعترض الحارسان طريقى إذ كانا يعرفانى جيدا ، وطالما رأيانى أدخل القصر مع ابن سيدهما . وسرت فى طرقات الحديقة المنسقة وأنا ما أزال شارد اللب . ولم أنتبه إلا على حصوة صغيرة أصابتنى فى كتفى . والتفت مغاضبا لأرى نيت افرت الاخت الصغيرة لواج ، وهى تجرى بين الأشجار مختبئة تضحك ، وقد طار شعرها الطويل الأسود فى الهواء .

كانت نيت إفرت تصغرنى بسبعة أعوام أو ثمانية ، نحيلة ، ضئيلة الجسم ، ولم يكن فيها سمة من جمال إلا فى شعرها الأسود الفاحم الناعم ، وأنفها المستدق ، أما فيما عدا هذا فإن وجنتيها كانتا بارزتين ، وفمها ملىء إلى حد يتنافى مع وجهها النحيل ، وجبهتها واسعة عريضة ، أما عيناها وإن كانتا واسعتين إلا أن بروز وجنتيها قد أعطاهما غورا فى الحدقتين ، كما أن لونها كان أسمرا إلى درجة شديدة .

لم أعر الصبية إلتفاتا . وسرت فى طريقى إلى القصر الأوسط حيث يوجد رب القصر وصديقى واج . واستقبلنى أحد العبيد عند الدرج ، وقادنى إلى حجرة الضيوف حيث جلست على أريكة مستطيلة يكسوها قماش ملون لاشك فى أنه كان من واردات ( سوريا ) رتنو . وراحت عيناى تتطلعان فى إعجاب إلى الأعمدة المستقيمة التى تحمل الأسقف ، وإلى الطنافس البديعة التى تزين الجدران . ولم يمض وقت طويل حتى حضر واج شخصيا . ولم أدهش وأنا أراه صحيحا معافى بالرغم من اعتذاره بمرضه لكيلا يحضر فى مراسم عودة رب الأرباب ، واستقبلنى كعادته مهللا مرحبا ، وما أن استقر إلى جانبى حتى صفق

بيديه ، فظهرت إحدى الإماء حاملة آنية بها بعض الرمان المنقوع فى ماء محلى بالعسل صبته لنا فى كأسين من الفضة . وجلسنا نتسامر عن أحداث العيد . وأخيرا إلتفت إليه قائلا :

— واج متى تعتزم السفر إلى نيوت .

أطرق صديقى قليلا ثم رفع رأسه .

— كاى إننى لن أسافر معك، بل لن أسافر إلى نيوت، منف، مطلقا ، أو على الاقل لن أسافر فى سبيل تعلم الفروسية . إننى است كاهنا ، ولست برجل حرب ، إننى فنان ، أهوى الرسم ، والنحت ولا أعتقد أن لى أية رغبة فى ممارسة الفروسية ، أو الكهانة .

ادركت مقصده ، إنه لا يريد أن يبعد عن نبيه المحبوب ، ولا يريد أن يترك دينه الجديد .

— وما أى والدك فى هذا ؟

— إنه يعارض بالطبع ، لكننى التمست من سمو الأمير خبرو . أن يحادثه فى ذلك ، وقد فعل ووافق والدى على مضض .

غمرتنى موجة من الحزن . أجل قد بدأت تنبؤات آى تتحقق ، وهذا هو أول انقسام ، لم نكن نكاد نفترق ، صديقى وأنا ، وسيكون هذا أول فراق سوف يدوم أعواما لا أراه فيها إلا بين الفنية ، والفنية ، حينما أحضر من نيوت فى زيارة قصيرة لأرى عائلتى . وشعر واج بما داخلى من حزن ، ولعله هو نفسه كان به أسى لهذا الفراق القريب ، فوضع يده حول كتفى ينبهنى إلى أنه يشارك أساى .

جرى بيننا الحديث فى مسار آخر ، لكننا تفادينا الكلام عن الرحيل ، أو الفراق حتى أزف الوقت الذى كان لابد فيه أعود إلى قصر والدى . وسار معى واج فى ممرات الحديقة الواسعة متجهين إلى الباب الخارجى . وللمرة الثانية فى اليوم نفسه رأيت نيت إفريت بين الأشجار تحدجنى بعينيها الواسعتين . وما أن رأت أننى قـــد لاحظتها حتى استدارت وراحت تجرى مبتعدة .

وجدت نفسى أسير ثانية فى طرقات تهنى المكتظة . ولم يكن حالى فى

العودة بأحسن من حالى فى الجيئة . إذ زاد من كربى معرفتى بقرب فراق صديقى الوحيد . مررت بالناس وهم يهللون بالحانات المليئة بالسكارى ، والراقصات دون أن أعير أحدا التفاتا .

ما أن وصلت إلى قصر والدى حتى إنجهت مباشرة إلى حجرتى فى الطابق العلوى . لكن لم يكن قد قدر لى أن أنعم براحة الوحدة فى هذا اليوم ، إذ ماكدت أصعد الدرج حتى قابلتنى إحدى الخادمات ، وذكرت لى أن والدى يريد أن أمثل أمامه فى القاعة الصغرى .

أسرعت هابطا الدرج ، وإتجهت إلى القاعة لأرى العائلة جميعا ملتفة حول والدى فى جلسة عائلية . كان والدى يجلس فى وسط القاعة على مقعده المعتاد ، وإلى يمينه جلس أخى الأصغر ، مرى ، بينما جلست والدتى إلى اليسار ، تجاورها أختى تم ، ثم الصغيرة سنن . وإرتسمت على وجه والدى نظرة جادة فى حين إكتسى وجه والدتى بالحنان . ووقفت مطاطىء الرأس أنتظر أوامر والدى .

— بنى إنك تدخل مرحلة الرجولة ، وسوف تغادرنا فترة طويلة ، وقد رأيت أن أخطب لك إحدى بنات الأسر العريقة حتى تذكرها دائما فى غيبتك . وحتى ترتبط معها برباط قدسى يدفع عنك الشرور .

ولم أر من تليق بمكانة عائلتك ، وتناسبك سوى نيت إفرت إبنة صديقى رع ور الخر حب الأول . وخالها كما تعلم هو النبى الأول .

لكننى أحدثك وكأنك لا تعلم ، مع أن أصدق خلصائك هو واج ، أخوها . لقد خاطبت صديقى فى الأمر . ورحب بك أيما ترحيب . أعد نفسك غدا فسوف يستقبلنا الخر حب الأول فى قصره صباحا بعد أداء فريضة العبادة لرب الارباب .

لم يكن لى أن أرفع رأسى أثناء كلمات والدى . فلما إنتهى ، تقدمت إلى مقعده وركعت ألثم يده ، ثم إتجهت إلى والدتى لأقبل يديها بدورها ، لكنها رفعتنى من الأرض برفق ، واحتضنتنى تقبل وجنتى وتراجعت بظهرى حتى بعدت من مجلس والدى ، وإتجهت إلى الدرج ، صاعدا إلى غرفتى . وسمعت وقع خطوات كثيرة تهرع ورائى ، ولم أكد أفتح باب غرفة حتى لحقنى اخوتى يهنئوننى ، ويتغامزون على ، لكنى رجوتهم أن يتركونى بمفردى متعللا بوعكة يسيرة ،

وانسحب الجميع وبقيت مع أفكاري . تخيلت أن تلك الصبية ، نيت افرت ، التي ألقتني بالحصى اليوم تلك هي التي سوف أرتبط بها برباط قدسي ، والتي سوف تصبح رفيقتي طوال حياتي ، وأما لأولادي . لم تكن هي التي أختارها لنفسي . ولو ترك لي الخيار لانتقيت فتاة في مثل جمال نفر زوجة ولي العهد ، فهي التي كان قلبي الصغير يهوى محياها . لكن لم يكن لي أن أعترض بعد أن تكلم والدي . لقد اختار أبي نيت أفرت رع ور ، ولن أتزوج سواها .

***

إنتهت مراسم الخطبة بين الرجلين ومرت على كأنما كنت في حلم . ولم أشعر إلا حينما تكلم الخرحب الأول .

— تعالي يا نيت إفرت وقدمي الشراب إلى كاي رع سنب .

ظهرت الفتاة من باب جانبي ، وتقدمت حاملة كوب شراب الرمان المحلى بالعسل ، ومدت يدها به ، وهي تنظر إلي من تحت أهداب طوال في فرح يشوبه حياء . وتكلم والدها :

— إجلسي عند قدميه ، وإنتظري حتى يفرغ من الشراب لتتناولي الكأس . لقد خطبك والده ، وقد رضيت ، ومنـــذ الآن هو سيدك ، وعليك طاعته وإرضائه .

أتممت شرابي ، ووضعت يدي على رأس الفتاة القابعة في صبر ، فنهضت وتناولت الكأس من يدي ثانية ثم إنسحبت متراجعة ، وقمت بدوري ، وركعت عند قدمي والدي ، وقبلت يده ، ثم ركعت ثانية عند قدمي الخرحب الأول ، وقبلت يده ، فقد أصبح لي والدا ثانيا .

استأذنا ، واج وأنا ، من الرجلين الكبيرين ، وإنسحبنا خارج القاعة ، وسرنا جنبا إلى جنب في ردهات الحديقة الواسعة . وتكلم واج :

— دعني أهنئك من كل قلبي . قد لا تكون نيت على حظ كبير من الجمال . لكنها فتاة طيبة ، أما من ناحيتي فلا أحسب أنك في حاجة لأن أعبر لك عن مدى إغتباطي بهذه الزيجة .

لم أرد على صديقي ، واكتفيت بأن أحنيت رأسي شاكرا . كانت أذناي وتنصتان إلى دق الطبول الجزينة في القصر الفرعوني . وسمعها واج أيضا وتساءل .

— ما هذه الطبول الحزينة ؟ هل مات الفرعون ؟ .

لم أجب فقد عرفت أن آى أوفى بوعده ، وأخبر الفرعون بوفاة ولى العهد فى نيوت ، وهذه هى الطبول الحزينة تعلن النبأ . شاهدت الخرحب الأول ووالدى يخرجان إلى الشرفة وينصتان برهة . ثم أشار الخرحب الأول بيده بنزول الخدم يحملون محفتين .

سرنا ، صديقى وأنا ، وراء المحفتين . كانت الشوارع والطرقات قد إمتلأت فعلا بالناس ، ومحفات العظماء والأمراء والنبلاء ، والجميع متجه إلى البيت الأبيض ، قصر فرعون تامرى ، يستطلعون أنباء الطبول الحزينة . وراح صديقى يثرثر عن إحتمال وفاة الفرعون ، أو أحد نبلاء القصر ، أو نبيلاته ، لكن الحقيقة لم تخطر له على بال ، فلم يكن من اليسير أن يتصور أحد أن تحتمس الصغير ، ولى العهد ، الذى لا زال فى مقتبل عمره ، والذى أغدق عليه والده النعم ، ورسمه كاهنا أعلى لمعبد يتاح فى منف هو الذى حل عليه الموت .

وصل الركب إلى البيت الأبيض ، ونزل الرجلان الكبيران من محفتيهما ، وهرولا صاعدين درجات القصر فى حين بقيت مع رفيق فى الشرفة الخارجية نختلط بالأمراء ، والنبلاء ، وعلية القوم الذين تكدسوا فيها . ورددت الألسن نبأ وفاة ولى العهد ، وأن الفرعون قد إزدادت صحته إنهيارا ، ولم يستطع تحمل الكارثة ، وأن الجثمان سوف يصل اليوم أو غدا على مركب خاص ، وأن الحداد سوف يعلن فى جميع أنحاء البلاد سبعون يوما كاملة حتى يتم تحنيط الجثة وتشييعها إلى مستقرها الأخير .

مضت فترة قبل أن تستقر الحقائق فى عقل صديقى . ورأيت الوجوم يسود وجهه ، ثم إنفرجت أساريره وعاد إلى ثرثرته المعتادة .

— أتعلم يا كاى ما معنى هذا ؟ إن معناه أن الأمير نفر خبرو سوف يكون هو ولى العهد . معناه أن آتون هو الذى سيسود ويصبح رب الأرباب ، لا بل الرب الوحيد . وحينما يصير الأمير فرعون تامرى سوف تتبدل الأحوال ، ولن يكون هناك رع ، أو آمون ، أو تحوت ، أو نفتيس ، أو غيرهم ، فكر يارجل .

ولم يدر واج أنى ظللت أمرياماليالى بطولها أفكر فى هذا الموضوع . بل

وفيما قد يحدث لو أن الأمير ركب رأسه وأراد أن يلغى سائر الأرباب . ان يقف الكهنة مكتوفى الأيدى . ولن يقف المخلصون للأرباب موقف المتفرج . ماذا سوف يكون مصير البلاد ؟ وماذا سوف يكون موقف أعدائها المتربصين لها فى الخارج وهم يرون أن المشاحنات الدينية الداخلية تمزقها . إنها فرصة كبيرة لأمير ميتانى ، وخيتا وسائر ، أمراء رتنو ( سوريا ) ، وقبائل الطوميام ( ليبيا ) ، والعامو ( الأسيويون ) ، وشاسو ( الرعاة ) .

لاحظ واج أنى واجم شارد الذهن ، فلم يحاول أن يستمر فى ثرثرته . ووقف يتحدث مع بعض السادة المنتظرين . وإنتهزت الفرصة وإنسحبت بهدوء ، وهبطت إلى حدائق القصر متجها إلى البحيرة المقدسة مبتعدا عن الجموع ، وسرت مطأطئاً الرأس بين الأشجار الكثيفة وقد تضاربت فى رأسى شتى المشاعر والأفكار . وفجأة أحسست بيد قوية تقبض على ذراعى ، وسمعت صوت حور محب المرح البسيط .

— ما كل هذا الإستغراق ياصديقى الصغير ؟ .

التفت إليه مرحبا . وقلت إننى أفكر فى الأحداث وما قد يأتى به المستقبل من قتل وخلافات .

— إنك صغير جداً على هذا التفكير . دع المستقبل للأرباب تدبره كيفما شاءت أو على الأصح دعه للساسة ، والكهنة الكبار ، أما أنت فانه خليق بك أن تفكر فى نفسك ، ومستقبلك .

— وهل ينفصل مستقبلى عن مستقبل تامرى ؟

— دعنا من هذا الآن ، إن ما يهم هو أن آى قد وفى بوعده وأخبر الفرعون ، وهذا يجعلنى فى حل من البقاء فى تبى ( طيبة ) وسوف أعود إلى نيوت فى الصباح المبكر . قل لى أنت ، متى سوف نراك هناك ؟

وهززت كتفى .

— لست أدرى . كان المفروض أن يكون سفرى خلال أسبوع على الأكثر ، أما الآن فاعتقد أنه ان يكون قبل أن تنتهى مراسم دفن ولى العهد الراحل ، ولا أحسب أن يتم هذا قبل مضى سبعين يوما .

— مالك أنت وكل هذا ؟ يعلم الرب أنه يوجد من خدم الآله ما يكفى

ويزيد ، ولن ينقص عددهم ، إن تغيبت . تعالى يا صديقى . ودعنى أكرر للمرة الثالثة دعوتى .

نظرت إليه مبتسما . كنت أزداد حبا فى كل مرة ألتقى فيها بهذا الجندى البسيط الصريح . كانت كل تصرفاته بسيطة قوية توحى إليك بأنها صادرة من القلب بلا تحفظ . أو خوف ، أو رجاء . كان مثلا كاملا للرجل المخلص ، والجندى الشجاع ، يحب بلده ، يطيع فرعونه ، ويؤدى واجبه . ولم أكن أدرى وأنا أتطلع إلى قامته المديدة ، ووجهه الجميل أننى أنظر إلى أحد أقوى فراعنة مصرى فى المستقبل . ولم يدم صمتى كثيرا .

— شكراً سأفعل .

ومد إلى يده القوية مصافحا .

— حسناً ، سوف أتركك الآن لأقدم خضوعى إلى الفرعون له الحياة والرفاهية والصحة ، ولست أظن أننى سألقاك فى تهى ( طيبه ) بعد ذلك ، وإن كنت أرجو أن أراك فى منف قريبا . فإلى اللقاء .

وتركنى متجها إلى القصر . ووقفت أراقبه قليلا ، وهو يبتعد عنى ثم إستدرت ، وإتخذت طريقى إلى قصر والدى .

لم أر والدى إلا فى صباح اليوم التالى ، وكان قد إتخذ مجلسه فى القاعة ، وأخذ يروى أحداث اليوم السابق لوالدتى ، واخوتى . روى كيف كان الفرعون منهارا تماما وقد أضاف إليه النبأ عشرة سنوات على عمره ، كما إزدادت صحته سوءا حتى أن الأطباء منعوا الإقتراب منه إلا لأخلص المقربين . وروى كيف أن الملكة تى قد إستقبلت النبأ بشجاعة نادرة ، وكيف كانت تحاول أن تسرى عن الفرعون . وما درى والدى أنها كانت تعلم بالنبأ المفجع قبل إعلانه بأيام. وروى كيف حزن ولى العهد الجديد على أخيه حزنا حقيقيا عميقا . كان والدى صادقا فى تصويره فأظهر ضعف الفرعون،وقوة شخصية الملكة تى ، وعاطفة ولى العهد الجديد ( اخناتون ) ورقة نفرتيتى ، وسياسة آى ، ونفاق رجال البلاط ونسائه .

لكن والدى قال شيئا أهم كثيرا من كل هذا . قال إنه سوف يذهب إلى

البيت الأبيض ، ثم قال أنه لن يعود إلى الغداء فى القصر إذ أن هنالك اجتماعا مع الكهنة وقد يتأخر . وتطلعت إليه متوقعا لكنه هز رأسه وقال .

— كلا يا كاى إنك لن تأتى معى ، إن هذا الإجتماع مغلق ولن يحضره إلا الأربعة الكبار وأرجو الا تخبر أحداً بانعقاده .

لم يكن عندى شك فى نوع هذا الإجتماع ، ولا فى السبب الذى إستلزمه ، والذى حدا به أن يقتصر على القمة ، وأن ينعقد فى سرية حتى على سائر خدم الاله . إنهم سوف يبحثون فيه مستقبل علاقة الكهنة بولى العهد الجديد . وراح عقلى يدور فى تصور الاجتماع ، وفى شخصية كل فرد من الأنبياء الأربعة تخيلت الحجرة الرطبة التى لا نوافذ بها ولا ضوء ينيرها الا أضواء المشاعل . كنت قد دخلت هذه الحجرة فى أيام صباى ، وأعلم أنه لا يستعملها إلا الأنبياء الأربعة . عارية من الأثاث إلا مائدة حجرية طويلة تتوسطها ، يحوطها عدد من المقاعد . وفى نهاية الغرفة يوجد قداس لآمون العظيم . كانت حجرة مهيبة تلقى الرهبة فى القلوب .

مكثت أنتظر عودة والدى وأنا أتشوق بلهفة لمعرفة ما تم فى الإجتماع . ومضت أكثر من قبل أن أرى المحفة قادمة ، نزل منها والدى وهو متجهم الوجه ، صارم القسمات . وتطلعت إليه متوقعا أن يخاطبنى ، لكنه تجاهلنى تماما وبدا عليه أنه لم يرنى . واتجه إلى حجرة مكتبه وأغلق على نفسه الباب . وجمعت أطراف شجاعتى وطرقت الباب . ومضت فترة قبل أن أسمع صوت والدى الواضح يأمر بالدخول .

نظر إلى والدى وكأنه لم يكن قد رآنى عند دخوله إلى القصر .

— آه اهذا أنت يا كاى ماذا تريد يابنى ؟

وتلعثم لسانى وأنا أحاول أن أوضح العلة التى تعللت بها للدخول .

— لقد جئت استأذنك فى معرفة الموعد الذى حددته لسفرى إلى منف إن كان رأيكم قد استقر .

وهز والدى رأسه وكتفه وقال :

— لك أن تسافر فى الوقت الذى تختاره .

— شكراً يا سيدى ، لقد سمعت أن الفرعون وولى العهد سوف يسافران إلى منف قريبا بعد أن تنتهى مراسم الوفاة فهل يأذن لى سيدى أن أكون فى معيتهما ؟

كانت هذه فى الواقع محاولة منى لأن أستكشف ما استقر عليه رأى الأربعة العظام فيما يتعلق بولى العهد ، لكنها كانت محاولة صبيانية كان من اليسير على والدى أن يفهمها .

رأيته وقد تبسم وجهه الصارم ولاحت عليه دلائل الحنو الأبوى .

— قلت لك افعل ما تشاء يا كاى . وحينما يستقر رأيك أود أن تأخذ معك إثنين من العبيد ، ولك أن تختار من تريد .

تقدمت منه وقبلت يده ، فى حين وضع يده الأخرى على رأسى فى حنان . وتراجعت منسحبا من أمامه حتى بلغت الباب وأغلقته. وهكذا فشلت فى معرفة ما كنت أبغى . لكن فشلى فى حد ذاته كان دليلا على أهمية ما جرى فى هذا الاجتماع السرى ، فقد كان من عادة والدى أن يخبرنى دائما بما كان يجرى فى مثل هذه الإجتماعات . وحتى فى المرات النادرة التى لم يكن يرغب فيها أن يبوح كان يقول صراحة أن الوقت لم يحن لى بعد لمعرفة مثل هذه الأمور . أما فى هذه المرة فإنه قد تحاشى مجرد الكلام حتى لا تكون هنالك أية إشارة يمكن الاستنتاج منها عما حدث . وكان معنى هذا أن قرارا خطيرا قد أتخذ حيال موقف الكهنة من ولى العهد . وبقى السؤال هل هذا القرار سلبى أم إيجابى ؟ وإذا كان القرار إيجابيا . فالى أى مدى ستصل هذه الإيجابية ؟ هل إلى حد الإغتيال ؟

# الفصل الخامس

# الطريق إلى منف

مضت شهور وحلت شهور اخت(١) وكانت مراسم جناز ولى العهد قد تمت منذ أيام . وأخيرا حل يوم السفر فى اليوم الثالث من الشهر الثالث(٢) ووقف المركب الملكى على المرفأ المعبد. وامتلأ النيل بمراكب الوزراء، والكهنة، والحاشية والاتباع والحرس . وطافت من حولها قوارب الأهالى تعج بمن فيها ، وكل ما يتطلع إلى رؤية الفرعون وولى العهد . وبدا النيل وكأنما هو حلقة متصلة من الكتل الخشبية العائمة. مراكب من جميع الأنواع والأشكال، المركب الملكى فى بهائه وروعته، مراكب الحاشية تتباهى بألوانها المتعددة وصواريها الجميلة ومجاديفها الطويلة . مراكب حربية تقل بعض الحرس الملكى ، وبر ،(٣) مراكب مؤن وبضاعة ، وقوارب الصيادين والأهالى .

كنت قد ذهبت فى اليوم السابق لاستأذن فى السفر من رع ور والد زوجتى المستقبلة ، وهنالك جلست مدة طويلة مع صديقى واج . ولم أر نيت إفرت طوال الوقت الذى قضيته فى قصر والدها ، إلا حينما حان وقت انصرافى إذ تقدمت الصغيرة فى إستحياء ، وركعت أمامى مطأطئة الرأس . وتضاحك واج وهو يقول إن نيت إفرت قد تعلمت الأدب . ووضعت يدى على شعرها الفاحم فاعتدلت فى وقفتها ونظرت إلى بعينيها الواسعتين نظرة قرأت فيها معانى الحزن . وتلعثمت الفتاة وهى تتمنى لى سفرا سعيدا ، وعودا حميدا . ثم إستدارت فجأة وفرت هاربة قبل أن أشكرها .

أمضيت الليلة فى قصر والدى أعد ترتيبات الرحيل . وأحاط بى إخوتى

---

(١) الأربعة شهور من أول سبتمبر حتى أخر ديسمبر .

(٢) أى الثالث من نوفمبر .

(٣) بر اسم للمراكب المخصصة للبضائع .

يثرثرون ، فى حين كانت والدتى تعد صندوق احتياجاتى ، وملابسى ، يعاونها خندو العبد الذى خصصه والدى لخدمتى .

ويستحق خندو منى وقفة . كان عبدا أسود فى منتصف الحلقة الثالثة من عمره ، طويل القامة إلى درجة جعلته عملاقا بين الرجال . كان نصفه الأعلى عاريا تماما يكشف عن عضلات جبارة ، وصدر عريض وذراعين مفتولين . ونشأ خندو فى القصر ، بل وولد فيه ، وعامله والدى كأنه واحد من العائلة فكان يتفانى فى خدمتنا ، وحبنا . وكانت قسمات وجهه الأسمر جميلة ، ولا يعيبه سوى شعره الكث الخشن . يؤدى عمله فى إتقان ، وصمت ، ولا تسمع له كلمة إلا إذا وجهت إليه سؤالا يستدعى أن يجيب عليه .

حينما ولدت كان فى هو حوالى العاشرة من عمره ، ولما بدأت أدرج أضحى رفيق صباى وخادمى الذى يقضى حوائجى ، وأليفى فى اللعب . وكنا نحن الإثنين لا نكثر من الكلام مما زاد من التفاهم الصادق بيننا . ولهذا حينما سمح لى والدى بأن اختار رفيق سفر ، كان من البدهى أن أختاره . واعتذرت لوالدى عن أن أختار شخصا ثانيا مكتفيا به وحده . ووافقنى والدى على الخيرة ، ولم يحاول أن يقنعنى بأن أصطحب عددا آخر إذ كانت ثقته هو أيضا فى خنـــدو لا حد لها .

وفى صباح يوم الرحيل ، كان خندو قد أشرف على نقل صناديق الملابس ، والمؤن إلى المركب التى خصصت لى فيها حجرة . واحتضننى أخى مرى ، وتعلقت بى تم وسنن ، وانحنيت على يد والدتى أقبلها . لكنها جذبتنى إليها فى شعور فياض ، وضمتنى إلى صدرها ، ومضت تقبلنى ودموعها على خديها . وعلا صوت والدى من غرفة مكتبه ينادى بأن الوقت قد أذن ، فتخلصت برفق من والدتى ، وأسرعت إليه ألثم يده مودعا ، لكنه قال إنه سوف يصحبنى إلى المرفأ حيث أنه لابد من وجوده ليكون فى وداع الفرعون ، وولى العهد .

وسرت إلى جانب والدى فى الطرقات التى إزدحمت بالناس ، والمركبات ، متجهة إلى المرفأ لتكون فى وداع الفرعون ، ولتتطلع إلى الموكب الملكى المهيب . وبالرغم من أن الوقت كان يزال مبكرا إلا أنه حينما وصلنا كان الكثير من العظماء ، والأمراء والوزراء ، والسادة ، قد وصلوا فعلا ووقفوا منتظرين .

اتجهنا إلى حيث مكان الكهنة ، وحيا والدى الأنبياء الآخرين ، وشدوا على يدى، وانتحيت جانبا وتركتهم يتهامسون .

بعد فترة جاء صديق ، يصحبه خع باوو بن سى موت النبى الرابع ، وبالرغم من أن خع كان زميلا فى الدراسة ، كما أنه أيضا كان يقارب عمرنا إلا أننا ، واج وأنا، لم نكن مطلقا على وفاق معه ، فقد كنا نرى فيه أنانية ، وخبثا بعيدين عن طبيعتنا . وأخيرا ظهر الموكب الملكى ، وترجل الفرعون وبدأ يتجه نحو المرفأ فى خطوات متثاقلة بطيئة . وعلت هتافات الشعب بالدعاء له وولى عهده . وظهرت المعية الملكية وفيها النبى الأول . ووقف الفرعون ليتبادل معهم الحديث . وإنتقل من جماعة إلى أخرى يتبعه ولى عهده حتى وصل إلى حيث وقفنا . وركعنا فى خشوع ، لكنه أوقفنا بإشارة من يده ، ثم نظر إلى والدى ووجه إليه الحديث .

— سمعت أن نجلك سوف يكون فى معيتنا أيهم هو ؟

أحنى والدى رأسه وهو يقول :

— هو ذا يامولاى وسيكون له شرف أن يكون فى معية جلالتكم ، وأرجو أن تمنحوه من عطفكم ورعايتكم .

وتكلم الفرعون .

— فليكن فى معية الأمير ولى العهد .

والتفت إلى الأمير وقال :

— ألا تستطيع أن تخصص له مكانا معك فى المركب ؟

كنت واقفا على بعد يسير مع صاحباى، وكان رأسى منكسا فى الأرض خشية وهيبة ، لكننى مع هذا خيل إلى أن نظرات سريعة قد تبادلها والدى مع النبى الأول الذى كان يقف على يسار الفرعون .

وتكلم نفر خبرورع .

— بل تسرنى رفقته يامولاى .

أشار الفرعون بيده فى سأم ، ثم تركنا تتبعه الحاشية متجها إلى المركب وتتابعت بعد ذلك سائر المواكب . الملكة تى ، والأميرة نفرتيتى ، وحاشيتهما والأمراء، والنبلاء الذين سوف يصحبون الفرعون فى رحلتهما إلى منف والوزراء

وحكام الأقاليم . وآن لى أن أترك والدى لاتجه إلى مركب ولى العهد ، فانحنيت ألثم يده . وربت على كتفى فى حنان .

— رافقتك السلامة يابنى ، خذ هذا معك ، ولك أن تأخذ تالنتا(١) كل شهر من وكيلنا فى نيوت .

وناولنى والدى صرة مليئة فأخذتها شاكرا ، وتقهقرت إلى الوراء قليلا ثم استدرت متجها إلى المركب لكننى اصطدمت فى استدارتى بشخص طويل وسمعت صوتا أعرفه جيدا . كان صوت آى .

— إذا فقد اختارك ولى العهد لتكون رفيق سفره . ترى ماذا سيحدث فى الرحلة إلى منف ؟!

وقفت أنظر إليه دون أن أتكلم . كان وجهه الشاحب باسما، لكن الابتسام لم يخف النظرة الشاحبة التى حدقنى بها . واستمر الصمت بيننا برهة ، وأخيرا حينما يئس من أن أرد عليه عاود الكلام .

— مما يؤسف له أننى لن أرافقكم . رافقتك السلامة ياصديقى الصغير ولا تنس أن تحمل تحياتى إلى حور محب ومن بحثى رع .

اكتفيت بأن أحنيت رأسى محييا ، فى حين تنحى عن طريقى ، واختفى بين سائر القوم . وودعنى واج وداعا حارا ، وتمنى لى خع باوو رحلة طيبة ، قائلا أنه قد يلحق بى عن قريب . تخلصت من صاحبى ، وهرعت إلى سفينة ولى العهد ، وقد دارت فى رأسى عدة أسئلة . مامعنى النظرة السريعة التى تبادلها والدى مع النبى الأول ؟ هل لاحظهما آى ؟ وماذا يعنى بتساؤله عما فى الرحلة ؟

تخطيت السقالة من المرفأ إلى المركب ، وهنالك تلقانى رئيس البحارة ، وقادنى ليرشدنى إلى الحجرة التى تفضل سمو ولى العهد فأمر بإفرادها لى . كانت المركب ضخمة جميلة مصنوعة من خشب الأرز المستورد من بلاد الآسيويين ذات ثلاثين مجدافا وثلاثة أشرعة .

تلفت حولى لأرى القمرة العالية المخصصة لجلوس سمو ولى العهد وزوجته ،

(١) التالنت عملة ذهبية أو فضية قديمة والفضية تساوى ٢٤٠ جنيه والذهبية ضعفها وكانت العملات من النحاس أو من الفضـــة والذهب المخلوطين وتسمى « جمم » .

إذا شاء التطلع إلى المناظر الجميلة التى تمر بها المركب أثناء الرحلة ، أو إذا أراد أن يرى الشمس طلعتهما البهية . كانت تتوسط سطح السفينة ، وقد بنيت عالية بحيث لا يحجب الرؤيا عنها شىء ، وبحيث يتخللها الهواء من جميع الاتجاهات إن شاء سمو ولى العهد ذلك ، كما كانت تظللها مظله جلدية تمنع لفح الشمس . وفى وسط القمرة وضع مقعدان فى مكان ظاهر مصنوعان من خشب الأبنوس ، وموشيان بالرسومات الذهبية البديعة .

تابعت السير خلف رئيس البحارة . كان رجلا ضخم الجثة . أسمر اللون ظهر نصفه الأعلى عاريا ينبىء عن قوة بدنية هائلة . وسار الرجل فى خطوات ثابتة يخترق سطح السفينة دون أن يلتفت يمنة أو يسرة ثم دلف من باب صغير إضطره إلى أن يحنى رأسه . وسرت خلفه لأرى نفسى فى ممر طويل اصطفت على جانبيه أبواب القمرات .

لم أكن أتصور أن المركب يمكن أن تكون بمثل هذا الاتساع من الداخل ، ولا أن تحتوى على هذا العدد الضخم من الحجرات والممرات ، لكنها فى الواقع كانت قصرا طافيا حوى كل ما يمكن أن يحويه القصر من فخامة ، وعظمة ، وأسباب الراحة ، والرفاهية . كانت جدران الممرات الداخلية مزينة بعشرات الرسومات الجميلة ذات الألوان الزاهية ، كأن بعضها قد عاقت عليه الأبسطة المطرزة فى حين كانت الأسقف تمثل السماء وقد تناثرت فيها رسوم الطيور .

أخيرا توقف رئيس البحارة أمام أحد الأبواب الجانبية . وانحنى بأدب ثم فتحه ، وإنتحى جانبا . وتطلعت إلى وجهه لأول مرة . وبالرغم من أن الضوء كان باهتا فى الممر إلا أنه لم يستطع أن يخفى القسمات القاسية ، والوجه المليء والشفتين المكتنزتين ، والعينين الواسعتين . وشعرت بخوف داخلى من الرجل وبإحساس بالخطر لم أدر كنهه أو مصدره . لم يكن فى حركاته أو أفعاله ما يبرر مثل هذا الشعور ، بل إنه كان يتصرف بأدب جم ، وبطريقة من إعتاد معاملة الأمراء ، والنبلاء ، ومع هذا فإننى وجدت نفسى أتردد لحظة قبل أن أدخل إلى القمرة . وأغلق الباب خلفى بلا صوت ، ولم أسمع حسا لخطـواته وهو يتراجع مبتعدا .

وقفت وسط القمرة الصغيرة لحظات ، ثم أخذت أتطلع إلى الحجرة التى

سوف تصبح مسكنى لعشرة أيام مقبلة وربما لأكثر ، تبعا لرأى الفرعون الذى قد يرى أن نرسو على بلده ، أو بلاد . كانت القمرة صغيرة ، لكنها تحوى جميع وسائل الراحة ، وقد ضمت إلى جانب صندوق الملابس ، والفراش منضدة صغيرة ومقعدين ، كما كانت بها كوة تدخل منها الشمس وقد علقت فوقها ستائر يمكن أن تحكم إغلاقها ، كما زينت جدرانها بأفخر أنواع الأبسطة المطرزة وحلى سقفها برسومات جميلة ، ملونة باللونين الأزرق والذهبى .

تناهت إلى أذنى أصوات الجماهير تهتف بحياة الفرعون وولى العهد ، فعلمت أن على أن أصعد إلى ظهر المركب لأكون فى شرف إستقبال ولى العهد . وتركت القمرة ، ثم عبرت الطرقة الطويلة ودلفت إلى السطح . ووقعت عيناى على رئيس البحارة الضخم الجثة ، وهو يقف عند نهاية السقالة الخشبية التى وضعت ليسير عليها الأمير . واتجهت صوبه ، فانحنى ، وتحرك جانبا حين رآنى ، وانضم إلى بعض الأفراد الذين سوف يكونون فى شرف المعية . ووقفنا جميعاً عند الحاجز الخشبى المنخفض للمركب .

لم يمض وقت طويل حتى ظهر الأمير وبرفقته زوجته الحسناء . وبدأ يسير على السقالة تتبعه حاشيته وحاشية الأميرة . وراحت عيناى تتمليان بالنظر إلى الرجال والنساء ، وقد ارتدوا أبهى ملابسهم وحليهم ، كما صففت النساء شعورهن على طرز متباينة . وتزين بأنواع متعددة من الزهور الجميلة . وحانت منى لفتة فرأيت والدى يقف الشاطىء مع المودعين . ورأيت إلى جانبه سى موت ، النبى الرابع لآمون . ولسبب ما نسيت الأمير والأميرة ، ونسيت الرجال ، والنساء بملابسهم ذات الألوان الزاهية ، وحليهم البراقة ، ولم تعد عيناى تريان سوى النبى الرابع .

دارت فى نفسى الهواجس ، والأفكار . وتواردت أسئلة حيرى تبحث عن إجابات . لماذا كان سى موت فى وداع الأمير وهو أشد المتعصبين ضده ؟ لماذا لم يكن من مودعى الفرعون ؟ واستقرت عيناى على الرجل لا تتحولان عنه . خيل إلى أنه ينظر نحوى . لكننى بعد حين تأكدت أننى لم أكن المقصود بنظراته . والتفت حولى فجأة لأرى رئيس البحارة

الضخم يقف على بعد خطوات منى . كان بدوره ينظر إلى سى موت ، وكأنهما قدرا شيئا مما . ترى هل قدرا أمرا فعلا ؟ وماهو هذا الأمر ؟ وهل يعلم والدى به ؟ هل هو شريك فعلا فيه ؟ .

انتقلت عيناى من وجه سى موت الصارم إلى وجه والدى الحزين . وخيل إلى أن والدى ينظر إلى ناحيتى بإشفاق ، وكأنه يريد أن يقول شيئا ، أو كأنه يبغى ألا أقوم بالرحلة . وصمت أذناى فى سماع هتاف الشعب فأضحى خليطا من الأصوات لامعنى لهما ، وكأننى فى خضم هائل تتلاطم الأمواج تستوى فيها قطرات الماء .

أفقت كمن كان فى حلم حينما تنبهت إلى أن أسمى قد تردد . والتفت فى دهشة لأرى أن الأمير هو الذى كان يتكلم وهو واقف إلى جوارى مباشرة . كان حنونا فى صوته ، عطوفا فى نبراته .

— كاى هذه ثالث مرة أناديك فيها . وأنت فى عالم آخر ، لعلك لاتكون قد انتقلت إلى عالم الحب يافتى .

وتبسم الأمير ، وانفرجت شفتا الأميرة الجميلة إلى جواره ، وقهقهت إحدى نساء الحاشية بصوت عال ثم سرعان ماتمالكت نفسها . وانتابنى غضب شديد لهذه الضحكة . غضب من نفسى أن وضعتها فى هذا الموقف الحرج . لكن ما كان لشىء أن يبدو على وجهى حينما انحنيت أمام الأمير .

— مولاى لقد وقفت مشدوها أمام سنائكما .

ودار رأسى بحركة خفيفة شاملا نظرى الأمير والأميرة وربت الأمير على كتفى قائلا :

— هذه سرحة بديهية ، وإطراء لاأحسب إنى استحقه لكننى عفوت إكراما لاطرائك للأميرة أرجوا أن يكونوا قد وفروا لك قمرة مريحة . لقد أعطيت أوامرى بذلك :

— إن كرم مولاى قد غمرنى .

وبحركة خفيفة من يده تركنى وسار مصطحبا الحاشية ليقف فى المكان المعد له ملوحا للجماهير المودعة . أعدت النظر إلى حيث كان يقف والدى ، وسى موت ،

لكننى لم أتمكن من رؤيتها وسط الجموع التى تزاحمت على الشاطىء . أو لعلهما قد انتقلا ليكونا فى وداع الفرعون قبل أن تتحرك سفينته .

انتقلت بنظرى إلى سطح السفينة باحثاً عن رئيس البحارة الذى اختفى بدوره منصرفا، ولا شك ، إلى مهام وظيفته ، ومشرفا على راحة الأميرين ومن فى معيتهما . وطرق أذناى صوت دقات مؤذنة بتحرك سفينة الفرعون .

داخلنى فجأة شعور غريب برهبة من الرحلة . وتمنيت أن أعدو تاركا المركب إلى الشاطىء حيث الأمان والراحة . شعرت كأنما قد انفصلت تماما عن حياتى السابقة ، عن أبى ، وأمى واخوانى ، واننى قد بدأت حياة جديدة لم تكن الأحداث القديمة إلا مجرد إعداد لها . كان شعورا موحشا بالوحدة ، مخيفا فى توقعاته . ورأيت السقالة وهى ترفع . وأحسست بحركة خفيفة . وبدأت وجوه الجماهير تتحرك إلى الوراء فى رتابة لا معنى لها . . . . لقد انفصلت السفينة عن الشاطىء ، وفصلت معها حياتى السابقة .

بدأت السفينة فى الحركة بجلال تتهادى على صفحة المياه يدفعها التيار نحو الشمال إلى أهدافها . ووقف القبطان عند الدفة يوجهها نحو منتصف النيل العظيم . وقفت عند الحاجز أراقب المياه تنساب حول المركب ، وقد بدأت الأشرعة تتلقف الهواء وتدفع الماء إلى الخلف . تصورت أن كل دفعة هى فى الواقع إلقاء بالماضى إلى الوراء ، وأن كل نسمة هواء هى بمثابة اقبال على مستقبل مجهول . عاودتنى ذكرى النظرة التى تبادلها البحار مع النبى سى موت ، وطالعنى وجه أبى على سطح المياه وهو ينظر إلى ، ربما فى شفقة ، وربما فى اعتذار ، كأنما يريد أن يقول إنه لم يكن له فى الأمر حيلة .

نظرت إلى الشاطىء . كان هنالك مازال بعض الصبية يجرون ، وهم يلوحون بأيديهم ويهتفون . لكن ميناء طيبة كان قد اختفى ، وبدأت المبانى والمعابد تتوارى فى الأفق ، ولم يعد يظهر سوى سور المدينة . وبدأت الحقول الجميلة تظهر كأنما رسمت بيد فنان ماهر .

شيئاً فشيئا اختفت حياة المدينة ، وبرزت حياة الريف . كان هنالك بعض الصبية العراة يقودون الثيران نحو النهر ، وآخرون يقفون عند الشاطىء يغسلون

جلود حيواناتهم ، فى حين كانت بعض النسوة ، والفتيات يملأن جرار الماء ، أو يغسلن الملابس وهن يتصايحن ، ويتضاحكن . ويتوقف الجميع ليشاهدوا الموكب الضخم من المراكب الملكية وهى تتهادى . ويلوح البعض بالأيدى ثم يعود إلى عمله ، وكأن العالم قد اقتصر على الرقعة التى يعيش فيها . أما الرجال فقد بدوا من بعيد يعملون فى الحقول . منهم من كان يقود ثيرانه ، وهو يحرث الأرض ، ومنهم من كان يدير الشادوف يروى الحقل ، ومنهم من يبذر الحب إلى غير ذلك من الأعمال .

لاح لى المنظر هادئا وديعا بعيدا كل البعد عن جو القصور ، والمعابد ، والمكائد ، والدسائس . هنا لم تكن السلطة تعنى شيئا سوى ماتتمثله فى جمع الضرائب ، أو أعمال السخرة ، أو الخدمة العسكرية . هنا كانت الآلهة تعبد فى القلب ، وتحنو فى دعة على الفلاح ، والعامل ، والصياد . لم تكن لها معابد فخمة ولا مبانى شاهقة . لم يكن يوجد معبد فى عظمة معبد آمون فى الكرنك ، ولا معبد مونتو فى برمنتو ( أرمنت ) أو معبد آمون رع ، فى امبيو ( أبو قرصاص ) ، أو معبد تحوت فى مسونى ( مدينة الثمانية آلهة — الاشمونين ) ، ولا معبد رع فى نيوت ( منف ) ولا قصر كمثل مهبط الإله خنوم فى حات خنوم ( اسنا ) ، أو موقع لعبادة التمساح فى برسبك ( المنشأة ) . كلا لم تكن الأرض فى وداعتها ، والنيل فى صفائه ، والشمس فى جلالها ، والشعب فى رقته ، مثل هذه المعابد ، وعشرات غيرها صنعت لعشرات الآلهة الكبار والصغار .

— فيم هذا التفكير العميق يافتى ؟

التفت إلى الصوت كمن فزع من سبات عميق ، لأجد معلمى الأكبر الكاهن رع موسى يقف خلفى تماما وهو يحدجنى بنظراته . أحنيت رأسى فى أدب ولبثت صامتا . ودون مقدمات انسابت الكلمات من شفتيه .

— أنك لا تتكلم كثيرا يا كاى ولا أدرى تماما أين أضعك . دعنى أسرد لك رؤيا أرتأيتها سأصفها لك فى شكل نبوءة . إن الدم على يديك أحمر قانيا ، ولن تمضى أيام كثيرة قبل أن يموت على يديك أول ضحاياك ، ولن يكون الأخير . إنك سوف تنقذ تامرى ( مصر ) من الهلاك ، مرة تلو الأخرى ، لكنك لن تستطيع أن تغير من مصيرها المحتوم . سوف تؤجله فقط إلى حين .

إنهم يعدونك لكي تكون نبيا لآمون بعد والدك ، لكنك لن تكون ، ولن يعلو منصبك على خرحب فى الكهنوتية . إن الدماء على يديك يافتى .

رفعت رأسى متعجبا من كلام استاذى . كنت أفكر طوال الوقت الذى استغرقته خطبته الطويلة نسبيا . هل أتى ليقول فقط هذا الكلام ؟ ولماذا إعتنى بأن ينظر فى طالعى أنا شخصيا دون سائر الناس ؟ ثم لماذا إعتنى بأن يخبرنى بما رأى أو علم ؟ كنت أعرف عنه أنه صادق النبوءة ، ضليع فى علم الفلك وفنون الغيب . ورأيت نفسى أردد أفكارى دون وعى.

— إنه لشرف عظيم لى أن تعتنى نيافتك بالنظر فى مستقبلى المتواضع .

— لقد أجدت الصياغة ياغلام . تعنى أنك تعجب كيف تأتى أن أعتنى بالتطلع إلى مستقبلك دون سائر الأمراء والنبلاء ، ورجال البلاط ، والحاشية . وسوف أجيبك ، أولا لست أنت الوحيد الذى تطلعت فيما هو مسطور له ، إنما هوايتى انتقى من شئت لأرى ما كتب له فى عالم المستقبل . وثانيا لأنى رأيت فى وجهك ما جعلنى اقطع بأن الله يرعاك ، فأردت أن أعرف السبب .

ولم يفتنى أنه قال الله ، ولم يقل الآلهة . ولاحظ الكاهن نظراتى إليه فعاد يفكر .

— أجل ياغلام لقد قلت الله ، ولم أقل الآلهة .

تحاشيت أن أدخل معه فى مناقشة فى المذهب الجديد الذى كنت أعلم أنه ، مع عمو ولى العهد ، يتزعمه . أدرت رأسى إلى سطح السفينة ، فرأيت صبية تتقدم نحونا بخطوات سريعة ثابتة .

التفت الكاهن إلى حيث أنظر ، وما لبث أن ظهرت على وجهه علامات الحب والحنان . وبدت الصبية رائعة الجمال وقد تهللت أساريرها لرؤية الكاهن ، وانسابت الموسيقى من شفتيها فى شكل كلمات .

— ها أنت يا عماه . لقد بحثت عنك فى حجرتك وفى كل مكان فى الباخرة ولم أجدك حتى خشيت أن تكون قد تركتنى فى الرحلة وعدت إلى الشاطىء .

— تفضت ياصغيرتى ما كنت لأهجرك أبدا . ما أحسبك تعرفين كاى رع سنب بن تاى رع سنب النبى الثالث فى معبد آمون .

إلتفتت الصبية إلى ، وراحت عيناها تتفحصانى بدقة ، وصراحة بريئة . وأعطانى

هذا فرصة لأراها عن كثب . كانت فى حوالى الثالثة عشرة من عمرها ، طويلة بالنسبة إلى سنهـا ، ممشوقة القوام . وجههـا أشبه بدمية صاغتها يد خنوم الماهرة ، واسعة العينين ، صغيرة الفم ممتلئة الشفتين ، ذات أنف دقيق ، وجبهة واسعة يعلوها شعرها الأسود الفاحم ليتوج الرأس الجميل ، ويبرز نعومة البشرة البيضاء .

أحنيت رأسى بأدب وقلت :

— ماأسرع ما تحققت النبوءة الأولى لأستاذى عمك . إن الآلهة قد حبتنى بعطفها إذ أولتنى شرف التعرف إليك .

نظرت الفتاة إلى بتعجب ثم حولت نظرها إلى عمها .

— الآلهة . إذا فهو . . . . . . . . . . .

وتركت الجملة ناقصة بلا تكملة ، وكأنها تعجب كيف تسنى لعمها أن يقف مع غلام لم يكد يتعدى منتصف الحلقة الثانية من عمره ، ولا يدين بالمذهب الجديد . وهز الكاهن رأسه بحزن .

— كلا يا بنيتى ، أنه ليس على الدين الجديد . هو أحد خدم آمون .

أعادت الفتاة النظر إلى ثم قالت موجهة الكلام إلى عمها .

— هذا مؤسف . إنه يبدو عملاقا قويا ، ومما لا شك فيه أننا قد نحتاج إلى أمثاله فى وقت ما .

تململت متضررا تحت نظراتها الصريحة ، وشعرت أننى يجب أقول شيئا . فأجبت بأشياء ظاهرة .

— أرجو من الآلهة ألا تحتاج الآنسة إلى أحد ، لكنها على أى حال سوف تجدنى دائما سعيدا بأن أقدم مواهبى الضئيلة لخدمتها .

ولم أنتظر ردا ، وإنما انتقل بصرى بينهما محييا ، وانسحبت متوجها إلى فرقتى .

---

## الفصل السادس

# شبح فى الظلام

---

إن الرحلة عادة من تيتى ( طيبة ) إلى منف عن طريق النيل لم تكن تستغرق أكثر من اسبوعين . لكن الفرعون هو الذى يأمر ، وهو الذى يقرر متى تتوقف المراكب وأين ، والمدة التى تمكثها فى كل مكان تتوقف فيه . كان احيانا يعن له أن يزور بعض المعابد ، فيأمر بالتوقف ، واحيانا كان يرى ان يصطاد الاوز ، والبط . فى بعض المستنقعات . وقد يرى ان يمكث فى بعض المناطق اياما يبتعد فيها عن النيل ليصطاد الغزال ، أو بعض مايصادفه من وحوش البر . بل إنه فى بعض رحلاته السابقة ترك قافلة المراكب وضرب فى الصحراء حتى وصل إلى تا — ارحوت ( الفرافرة ) حيث زار معبد البقرة المقدسة ، وفى اخرى ذهب إلى سيسوتى ( الاشمونين ) مدينة الثمانية آلهة وتعبد للاله تحوت .

وبالرغم من أن مدة الرحلة ونظامها ، يتوقفان كما قلت ، بكلية رغبة الفرعون فإنى علمت أنه كان من المتفق عليه أساسا أن ترسو المراكب عند شابت ( قنا ) ، ثم خنـ ميم ( اخميم ) حيث تزور جلالة الملكة « تى » أقاربها ، ومنها تتوجه القافلة إلى برشات ( البرشا ) حيث تمكث بضعة أيام يتعبد الفرعون وحاشيته فيها فى معابد القطط المقدسة ، ومعبد الإله آمون رع ، ومن ثم يتوجـه إلى سوسونى ( الأشمونين ) لزيارة معبد الإله تحوت ، ثم يعود بعد ذلك إلى برشات حيث تستأنف المراكب الرحلة ، ولا تقف إلا مرة واحدة بعد ذلك عند بوفيا ( بنى سويف ) قبل أن تصل إلى هدفها عند منف .

كان رع ( شمس الظهر ) يعتلى وسط السماء حينما بدأت القافلة البحرية فى الرحيل . وكان وقت الغذاء قد إقترب فرأيت أن أعود إلى قمرتى بعد الحديث الذى تم مع أستاذى رع موسى وابنة أخيه الجميلة تفنت حتى أتمكن من ترتيب حاجياتى

مررت فى الممر الطويل ، وفتحت باب الغمرة ، فوجدت أن خندو العبد قد سبقنى ، وبدأ فعلا فى إخراج ما احتاج إليه من الصناديق ، حتى يسهل على أن أنتقى لباسا نظيفا كلما أردت . كان يعلم أن على أن أرتدى ملابس نظيفة ثلاث مرات يوميا على الأقل أصاحب بها خبر ( شمس الصباح ) ، ورع ( شمس الظهر ) ، وأتوم ( شمس المغرب ) . وما كان هناك أى عذر يعفى من هذه القاعدة . ولهذا كان خندو قد أخرج فعلا رداء نظيفا ، ووضعه على الصندوق تحت تصرفى . وسألنى العبد إن كنت أريد أن يبقى ليساعدنى فى خلع ملابسى ، لكننى شكرته رافضا ، فتقهقر فى صمت خارجا من الغمرة .

تمهلت فى خلع ملابسى . كانت الأفكار مازالت تراودنى ، وكنت مازالت أعجب من النظرات التى تبادلها النبى سى موت مع رئيس البحارة . كما طالعنى وجه أستاذى القديم رع مومى ، ورنت كلماته فى أذنى ، وراودنى العجب . كيف يرى الدماء على يدى ، وأنا رجل دين ولا علاقة لى بالحرب أو القتال ؟ لقد خيل إلى أنه لم يسر حينما أتت ابنة أخيه ، الصبية وكأنه لم يكن يود أن تقابلنى أو يعرفنى عليها ، فهل يخشى أن تموت على يدى ، أو أن أقتلها ؟

ولم أجد فى نفسى ميلا لأن أذهب إلى غرفة الطعام لأتناول الغذاء فى معية الأميرين ، وفضلت أن أنفرد بنفسى فى غرفتى ، ففتحت الباب وصفقت ، وما هى إلا لحظات حتى ظهر خندو ، فطلبت منه أن يحضر لى الغذاء ، فتركنى ، ولم تمض دقائق حتى عاد حاملا صحافا مملوءة بالمأكولات والفواكه . تناولت طعامى ، وظهر خندو ثانية ليحمل ما تبقى تاركا صحاف الفاكهة ، وليقدم إلى الطست ، والابريق يصب الماء على يدى لأغتسل ثم يعطرها بالزيت طيب الرائحة .

مكثت بقية اليوم أرتب حوائجى ، وأخرجت تمثال رب الأرباب ، هدية من والدتى ، وتلوت الصلوات ثم رحت أسطر على البردى ما مر بى من أحداث ، فلما انتهيت ، أعدت الصلاة ، وأطفأت المصباح ، وآويت إلى فراشى إذ لم أجد فى نفسى ميلا للعشاء فلم أتناول سوى بعض البلح والرمان (١) .

إستيقظت فى اليوم التالى ، ولم يكد خبر ( شمس الصباح ) يلقى ضوءه من وراء الجبال . وكأنما كان خندو يقف طوال الليل بالباب إذ لم أكد أتحرك من فراشى .

(١) كان مبدأ دخول الرمان أرض مصر فى عهد امونحوتب الثالث .

حتى سمعت طرقة خفيفة أعقبها دخوله حاملا الطست والابريق . غسلت وجهى ويداى كما غسل هو قدماى ، ثم إنسحب ليعود بعد دقائق حاملا اللبن والعسل ، والخبز ، وصحافا متنوعة من الجبن ، والبيض ، والفاكهة . تناولت إفطارى بشهية وما كاد خندو يحمل بقايا الطعام حتى أبدلت ملابسى ثم مكثت ساعة من زمان أتلو الصلوات لرب الأرباب .

بعد فترة جاء خندو يحمل الطست ، والابريق ، والموسى ، فجلست على مقعد ، وأسلمت رأسى وذقنى ، فحلقنى ، وخضنى بالزيت المعطر ثم حمل أدواته ، وانسحب من القمرة ، متوجها إلى مقره بعد أن أخبرته أنى ان أكون فى حاجة اليه حتى وقت الغذاء .

أحسست بحاجة شديدة إلى الهواء النقى الطاق . فدلفت من قمرتى ، وسرت فى الممر الطويل حتى خرجت إلى سطح المركب . وبالرغم من أننا كنا مازلنا فى أوائل الشهر الثالث من شهور أخت(١) إلا أن خبر ( شمس الصباح ) طالعنى قويا مضيئا ، يرسل أشعة الحياة تبعث الحرارة فى الكون ، ومافيه . شاهدت بعض البحارة منهمكين فى أعمالهم ، لكن فيما عداهم لم يكن أحد من السادة قد صعد بعد . ترددت برهة أتخير المكان الذى أتوجه إليه ، ثم إستقر رأيى على أن الأمير قد خصص له مكان يستريح فيه إلى جانب دفة الربان فى المؤخرة ، وحيثما يكون الأمير ، تكون المعية قريبة ، ولم أكن أريد أن أنضم إلى الجموع ، وإنما كنت أريد أن أنفرد بنفسى لأمتع النظر بالمناظر المتباينة وهى تتالى وئيدة .

كانت الجبال تبدو عالية متعددة الألوان ، وهى تحف بالنيل العظيم كأنما تخشى عليه من عدو مغير . وكان خبر مازال يرسل أشعته وراءها فبدت الألوان باهتة ، لكنها كانت تتغير مع كل دقيقة يعلو فيها خبر إلى كبد السماء ، أو تطاول أشعته ليتطلع عبر بعض التلال الأقل علوا من غيرها . كانت سلسلة لا تنتهى من الجنوب إلى الشمال تساير النيل فى مجراه .

لم أشعر بمرور الوقت وقد علق بصرى بالجبال الشامخة الآنفة فى وقفتها ، المتغطرسة فى وحدتها حتى أيقظنى من أحلامى صوت ناعم هامس .

— إنك كثير التفكير أيها الكاهن الصغير .

---

(١) أوائل شهر نوفمبر .

استدرت فى وقفتى لأرى الأميرة نفر نفرو (نفرتيق) تقف على بعد خطوات منى . كانت ترتدى ثوبا من الكتان الأزرق الخفيف ، أتقنه صانعه حتى يظهر مفاتن الجسد الجميل . وكان الشعر الأسود الفاحم وقد رشقت فيه زهرة بيضاء ، قد جمع إلى أعلى لتبدو الرقبة الطويلة الناعمة فى أحلى مظاهرها . ولم يشوه الوجه الجميل أية أصباغ سوى بعض الكحل الأسود حول العينين وانفرجت الشفتان عن ابتسامة خفيفة فى حين راحت العينان تتفرسان فى وجهى وقد التمعتا ببريق من الفكاهة والتسلية .

أحنيت رأسى فى أدب .

— مولاتى إنه لشرف عظيم لى أن تتنازلى بمخاطبتى .

ظهر التأفف على الوجه الجميل .

— دعنا من هذا النفاق الرسمى ، وقل لى ، هذه هى المرة الثانية التى رأيناك فيها شاردا فى التفكير .

أتراك قد أحببت أيها الكاهن ؟ أم أن هنالك شيئا آخر وراء هذا الشرود ؟

— اننى كنت أتطلع إلى عظمة رب الارباب ممثلة فى الجبال ولاشىء آخر يامولاتى .

— كنت تتطلع الى البعيد والى العالى ، ولا تنظر الى القريب تحت قدميك .

كان من الجلى أن الأميرة تتفكه على حسابى وقد عادت الى شفتيها تلك الابتسامة الخفيفة ، ولم أر ضررا فى أن اجاريها فى تسليتها فأجبت .

— إن ماتحت القدمين تخفيه القدمان يامولاتى .

وكافأتنى بأن اطلقت ضحكة مرحة ثم تقدمت لتقف إلى جوارى عند السور بلا كلفة .

— لابأس إنك تتمتع بروح الفكاهة على عكس ماينبىء به مظهرك الصامت الصارم .

واتخذ وجهها مسحة من الجد حينما استطردت فى رقة .

— لكن دعنا من الهزل . لسبب لاادريه يوليك رع موسى إهتماما كبيرا ، ويقول إن الله يرعاك فهل فكرت فى الدين الجديد ؟

إذاً فهذا هو سر رقة الأميرة ، حينما لم يفلح رع موسى طوال سنوات الدراسة ، وحيث لم يفلح الأمير حينما إنفجر فى طريق الكباش ، يظن الكاهن ان

جمال الأميرة ورقتها قد يؤثران فى صبى غر . اعتمل الغضب فى جوانحى فسبق لسانى عقلى .

— وهل ارسلك رع موسى يامولاتى لهدايتى إلى الدين الجديد ؟

وكاحل بى الغضب فجأة زال فجأة ، وتبينت خطئى ، وودت لو اننى فقدت سنوات من عمرى لأستعيد الكلمات التى سبقت التفكير . تغير وجه الأميرة فاكتسى حمرة قانية من الغضب ، وتقطب جبينها ، وخرجت الكلمات من فمها قوية عالية . لقد تحولت فى اقل من ثانية من إمراة رقيقة مهذبة إلى اميرة متعالية .

— اننى لست رسوله لأحد يا غلام .

ولم تزد على هذا بل استدارت فى غضب وتركتنى وسارت . وقفت برهة كالأبله لا اتحرك . كانت لهجتها قاسية لاذعة حتى اننى شعرت بمهانة لم اشعر بمثلها من قبل . وزاد الطين بلة اننى كنت اعلم اننى السبب فيما انا فيه . خفضت رأسى فى تعاسة ، وانا انظر إلى الماء يجرى حول المركب . وطالعتنى عينان خبيثتان كأنما تدعوانى إلى القفز فى الماء . لم تكن هذه هى المرة الأولى التى ارى فيها التمساح « سبك » إذ كان لايزال يوجد بعض منه ، ومن تاورت ، فرس النهر ، حول تهنى ( طيبة ) لكنه كان نادر الوجود إذ ان المراكب والقوارب كانت تروح وتغدو طوال النهار والليل بين شاطىء النيل ، فكان لايرى إلا فى الضواحى . وكنا نسمع بين الفترة والأخرى انه قد التهم عجلا صغيرا استخفه ماء مستنقع ، او صبيا فى الريف فاته الحذر وهو يغسل ثورة ، واحيانا فتاة سرح بها الخيال وهى تملأ جرتها ، او تغسل ساقيها .

لكن امثال هذه الحوادث كانت قليلة نادرة حتى انها قد اضحت فى حكم العدم ، خاصة فى المدن حيث يكثر الناس ، وحيث كان الكثير منهم يجتازون النيل شرقا وغربا ، ويقطعونه من الشمال إلى الجنوب . لم تكن هذه المرة الأولى التى أرى فيها سبك ، لكنها قطعا كانت الأولى التى الاحظه فيها عن قرب ، وأتطلع إلى عينيه الخبيثتين وهما تنظران إلى مباشرة . كان يسبح الى جانب المركب فى هدوء وصمت ، ولم يظهر منه سوى العينين ، والفك الأعلى ، والأنف ومع هذا فقد بدا مرعبا فى منظره .

وتصورت حيوانا ضعيفا كالغزال وقد أطبق الفكان القويان على إحدى قدميه يجذبانه إلى الماء . وأيقظنى من تصوراتى صوت آمر .

ــ ما الذى فعلته بالأميرة ؟

التفت لأرى الصغيرة تقف على بعد خطوات قليلة منى وقد غلا وجهها الجميل مسحة من الغضب ، وعادت تكرر سؤالها .

ــ لاتقف هكذا صامتا وقل لى ما الذى فعلته بالأميرة ؟ لقد رأيتها تتركك غضبى ، وتكاد الدموع أن تنحدر على خديها . أحب ماذا فعلت ؟

وسمعت صوتى هادئا .

ــ لو شاءت لأخبرتك .

ضربت الصبية الأرض بقدميها وقد ازداد غضبها

ــ إنك شخص خبيث ، لقد كان عمى على حق حينما حذرنى منك ، ونصحنى بالابتعاد عنك ، ولن أعجب إذا ماصحت نبوءته ورأيت الدماء على يديك .

كانت الكلمات تتدفق من فمها الجميل بسرعة ، وبدا جليا أن الغضب قد تملكها حتى أن الدموع كانت تترقرق حيرى فى عينيها . وقبل أن تتساقط كانت قد استدارت بسرعة ، وتركتنى وأفكارى .

ومن العجب اننى شعرت بوحشة شديدة ، ولعلى لم اشعر بالوحدة كما احسست بها وانا واقف عند مقدمة المركب مع أننى قضيت أيامى وحيدا لا اختلط بأترابى ، وما كان لى صديق سوى واج . حتى اخوتى لم اكن كثير الاختلاط بهم وكنت سعيدا برفقة قرطاسى ، وكتبى وآلهتى . كنت من اولئك الذين يكتفون بأنفسهم عن رفقة الناس . ولم أشعر بالوحدة قط مثلما شعرت بها بعد ان تركتنى الصبية الجميلة . خيل إلى اننى لست انا الذى ازهد فى صحبة الناس ، وإنما هم الذين يتجنبوننى .

اعدت النظر إلى الماء ابغى مراقبة التمساح ، لكنه كان قد اختفى . كان هنالك شىء يجذبنى إليه ، فهو بدوره حيوان يعيش فى وحدة . وتناهت إلى أذنى أصوات على سطح المركب ، وحينما التفت رأيت أنه يعج بالأشخاص . كان الأمير فيما يبدو قد أكمل زينته وخرج الى السطح ليستنشق الهواء وخرجت فى رفقة معيته .

وكان على أن اذهب لألقى تحية الصباح على الأمير . وبالرغم من أن هذا كان ثقيلا على نفسى ، إلا أننى كنت أعلم أنه واجب لا مناص منه . تحاملت وأنا أسير نحو الجماعة حتى وصلت إلى حيث وضع مقعدان للأمير والأميرة تظللها مظلة من الجلد . تجاهلتنى الأميرة تماما وأنا أحنى رأسى أمامها .

— بارك رب الأرباب جلت قدرته صباحكم يامولاى .

ورد على الأمير بصوت صارم وأن يكن قد ملىء بالعطف .

— أشكرك يا كاى وإن كنا فى غير حاجة إلى بركة رب الأرباب .

وقبل أن أجد الجواب الملائم كان صوته العطوف يتساءل .

— نرجو أن تكون قد تمتعت بنومك ، واسترحت فى قمرتك .

— أشكرك يا مولاى .

— هل هنالك مانستطيع عمله لزيادة راحتك .

— إن عطف وكرم سموكم قد جاوزا طاقتى الضعيفة على الشكر والحمد .

أذن الأمير لى بالانصراف بحركة خفيفة من رأسه . تراجعت إلى الوراء قليلا ، ثم انصرفت متجها إلى الركن الذى اخترته لنفسى عند المقدمة . رحت أراقب مؤخرة المركب الفرعونى وهى تتهادى على صفحة الماء تاركة وراءها خطا طويلا من التقلبات على صفحة ملساء هادئة .

أمضيت بقية اليوم منفردا بنفسى ، كما تناولت غذائى وعشائى ، فى القمرة . وحينما أوغل الليل كنت فى حالة نفسية سيئة فرأيت أن أخرج من القمرة إلى سطح المركب أروح عن نفسى الضيق الذى أعانيه بمشاهدة المناظر الطبيعية الخلابة فى ضوء الآله سين ( القمر ) الهـــادىء . كنت اعتقد أن معظم الموجودين قد إعتكفوا فى قمراتهم ، أو أنهم فى حجرة استقبال الأميرين نظراً لأن الجو فى المساء كان مايزال باردا . لكن يبدو أن القمر قد جذب غيرى كذلك إذ وجدت أن مكانى المفضل قد شغلته جماعة وقفوا يتحدثون ويتضاحكون .

لم أشأ أن أظهر نفسى فسرت فى ظل القمرات متجها إلى مؤخرة المركب أبحث عن مكان آخر أقل ضوضاء . وفجأة توقفت . كان هنالك شبح يتشح بالبياض يقف عند المؤخرة منفردا بنفسه وهو ينظر إلى المياه . ولم أتبين فى بادىء الأمر إن كان رجلا أو أنثى ، حتى اجهدت النظر فعلمت أنه الأمير . كان

مستغرقا فى تأملاته وتفكيره حتى أن المرء ليشعر بأنه قد فصل نفسه تماما عن هذا العالم .

هممت بأن أتراجع ببطء قبل أن يلحظ وجودى حينما خيل إلى أن هنالك شخصا آخر يقف فى ظل القمرات . ويبدو أن من كان هنالك قد لاحظ وجودى أيضا إذ تحرك بسرعة ، ودار حول القمرات ، ليختفى عن ناظرى قبل أن أتأكد من شخصيته .

لكننى كنت متأكدا من شىء واحد ، هو أنه ليس من مجموعة ركاب المركب ، وهذا لم يدع فرضا آخر سوى أن يكون من البحارة .

ترددت برهة وقد بدأ عقلى يعمل ، ويتساءل عن السر فى وجود شخص من البحارة فوق سطح المركب، فى هذا المكان المحتم . هل كان يريد أذى بالأمير ؟ أم هل كان وجوده محض مصادفة لأمر خاص ؟ أو لعله كان يتلصص لحساب واحد من النبلاء أو الساسة . وحرت فيما أفعل ، هل أترك الأمير فى خلوته ، وانسحب إلى قمرتى ، أو أبقى حيث أنا فى حراسته . لم يطل ترددى كثيرا ، وسرت بخطى تعمدت أن تكون مسموعة ، ومع هذا فإن الأمير لم يفق من تأملاته حتى كنت على بعد خطوات قليلة منه ، وحينئذ أدار رأسه فى بطء وبقى ينظر إلى كأنما يرانى لأول مرة .

أخيرا تكلم هامسا كأنما أفاق لتوه من حلم .

— هذا أنت يا كاى . أدن قليلا يا غلام فإن ضوء القمر ساحر ، والصمت جميل حتى أنه يخيل إلى أنها جريمة أن يرفع المرء من صوته ليدنس قدسية هذا الجمال .

دنوت خطوة أخرى إطاعة للأمر .

— مولاى اعتذر إذا كنت قد قطعت عليكم خلوتكم .

أشاح الأمير بيده مستبعدا الأمر .

— مطلقا ، كان لا بد أن تقطع الخلوة فى وقت ما . خبرنى يا كاى هل من الخطأ أن يحارب المرء دفاعا عما يعتقده صوابا ؟ .

علمت أن المناقشة الدينية التى كنت دائما أحاول أن اتفاداها قادمة ، ومع هذا فقد كان لا بد ان اجيب .

— على المرء اولا ان يعلم ما هو الصواب حقا قبل ان يحارب من اجله يا مولاى .

التمعت عينا الأمير لدى سماعه الاجابة ، وبدى اهتمامه واضحا فى المناقشة إذ استدار فى وقفته وواجهنى كاملا .

— ما هو الصواب وما هو الخطأ ؟

ترددت فى الرد . ولاحظ الأمير ترددى فاردف .

— تكلم يا كاى ولا تخف ، إننى اعدك أن تكون هذه مناقشة الأكفاء، وأن لا تكون لها أى أثر عندى سواء حاليا أو مستقبلا .

كدت ابتسم ، إذا كان الأمير قد ظن أن ترددى كان جبنا فقد وهم إننى لم أكن أريد أن أدخل معه فى مناقشة دينية لأنى كنت أعتقد أن مجرد المناقشة فيه تدنيس لقدسية الآلهة . وتركته عند ظنه . فما كان يعنينى فى كثير أو قليل .

— الصواب فيما أرى يامولاى هو مافعله السلف لمئات السنين ، والخطأ هو مخالفة ذلك .

وطغت على الروح الدينية فقفزت تربيتى ودراساتى اللاهوتية إلى فمى .

— انظر يامولاى إلى السماء وعظمتها . هل يمكن أن تكون سوى الآلهة نوت ؟ انظر إليها كيف رفعت لا تقع علينا . هل تستطيع أن يرفعها سوى إله الجو شو ؟ هلا تبصرت فى الأرض وما تحوى، من جبال وأنهار ، وصحارى، وبحور ، من تكون سوى الآله جب ؟ ألم يسحرك النيل ويأخذ بجامع فؤادك وأنت تراه يحمل الخير حينما يحل هادئا ، والدمار حينما يهدر ؟ أليس هو الاله اوزريس ؟ من ينبت الزرع إن لم يكن الاله ابيس ؟ ومن يرعى جيوش تامرى ( مصر ) وجنودها ، وبحارتها أليس هو الرب منتو اله الحرب؟ من صاغ الانسان والحيوان من الطين ؟ أليس هو الاله خنوم إله الفخار ؟ من يكون الصقر محلقا فى عين رع ، واتوم إن لم يكن حورس ؟ من علم الانسان الحكمة والسحر؟ ومن يكون رسول الالهة وكاتبها ؟ أليس هو الرب تحوت ؟ من يرعى الموتى فى حياتهم الثانية ان لم يكن الاله انوبيس؟ ومن يساعد الالهة ويأمرها ويفصل بينها إن لم يكن هو رب الأرباب الذى لا اجرؤ على النطق بأسمه ( آمون ) ؟

تفوقت وانا أكاد الهث . كان الانفعال قد أخذ منى حتى أن أنفاسى كانت

تتردد سريعة متلاحقة . واستمع إلى الأمير صامتا مطرقا برأسه حتى إنتهيت ثم رفع رأسه وقال كأنما يتمم ما بدأته .

— لقد احسنت ياكاى ، لكنك نسيت آلهة كثيرة اخرى لكل منها عمل ، نسيت حتحور ، وبوتو ، وبحدت ، وموت ، وبتاح ، وست ، وايزيس ، ونفتيس ، وساتس ، وسبك . أليس هؤلاء وعشرات غيرهم بآلهة أيضا ؟

— بلى يامولاى هم أيضا أرباب ، لكن ما كان لى أن أذكر جميع الآلهة .

— ولم لا ؟ أتراك نسيت بعضهما أم أنك لا تذكر عملها جميعا والمدن التى ترعاها ؟

تحيرت فى مقصده . وخيل إلى أنه يسخر منى ، ويضحك هازئا فى نفسه ، ومع هذا فقد أجبت .

— إنى كاهن يامولاى ، وقد درست كل علم اللاهوت .

— آه حقا نسيت لكن ما رأيك فى الشخص العادى الفلاح البسيط والصانع ، وكل من ليس أهل دين ، هل يعرفون جميع الالهة ؟ الا يغضب الاله حينما يجهله واحد من عباده ؟ الا يحيق الضرر بأولئك الجهلة ؟ ألا ينزل عليهم غضب الاله ؟

تعجبت من جهل الأمير وهو الذى درس اللاهوت وقلت .

— إن قوة الاله مستمدة من أفواه عباده .

— أحسنت . وهذا شىء آخر قد تناسيته . كلما كثر عدد المتعبدين لأحد الآلهة ، كلما إزدادت قوته ، وبالتالى إزدادت قدرته على المعونة والإيذاء ، وكلما انصرف عباده عنه كلما ضعفت قدرته على النفع والضر .

ترى كم من الآلهة نساها عبادها فدرست معالمها ؟ وكم من الالهة سوف تعبد فتبزغ إلى عالم الوجود ؟

كان الأمير يتكلم بصوت هادىء خفيض ، على عكس حاله حينما كان يناقشنى أول الأمر عند عمر الكباش . كان يبدو أنه يزن كل كلمة يقولها ويتخير الالفاظ . وازداد صوته هدوءا وهو يستطرد .

— قل لى ياكاى أى نوع من الإله تلك التى تولد على الشفاه ؟ إن الذى يهب الحياة لا يستمدها ، ومن بيده العطاء لا يتسول الدعاء .

فجاة فقد الأمير كل إهتمام بالموضوع ، وتركنى حيث أنا وسار متجها إلى القمرات دون كلمة أخرى . وتسمرت فى مكانى أفكر فى كلماته الأخيرة ، وفى تلك التى قالها لى ونحن فى طريق الكباش . كان فى كل مرة يتركنى وفى نفسى بذرة شك جديدة . صحيح أنها لم تكن سوى بذور لم تترعرع ولم تنمو ، لكنها مع هذا بذور شك على أى حال . ضاقت نفسى بأفكارى . هل يمكن أن يكون هذا الشخص على حق ، ومئات الآلاف من البشر مخطئين ؟ هل سار أبى ، وجدى ، وأسلافى جميعا لمئات السنين وراء سراب لا معنى له فى حين يأتى هذا الشخص ليحول فى سنوات قلائل معتقداتهم وما آمنوا به إلى ترهات وسخافات ؟ كلا ما كان يمكن أن يكون جميع البشر على ضلال ، وهذا الشخص على هدى . إن كل مافى الأمر أنه زلق اللسان ، قوى الحجة ، حتى أنه يلبس الحق بالباطل .

وإرتاحت نفسى إلى النتيجة التى توصلت إليها ، ومع هذا فإننى لبثت فى مكانى عند المؤخرة لا أتحرك مدة طويلة أشاهد ماء حابى ( النيل ) يتدفق راجعا إلى الوراء .

بدت أنوار متناثرة على شاطىء النيل . لعلها بعض القرى ، أو لعلها أضواء ( قفط ) أوكست ( قوص ) مدينة الاله ست ، لكننى لم أعرها التفاتا إنما اتجهت إلى قمرتى . ومع أن الليل كان قد مضى شطر كبير منه إلا أن النوم جافى عينى ، وظللت أتقلب فى فراشى مدة طويلة ، وكلمات الأمير تأبى أن تفارقنى . إن من يهب الحياة لا يستمدها ، ومن بيده العطاء لا يتسول الدعاء .

## الفصل السابع

# القربان البشرى

كان رع يعتلى كبد السماء حينما لاحت لنا مبانى شابت ( قنا ). كان قد مضى على رحيلنا من تهنى ( طيبة ) مايقارب اليوم . وبدت قصور شابت ومبانيها بيضاء جميله فى ضوء القمر وكأنما قد إستكانت إلى لمساته الدافئة .

ولابد أن الأخبار كانت قد وصلت إلى شابت عن مقدم مركب فرعون العظيم لأن أرزيريس ، حابى ( النيل ) بدأت صفحته تغطيها القوارب ، والمراكب ، بشتى أنواعها ، وأشكالها . وتعالت من شاطىء النيل صيحات الرجال ، والنساء ، وأصوات الطرب ، والموسيقى . كان الرخاء يعم البلاد بما يرد إليها من أموال الجزية من مستعمرات تامرى ، ولم يبق فرد فى القطرين إلا وأصابته النعمه بشكل أو آخر . حتى الفلاح خفت عنه الضرائب ، وما كان يستقطع منه للمعابد والآلهة . كان الذهب ، والفضة يصبان صبا فى مخازن الفرعون ، وردهات المعابد . وكان الفرعون ، وأمراؤه ، ووزراؤه يكادون أن ينثروه نثرا على الشعب ، فلم إذ لايهلل الشعب لربه ، وحاشيته ؟

كان الرخاء يبدو فى كل شىء . فى الملابس التى تعددت أنواعها ، وألوانها ورق نسيجها حتى أضحت لاتكاد تخفى شيئا ، وفى الحلى التى تعددت أنواعها ، وكثرت أشكالها ودقت صناعتها . فى الأوانى المرمرية ، والخزفية وأوانى الطعام الذهبية ، فى الرقص والموسيقى ، والأثاث ، والمعابد . والمبانى والتماثيل والقبور — ظهر الرخاء فى كل شىء حتى بدت تامرى متخمة من الثراء تكاد من ترهلها أن تتهاوى .

وبدت مركب أمير شابت مليئة بالزينات تتهادى فى وسط مراكب العظماء ، وقوارب الأهالى . لقد جاء الأمير ليكون فى شرف إستقبال فرعونه ، وليقدم له فروض الطاعة ، والولاء فى حين أرسل أكبر أنجاله وخليفته المتوقع ليكون فى معية ولى العهد . وجلس الأمير ، والأميرة

على مقعديهما على المنصة العالية ، والتفت الحاشية أسفل المنصة تشاهد نجل أمير شابت وقد صعد إلى ظهر المركب ، وتقدم يقدم خضوعه للأميرين .

وقفت من بعيد أراقب نجل أمير شابت ، وهو يتراجع هابطا المنصة بعد أن أذن ولى العهد ، ثم وهو يلتقى بالحاشية ، ويتبادل التحيات مع من يعرفهم من النبلاء ، والوزراء . وانتابنى السأم من المنظر ، فوجهت بصرى نحو الجبال المترامية إلى الشرق أتمتع بما بدا عليها من هيبة صامتة ، ووقار جليل . جذبنى شكلها ، وتعدد ألوانها ، وقد سقطت عليها أشعة رع فزادت من وحشتها . ترى كم من وحوش البرية وهوامها تعيش فى هذه الجبال آمنة بعيدة عن متناول الإنسان ، وطغيانه ؟ حيثما يحل الإنسان يحمل معه الموت لهذه الحيوانات ، والوحوش . حتى التمساح سبك أضحى يهرب من النيل إلى المستنقعات . والأماكن المهجورة ، وقلما كنا نراه فى تهنى ( طيبة ) أو شابت ، أو غيرها من المدن المكتظة بالناس .

طالت وقفتى ، ولم أشعر بالنيل الزاخر بالقوارب ، ولا بالأهالى وصياحهم ، ولا حتى بالأميرين ، والحاشية . كنت أحلم بالحياة فى الجبال التى بدت لى مليئة بالأسرار ، والغموض . كنت أنتقل من عليائها وأتجول فى ظلمات كهوفها ، وأتلمس مناطق المياه فيها . كنت أعيش بكليتى فى كنفها طليقا حرا لا تقيدنى تقاليد ، ولا تربطنى مسئوليات .

— أنت دائما هكذا لا تود صحبة أحد ؟

أفقت من حلمى لألتفت إلى صاحبة الصوت . ولعله قد بدا على الإستياء من قطع خلوتى إلى نفسى إذ أن صاحبة الصوت سارعت قائلة :

— إننى آسفة فلم أكن أظن ما تفكر فيه له مثل الأهمية التى تبدو على وجهك . واستدارت الصبية وقد قطبت حاجبيها وهمت بالانصراف .

— لا يا تفنت لا تذهبى مغاضبة ، إننى أعتذر عما بدا منى ، لكن الواقع أننى كنت سادرا فى الأحلام ، ولم اكن غارقا فى أفكار ، وقد فاجأتنى كلماتك . رجعت الإبتسامة إلى شفتيها سريعة ، وأقبلت على بوجهها الجميل .

— هذا حسن. إننى أرى أنك تستطيع أن تتكلم أحيانا ، وربما تستطيع أيضا مع القليل من المجهود أن تبتسم .

لاح شبح الابتسامة على شفق ، وصفقت الصبية طربا .

— ألم أقل لك . ربما أنت إنسان أيضا ؟ .

التفت إليها مندهشا .

— ومن قال لك أننى لست إنسانا ؟

— لم يقل لى أحد ، لكن لابد أنك شىء مرعب حتى أنك تخيف عمى، وأنت فى هذه السن الصغير .

وإنى أعلم أن عمى ليس من الذين يخافون بسهولة .

— وهل يخاف عمك منى ؟

— لاشك فى ذلك وإلا لما حذرنى من توثيق أوامر الصداقة معك .

— حذرك منى ؟ ولم إذاً سعيت إلى ؟

— أنا لم أسع إليك ، وإنما تصادف أن رأيتك منفردا ، فأردت أن أعرف ما الذى يخشاه عمى منك . لكننى حتى الآن لم أستطع أن اكتشف فيك ما يخيف ، على أى حال دعنا من هذا . هل سمعت الأنباء الواردة من شابت ؟

هززت رأسى بالنفى ، ومكثت منتظرا أنه تسترسل فى ثرثرتها . ولم تخيب الفتاة ظنى فاندفعت .

— إن الاضطراب يعم المنطقة كلها ، والقوم فى رعب ، وهم يقولون إن طبول برسبك لم تتوقف طوال أمس ، واليوم . هل تعرف معنى هذا ؟ إنهم جميعا واجمون ، بل ويبدو لى أنهم فزعون أيضا ، لكن أحدا منهم لا يريد أن يخبرنى عن السبب . هل تعرفه أنت ؟

كانت تتكلم ببساطة وسذاجة طفولية . ودارت الأفكار فى رأسى حتى أن صوتها بدا كأنما يأتى من مكان سحيق ، أن برسبك (المنشأة) تبعد عن شابت بأكثر من إبحار يومين أو ثلاثة فكيف تصل الأخبار منها بهذه السرعة ؟ إن الإجابة الواضحة هى الطبول . لكن الطبول لا تستعمل إلا فى نقل الأخبار الهامة جدا . فإذا أضيف إلى هذا أن برسبك هى مدينة الإله صبك (التمساح) لكان الاستنتاج الحتمى معناه أن الإله يطلب قربانا . ولم يكن القرابين المادية

الأهمية التي تستدعي نقل أنبائها بالطبول ، فلابد إذا أن القربان المطلوب قربان بشري . لكن أعياد الإله سبك لم تكن في هذه الأيام ، فلماذا إذا يطلب قربانا؟ وفجأة طرقتني الإجابة . إن الإله لايطلب قربانا ، وإنما هو يتوقع قربانا بشريا . على الأقل هذا هو الحل المنطقي الذي لايمكن لي أن أتصور سواه دون أن أستمع إلى الطبول .

يلوح أن صمتي أن طال ، وأنني نسيت تماما الفتاة الواقفة حتى ذكرني صوتها بوجودها .

— هل تستدعي طبول بر سبك كل هذا الاستغراق ، إنك نسيت وجودي تماما . قل لي ماذا تعني ؟

ترددت برهة قبل أن أجيب . ماذا أقول لها ؟ هل أقول لها إن الإله سبك ينتظر قربانا بشريا ، وأن هذا القربان قد يكون أي شخص منا ؟ قد تكون هي ، أو أنا ، أو حتى الأمير نفسه ؟ هل أقول أنه إذا كان حدسي صحيحا فإن الطبول لن تتوقف حتى يسقط القربان البشري بين فكي الإله الرهيبين ؟

لكنني لم أكن متأكدا على كل حال فلماذا أفزع الصبية ؟

— إنني لاأستطيع أن أجزم بشيء لم أسمعه أو أراه .

ضربت الصبية بقدمها في الأرض غاضبة ، وتطلعت إلى بعينيها الواسعتين .

— ماذا تظنني ؟ هل تعتقد أنني صبية بلهاء ؟ ألا تعلم أنني من الرائين(١)؟ لماذا لاتخبرني بما تعتقده .

لم يكن من عادتي الكذب . لكن لم يكن من عادتي أن أرغم على قول مالا أريد . قابلت نظراتها الغامضة بنظر متفحص ثابت لايتحرك .

— ان مايخامرني مجرد ظن لا يعلو إلى مرتبة الاعتقاد ، أو التأكد .

لم يبد عليها أنها مستعدة للاقتناع بهذه الإجابة ، وكادت تستطرد في استجوابي لولا أنها رأت أن عمها رع موسى قادم نحونا . لاحظت التقطيبة التي بدت على وجهه حينما رأى ابنة أخيه تجاذبني الحديث . وعجبت من السبب

---

(١) الراءون من كهنة وكاهنات إيزيس الذين كانوا يستطيعون بعد تدريب شاق أن ينتقلوا بأرواحهم ليروا الأماكن البعيدة . لكن استعمال هذه الميزة كان يجب أن يكون بأمر الالهة .

الذى يحدو به إلى كل هذا الاهتمام بأن تبتعد الصبية عن مخالطتى . ولم يلق الكاهن بالتحية وإنما ابتدر ابنة أخيه .

— أنت هنا ياتفنت ؟ أليس الأفضل أن تكونى مع أقرانك لعل الأميرة تسأل عنك ؟

ولم ينتظر اجابتها ، وإنما أشاح عنها بوجهه ، والتفت إلى . ولاحظت وجه الصبية وقد تولاها الغيظ ، وكادت الدموع أن تطفر من عينيها إذ أحست بالمهانة لهذه المعاملة القاسية التى لقيتها من عمها ، لكنها تمالكت نفسها ، وأسرعت تجرى على ظهر المركب دون أن تنبث ببنت شفة .

— هل جاءتك الأنباء ياكاى ؟

— عن طبول برسبك ؟

— أجل . ومن أنباك ؟

— الصبيـــة .

قطب الكاهن ما بين حاجبيه .

— وما تدرى تفنت ؟

— قالت إنها سمعت القوم يتهامسون عن الطبول .

— وهل أخبرتك عن معناها ؟

— كلا لم تكن تعرف .

— وهل أخبرتها أنت ؟

— كلا فلست أعرف .

نظر إلى الكاهن متعاجبا .

— ألا تعرف حقا معنى طبول برسبك ؟

— سيدى لم أعتد الكذب . أنى لا أعرف معناها . فلم أسمعها ، لكنى أشك فى رسالتها .

— وماذا تظن الرسالة ياكاى ؟

— أظن أن الاله سبك ينتظر قربانا بشريا .

— ينتظر قربانا بشريا . أجل لقد أصبت فى حدسك .

وتفرس رع أستاذى فى وجهى طويلا ثم أضاف .

— وهل هذا كل ما حدسته ؟

— أجل .

لم يحول الكاهن نظره عنى ، وظل لفترة صامتا قبل أن يقول .

— أحسب أنك صادق . إسمع يا كاى أريد أن أطلب منك شيئا . أرجو أن تجيبنى إليه .

— إذا كان فى استطاعتى .

— إنه فى إستطاعتك . إن تفنت إبنة اخى . وهى بالنسبة لى احب من إبنه . وكل ما ارجوه الا تتوطد الصداقة بينكما . لا تسىء فهمى . إنى قلت لك سابقا إن الدماء على يديك ، وإن الموت يسير فى ركابك . وان يعلم احد من سيختطف ممن هم حولك . هل فهمت ؟ انى لا اريد لابنة اخى ميتة مريعة .

لم افه بكلمة . إننى ككاهن اعلم الكهانة ، واعلم اننا قلما نخطىء فى تصوارتنا عن المستقبل . بل إن رع موسى شخصيا معروف بصدق كهانته ، وصحة تنبؤاته ، لكننى اعلم ايضا اننا كنا نخطىء احيانا . صحيح ان نسبة الخطأ ضعيفة ، لكنها موجودة على اى حال . وبالنسبة لى لم يكن هنالك اى دليل على المستقبل المرعب الذى يتوقعه لى الكاهن .

ظل رع موسى يتفحص فى وجهى منتظرا إجابتى . ولما رأى أننى مازلت صامتا أردف وكأنه يقرأ أفكارى .

— كلا يا بنى ليس هنالك فى هذه الحالة أية نسبة من الخطأ . لقد قرأت النجوم ، وأعدت حساباتى أكثر من مرة . بل إننى جربت أكثر من طريقة ، وكانت النتيجة دائما واحدة لا شك فيها . إن الدماء على يديك ، والموت يسير فى ركابك . هلا وعدتنى بأن تبتعد عن طريق تفنت ؟ وإن كنت أعتقد أنه لا فائدة من هذا الرجاء ولن يغير فى الأمر شيئاً .

— لماذا كل هذا الإصرار ؟ هل استطلعت النجوم عن مستقبل تفنت أيضا ؟

تردد الكاهن قليلا ثم طأطأ رأسه .

— أجل ، لكن بحق آلهتك لا تخبرها .

لم تفتنى الملاحظة . فبالرغم من أنه يرجو ما يكاد أن يصل إلى حياة إبنة

أخيه ، وبالرغم من الهم الواضح عليه ، فإنه لم يقل الآلهة ، وإنما قال الملك كأنما هي ليست آلهته . وغمرني شعور بالرثاء لهذا الكهل الذي نسي في غمرة خوفه على إبنة أخيه أنه أستاذي ، وأنه يستطيع أن يأمرني لا أن يرجوني .

— سيدي أعدك بالا أتفوه بكلمة ، كما أنني سأحاول أن أتجنبها .

ويبدو أن الكاهن قد إقتنع بالوعد الذي قطعته على نفسي ، إذ أنه ترك الموضوع فجأة ، وراح يتكلم عن طبول برسبك ، وما سببته من رعب للذين يعلمون معناها . وكان من الجلي أنه إنما يثرثر فقط لا لغرض سوى أن يعطي لنفسه فرصة التفكير في أمر آخر يريد أن يطرحه ، لكنه عدل عن رأيه فجأة ، وتركني وإنصرف .

٭ ٭ ٭

ألقت المراكب مراسيها في شابت . وهبط منها الفرعون وولي عهده ومن شاء من معيتهما . وعلمت أننا لن نقلع إلا في صبيحة اليوم التالي ، إذ إن الفرعون سوف يقضي الليل في ضيافة الحاكم . ولما كنت لم أزر المدينة من قبل ، وكنت أعلم أن أحدا لن يفتقدني ، فإنني إنتهزت الفرصة ، ومضيت أتجول في شوارعها ، وأزقتها ، لم تكن المدينة تختلف فيما احسب عن عشرات غيرها من المدن الصغيرة . كانت مبانيها من اللبن ، ولا تتجاوز طابقا واحدا في معظم الاحوال ، وقد طليت باللون الأبيض . وانقسمت المدينة إلى قسمين أحدهما فيه قصر الحاكم إلى جوار النيل ، وحوله قصور قليلة متناثرة لعليا النبلاء أو الاثرياء ، وتحف بها الحدائق الجميلة تحيطها الأسوار . وكانت هذه المباني من طابقين . أما الجزء الآخر من المدينة فيقطنه العامة من الناس ، وكل منازله من طابق واحد ، وقد تلاحقت دون حدائق ، كما أن الأزقة فيه ضيقة ، وقد علتها الأتربة والأوحال . أما السوق فكان خارج البلدة في الجزء الغربي منها ، ولم يكن سوى مكان فسيح ، يعرض التجار ، والفلاحون فيه سلعهم وبضائعهم ، وتتم فيه الصفقات عن طريق المقايضة في أغلب الأحيان . ولم تخل الأزقة ، والحارات من الأطفال نصف العرايا يلعبون في الأوساخ والأوحال ، كما لم تخل من البهائم تساق إلى حظائرها في البيوت . ولم يكن هنالك نزل . وإنما انتشرت في الشارع الرئيسي الذي يفصل البلدة إلى قسمين بعض الخانات التي تحتفظ بحجرة أو حجرتين في فنائها

الخلق تؤجرها لمن شاء المبيت ، أو لمن شاء أن يختلى بالراقصات أو بنات الهوى .

لم أشعر بمضى الوقت إلا حينما لاحظت أن آتوم بدأ رحلته ليستقر فى مانو ( جبل الغرب )(١) فاتجهت بدورى إلى السفينة خشية ان يحل الظلام ، وافتقد طريقى إليها ، ومع هذا فضلت ان اتخذ طريق النيل ، فقد كان له بالنسبة لى سحر خاص . لم اتعجل السير إذ لم يكن لدى ما افعله فى السفينة ، كما ان ضوء آتوم كان مايزال يضفى نورا باهتا على الكون بدت الأشياء من خلاله خيالات تتحرك كالأشباح .

يبدو اننى تمهلت اكثر مما كنت اود ، او ان المسافة إلى المرسى كانت إطول مما كنت اظن ، إذ اننى تبينت فجأة اننى اصبحت اسير بمفردى على الشاطىء ، وان الفلاحين ، والفلاحات ، والصبية الذين كانوا يغدون ذهابا ، وجيئة إلى الشاطىء قد أقفر منهم المكان . وبدأت اتحسس خطواتى بعد ان تعثرت أكثر من مرة ، ومع هذا فلم اشعر بأى خوف أو رهبة ، اذ ان اضواء المدينة كانت قريبة كما ان المرفأ بدا يتلألأ بأنوار سفن ركب الفرعون .

داخلنى شعور غريب بأن هنا لك من يقتفى آثارى ، فالتفت ورائى ، لكننى لم ار شيئا ، ربما لأن الظلام كان قد بدأ يحل ، او لأن المترصد كان كثير الحذر ، او لعله خيالى الذى صور لى وجود من يتبعنى . ونفضت عن نفسى هذا الوهم ، لكننى اسرعت قليلا فى خطواتى .

وانقذت هذه العجلة حياتى ، لم اتبين حفرة صغيرة فى الأرض فى هذا الظلام ، وتعثرت فيها ، فإنكفأت على وجهى على التراب . وفى هذه اللحظة لمع نصل حاد كان هدفه ولا شك جسدى ، لكنه خبط فى الهواء بلا هدف . واختل توازن القاتل ، فوقع بدوره على الأرض . وجاءت سقطته فوقى تماما فى حين إنفلت من يده الخنجر .

كانت هذه هى المرة الأولى فى حياتى التى اشتبك فيها فى عراك حقيقى . لم اكن ادرى من فنون المصارعة شيئا ، لكن يبدو ان المرء يولد وبداخله غرائز

---

(١) المقصود بالجملة ان شمس المغرب قد بدات تغيب فى الافق .

وعبقريات معينة ، فإذا كان هذا صحيحا ، فإن مافاتنى من مران . وخبرة ، عوضته بلا شك عبقرية غريزية . فى لحظة كنت قد تناسيت تماما تعاليمى الدينية ، ومركزى اللاهوتى . وإنقلبت حيوانا غاضبا يقاتل من أجل الحياة .

ومن الغريب أنى مع صغر سنى لم أشعر بأى خوف أو رهبة، بل وأستطيع أن أقول إننى لم أفكر أصالة فى نتيجة الصراع ، وإنما داخلنى شعور باللذة للقتال فى حد ذاته . ومع أنى كنت ما أزال بعيدا جدا عن اكتمال الرجولة ، فإن جسمى كما قلت كان قويا .

فوجىء المهاجم بما لم يكن يحسبه . كان يعتقد أنه يهاجم غلاما قد انخرط فى سلك الكهنوتية فهو فريسة سهلة ، من أى وضع نظر إليه ، فإذا به يرى نفسه يطرح من على الجسم بسهولة ، ليتدحرج على الأرض . وفى خفة ، لم أترك له فرصة يستعيد فيها أنفاسه بل انقضضت عليه أشبعه لكما ، وضربا فى كل جزء من جسده ، ووجهه . كان الرجل أقل منى جسما ، وأخف وزنا ، لكنه أيضا كان أكبر سنا ، وأصلب عودا . ومع هذا ، وبالرغم من محاولاته المتكررة فى أن يتخلص منى حين اعتليته ، فإنه لم يفلح ، وما كانت لكماته وضرباته التى كالها لى لتبعدنى عنه ، أو أن توقف سيل الضربات التى كانت تنهال عليه بلا هوادة .

ضعفت مقاومة الرجل حتى توقفت نهائيا . ومع هذا فإننى كنت مازلت أعتليه ، وأضرب بكل قوتى وقد أعمانى غضب جائح لم أدر كيف أوقفه . أحسست بأسنان الرجل تتكسر تحت قبضتى ، وإنبثقت الدماء من فمه ، كما شعرت بآلام فى يدى . . وفجأة رنت فى عقلى كلمات عمى رع موسى . إن الدماء على يديك ، والموت فى ركابك . وانفثأ غضبى ، وكأنما قد إنزاحت غشاوة ثقيلة من عينى . نظرت إلى الرجل المسجى تحتى لأرى الكدمات تغطى وجهه ، والدماء تسيل من أكثر من موضع . وداخلنى رعب شديد أن أكون قد قتلته فإنكفأت أتحسس نبضات قلبه ، ولم تتركنى لهفتى الا حينما وصلت إلى أذنى دقاته الضعيفة . أسرعت إلى مياه النيل اغترف منها وأعود بها إليه أمسح وجهه حتى بدأ يفيق من غشيته ، ومع هذا فقد إستمريت أبلل أطراف ردائى وأعصره عليـــه .

أخيرا فتح الرجل عينيه ، أو لعل الأصح أن أقول أننى رأيت العينين الغائرتين وسط الوجه المتورم . وتساءلت .

— من أنت ؟

ولم يجب الرجل .

— من أرسلك لقتلى ؟

إستمر الرجل على صمته ولم ينه بكلمة ، وإنما اخرج من فه ، اعنى تلك الفتحة فى وجهه التى كانت فمه ، أنينا مكبوتا . وتملكنى الغضب فأمسكته من ردائه ، وشددت بالقماش على رقبته ضاغطا بأقصى قوتى . ولم يكن الرجل فى حالة تسمح له بالدفاع عن نفسه ، ولعل هذا هو الذى انقذه من موت محقق ، ذلك أننى توقفت عن الضغط حينما شاهدت تلك النظرة اليائسة المتوسلة التى إرتسمت فى عينيه . تركت سترته ، ووقفت أرقبه وهو يستنشق الهواء بشدة . ووقفت برهة أنظر إليه .

— هل تستطيع أن تنهض وتسير ؟

بدت على الرجل نظرة من لا يصدق أننى سوف أتركه ، لكنه هز رأسه إيجابا . انحنيت التقط الخنجر الملقى على الأرض ، وأضمه داخل ردائى ثم أدرت للرجل ظهرى ، وسرت نحو المرفأ ، وقد احتوانى التفكير .

كان الظلام قد حل تماما حينما بلغت السقالة . ولاحظت من طرف عينى وأنا أصعد ظهر المركب أن شبحا يرتدى ملابس بيضاء يتقدم لإستقبالى . وتبينت فى الشبح شخص تفننت ، فأسرعت فى خطاى، وتجاهلتها تماما ، وكأننى لم أرها . إتجهت فورا إلى قمرتى فلم أكن فى حالة أرغب فيها فى رؤية أحد ، واستلقيت على الفراش أريح جسدى المكدود ، وأفكر فى الأحداث التى مرت .

كانت يداى تؤلمانى ، وكانت بها بعض الجروح من أثر أسنان الرجل . كما أننى تبينت أن فى وجهى كذلك بعض الخدوش ، والكدمات . جلست على حافة الفراش أفكر فى ذلك الذى يريد قتلى ، لكن طرقا على الباب قطع حبل أفكارى . ودخل عبدى خندو . وان كان قد لاحظ شيئا فلم يشر إليه وانما احضر معه الابريق والطست . فمضيت اغتسل ، وانظف من جروحى فلما انتهيت احضر لى ثيابا نظيفة ، وساعدنى على خلع ملابسى ، ثم اخذها ، وادوات الغسيل

خارجا وعاد ليسألنى إن كنت أود العشاء فلما أجبت بالايجاب أقفل الباب وراءه دون أن ينبس بكلمة .

فى هذه الليلة وصلت إلى أذنى أصوات الطبول لأول مرة . كانت الأصوات بعيدة لا تكاد أن تصل إلى الأذن ، ومع هذا فقد كانت واضحة زادت من وحشة الليل وسكونه . خيل إلى أن الطبول تخاطبنى شخصيا ، وأنها تدعونى . وتوجه إلى رسالة . كان شعورا غريبا ذلك الذى إنتابنى ، فقد إنفصل إحساسى عن العالم جميعا وكأنما أصبحت وحيدا فى السكون لا يرافقنى فيه إلا صوت الطبول . وتأكدت من رسالتها ، ولم يصبح هناك أدنى شك فى أن الإله سبوك ينتظر قربانا بشريا . داخلنى شعور ببعض الخوف . هل أنا هو ذلك القربان الذى ينتظره الإله التمساح ؟ ولم يفارقنى هذا الشعور وأنا أتناول طعام العشاء كما لم يفارقنى حتى بعد نومى إذ أذكر أننى إستيقظت أكثر من مرة وفكى الإله تطبقان على .

فى الصباح كان أول صوت سمعته حين إستيقظت هو صوت الطبول . وحضر خندو حاملا أدوات الغسيل . وبالرغم من أنه قد لاحظ يداى المجروحتين ، والخدوش التى فى وجهى فإنه لم يقل شيئا ، وإستمر يصب الماء حتى إنتهيت . وفى سكون أخرج ثيابا نظيفة ، ووضعها على الفراش ثم إنسحب خارجا . ولم أكد استبدل ملابسى حتى كان قد عاد حاملا صنية الإفطار . وكنت أشعر بجوع شديد فتناولت إفطارى بشهية .

لم أشعر برغبة فى الخروج من قمرتى . وفضلت أن أبقى بها طوال اليوم حتى أتحاشى أن يلاحظ أحد الخدوش التى فى وجهى ، أو الجروح فى يدى ويبدأ فى التساؤل عن مصدرها . ومضى النهار وأنا أكتب مذكراتى واقرأ فى بعض الكتب : ولم تتوقف الطبول طوال اليوم ، ولكننى لم أعرها أى اهتمام إذ أننى كنت أعلم أنها لن تتوقف حتى يتلقى الإله سبوك ضحيته ، وما كنت أهتم لو أننى أنا شخصيا الضحية . وحوالى منتصف النهار سمعت الأصوات تحيى الفرعون وولى عهده . وازداد الهتاف على الشاطىء ، وعلمت أن الفرعون قد قرر الرحيل . وفعلا لم يمض وقت طويل حتى شعرت بالسفينة تتحرك ، ومع هذا فلم أحاول أن أترك قمرتى

كان لدى وقت طويل أفكر فيه فى أحداث الليلة الماضية محاولا الإجابة على الأسئلة التى ألقيتها على الرجل . هل كان لصا ؟ لكن ما الذى توقع أن يجده

مع كاهن صغير من كهنة آمون ؟ لا لم يمكن الغرض من هجومه السرقة ، كما أن الخنجر الذى حاول طعنى به كان من الحديد ، وهو سلاح نادر لم يكن يوجد فى أيدى اللصوص العاديين . لقد أعطاه شخص مجهول هذا الخنجر خصيصا لقتلى ، ولعله كان أيضا ثمنا لحياتى . لكن لماذا يريد أى شخص أن يقتلنى ؟ هل هو رع موسى الذى أراد أن يتخلص منى حتى لا ينقذ إبنة أخيه الصغيرة . ويبعد عنها شبح الموت الذى تصور انه سيأتى على يدى ؟ ولم اطل التفكير فى هذا الاحتمال فما كان الكاهن قاتلا ، وما كان ليلجأ إلى مثل هذه الأساليب . إذاً فمن ؟ لعله ذلك الشبح الذى كان يلتصص على الأمير فوق سطح السفينة ، والذى إختفى فى الظلام حينما لاحظ وجودى . ربما يكون قد خشى أن اكون قد تبينته فأراد ان يقضى على قبل ان افشى سره . وكلما امعنت فى التفكير كلما إزداد إقتناعى بصحة تصورى . إن شخصا ما يريد الشر بالأمير . وهو يخشى ان اكون قد عرفته فأراد قتلى. ولسبب ما تحول تفكيرى إلى رئيس البحارة . وتذكرت تلك النظرة التى تبادلها مع النبى الرابع سى موت . وبدا لى وجه والدى يتطلع إلى فى شفقة وحنو وسط الزحام .

لم تتوقف الطبول طوال اليوم . ولا هى توقفت حينما حل الظلام . كانت دقاتها رتيبة تؤدى الرسالة نفسها ، وتكررها المرة تلو الأخرى . إن الإله سبوك ينتظر قدوم القربان البشرى . ولعل ركاب السفينة قد أحسوا بالرهبة ، والخوف من رسالة الموت فلم تكن تسمع ضحكات النساء ، او اصوات الرجال . كان الكلام همسا ، والخطوات تحسسا . وشعرت بسأم من البقاء فى القمرة وكانت الخدوش فى وجهى قد زالت او كادت فى حين خفت آلام الجروح فى يدى . فقررت ان اخرج إلى ظهر السفينة . وضعت يدى داخل ردائى ، ولم يكن ذلك بالغريب ، وإنما كانت عادة يتبعها كهنة آمون ، فلم يكن من المحتمل ان تلفت النظر . خرجت من القمرة وعبرت الممر إلى سطح المركب . وترددت إلى اى مكان اتجه .

تطلعت إلى مؤخرة المركب ، ورأيت شبح شخص يقف مستندا إلى السور تبينت فيه سمو الأمير ، ولى العهد ، ووقفت مترددا انظر إليه وهو لا يشعر بوجودى إذ كان كعادته مستغرقا فى تأملاته . استشعرت حرجا من ان اتلصص على الأمير فى خلوته ، لكننى كنت من ناحية اخرى، اخشى أن اتركه بمفرده

فكأنما قد عينت من نفسى حارسا عليه إذ أننى كنت أعتقد أنه لو صح تفكيرى فإن حياته تتعرض لخطر داهم لا يعلم به أحد على السفينه سواى ، والقاتل والمنتظر.

بقيت فى مكانى متواريا فى الظلام . وطال إنتظارى ، لكن الصبر بحكم مهنتى لم يكن غريبا على ، فلم أتململ أو أتحرك . وظللت أستمع إلى دقات طبول سبوك التى لا تتوقف والتى بدت كأنما تنتقل مع السفينة فى كل جزء تقطعه . أدرت عيناى أكثر من مرة خلال الممرات أترقب أية حركة ، لكن شيئا لم يحدث . أخيرا تحرك الأمير متجها إلى الداخل . ولم أظهر نفسى حتى اختفى خلف الباب ، ودرت دورة سريعة فى المؤخرة ولم أجد أحدا . فلعل تفكيرى كان مجرد أوهام ، أو لعل القاتل المرتقب كان أكثر حذرا ، وأشد خبثا .

لم تتوقف الطبول طوال الليل ، ولا هى توقفت بعد ذلك . وتتالت القرى والمدن ، والمناظر تكاد أن لا تتفاوت . الصبية وثيرانهم ، وحيواناتهم ، والنساء وجرارهن ، والرجال ، وأعمالهم ، والنيل فى هدوئه ، وجريانه ، وروعته ، ومستنقعاته التى تبدو من آن لآخر . وفى كل مدينة كبيرة تمر بها كانت سفن الحاكم ، والأثرياء ، وقوارب الأهالى تخرج مهللة لإستقبال الفرعون العظيم وركبه . وتتالت المدن ، ابنوت ( دندرة ) ، وحات سخم ( هو ) ، وبافنوت ( نجع حمادى ) ، وسما بهدت ( تمود ) وباســـون ،(باصونة ) وبالرغم من أن الظلام كان قد تجاوز منتصفه إلا أن النيل ( حابى ) كان يتلألأ كالنهار من كثرة أضواء مشاعل القوارب ، والسفن التى كانت تحيط بالسفن التى كانت تحيط بالسفن الفرعونية ، كما لم يتوقف هتاف الجماهير لحظة إذ أن الأهالى فى كل مدينة أو قرية يحيون القافلة ولا يتركونها إلا فى حدود المدينة التالية .

لا أحسب أن معظمنا قد أصاب كثيرا من النوم فى هذه الليلة إذ أن المدن كانت قريبة من بعضها حتى أن الهتافات لم تنقطع طوال الليل . ولعل البعض قد نسى الطبول التى كانت ماتزال دقاتها تصل إلى الآذان بالرغم من أصوات الهتافات ، لكننى كنت مازلت أسمعها وأنا مستلق على فراشى أحاول أن اختطف ساعات قليلة من النوم . ولا أحسبنى نمت أكثر من ساعتين إذ إننى استيقظت قبل أن يطل علينا خبر ( شمس الصباح ) بطلعته البهية . وبمجرد أن استيقظت ، وصلت إلى أذنى الأصوات المختلفة من الجماهير وخيل إلى

شيء آخر . خيل إلى أن أصوات الطبول قد إزدادت إرتفاعا ، وأنها تحمل معانى أخرى . لم أتمكن من التقاط المعنى نظرا لأن الهتافات كانت تختلط بالطبول ، لكننى لم أشك فى أن نغمها قد اختلف عن ذى قبل .

داخلنى شعور غريب بالانقباض . وأحسست أن اليوم يحمل فى طياته مآسى وأخطارا . ولم أكن لأدع مثل هذا الشعور يسيطر على فسرعان ما نفضته عن نفسى وقمت لأودى واجباتى الدينية الصباحية . وكأنما كان خندو يقف على باب الحجرة فلم أكد أبدأ فى الحركة حتى كان يطرق الباب برفق مستأذنا ، وحينما دخل كان يحمل إبريق الماء والطست للغسيل . وتأملت الرجل . كان شخصا عجيبا يؤدى مهمته على أكمل وجه . لم أسمعه مرة يتفوه بكلمة ما لم إليه سؤالا . لم أره يرفع بصره عن الأرض ، كما لم أر على قسماته أى تغيير كأنما قد انعدم من الأحاسيس ، ومع هذا فإننى كنت أعلم أنه ما كان ليتردد لحظة أن يلقى بنفسه إلى التهلكة إذا ظن ان فى هذا أدنى فائدة لى . ولهذا كانت دهشتى كبيرة حينما رفع رأسه فجأة واستقر ناظراه على وجهى ثم تكلم بصوته الأجش :

— حذار يامولاى لن يمر اليوم دون حادث .

وثبت نظرى بدورى على عينيه .

— أتعنى طبول برسبوك ؟

خفض العبد رأسه ، وعاد إلى ما كان عليه ورد بكلمة واحدة .

— أجل .

— أهى تعنينى ياخندو ؟

— أجل .

ساد الصمت . ورفع خندو ادوات الإغتسال ، وانسحب من الحجرة ، وتركنى وافكارى . إذاً فالإله سبوك ينتظرنى . لابأس فإنى ذاهب إليه . وما كان الموت ليخيفنى أنا خادم الإله الأكبر ، رب الأرباب . إذا كنت سوف أموت بين فكى الإله سبوك فهى ميتة شأن أية ميتة أخرى . لكن إلى أين ستعود « با » (الروح) بعد أن تفارقنى ؟ أين ستجد الجسد الذى سليتهمه الإله سبوك ؟ لعل رب الأرباب يمنحنى جسداً آخر خيرا مما أنا فيه . وخيل إلى أن هتافات الجماهير قد بعدت ، وأن صوت الطبول يعلو حتى غطاها . أجل لاشك فى أن الطبل ،

تخاطبنى شخصيا ، وانما تقول إن الإله سبوك ينتظرنى . وقطع على حبل تفكيرى ، أو تصوراتى دخول خندو بطعام الإفطار .

تناولت افطارى ، وعاوننى خندو فى إتمام زينتى ، وإبدال ملابسى . كان خبر قد بدأ يرسل اشعته من وراء الجبال حينما صعدت إلى ظهر السفينة . وكان اول من التقيت به هو رع مومى استادى السابق ، وهو يسير متريضا بصحبة إبنة اخيه تفنت . اومأت برامى ملقيا تحية الصباح إليهما ، لكننى لم اتوقف لتبادل الحديث ، وإنما إتجهت من فورى إلى مقدمة المركب حيث اصبحت مكانى المفضل الذى آوى إليه بعيدا عن حاشية الأمير . وقفت انظر الى القوارب الصغيرة ، والمراكب ، والسفن ، وهى تحيط بالقافلة الملكية ، وتمخر عباب النيل فى آثارها . لاحت من بعيد أشباح مدينة تنو ( جرجا ) وقد ربضت منازلها البيضاء وسط الحقول الخضراء فأعطت صورة جميلة ترتاح إليها العين . كانت هذه آخر مدينة نجتازها قبل ان نصل إلى بر سبوك ( المنشأة ) وإن كان الفرعون قد اعلن عن رغبته فى اننا لن نتوقف فى كليهما ، وإنما يكون إلقاء المراسى فى خن مين ( أخميم ) التى كان التقدير أننا نصلها فى الصباح التالى .

مرة أخرى وجدت نفسى أصيخ السمع للطبول . توارت أصوات الناس ، وارتطام مقدمة السفينة بالمياه ، ولم يبق عندى أدنى شك فى أن الطبول موجهة إلى تحثنى على الإسراع إلى الإله ، وكأنما قد فرغ صبره من الإنتظار . نظرت إلى المياه تنساب حول المركب . وخيل إلى أن عينى الإله سبوك الخبيثتين ترقبان تحت صفحة المياه ، وأنه يسبح إلى جوارنا مترقبا ، منتظرا أن يطبق فكيه الرهيبين على جسدى . وبالرغم منى سرت فى قشعريرة . وأدرت عيناى بعيدا عن المياه . تلفت الى ظهر المركب كأنما أبحث عن صديق . ووقعت عيناى على خندو ، العبد الأمين وهو يقف على مسافة منى لاتتحول عيناه عن وجهى . وبدا لى أن القلق قد إستولى على الوجه الأسمر الذى ما كان يبدو عليه شىء كأنما هو قد من صخر ، فارتسمت على شفتى شبح ابتسامة أطمئنه بها .

أبصرت تفنت تسير نحوى بسرعة . ولم يكن فى استطاعتى أن أتحاشاها ، فوقفت مكانى أنظر إليها وهى قادمة . كان جسدها جميلا متناسب التقاسيم ، كما كانت خطواتها رشيقة بالرغم من سرعتها . ولم أتمالك من أن يداخلنى شعور

بالإعجاب بالفتاة . وقفت بعد أن وصلت على قيد خطوة منى ، ورفعت عينيها إلى وجهى بتلك النظرة الصريحة ، وسألتنى دون مقدمات .

— ماهذه الخدوش التى فى وجهك ؟ ولماذا تخفى يديك فى ردائك ؟

تملكتنى الدهشة ، لكنى أجبت فى هدوء .

— لست أحسب ياصغيرة أن من حقك مساءلتى . لكن الا تعلمين أننا نحن الكهنة كثيرا مانسير وأيدينا تحت أرديتنا ؟

— لا تروغ من الإجابة ! كيف حدثت هذه الخدوش فى وجهك ؟ ولماذا لم تخرج من قمرتك طوال الأمس ؟

تنهدت مستسلما .

— إذا كان لا بد لك أن تعرفى فإنى أحسب أن بعضهم اعتقد أننى أحمل ما يستأهل السرقة حينما كنت أتريض فى شايت أمس الأول . ولم أخرج من قمرتى البارحة حتى أتحاشى أسئلة الفضوليين أمثالك .

— لا اعتقد أنك تروى كل ماحدث . أرنى يديك .

كانت تتكلم بلهجة آمرة حتى أننى لم أتمالك نفسى من الابتسام . لكنى لم أكن مستعدا للدخول معها فى مناقشة ، وإيضاحات ولهذا كانت لهجتى حاسمة حينما رددت .

— يبدو أنك نسيت تحذير عمك الا تقربيننى ، لكننى لحسن الحظ أذكر طلبه .

لم أدع لها فرصة للرد ، وإنما كررت الإبتسامة ، وتخطيتها متجها إلى قمرتى . وشاهدت بطرف عينى خندو وهو يتحرك من مكانه ، ويتبعنى كظلى .

مضى النهار ولم أخرج . وكانت أصوات الجماهير قد توقفت حوالى الظهيرة حينما احتل رع كبد نوت ( السماء ) . ويبدو اننا كنا قد اجتزنا تنو (جرجا) فعلا ، وسارت المراكب فى منطقة لا يوجد بها مدن وإنما بعض القرى المتناثرة . ومع إنعدام أصوات الهتافات بدت الطبول مسيطرة تماما على السكون .

كانت دقاتها عالية رتيبة تثير الرهبة فى النفس . ويلوح أن الشعور بالخطر عاد إلى ركاب السفينة ، فلم أعد أسمع ضحكاتهم ، أو خطوات وقع الأقدام على السطح . وزاد السكون من الوحشة ، ومن رهبة دقات الطبول . وكأنما أراد رع أن يشارك فأرسل أشعته حارقة اسكتت الرياح ، وضاقت بها الأنفاس . وحتى حينما تنحى رع ( شمس الظهيرة ) لا توم ( شمس المغرب ) عن عرش نوت ( السماء ) فإن الحرارة لم تهبط ، ولم تتحرك نسمة تخفف من حدتها .

أخيرا ذهب أتوم ليستقر فى مانو ( جبل الغرب ) . وأحاط الظلام السكون بجناحيه . ومع أن النسيم لم يتحرك إلا أن رعدة من البرد سرت فى الجو . وصعد الركاب إلى ظهر السفينة ، وبدأت ضحكاتهم تعلو ، وقد بدا انهم نفضوا عن انفسهم الخوف مما تحذر منه الطبول . ورأيت بدورى ان انفض عن نفسى الكآبة التى إنتابتنى طوال اليوم ، وحملتنى على ألا اتحرك من قمرتى . دلفت إلى السطح . ثم بحركة آلية التفت إلى حيث إعتاد الأمير ان يقف . وهناك عند المؤخرة كان شبحه الأبيض جليا فى سواد الليل . لم يكن ( القمر ) قد ظهر بعد ، وكان الظلام حالكا لايكاد المرء ان يرى لأكثر من بضع خطوات . ولبثت مكانى لاأتحرك ارقب الأمير وهو مستغرق فى افكاره وتأملاته ، وقد تركه القوم لحاله وابتعدوا إلى الناحية الأخرى يتصايحون ، ويتضاحكون .

هممت بأن اتحرك متجها إلى مكانى المفضل حينما خيل إلى ان هناك حركة خفية فى الظلام . تسمرت قدماى حيث اقف ، واجهدت بصرى محدقا فى سواد الليل . اجل كان هناك من يتحرك ببطء شديد ، وقد التصق بجدار القمرات محاذرا ان يراه احد : كان من الجلى ان هذا المتلصص يريد شرا بالأمير . وتم ماحدث بعد ذلك فى لحظات . لا يمكننى ان اصفه بدقة لكننى اذكر ان عقلى كان يعمل بسرعة خاطفة ، وان جسمى كان يتحرك معه دون انتظار او تمهل . كانت المسافة بينى وبين الأمير تزيد على عشرين خطوة ، فى حين أن المسافة بينه وبين القاتل المنتظر لم تكن لتزيد على النصف . اندفع الشبح من مكمنه فى الظلام وأحسب أنه أمن أن أحد لايراه . مد يده ليدفع الأمير إلى المياه ، لكننى كنت

أسرع إذ قذفت بثقل جسمى كاملا عليه أبعده عن الأمير . التفت الرجل وقد علت وجهه علامات الدهشة الممزوجة بالرعب . وفى هذه اللحظة عرفته . كان رئيس البحارة . وأحسبنى أيضا قد تأكدت من تفاصيل الجريمة المريرة . وفى اللحظة نفسها تأكدت من دور سى موت وأبى فيها .

التفت الأمير مذعورا ، وندت من فم الرجل صرخة مكتومة . حاول أن يستعيد توازنه لكن جسده اندفع من أثر الصدمة ليصطدم بسياج السفينة ويهوى إلى المياه . وسمعت صوت ارتطام جسده بالماء . ومرت لحظات ثم أصوات متباينة فى الماء وصرخة عالية لم تكمل ، ثم سكون مطبق . وقف الأمير ينظر إلى النيل الهادى ينساب حول السفينة ، ووقفت أنا كالمذهول لا أدرى تماما ما حدث . وفجأة أحسست بالصمت المريع الذى ساد السكون . لقد توقفت طبول يرسيبوك .

---

# الفصل الثامن

# أول الدماء

ـــ لقد قتلته . انك دفعته عامدا إلى المياه ليتلقفه الملك الملعون . لقد رأيتك تفعل هذا بعيني . سوف تحاكم . وسوف أشهد أنا شخصيا المحاكمة ، وسوف تعدم ، ولن يفلح كل كهنة آمون فى إنقاذك من براثن الموت .

كان الأمير قد إلتفت إلى وقد زاغت عيناه . كان صوته قد علا وهو يتكلم بحدة ، وغضب لاأحسب أنه كان يستطيع أن يكتمه . وسمع الكثيرون صوت الأمير فبدأوا يعدون إلى حيث كنا ، ويحيطون بنا . لم أتحرك من مكانى ، ولا فهت بكلمة واحدة ، إذ أنى كنت أعلم أن أية كلمة أفوه بها سوف تدين الأنبياء . ومنهم والدى . لاحظت وجوه الحاضرين وكلها نظرات سخط وحقد . حتى الأميرة نفرتيتى كانت قد حضرت ووقفت إلى جوار زوجها الأمير واكتسى وجهها الجميل مسحة غضب . كانت القرابين البشريه قد بطلت من زمن بعيد ، وإن كنا نعلم أن فى بعض البقاع النائية كان ما زال بعض المتعصبين يمارسونها خفية .

تقدم شخص يخترق الحاضرين ، ولما وصل عرفت فيه رع موسى أستاذى السابق . ونظر إلى الكاهن نظرة غريبة متسائلة إذ يبدو أنه لم يكن قد ألم بالموقف تماما . وما كاد ولى العهد أن يراه حتى صرخ فيه .

ـــ تعالى يارع موسى هذا هو تلميذك ، لقد قتل لتوه رئيس البحارة ، وقد شاهدته بعينى رأسى وهو يدفعه إلى المياه ليتلقفه إلهه الملعون سبوك قربانا بشريا . فعل ذلك استجابة للطبول التى كانت تدعوه منذ أكثر من يومين . يجب أن يلقى جزاءه أيا كانت النتائج . أنظر إليه . إن علامات الإجرام واضحة على وجهه وهو لا ينطق بكلمة .

التفت رع موسى إلى وتكلم وكأنما لا يحيط بنا أحد :

— إن الدماء على يديك يافتى . هذه هى أول الدماء وان تكون آخرها .

وعلا صوت الأمير .

— إنك مخطىء فى تنبؤاتك يا كاهن . هذه هى آخر الدماء . أعدك بذلك إن هذا الفتى سوف يحاكم . وسوف أشهد بنفسى الحكم عليه بالإعدام .

كان الأمير مازال فى ثورته العارمة ، لكن صوت رع موسى كان هادئا وهو يهز رأسه نفيا .

— كلا يامولاى . إن الفتى ليس قاتلا ، وإن كان الموت يسير فى ركابه . لابد أن هنالك سببا قويا دفعه إلى فعلته .

تكلم يا كاى وارو لنا ماحدث .

وقفت صامتا لا أجيب . وماذا أقول ؟ ان كاهن آمون لايكذب . لكن مامن مخلوق يستطيع أن يرغمه على الإفصاح عما لا يريد ، حتى ولو كان الفرعون نفسه . كيف استطيع أن أروى تفاصيل المؤامرة وما رأته عيناى ؟ كيف أتهم أبى كشريك فى مؤامرة محاولة قتل الأمير ؟ طال صمتى ، وسكت الجمع وكأن على رؤوسهم الطير . أخيراً تكلم الأمير بصوته الرفيع الحاد ونبرات الغضب مازالت بادية .

— أرأيت إنه لا يتكلم . إنه يعترف بجرمه . وعلى أى الأحوال ماذا يقول ؟ لقد شاهدت بعينى كل ماحدث ، وما من سبب يمكن أن يبرر الفعلة الوحشية . لقد أعطيناه فرصة الكلام لكنه لم يتكلم . ومازالت أمامه الفرصة الآن إن شاء ، وستكون أمامه أيضا عند المحاكمة . خذوه إلى غرفته ، وليقم حارسان على بابه ولا يسمح له بالخروج إلا بإذننا وحين المحاكمة فقط .

إخترق حارسان الجمع وتقدما منى ، ودون ان انبث بكلمة إبتدأت فى التراجع امام الأمير . وللمرة الثانية تدخل رع موسى وقال بصوت خفيض فيه رقه وحنو .

— تكلم يا كاى ، تكلم يابنى إننى اعلم انك لست بقاتل ، وان هنالك سببا يدعوك إلى عدم الكلام لكن هذا الصمت قد يكلفك حياتك . تكلم فليس يوجد فى [illegible] ما يدعوك إلى تحمل السجن والموت .

كانت نظرتى إليه شاكرة . لكننى لذت بالصمت . ماذا اقول؟ لو فرض حتى ورويت جزءا من المؤامرة ، اعنى إننى إذا إقتصرت فقط على ذكر اننى رأيت رئيس البحارة وهو يحاول قتل الأمير فلم اجد مناصا من محاولة ابعاده ، لفتحت بابا لأسئلة لا تحصى ، فإما ان اعود إلى الصمت ثانية ، واما ان ابوح بما اعرف . علام إذا الكلام الآن ؟ ليظنوا أننى قاتل فإن هذا على الأقل سوف يقفل باب الأسئلة . اشحت بنظرى من وجه الكاهن ، وابتدأت استدير فى رفقة الحارسين . وفجأة إرتفع صوت ناعم رفيع .

ـــ هل يأذن لى سمو الأمير بالكلام ؟

تحولت العيون ناحية الصوت . كانت تفنت الصغيرة . وتسمرت فى مكانى وبحركة آلية إلتفت إلى الكاهن . كان بدوره قد تسمرت عيناه على ابنة أخيه بدهشة ، وكأنما هو ينظر إلى شخص يراة لأول مرة . وتكلم الأمير .

ـــ تقدمى يافتاة . إنك تفنيت ، ابنة اخيك يارع موسى أليس كذلك ؟ .

ـــ أجل يامولاى .

سارت الفتاة مترددة فى خطوات تنم عما يعتمل فى نفسها من رهبة . وكان صوت الأمير هادئا حنونا .

ـــ لا تخشى شيئا . هل لديك ما تضيفينه إلى معلوماتنا عن هذا الحادث المشئوم ؟

ـــ اجل إنى كنت انتظر خروج كاى رع سنب إلى سطح المركب وشاهدت كل ماحدث .

ـــ تنتظرين صعوده إلى سطح المركب لماذا ؟

إزداد إرتباك الفتاة ، لكنها تمالكت نفسها ، ورفعت رأسها بشجاعة وقد تحول نظرها الى عمها .

ـــ كنت أريد محادثته .

ـــ عن اى شىء ؟

ـــ لا شىء كنت فقط أريد التكلم معه .

تقطب حاجبا الأمير وسأل .

ـــ هل كنتما على موعد ؟

ـــ لا بل لم يكن يعلم إننى كنت أنتظره .

ـــ حسنا وماذا رأيت ؟ هل رأيت الواقعة بنفسك ؟

ـــ أجل . رأيته يداف إلى سطح المركب . ثم إلتفت إلى حيث كنتم سموكم تقفون . ورأيته ينظر بحدة ، فالتفت وكان رئيس البحارة يتلصص متجها إلى ناحيتكم ثم إندفع يريد أن يلق بمولاى إلى الماء ، لكن كاى كان أكثر سرعة ، وألقى بجسده عليه ليبعده عن سموكم ، وفقد رئيس البحارة توازنه وسقط فى اليم .

ـــ ماذا ؟ هل تعنين أن رئيس البحارة كان يريد قتلنا ؟

ـــ أجل أعتقد أن هذا هو ما بدأ واضحا من حركاته .

ـــ ألم يكن فى استطاعة كاى إذا أن يمنع 'لك دون أن يقذف بالرجل إلى الماء ؟

ـــ إن رئيس البحارة كان قريبا جدا منكم يامولاى ، فى حين كان كاى بعيدا ولم يكن فى إستطاعته أن يفعل غير هذا . ولا أظن أنه كان يتوقع أن يفقد الرجل توازنه ويسقط فى النيل بل إن كل هدفه كان أن يبعده عن سموكم .

ساد الصمت . وتحول نظر الأمير إلى ومعه انظار الرهط ، وكان صوته ، فى هذه المرة أكثر رقة . وقد إختفت منه إمارات الغضب تماما .

ـــ أحقا ما قالته تفنيت يا كاى ؟

وقفت صامتا . وعاد الأمير يتكلم بعد برهة .

ـــ إذا كان ماقالته الفتاة حقا فإنك انقذت حياتنا : ولم تكن تهدف إلى قتل الرجل فعلام إذا السكوت .؟

وهنا تقدم رع موسى .

ـــ هل يأذن لى سموكم بالكلام ؟

هز الأمير رأسه موافقا ، واستطرد الكاهن .

ـــ اعتقد يامولاى أن هنا لك أسئلة كثيرة لايريد أن يفتح لها كاى بابا .

فمثلا لماذا كان يريد رئيس البحارة قتلكم ؟ أهو عداء شخصي ؟ لا أعتقد ذلك ! هي إذاً مؤامرة استؤجر فيها . من كان المتآمرون ؟ وهل كان كاى شريكا فيها ؟ أو هل كان يعلم من هم المتآمرون ؟ هذه يامولاى أنواع الأسئلة التي يخشاها ، ولهذا فقد تحاشى الكلام في مبدأ الأمر . لكن سكوته الآن يأتي ضوءا جديدا . إنه يعلم شيئا ، وإن كنت أستبعد تماما أنه شريك في المؤامرة إلا أنه بطريقة ما قد علم بها وهو قد صمت مفضلا الموت على الكلام . لماذا ؟ لا شك أنه يبغي حماية شخص أو أشخاص . من هم ؟ إن الأصابع تكاد أن تشير إلى المتآمرين .

وهنا التفت إلى الكاهن فجأة .

— من هم يا كاى ؟

قابلت عيناى نظرته الحادة ، ولكن ما ارتسم على وجهى كان مجرد تعبير شخص يستمتع باستنتاجات شخص آخر ، كان وجهى جامدا لا ينبىء عن شيء . وهنا التقط الأمير حبل الأسئلة .

— إنه شريك في المؤامرة . إذ حتى لو كان يعلم فقط ولم يتكلم فهو شريك ، ولسوف يعترف لنا بأسماء شركائه ، ولو اضطررت أن أستعمل معه كافة طرق التعذيب .

هز الكاهن رأسه نفيا .

— كلا يامولاى إنكم تستطيعون أن تعذبوه حتى يموت . ولن تستطيعوا إرغامه على الكلام . إنه كاهن آمون ، وقد تعلم أن يفصل البا ( النفس ) عن جسده ، ولن يشعر حينئذ بأى أنواع العذاب . قد يقطع جسده إلى أجزاء صغيرة ، ويموت ، لكنه لن يبوح بشيء لأنه لا يشعر بآلام العذاب .

وبدت نبرات الغضب تظهر ثانية في صوت الأمير .

— إذاً فليحاكم على أنه شريك في المؤامرة ، وليعدم جزاء له على ذلك . وهنا تكلمت الأميرة لأول مرة .

— أية مؤامرة تلك يامولاى التي لا دليل عليها سوى استنتاجات الكاهن رع موسى ؟ إن ما نعلمه هو أن شخصا كان يحاول قتلكم ، وقد أنقذ كم كاى من الموت . وفي أثناء ذلك اختل توازن القاتل ومات . هذا هو كل ما نعلمه ، ربما

كان يحمل ضغينة شخصية ، وربما كان أجيرا لشخص يحمل ضغينة ، وربما كان مجنونا . إن الوحيد الذى يستطيع الإجابة على هذه الأسئلة هو الرجل الذى حاول قتلكم . لكنه مات . أين إذاً المؤامرة ، ألا يجوز أن يكون قد جمح الخيال بكاهننا الوقور ؟

— لماذا لايتكلم كاهإذا ويقول إنه لايعرف شيئا عن المؤامرة ؟ لوقال هذا فقط لاتنتهى الأمر عند الحد ، واستحق شكرنا .

وعادت النظرات تتجه إلى . لكننى بقيت صامتا لا أجيب . ما كان لأحد من كهنه آمون ، ولا لابن من أبناء رع سنب أن يتفوه بغير الحقيقة ، ان ماعت ( الحقيقة ) على لسانى ، وما كان لى أن أنطق إلا ما تمليه . والتفت الأمير إلى زوجة .

— هل ما رأيت ؟ إن المؤامرة موجودة وهو يعلم بوجودها ولا يستطيع أن ينكرها .

— مولاى لعله يشك فى وجودها ولايريد أن يجرح أحدا بإبداء شكوكه التى قد تكون على غير أساس ولو قال إنه لايعلم عن المؤامرة شيئا فإن هذا لايكون الحقيقة كاملة ، أليس كذلك يارع موسى ؟

كانت حركة بارعة من الأميرة أن تأخذ رأى الكاهن الذى كان أساس الاتهام فى هذا الوقت . كانت تعلم أن ماعند الكاهن لايمكن أن يرقى إلا إلى مرتبة الشكوك . وما كان لأستاذى أن يقول مالايعتقد . ومع هذا فقد بدا مترددا وهو يتمتم .

— ان فيما تقوله يامولاتى الكثير من الحكمة .

انتقلت عينا الأمير من رع موسى إلى زوجته وبدا عليه أنه يفكر ويزن مادار من أقاويل . لم يكن ضعيفا ليخضع للرأى ، ولكن الغضب الدينى قد أضله فى مبدأ الأمر ، وحينما دارت المناقشات استعاد هدوءه ، واستعاد معه التفكير السليم . أخيرا بدا عليه أنه استقر على رأى فرفع رأسه ووجه كلامه إلى . وحينما تكلم كان فرعون المستقبل .

— إننا شاكرون لك إنقاذك حياتنا ، ومقدرون حسن صنيعك ، ولن نأخذ بمجرد الشكوك ، فهى وإن كانت شكوكا قوية ، إلا أن صنيعك خير شفيع لك عندنا لنتجاوز عنها .

وبغير كلمة أخرى، أو إشارة أعطى يده إلى الأميرة واستدار الإثنان ليقفا عند مؤخرة المركب . وسكت الجميع برهة ثم بدأوا يتهامسون ، ويبدون شتى الآراء فيما بينهم عن حادث الليلة وهى طبول سبوك . ووجدت نفسى آخر الأمر واقفا إلى جوار تفنت ، وأمامنا الكاهن رع موسى وقد إنفض الجميع . وبصوته الهادىء الخفيض سألنى أستاذى السابق .

— هلا أجبت على سؤال واحد ! لماذا أنقذت حياة الأمير وأنت عدو لمبادئه الدينية ؟

وأجبته بالهدوء نفسه .

— أعتقـــد أنه يلزم أن أشكر لك سرعة تدخلك لإنقاذى وإنى لفضلك عارف .

— لكنك لم تجب على سؤالى .

وهززت كتفى بلا مبالاة .

— وهل حقا أنقذت حياة الأمير ؟

لبرهة تردد الكاهن وبدت عليه علامات الحيرة ، وراحت نظراته تنتقل من وجهى إلى وجه تفنت كما لو كان يحاول أن يجد الحقيقة . فهو يعلم اننى لا أكذب ، ولكننى أيضا لم أقطع بشىء . فهل كذبت تفنت لتنقذ حياتى ؟ ولم تتكلم الفتاة لتدافع عن نفسها مع أنه كان واضحا تماما فى وجه عمها مابدأ يشك فيه . ولم أكن لأدع الأمور تقف عند هذا الحد . ولا كان من الجائز أن يكون جزاء الفتاة أن أتركها محل شك ، لكنتى أيضا لم أكن أريد أن أعترف صراحة بما حدث ولهذا كانت كلماتى التالية فيها مايكفى لرفع الشك عنها .

— إذا كان هذا حقا فربما لأننى أكره القتل فى أية صورة ، وضد أى شخص ، لأى سبب .

وتفرس الكاهن فى وجهى بحده . لكننى أحسب أنه إستطاع أن يقرأ شيئا . ودون كلمة أخرى ، تركنى مع الفتاة الصغيرة . والتفت إلى الصغيرة ، التى كانت تقف وهى صامتة تنظر إلى وكأنما تحاول أن تستشف مايدور فى خلدى . ووجهت إليها الخطاب .

— إننى شاكر لك حسن صنيعك . أسعدت مساء .

وبدأت أتحرك تاركا إياها على سطح المركب ولكنها إستوقفنى بحده .

— أى الرجال أنت ؟ لقد أنقذت حياتك لتوى . أجل يجب أن تعترف أن حياتك كانت فى الميزان وأنه اولاى لكان من المرجح أن تفقدها . ومع هذا تقف أمامى ببرود لتقول إنك شاكر حسن صنيعى . ألا تعرف التفرقة بين مجرد حسن الصنيع وإنقاذ الحياه ؟

كانت تتكلم بحده ، وغضب كأنما تنتظر منى أن أبقى إلى جوارها طوال المساء ألهج بثنائها وحمدها . وربما كانت محقة من وجهة نظرها فلم تكن تعلم كم هى الحياه رخيصة بالنسبة لكاهن آمون .

وأجبتها فى أرق لهجة أستطيعها .

— لو كانت الأعمال تقاس بالنتائج لا بالنوايا والدوافع لكان ما قمت به الآن عملا تافها . تقولين إنك أنقذت حياتى . ربما هذا ، ولكن الحياة نفسها تافهة .

لعل وجهى كان قد إكتسى هدوءه العادى ، ولعلها رأت أنها كانت متجنية على ، أيا كانت الأسباب فقد إنفثا غضبها فجأة كما إندلع فجأه ، وخفضت رأسها تنظر إلى الأرض . وانتهزت الفرصة ، وانسحبت بهدوء متجها إلى قمرتى . وعلى بعد لمحت شخصا ينتظر . كان خندو عبدى الأمين ولعله كان يقف طوال المده الماضية ينتظر تطور الحوادث . وما كان لدى شك فى أنه لم يكن ليتردد فى التدخل لو رأى هنالك مايخشى على حياتى .

ربما قد مررنا على برسبوك أثناء الليل ، لكننى لم أشعر فى الواقع إذ أنى نمت نوما عميقا لم استيقظ منه إلا بعد أن أرسل علينا خبر ( شمس الصباح ) أشعته من وراء الجبال . كان أول مالاحظت أن المركب قد ألقت مراسيها ، وأن الحركة على السطح بدأت بنشاط غير عادى . ودخل على خندو حاملا أدوات المياه من أبريق وطست ، ووقف منتظرا أن أبدأه الكلام .

— هل ألقت المركب مراسيها ؟ وهل وصلنا إلى خن مين (أخميم) ؟

— أجل يامولاى .

بدأت أغتسل ، وأقوم بواجباتى الدينية . وحلق لى خندو رأسى ثم إحتفى

حاملا أدوات المياه ليعود بعد قليل ومعه صحاف طعام الإفطار . وكان شبرو إبتدأ يظهر من وراء الجبال حينما دلفت إلى السفينة ، وبدا المنظر رائعا وقد ربضت خن مين فى سفح الجبل إلى الشرق بينما كانت باهو ( سوهاج ) تبدو إلى مسافة قريبة على الشاطىء الغربى لاوزيريس ( النيل ) . لم أجدا أحدا من الضيوف على السطح ، فإعتزمت أن أسرع النزول إلى الشاطىء حتى أذهب لأودى واجبات الصلاة فى معبد الإله مين ( إله الفلاحة ) فهذه هى بلدته . اتجهت إلى سقالة المركب ، وهنا لاحظت أن هنالك من يتبعنى ، وحينما التفت رأيت خندو وقد وقف على مسافة منى . كانت تجربتى فى شابت قد علقت فى ذهنه ، ولم يكن على إستعداد لأن تتكرر فى خن مين . وأشرت إليه ، فلما اقترب قلت له آمرا .

— لاتتبعنى ياخندو فإننى لن أذهب سوى إلى معبد الإله مين ولن أمكث فيه طويلا بل سوف أعود قبل أن يتجاوز رع ( إله الظهر ) كبد نوت (السماء) .

ولما رأيت خيبة الأمل ترتسم على وجه العبد الأمين ، وعلامات القلق تتجلى فى عينيه أردفت بعطف .

— هذا وأظن أن الخطر قد زال .

تردد خندو قليلا ثم إنسحب .وواصلت هبوط السقالة إلى الشاطىء والواقع أننى كنت أبعد كثيرا من الثقة التى تكلمت بها عن زوال الخطر ، ذلك أن حادثه شابت لم يكن من شك أن هنالك من أوحى به وحرض عليه .ولم يكن من اليسير تصور أن المحرض كان رئيس البحارة الذى لقى مصرعه إذ اننى لا أعتقد أنه كان فى إمكان الرجل أن يترك السفينة ليؤجر شخصا يتبعنى . ومعنى هذا أحد فرضين، فإما أن هنالك من أرسل سواء من تهنى(طيبة) إلى شابت عن طريق البر من سبق السفينة وأجر القاتل ، وهذا مستبعد نظرا لعدم إمكان القاتل التعرف على ، كما أنه كان من المستحيل التنبؤ سلفا اننى سوف اترك السفينة إلى الشاطىء ، اما الفرض الثانى ، وهو الأقرب إلى المنطق ان هنالك شخصا آخر على ظهر السفينة تعقبنى ، وإستأجر القاتل حينما لاحت له الفرصة . ومعنى هذا ان الشخص القاتل مازال على ظهر السفينة يتحين الفرصة للتخلص منى .

لكن من هو ذلك الشخص ؟ إن الذين يرافقون الأمير والأميرة معدودون ، وفيما عداى والكاهن رع موسى لا توجد سوى الحاشية . حتى تفنت إنما تبحر على السفينة لا بصفتها ابنة أخ الكاهن وإنما لأنها إحدى وصيفات الأميرة . واستعرضت فى ذهنى الوصيفات ، والوصفاء ثم إستبعدتهم جميعا . وفجأة خطر فى بالى خاطر آخر . ألا يمكن أن يكون المحرض شخصا ليس فى السفينة ذاتها وإنما فى إحدى سفن القافلة الفرعونية ؟ إن هنا لك عدة سفن على الأقل تحمل المرافقين للموكب من وزراء وحكام ، وبعض الكهنة ، ألا يمكن أن يكون العدو الخفى واحدا منهم ؟ أيا كان فإنه لا شك شخص قادر ثرى إذ أن الخنجر الحديدى لم يكن مما يتداول بسهولة بين أيدى العامة فهو من الأشياء المستوردة من خارج حدود تامرى ، ربما من نوخاشى ( حلب ) أو خاتى ، أو مقاطعة أوبى أو غيرها من المناطق الأسيوبية . وتحسست الخنجر تحت حباءتى الكهنوتية فقد رأيت من باب الحيطة أن أحمـــله معى حينما تركت السفينـــة .

كنت أثناء تفكيرى قد تركت المرفأ ، وبدأت أسير فى الشارع الرئيسى لخن مين متجها إلى المعبد . ومع أن الوقت كان مبكرا بالنسبة لظهور الفرعون وحاشيته ، إلا أن الطرقات كانت تمج بالجماهير التى آتت من كل مكان إما لتكون فى شرف إستقبال الفرعون ، وإما لتلقى على الركب نظرة بعيدة . كان من المعروف أن الفرعون وزوجة سوف يقضيان بضعة أيام فى قصر عائلة الفرعونة تى إذ أن والدها الكاهن يويا ، ووالدتها تويا كانا أصلا من مدينة خن مين ، وبعد الزواج عين الفرعون والد زوجة ، الكاهن يويا ، رئيسا لفرسان الملك كما عين الوالدة تويا مغنية آمون فى تهنى ، طيبة .

وبدت من بعيد طلائع مركب الحاكم وهو يتجه نحو المرفأ يتقدمه الجنود بملابس الاحتفالات الزاهية ، والخوذات ، والدروع الخشبية تكسوها الجلود . وظهرت محفة الحاكم بمظلتها البيضاء وجلس الحاكم نفسه مرتديا ثوبا قرمزيا ، وهو متكئ على وسائد من ريش الأوز . وتبعت المحفة الرئيسية محفات كبار رجال المدينة وكهنتها يتصدرهم الكاهن يويا بوجهه الطويل الشاحب . وتعالت هتافات الجماهير بالدعوات للفرعون، وزوجة ، والحاكم . كان الموكب طويلا يحف

به الجنود من كل جانب وينتهى بالنساء زوجات النبلاء ، والحكام ، يتبعون مؤخرة من الجند . ووقفت فترة فى مكانى ، ولم أكن احتاج إلى أن أطاول الرأس إذ أننى كنت أطول كثيرا من أغلب الموجودين كما أن ردائى الكهنوتى حمانى من مزاحمة المتطفلين .

لم استمر فى وقفتى طويلا إذ أن مثل هذه المواكب لم تكن غريبة على فقد قضيت كل سنى حياتى بينها أشاهدها ، وأشترك فيها . وإتجهت إلى معبد الاله مين لأقدم إليه فروض الابتهال والصلاة ، واستقبلنى خادم من خدم الاله . لم يقدنى إلى المعبد ، وإنما سار بى متجها إلى الغرف المخصصة للكهنة ، وحينما أخبرته أننى لا أريد مقابلة أحد وإنما أريد التعبد فحسب ، انبأنى بأن الخرحب الأول للاله مين قد أعطى أوامره بأن ينتظرنى خادم الاله ، وأن يقودنى إليه فورا . وإن كنت قد تعجبت كيف عرف الخرحب الأول بقدومى ، وكيف عرف صورتى ، وعن السبب الذى يريد من أجله مقابلتى فإن شيئا من ذلك لم يبد على وجهى ، وإنما سرت بهدوء وراء خادم الاله .

قادنى خادم الاله ، فى ممرات ودهاليز متعددة ، معتمة الضوء لا يكاد ضوء النهار يداخلها ، حتى صرنا أمام أحد الأبواب فطرقه ، وإنتظر برهة ، ثم فتح الباب وتنحى جانبا حتى دخلت ، فأغلق ورائى بهدوء ، وتركنى وحيدا فى الغرفة . كانت الغرفة مظلمة لانوافذ لها ولا أبواب ظاهرة ، وكان الضوء الوحيد الذى ينير بعض أرجائها يأتى من مشعل واحد معلق على أحد الجدران ، وعلى ضوئه ظهرت بعض الرسومات الباهتة للاله مين ، ورب الارباب . ولم يكن بالغرفة سوى بعض المقاعد الخشبية ، وأريكة تتسع لشخصين ، وتمثال كبير لرب الأرباب ، وآخر أصغر منه حجما للإله مين ، وقد وضعا على مشكاه فى جدار تحت المشعل مباشرة فكان منظرهما رهيبا . ركعت أمام التمثالين وأخذت أتمتم ببعض الصلوات . ولم أكد أفرغ من ابتهالاتى حتى سمعت .

— مرحبا بك يا كاى رع سنب فى معبد الإله مين ، علت قدرته .

إعتدلت من سجودى ، وإستدرت لأرى الخرحب وقد جلس على أحد المقاعد الخشبية وهو ينظر إلى فى صبر . لم أكن قد سمعت صوتا ، ولا رأيت بابا يفتح ، ولم أشعر بأن شخصا آخر دلف إلى الحجرة حتى رأيته . كان رجلا

مكتنز الجسم مترهلا ، على العكس تماما من جميع الأنبياء والكهنة الذين عرفتهم أو قابلتهم فلم يكن الغذاء من الملاذ التى يتمتع بها الكاهن عادة . كان حليق الرأس كث الحواجب حتى أن عينيه الضيقتين تكادان أن تختفيا تحت الشعر . كانت هاتان السمتان هما أظهر ماق الوجة المكتنز حتى أن الأنف المستقيم ، والفم الدقيق ، والذقن المستديرة لم يكن لها أى أثر على الناظر. أحنيت رأسى إحتراما ولم أجب منتظرا منه تفسيرا . أشار الخرحب الأول بيده إلى مقعد مجاور فاتجهت إليه وجلست . وتكلم الخرحب الأول هامسا فكان صوته أقرب إلى فحيح الأفعى .

— أنا نفر كا من عنو الخرحب الأول للاله مين ، جلت قدرته . وكان حم نثر الكاهن الأكبر للاله يود لو استطاع أن يستقبلك بنفسه لكنه اضطر هو وإتف نثر ( الأب الالهى[1] ) إلى الذهاب ليكونا فى شرف استقبال الفرعون .

تريث الخرحب الأول برهة كأنما ليترك لى فرصة السؤال عن سبب كل هذا الاهتمام ، ولما ظللت على صمتى استطرد .

— لعلك تعجب عن سر هذا الاهتمام ، وأنا فى حل من أن أطلعك عليه . الواقع أن هذه المهمة قد نيطت بى ليس فقط من الاله مين ممثلا فى حم نثر وانما أيضاً من الاله سبوك دامت سطوته ، ممثلا فى حم اثر .

توقف الخرحب عن الكلام ريثما يلتقط أنفاسه اللاهثة تحت صدره المكتنز بالشحم ، وربما ليعطى نفسه فرصة التفكير فيما يقول ، وكيف يقول . ظل خلاله فترة الصمت يتفرس فى وجهى عساه يستطلع ما يختلج فى نفسى من شعور ، أو عساه يلحظ أمارات تعجب ، أو دهشة ، وان كنت لا اعتقد أنه

---

(١) كانت درجات الكهنوتية تبدأ بالأنبياء ، ويختص بهم معبد آمون أما سائر معابد الآلهة فكان يوجد حم نثر ( كاهن الاله ) ثم ، اتف نثر الأب الالهى ، ثم مرعب الكاهن المتطهر ثم خرحب الكاهن المرتل ثم ايميوستا الكاهن ثم اوردود ( الكاهن المؤقت ) بالاضافة إلى الفئة التى كانت يطلق عليها خدم الآله .

إستفاد كثيرا من تفرسه فقد بقى وجهى على هدوئه المعتاد . والحظة خاطفة خائنة عيناه ، وظهر عليهما القلق فلم يكن يدرى تماما أى شخص أنا ، وكيف ينفذ إلى مكنوناتى . وحينما عاود الكلام بصوته الهامس كشفت ألفاظه عما يعتمل فى نفسه من حيرة ، وان لم تتغير نبرات صوته .

— إنك مازلت صغير السن جدا ، ومع هذا فإن حم أتر يتقدم إليك نائبا عن الاله سبوك ، دامت سطوته بالشكر على القربان البشرى الذى قدمته إليه ، وإن لم يكن هو الشخص المرتقب . لقد نلت الحظوة عند الاله سبوك وهو لهذا يكلفك بعمل أكبر من الذى قمت به ، وهو عمل يود من هم أكبر منك سنا ومقاما لو أنهم نالوا شرف القيام به .

سكت الخر حب للمرة الثانية . وازدادت عيناه ضيقا وهو يتفرس فى وجهى متوقعا أن أبادره السؤال على هذا الشرف . ولما لم يحظ بنتيجة بدأ عليه الاستسلام ، واردف .

— إن العمل الذى يكلفك به الاله هو أن تقدم قربانا بشريا آخر ، لكنه فى هذه المرة سوف يكون شخصا أكثر أهمية بمراحل من ذلك التمس رئيس البحارة ، إنه سوف يكون الدعى المارق .

وللمرة الثالثة توقف الرجل البدين عن الكلام ، لكنه فى هذه المرة لم يحاول أن يكشف عما يعتمل فى نفسى فقد بدا له هذا العمل مرهقا . وبعد أن استرد أنفاسه اللاهثة إستطرد .

— إن الأمر أكثر من هذا . إن الاله سبوك ، دامت سطوته ، ليس سوى رسول لرب الأرباب علا سناؤه الذى رآك وجثة المارق بين يديك .

## الفصل التاسع

# الحية القرناء

---

ساد المكان صمت عميق . واندفعت الأفكار تتالى فى سرعة رهيبة حتى أنى كنت أشعر أن رأسى يكاد أن ينفجر . إن رب الأرباب يريد منى أن أتخلص من الأمير ولى العهد . وقد رآنى فعلا والجثة بين يدى . كنت أعلم أن الخرحب لم يكن ليجرؤ على الكذب ، خاصة على رب الأرباب . لماذا أنا ؟ وقد انضم رب الأرباب إلى الإله سبوك ، والإله مين ، ومن يا ترى أيضا من الإلهه والأرباب ؟ هل يستطيع ذلك الأمير النحيل الضعيف البنية أن يقاوم كل هذه الآلهة والأرباب ؟ . لكن لماذا اختارنى رب الأرباب ؟ لماذا أنا بالذات ؟! أننى لست بقاتل . فلماذا أنا ؟ ولسبب لا أدريه طرقت أذنى كلمات الكاهن رع موسى . إن الدماء على يديك والموت فى ركابك . لكن أن مشيئة رب الأرباب لا راد لها ، ولا أملك أن أعصى له أمر وأنا من خدمه وعبيده .

لم يحاول الخرحب فى هذه المرة أن يتكلم ، أو أن يقطع على حبل تفكيرى . ولعله ظن أن لسانى قد ألجم لما حظانى من شرف الاختيار أن أكون اليد المنفذة لمشيئة رب الأرباب . وطال الطراق . وازداد تضارب الأفكار فى رأسى وكان لا بد أن أقول شيئا على الأقل لأطرد بعض الأفكار .

— وهل قال رب الأرباب جل سناؤه متى سوف يقع هذا ؟

— كلا .

— أو كيف ؟

— كلا .

وراودنى بعض الأمل .

— إذا فإن الأمر ناقص ، والنبوءه قد لا تكون حقيقة .

هز الرجل البدين رأسه نفيا .

— لا يمكن أن يكون هذا . إن الأمر قد صدر . أما النبوءه فلم تأت من مصدر واحد ، وانما أجمعت التنبؤات عليها . من نخن ( ادفو ) حتى بحدت ( دمنهور ) . بل ولقد طلبنا التأكد من ثاى (سيوه) وتاراوحوت ( الفرافرة ) وكنم ( الواحه الخارجة ) من رب الأرباب . ومعبد الآله ست واوزيريس وايزيس ،ورع وخنوم ،وسبوك ومين ، وتحوت وكانت النتيجة دائما ، واحدة ولم يصبح هنالك أى شك فى أنك أنت الوحيد الذى سوف يقتل ولى العهد ، وإن لم يعرف كيف ولا متى . ولهذا فقد ترك الأمر لك تتصرف فيه تبعا للظروف ، بالكيفية التى تراها،وفى الوقت الذى يناسبك . لكننى أحسب أنك كلما أسرعت كلما كان ذلك أفضل .

كانت هذه خطبة طويلة جدا على الرجل البدين ، وحينما انتهى منها كان العرق يتصبب من كل جزء فى جسده ، وتوالت أنفاسه سريعة لا هثة تتتالى . وبقيت صامتا حتى التقط الخر حب أنفاسه ثم عاد إلى الكلام .

— لا شك أنك تعلم أن أية معونة سواء مادية ، أو معنوية سوف تقدم إليك . كما أن أى معبد سوف يكون سعيدا بأن يقدم لك خدماته وخدمات رجاله . هذا ربما عدا كهنه آلهة رع فنحن لازلنا غير متفقين معهم ويسرنى أن أخبرك أن الأمر قد ورد من رب الأرباب أن ترقى إلى رتبه خر حب فى معبده .

وضاقت عينا الرجل البدين وهما تتفرسان فى وجهى متوقعا أن يرى السرور يقفز فيهما ، أو الدهشة على الأقل . والواقع أنى دهشت ، وربما خالطنى بعض السرور ، لكن وجهى بقى على جموده ، كما لا أعتقد أن عيناى قد خانتانى . كان عقلى يعمل بسرعة مخيفة . خر حب فى معبد رب الأرباب ، وفى سنى هذا ، لم أكن أعلم أن هنالك سابقة تاريخية تقاربها . فى مثل عمرى لم يكن من المستطاع أن أحصل على كافة العلوم اللازمة لمثل هذا المنصب .أننى لم أتجاوز التعليم المبدئى فى بر عنخ( مدرسة الحياة ) . وينقصنى الكثير، حتى أستطيع أن كون جديرا بالدخول فى بيت الهب ( قدس الأقداس ) والخدمة فيه .

وبقى الخرحب صابرا وهو يراقب كل حركة من خلجات وجهى . وطال الصمت بيننا حتى أننى بدأت أشعر بأنه يلزمنى أن أتكلم حتى لا تنفضح الأحاسيس التى تعتمل فى نفسى . بذلت مجهودا جبارا للسيطرة على مشاعرى ، وحينما تكلمت خرجت الكلمات هادئة هامسة .

— إن هذا شرف لا أستحقه ، ولا أعتقد أنى أهل له ، ويكفينى شرفا أن أكون ذا نفع لرب الأرباب .

— أحسنت يا خرحب . لكننى يجب أن أحذرك من أمرين . أولا بأن هذه الترقية سوف تكون سرية بيننا مؤقتا حتى ينتهى الأمر الذى كلفت به ، وذلك حتى لا نكون موضعا للتساؤل . والثانى أن التخلص من الأمير يجب أن يبدو وكأنه مجرد حادثة . وعلى أى الأحوال فالأسباب لا أحسب أنها تخفى عليك إننا لا نريد أن يظهر وكأن أحد كهنة رب الأرباب له يد فى المسألة . إن احتاج الأمر فلك مطلق الحرية فى إستئجار من تشاء ، وأن تدفع له ماتريد .

لبثت صامتا أنظر إلى الوجه المكتنز وهو يتصبب عرقا . كانت تقاطيعه جميعها تنبىء عن النفس الخبيثة القاسية التى تختفى وراءها . من العينين الضيقتين الغائرتين ، إلى الفم الدقيق ، إلى الجبهة الملتفاه إلى الخلف ، إلى الرأس الحليق غريبة التكوين . وصفق الخرحب الأول بيده مرة واحدة . وكأنما كان خادم — الاله واقفا على الباب ظهر فجأة وتقدم صامتا إلى حيث كان يجلس الرجل البدين وناوله صرة ، ثم إنسحب دون أن يتفوه بكلمة . ومد الكاهن يده بالصرة إلى :

— إليك ثلاثة تالنتات [١] من الذهب قد تكون ذات نفع . ولك أن تطلب غيرها إذا شئت . ولم يبق بعد هذا إلا أن أرجو لك حظا سعيداً .

وأشار بيده البدينه إشاره تعنى أن المقابلة إنتهت . تناولت الصرة ، فلم يكن لى أن أرفض ، ثم إنحنيت أمام الخرحب الأول واتجهت إلى حيث تمثال رب الأرباب ، والاله مين ، وركعت أمامها أؤدى فرائض الولاء والطاعة ثم

---

(١) التالنت مثقال وكان من الذهب أو الفضة فما كان من الذهب كانت قيمته تقدر بما يقابل ٤٨٠ جم أما الفضة فكان يقدر بما يقابل ٢٤٠ جم وكانت نسبة الذهب إلى الفضه ٢ : ١ .

تسحبت من الغرفة فى هدوء تاركا الرجل البدين فى مكانه وهو يبدو كأنما لا يبغى حراكا .

قابلنى خادم الاله عند الباب ، وقادنى فى الردهات ، والممرات حتى وصلت إلى الفناء الخارجى للمعبد . ثم أحنى رأسه ، وانسحب . وبقيت مكانى لحظات أتردد فى أى اتجاه أذهب . هل اتجه إلى ما كنت أنتويه من التعبد الآله مين . أم أعود أدراجى إلى السفينة ؟ لم أشعر برغبة فى التعبد ، وأحسست بحاجتى الشديدة إلى الانفراد بنفسى ، والتفكير فى هدوء . ونظرت أمامى إلى الطرقات التى كانت غاصة بأهالى خن مين وهم يتسكعون فى انتظار تحرك الركب الفرعونى من السفينة يصاحبه الأمير ، والحاكم ، والحاشية ، ورأيت كثيراً من الشعارات ، والعلامات الخشبية ، والنحاسية ذات الألوان المتعددة الزاهية . كان الأهالى يرتدون أحسن ما لديهم من ملابس بين صفراء ، وحمراء ، وزرقاء ، وخضراء ، وبيضاء ، فكانت المدينة كأنما هى فى عيد حقيق .

وإزداد شعورى بالرغبة فى الانفراد ، فأدرت ظهرى إلى المدينة ، واتجهت شرقاً . بدأت المنازل تتباعد عن بعضها ، وأضحت الطرقات مجرد ممرات وسط الحقول الزراعية . وسرحت بطرفى إلى الأمام . لم تكن الرقعة الزاعية كبيرة إذ لم يزد بعدها عن حافى ( النيل ) أكثر من ثلاثة أو أربعة ، كيلو مترات تبدأ بعدها الأرض فى الارتفاع ، وتقل المزروعات حق تنعدم تماماً بعد حوالى كيلو متر آخر تمتد بعده الصحراء لتنتهى عند الجبال الشرقية التى يمكن أن ترى أشباحها تتسامى إلى السماء عند نهاية البصر . ولم يكن فى الحقول كثير من الفلاحين ، إذ أن معظمهم كان قد ذهب ولا شك لرؤية المواكب الفاخرة التى تخترق خن مين ، وليتطلعوا إلى سناء الفرعون العظيم ، ولم يبق فى الحقول إلا من اضطرته ظروف الفلاحة إلى البقاء .

وبالرغم من أننا كنا قد تعدينا منتصف شهـــور أخت [١] إلا أن خبر ( شمس الصباح ) كان قد أرسل أشعته دافئة قوية حتى أننى فى سيرى بدأت أشعر

---

(١) شهور أخت من أول سبتمبر حتى آخر ديسمبر ويعنى هـذا أن الركب كان فى أوائل نوفمبر .

بثقل العباءة الصوفية التى كنت أتدثر بها فوق الرداء الكتانى ، وإن كان النسيم الجاف قد خفف كثيراً من حدة أشعة خبرو ، وكان يرسل لفحة باردة بين الحين والآخر . وحينما أشرفت على نهاية المزروعات بدأت أسير ببطء ، وأطلقت العنان لأفكارى . كانت أمامى مشكلتان ، ولعلها ثلاث ، الأولى أن أعرف من الذى حاول قتلى ، والسبب فى ذلك ، أما الثانيـــة فهى تلك المهمة الجديدة التى وكلها رب الأرباب إلى .

أما المسألة الثالثة فاننى كنت أتساءل عما إذا كانت هناك رابطة بين محاولة قتل الأمير ، وما نتج عن ذلك من موت رئيس البحارة ، ومحاولة قتلى ثم تكليفى بعد ذلك بالتخلص من الأمير ؟ هل هذه المسائل جميعها مرتبطة ببعضها ؟ ومن الذى يمسك خيوطها ؟ كان من الجلى أنه قبل أن أصل إلى حل هذه المسألة كان يلزم أن أفكر فى فك رموز المشكلتين الأولتين . كنت قد فكرت ماليا فى محاولة قتلى ، وانتهيت إلى أنه لا بد أن واحدا من الذين كانوا فى الركب الفرعونى هو الذى حرض مباشرة على ذلك ، سواء لصالح شخص آخر ، وبدأ جليا أن الخطوة الأولى ـ للوصول إلى حل هذه المشكلة فى معرفة أسماء جميع الأشخاص الذين كانوا فى المعية الفرعونية . عقدت العزم على أن أكلف خندو بهذه المهمة وحتى ذلك الحين على أن أطرح المسألة جانبا . والتفت إلى المشكلة الثانية .

تتالت الأسئلة تدور فى رأسى . هل كان الأمر بتكليفى بقتل الأمير صادراً حقاً من رب الأرباب أم كان قد صدر لصالح شخص أو أشخاص محدودين ؟ إن النبوءة بأننى سوف أحمل جثة الأمير لا يمكن أن تكون خاطئة ، كما لم يكن يدخل فى تصورى أن يجرؤ أحد من الكهنة ، أو الأنبياء ، على الافتراء فيها . لكن ألا يجوز أن يكون هناك أكثر من تفسير لهذه النبوءة ؟ ألا يجوز أن بعض الأشخاص ذوى المصلحة قد رأوا فيها فرصة ليفسروها كيفما شاءوا ؟ ألا يجوز أن يكون هذا التعيين المفاجىء فى منصب خرحب لمعبد رب الأرباب ، وهذه التالنتات الثلاثة ما هى إلا مجرد رشوة ، أو ثمن لأداء المهمة البغيضة ؟ إن التالنتات الثلاث ثروة ضخمة ، أكثر بكثير مما قد احتاجه لو أننى قمت بهذه المهمة ولا شك أن تالنتا واحداً أو ـ حتى نصف تالنت يكفى ويزيد لاستأجر من أراه ومع هذا فقد أعطيت ثلاثة مع الوعد بأن أستزيد ان شئت . لم يكن من شك إذاً

أن هذا المبلغ الضخم كان أجراً لى لأباشر عملية القتل كما كانت الترقية . وهل يحتاج رب الأرباب إلى رشوة أحد كهنة معبده ، أو أن يدفع له أجراً مقابل تنفيذ لأمر يصدره ؟ لا ، إن المبالغة فى المكافأة قد فضحت المستتر وراء النبوءة .

كلما ازددت امعاناً فى الرأى كلما إزددت إقتناعا به ، وارتياحاً إلى النتيجة التى انتهيت إليها . لم يكن الأمر صادرا من رب الأرباب ، وإنما من شخص أو أشخاص ، لهم مصلحة شخصية فى استغلال النبوءة . إذاً فإنى فى حل من أن أقوم بالمهمة أولا أقوم . إن أنا عصيت الأمر فان من أحاربهم سوف يكونون مجرد بشر شأنهم شأنى ، وليس رب الأرباب . لكن هل فى استطاعتى حقاً أن أعصى مثل هذ الأمر ؟ انه ولا شك صادر من مجلس الأربعة العظام لمعبد رب الأرباب ، وهو بالتالى أمر إلى جميع كهنة معابد الآلهة فى تامرى من أقصاها إلى أقصاها ، ربما باستثناء الاله رع . هل فى استطاعتى حقاً أن أقاوم كل هؤلاء ؟ إن الأمير ولى العهد يحاول أن يفعل هذا الشىء تماما ، ولم يكن أحد أكثر علماً منى بما يتعرض له بسبب هذه المعارضة . وجرنى التفكير فى هذا إلى ابتسامة ساخرة إذ رأيت نفسى وأنا أخالف أوامر الأربعة العظام لأقف فى صف واحد مع الأمير الذى امرت باغتيـــاله ، بل والذى لا أرتضى الإندماج تحت لواء دينه الجديد .

قلبت الأمر على وجوهه ، وأخيراً استقر رأيى على ألا أنفذ الأمر أيا كانت النتائج التى تترتب على ذلك . لم أكن قاتلا ، بل اننى كنت أكره الاغتيال بأى صورة ، كما أن النبوءة لا تعنى حتما أننى سوف أقتل الامير إذ أنه من الجائز أن يكون لها أكثر من تفسير ، وبهذ فاننى لا أعصى أمراً لرب الارباب حينما أرفض أن ألوث يدى بدماء ولى العهد . وبقى سؤال أخير . هل أخطار الكهنة رأساً بهذا الرفض ، أم أدعهم يستنتجونه ؟ إن الامر لم يحدد موعدا ، لكن من البدهى أنهم سوف لا ينتظروننى إلى أبد الآبدين . سوف ينتظرون أياماً ، وربما شهرا أو أكثر ، لكن حينما يرون أننى لم أنفذ ما أملى على بعد هذه الفترة ، أو ما يعادلها ، فلا شك أنهم سوف يتخـــذون خطواتهم على أساس أننى لا أزمع التنفيذ . وماذا سوف تكون خطتهم بعد ذلك ؟ لا شك أنهم سيتخذون

إجراءاتهم لإغتيال الأمير عن غير طريقى ؟ لـكن ماذا عنى أنا بعد أن علمت صراحة بنواياهم صوب الأمير ؟ هل سيأمرون بإعدامى حتى يضمنون سكوتى ؟ أم أنهم سوف يعتمدون على تربيتى الـكهنوتية ، وأنى لن أبوح بما عرفت ؟ رجحت الرأى الأول ، وإن كانت قد انتابتنى الحيرة فى موقف والدى وعما إذا كان سوف يقبل أن يضحى بابنه الأكبر . أو لعل هذا الإجراء دون أن يعلم .

شعرت بجوع شديد فعزمت على الرجوع إلى السفينة . اتخذت طريقى عبر الحقول حتى دخلت المدينـــة . كان الناس على ما هم فيه منذ الصباح ، فالطرقات مليئة بالجماهير يرفعون الأعلام ، والشعارات المختلفة ، وينشدون الأناشيد وتعلو الهتافات . ابتعدت عن الطرق الرئيسية ، واتخذت طريقى عبر الأزقة حتى وصلت إلى المرفأ . وعلى ظهر السفينة شاهدت خندو واقفاً وهو يتطلع فى قلق باحثاً عنى ، ولما رآنى هرع لملاقاتى ، وسار خلفى حتى دخلت إلى قمرتى . طلبت منه أن أغتسل ثم أن يحضر لى طعام الغذاء . وبكفاءته المعتادة لم يتركنى طويلا انتظر . وبعد الغذاء عاودت الاغتسال ، وطلبت منه رفع الصحاف ، وأدوات الغسيل . ولما عاد سألته إذا كان أحد من المعيه مازال على ظهر السفينة ، فأجاب بالنفى . وسألته عما إذا كان أحد قد إفتقدنى أو سأل عنى ، فقال إن رعموسى سأل عنى ، ولما أخبره خندو بذهابى إلىمعبد الاله مين لم يكرر السؤال ، وإنما نزل مع معيه الأمير إلى المدينة . أخيراً طلبت منه أن يسأل لى عن أسماء جميع من كانوا فى السفن من الأمراء ، والوزراء ، والـكهنة ، وأى شخص كان فى الموكب الفرعونى .

لم ينبس خندو بكلمة وهو ينسحب . وشعرت برغبه شديدة فى النعاس فخلعت ملابسى وارتديت جلباباً قصيراً ، ثم رفعت جزءا من غطاء الفراش ، واستلقيت مريحاً بدنى المـكدود . وقبل أن أسحب الغطاء على جسدى ، شعرت بحركة خفيفة تحت الغطاء . كانت حركاتى بعد هذا آلية لا أحسب أن للتفـكير دخلا فيها . ويبدو أنه كان عندى استعداد طبيعى لمجابهة الخطر أو لعلها خاصية كانت تنذرنى ، وتدفعنى للحركة فى الوقت نفسه . لم أحاول ترك الفراش ، وإنما جمعت الغطاء بسرعة خاطفة حول الموضع الذى احسست فيه بالحركة لحبست

الشيء الذى بداخله ، وبسرعة متناهية كنت قد تركت الفراش ، وأنا أقبض على أطراف الغطاء ، ورحت أضرب الغطاء بأقصى قوتى فى الأرض بلا هواده . لم أكتف بهذا ، وإنما سحبت الخنجر الذى كنت قد وضعته على إحدى المنضدتين الموجودتين فى القمره ، وأخذت أطعن به عبر الغطاء الشيء بداخله . لم أتوقف حتى تأكدت تماماً من أنه لا يمكن أن تكون فيه بقية من حياه . وأخيراً فردت الأطراف لأرى ما كنت طوال الوقت أشعر بأنه هو . كانت الحية القرناء .

وقفت أنظر إلى الحية وقد تهشمت رأسها تماما كما تمزق جسدها من أثر الطعنات التى أصابتها . وللمرة الأولى شعرت برعده باردة فى جسدى ، واحسست أنى اتصبب عرقا . وشعرت بحركة خفيفة عند الباب ، فاستدرت بسرعة رافعاً الخنجر ، لكننى رأيت خندو واقفاً ينظر بعينين يتطاير منهما شرر الغضب إلى جثة الحية الممزقة . هبطت يدى إلى جانبى ، وتنحيت جانباً . وتقدم العبد ليحمل الغطاء الممزق والجثة ويخرج بهما . وفجأه شعرت بأن قدماى تكادان أن تخذلانى، فالقيت بنفسى على الفراش . ومضت فترة وجيزة رجع بعدها خندو ومعه غطاء آخر وضعه على جسدى بناء على أمرى . تردد الخادم برهة ثم ألقى بنفسه عند قدمى وبدأ يتكلم ورأسه فى الأرض .

ـــ عاقبنى يامولاى . أقتلنى إن شئت . لقد أجرمت فى حقك فلم أقم بأداء واجبى ، وتركت قاتلا يتسرب إلى حجرتك . إنى أهملت إهمالا لا مجال معه لطلب الغفران .

وطيبت خاطر العبد .

ـــ لا عليك يا خندو لا أحسب أن فى استطاعة أحد أن يراقب حجرة أياماً كاملة ، ولابد أن القاتل المزعوم إنتهز فرصة كان يترقبها ليدس الحية . سوف نكون أكثر حيطة فى المستقبل .

لم يبد عليه أنه إقتنع بالعفو ، ورأيته متردداً فى القيام من الأرض حتى أشرت إليه بالخروج . وأغلق الباب برفق وراءه . ويبدو أن المجهود العصبى الذى بذلته كان له أثر شديد حتى أنى حينما بدأت أفكر غالبنى النعاس ، ورحت فى نوم عميق .

* * *

يلوح أن المجهود العصبي الذي مر بي أثناء النهار كان شديداً إلى درجة أنني لم أتحرك من فراشي ، أو أتململ في نومي إلا بعد أن فتح خنذو الباب ، وهزكتفي أكثر من مرة ، ويبدو أنه كان قد طرق الباب مدة طويلة ولما لم أجب إنزعج ودخل دون إستئذان . ولم يطمئن حتى تحركت في فراشي تحت وطأة يده . كان الليل قد أقبل فعلا ، وعم الظلام الكون . تحولت عيناى في ذهول عبر القمره ونظرت في بلاهة إلى المصباح الذي أشعله خنـــدو عند دخوله ثم بدأت شيئاً فشيئاً أستعيد رشدي . خرج العبد ليعود بعد لحظات ومعه أدوات الغسيل . وانعشتني المياه ، والعطور فأفقت تماماً ، وحينما عاد خندو بعد أن حمل أدوات الاغتسال ، كنت في حالتي الطبيعية . وقرر العبد أن رعموس أرسل يسأل عني للمرة الثانية في هذا اليوم ، وأنه يطلب أن أذهب إليه في قصر الضيافة الملحق بقصر الحـاكم .

عجبت عما يريد الكاهن مني ، وما الذي يدعوه إلى المجيء إلى السفينة مرة للسؤال عني ، وأن يرسل مرة ثانية في يوم واحد . وتساءلت عن الوقت فذهب خندو إلى القاعة الرئيسية في المركب ـ ليستشير ( مرحت ) [1] وعاد ليقول أنها بعد الثانية [2] بقليل ، ولما كان الوقت لا يزال مبكراً فقد ارتديت ملابسي ، وترددت برهة قبل أن أدس الخنجر بين طيات الدثار . وحينما خرجت وجدت أن خندو كان واقفاً في انتظاري وقد اكتسى وجهه تصميما يكاد أن يصل إلى التحدي ، فلم يكن على استعداد لأن أرفض أن يصحبني . وتبسمت في رفق وأشرت إليه أن يتبعني .

على أنني لم أكن أعرف البلدة ولم يسبق لي زيارتها الا في الصباح فلم يكن عسيراً أن أجد قصر الحاكم . إذ كان هو حاكم الاقليم التاسع كله ( منسو ) الذي كانت خن مين هي عاصمته ، بل أنه كان أيضاً الكاهن الأكبر في معبد حر ـ ور ، والمشرف كذلك على معبد الآله مين فكان قصره بداهة أكبر القصور وأضخمها

---

(١) اداه كانت تستخدم لرصد النجوم وضبط ساعات الليل .

(٢) كانت ساعات اليوم تقسم إلى قسمين ، ساعات النهار ، وساعات الليل والساعة الثانية ليلا كانت حوالى السابعة مساء بمفهومنا الآن .

على أنه حتى إن لم يكن كذلك فإن الأضواء المتألقة ، وأصوات الصخب التى تعلو ، كانت كافية لأن تدلني عليـــه . كان الحفل الذى أقيم من أجل تشريف الفرعون وأهله قد بدأ ، وعلت أصوات الموسيقى والمغنين .

لم يكن القصر بعيداً عن المرفأ فاتجهنا إليه فوراً . كان كعشرات غيره من القصور بسوره الخارجى العالى ، وحديقته الواسعة التى حوت الكثير من أنواع أشجار الزينة ، والفاكهة ، كما ضمت بحيرة صغيرة يأتيها الماء من النيل عن طريق مواسير تحت الأرض ، ولم يحاول الحراس على الباب منعنا من الدخول فقد كان رداء كهنوت آمون مفتاحاً لكل الأبواب . سرت على مهل أتأمل الحديقة الواسعة ، والممرات العريضة ، والأرائك المتناثرة . كان القصر الرئيسى مواجهاً مباشرة ، وان كانت الأشجار تخفيه عن عيون المتطفلين ، فى حين كانت هنالك مبانى أخرى جانبية بعيدة عنه لا شك أن بعضها قد خصص للحراس ، والخدم فى حين أنه كان جليا أن واحداً منها ، انفرد فى ركن آخر ، كان هو قصر الضيافة كانت جميع المبانى مضاءة بالمصابيح ، المتعددة الأشكال ، والألوان كما تناثرت المصابيح فى الحديقة الواسعة . وقفت أنظر إلى القصر الرئيسى الذى ولا شك كان منزل الحاكم ، والذى علمت فيما بعد أنه قد أفرد لراحة الفرعون ، وعائلته وبعض الحاشية المقربين فى حين انتقل الحاكم نفسه ، وعائلته ليقيم فى قصر الضيافة طوال فترة مكوث الفرعون فى المدينة .

كان قصراً مهيباً ربما لا يضارعه إلا قصور النبلاء ، وأنبياء رب الأرباب فى واست ( طيبه ) . لاحظت الدرجات الرخامية الواسعة التى تؤدى إلى الشرفة الضخمة التى امتدت على طوال القصر ، والأعمدة الحجرية المتعددة التى حملت جزءاً من السقف ثم تركت جزءاً آخر من القاعة الفسيحة دون غطاء . ويبدأ بعد ذلك جزء ثالث من القاعة ، وقد ظهرت الأعمدة مرة أخرى تحمل سقفاً يغطى باقى القصر ، وظهرت بعض الأبواب التى لا شك كانت تؤدى إلى حجرات الدور الأرضى فى حين بدا درج فى أحد الأركان يؤدى إلى الدورين العلويين حيث أقامه صاحب القصر وعائلته . وبدا القصر شعلة من نار ، كما بدت أشباح المدعوين والمدعوات تتراقص باهتة فى الأضواء . لم أتمكن فى وقفتى من رؤية الفرعون

ولا زوجته الملكة تى ، وإن كان قد خيل إلى أننى رأيت ولى العهد برأسه الضخم وجسده النحيل المشوه ، وهو يباسط بعض المدعوين .

حولت نظرى عن القصر الرئيسى ، وأخذت طريقى عبر الممرات التى تؤدى إلى قصر الضيافة ، سرت أنا أتأمل أنواع الأشجار المتباينة وقد تدلت منها المصابيح الجميلة لتزيد بهاء الحديقة . وكان القصر الثانى صورة مصغرة من القصر الرئيسى ، ولكن لم يكن أقل منه رونقاً وفخامة . وعند الدرج قابلنى شخص فهمت منه أنه مدير القصر ، وحينما سألته عن الكاهن رعموسى قادنى إلى صالة فسيحة دلفنا إلى حجرة جانبية بعد أن أشار إلى خنــدو بالانتظار عند باب القصر الخارجى . اخترت مقعداً مجاوراً للباب يؤدى إلى الشرفة الخارجية وجلست . وكانت أصوات الصخب ، والضحك فى تزايد مستمر ، ويبدو أنها كانت تتناسب طردياً مع كميات الجعة والنبيذ التى تستهلك . أجلت بطرفى فى الحجرة - كانت فسيحة ، وفاخرة الرياش دون مبالغة . فالمقاعد مريحة ، مصنوعة من خشب زانته أيدى الحفارين برسوم دقيقة جميلة . والأرائك واسعة لها مساند للرأس صيغت فى أشكال مختلفة . حتى المناضد كانت تحفة فنية ، كما كسيت الجدران ببعض الطنافس الجميلة متعددة الألوان . ومع هذا الرياش الضخم فان العين كانت ترتاح إلى الذوق الرفيع فى التنسيق .

فتح الباب فى هدوء وظهرت تفنت . لست أحسب أن منظراً أيا كانت روعته يمكن أن يبدو بمثل هذه الروعة ، حتى اننى شعرت بالدماء تندفع إلى وجهى ، وبضربات قلبى تتوالى بسرعة ، وتزداد ارتفاعا . كانت تقف وراءها أضواء المصابيح العديدة التى تنير الصالة الكبرى كما سقطت عليها أشعة مصابيح الحجرة ، وإن كانت أقل قوة . وبدا رداؤها الأزرق الفاتح الذى يلتصق بجسدها تماما ، كأنما يكاد أن يتفجر . ارتفع الرداء لينحسر عن أحد الكتفين فيبدو الكتف ، والذراع عاريين تماما ، فى حين تهدل جزء من الرداء على الكتف الآخر حتى منتصف الذراع . أما الشعر الأسود الجميل فقد ارتفع إن أعلى لتبدو الرقبة الرفيعة أبهى ما تكون فى طولها . ولم يكتس الجيد بأية مجوهرات وان التصق بالأذنين حلق صغير لا تكاد أن تلحظه العين فى الضوء ولا يفضحه إلا بريق الحجرين الكريمين اللذين توسطاه . كانت ما تزال صغيرة لم تكتمل

أنوثتها ، لكن الجسم المتناسق والصدر الصغير الناهد ، واليد العارية ، والجيد المرمرى ، كانت كلها تبدو وكأنها خالية تماما من العظام .

وقفت مشدوها لا أنبس بكلمة وأنا اخشى أن يقفز قلبي من ضلوعى صعدا إلى فمى . وكأنما شعرت الصبية بما يدور فى خلدى فتقدمت بخطوات تتهاوى ، ورن صوتها الرقيق عبر المسافة بيننا قائلة ببساطة وصراحة .

— مرحباً بك يا كاى . هل يعجبك ردائى وتصفيف شعرى ؟

لبثت برهة لا أجيب . وحينما تكلمت سمعت صوتى وكأنما هو يأتى من مكان سحيق ، وإن كنت أحسب أنه بدا هادئاً لا أثر فيه لما يعتمل فى نفسى من انفعال .

— إنك تبدين كالملكات أيتها الصغيرة .

داخلها غضب سريع وتوقفت فى سيرها فجأة .

— إنى لست صغيرة إننى فى الرابعة عشر من عمرى ولا أظن أنك تكبرنى بأكثر من سنتين أو ثلاث .

لم أشأ أن أدخل معها فى مناقشة عقيمة .

— أين سيدى نيافة الكاهن ؟

— أين تظنه ؟ فى الحفل قطعاً يسير فى ركاب سمو الأمير .

— لكنه أرسل يستدعينى .

— ليس الأمر مستعجل إلى هذا الحد ، وكان يمكن أن تأتى فى الغد بدلا من الليلة .

شعرت بالغضب يتملكنى . ولم أثق أن أتكلم ، فأحنيت رأسى مودعاً ، وسرت سريعاً إلى الباب . واستوقفتنى الفتاة فى صوت رقيق .

— ألا تريد أن تعرف لماذا استدعاك عمى ؟

— ليس الفضول من خصالى ، ويمكننى الإنتظار إلى الغد .

هممت أن أستأنف طريقى ، لكنها استوقفتنى للمرة الثانية وصوتها يقطر عذوبة .

— إنتظر ولا تغضب ، وإذا عاملتنى ببعض الرقة ، وسرت معى فى الحديقة فسوف أكافئك على ذلك باطلاعك .

لم أتمالك من الابتسام ، ولكننى ترددت قليلا قبل أن أجيب .

— إنك محقة إننى سريع الغضب ، وإنه يسرنى أن أصحبك فى جولة صغيرة فى الحديقة وإن كنت أرجو أن لا يضايق هذا سيدى نيافة الكاهن .

والواقع إننى كنت أفكر فى الوعد الذى قطعته على نفسى سابقاً لأستاذى القديم بأن أبتعد عن طريق الفتاة . ومع أننى لم أسع لمقابلتها ، ولم يكن لى حيلة فى الأمر ، إلا أننى شعرت أننى مسئول إلى حد كبير عن تصرفاتها ، ولعل ذلك إنما يرجع إلى شعور داخلى بالذنب تجاه ما كنت أحس به من ميل حقيقى للسير معها فى الحديقة . لكن الجملة التالية أبعدت عنى كل شعور سوى الدهشة . والتعجب .

— إن عمى هو الذى أشار على بأن أنتظرك لإعتقاده بأنك ربما تأتى وهو مشغول مع الأمير ، بل إنه كلفنى أن أتابع مع المشرف على القصر إعداد غرفة مريحة لك ، وأخرى لتابعك إذ أن الفرعون قد قرر أن يزور برسبوك ، وأن يقوم ببعض رحلات التعبد ، والصيد وعلى هذا فسوف نبقى لعـــدة أيام وربما أسبوعين أو أكثر ، فى المدينة ولا شك أن هذا كان بإيعاز من جلالة الملكة تى التى تبغى البقاء أطول فترة ممكنة بين أهلها .

كانت الفتاة أثناء حديثها قد إستدارت وهى تدعونى بإشارة من يدها إلى الخروج معها إلى الحديقة عن طريق الشرفة ، وكأنما اعتبرت موافقتى قضية مسلمة . وصحبتها فى خطواتها وعقلى يعمل . كيف يمكن أن يطلب الكاهن إلى ابنة أخيه أن تنتظرنى ، وتسهر على راحتى ، وهو الذى طلب بالحاح أكثر من مرة أن أبتعد عن طريقها ؟ هل ما قاله عن تنبؤاته غير صحيح ؟ لا ما كان ليجرؤ على ذلك ؟ إذا فما هو السبب فى هذا التحول الفجائى ، من النقيض إلى النقيض؟ واستمرت الفتاة فى ثرثرتها البريئة .

— وقد سمعت عمى وهو يتكلم مع سمو الأمير عنك ، وكانت سمو الأميرة معهما . أتدرى ماذا يريد عمى منك ؟ أنه يريد أن يخبرك بأن سمو الأمير يرغب فى أن يلحقك بخدمته أثناء دراستك فى الحظائر الفرعونية .

هنا لم أتمالك نفسي ، وانفجرت ضاحكا . لم يكن في شك في أن اليوم هو يومي . لقد عينت صباحا خرحب في معبد رب الأرباب ، وأعطيت ثلاث تالنتات لأقتل الأمير الذى قررت أن لا أقتله مما سوف يثير جميع كهنة تامرى ضدى ، وأكون بهذا هدفا لإنتقامهم شأني شأن ولى العهد ، مع أنني لا أؤمن بالدين الذى ينادى به بل وأعارضه بشدة . ويأتى الظهر فأنجو من الحية القرناء ، وما دبره لى عدو لا أعلم عنه شيئاً ، وفى المساء يأتيني النبأ باعتزام ولى العهد الذى أمرت بقتله أن يلحقنى فى خدمته . أليس هذا مضحكا؟!

كانت الفتاة تنظر إلى بتعجب . فمن البدهى أنها لم تكن تعلم بسائر التطورات والأوضاع . تمالكت نفسى وسألتها بصوت جهدت أن يكون رقيقاً .

— وفى أى منصب يريد سمو ولى العهد أن يلحقنى ؟ أرجو ألا يريدنى أن أكون أحد خدم آتون .

— كلا فهو يعلم تماما أنك تعارض دين الحق ، وإن كنا جميعاً مازلنا نأمل أن ترى النور . وسموه يعلم أيضاً أنك فى طريقك إلى نيوت نحح ( منف ) لتتعلم الفروسية ، وتتمرس على فنون القتال ، ولهذا فقد ألحقك بخدمة تتناسب مع ما أنت ذاهب لدراسته . أنك سوف تكون مدرجا فى حرس سموه الخاص تمهيداً لتعيينك ضابطا بعد أداء فترة الدراسة والتمرين .

وانفجرت ضاحكا للمرة الثانية فقد أكتملت حلقات المهزلة .

# الفصل العاشر

## « كم »

كان خبر قد بدأ يظهر فى كبد نوت (السماء) حينما فرغت من صلواتى وزينتى وإفطارى ، وجلست على مقعد الحجرة التى أفردت لى فى قصر الضيافة ، إذ كنت قد شعرت بحاجة شديدة لأن أجمع شتات أفكارى. فى أقل من ستة أيام إكتشفت المؤامرة ضد ولى العهد ، وأنقذت حياته ، وتسببت فى موت رجل ، وحدثت محاولتان لقتلى ، وعينت خرحب فى معبد رب الأرباب . ووكلت إلى مهمة قتل ولى العهد ، وألحقت بالحرس الخاص الفرعونى ، هذا عدا أنى كدت أفقد حياتى حينما اعتقد ولى العهد أنى قتلت رئيس البحارة عمداً إرضاء للإله سبك . كانت هذه حصيلة لا بأس من الأحداث فى خمسة أيام تقريباً بدأت بها الرحلة ، ولو استمر الحال على هذا المعدل فلا شك فى أن السنوات الخمس القادمة التى سوف أقضيها فى المران ستكون ممتعة . هذا بالطبع إذا قدرت لى الحياة وسط هذه المجموعة الفريدة من الأحداث .

كانت المشكلة الأولى التى تواجهنى هى معرفة الشخص أو الأشخاص الذين يحاولون قتلى ، وعما إذا كان لهذه المحاولات صلة بمحاولة قتل الأمير . ولما كانت الإجابة على السؤال الثانى تتوقف إلى حد كبير على الإجابة على الأول فقد بدأت أركز تفكيرى فيه . جهدت عقـــلى على محاولات التعرف على الإجابة ، فاستعرضت أسماء الأشخاص الذين يحتمل أن تكون لهم علاقة بمحاولات قتلى كما استعرضت الأسباب . لكننى اعترف بأننى فشلت تماماً فى إيجاد حل مقنع . ربما داخلنى بعض الشبهات ، لكنها كانت بعيدة كل البعد عن الإقناع ، ولم تزد على مرتبة الريب، والظنون .

أيقظتنى من إغراقى طرقات خفيفة على البـاب ، وحينما أذنت ظهر خندو ليقول لى إن نيافة رع موسى يود مخاطبتى، وأنه يفضل أن يأتى هو إلى حجرتى بدلا

من أن أذهب إليه . لم أتردد فى الإجابة ، وانسحب خندو ، ولم يمض إلا قليل حتى طرق الباب وظهر منه أستاذى . تقدمت لأرحب به ثم أجلسه على المقعد إلى المائدة ووقفت أنتظر . وبإشارة من يده جلست على الفراش قريباً منه . وتكلم الكاهن .

— دعنى أولا أعتذر لك عن عدم تمكنى من رؤياك ليلة البارحة إذ أنى لم أستطع أن أترك الحفل . وقد دام إلى ما يقارب الساعات الأولى من الصباح . لكن لعل تفنت كانت خير سفير ، ولعلها قد قامت على راحتك .

سكت برهة وهو ينظر إلى ولما لم أحر جواباً استمر .

— أرجو أن تكون الفتاة قد زفت إليك البشرى السعيدة فقد رأيت أن آذن لها بذلك حتى لا أدعك فى قلق .

وانتظر منى الإجابة .

— لقد فعلت . هل لى أن استوضح شيئاً ؟
نظر إلى الكاهن ثم أومأ .

— هل لى أن استوضح السبب الذى من أجله شرفنى سمو ولى العهد . له الصحة والعافية ، بهذه النعمة السابغة ؟

استمر الكاهن ينظر فى وجهى . وبان عليه التردد لحظات ثم استقر على رأى .

— سأجيبك على سؤالك بأسئلة أخرى . كيف عرفت أن هنالك مؤامرة لاغتيال سمو ولى العهد ؟ لا تحتج فمن الواضح أنه كانت هنالك محاولة لاغتيال ، وأنك بطريقة ما علمت بها . لماذا أنقذت حياة الأمير مع أنك على خلاف معه فى الدين ؟ لماذا لم تدافع عن نفسك حينما اتهمت بقتل رئيس البحارة وكدت تفقد حياتك ثمنا لهذا السكوت ؟ سأقول لك السبب فى كل هذا . أنك لست بقاتل . أيا كانت الأسباب التى تدفع غيرك للاغتيال فلن يدفعك شىء إلى القتل غيلة . وأى حارس خير من ذلك الذى تطمئن إلى أنه لن يدس إليك السم فى طعامك ، أو لن يطعنك بخنجر من وراء ظهرك ؟ أنى أنا الذى أشرت على سمو الأمير باختيارك فى حرسه على الأقل مدة مرانك حتى ترجع ثانية إلى مهنتك

الأصلية ، وإن كنت احسب أنك لن ترتدى ثياب الكهنوت بعد أن تذوق طعم الفروسية .

— ألست تبالغ يا سيدى قليلا فى ثقتك هذه ؟

— لا أننى لا أعتقد أننى أبالغ لكن الذين يبالغون هم الذين حالوا أن يجندوك لقتل سمو الأمير ، هم كهنة آمون ، ومين ، وسبوك .

رفعت رأسى محتجا . لكن الكاهن أشار بيده قبل أن ألفظ بكلمة .

— لا يابنى لا تحاول المراوغة . إنك لن تكذب ، ولن تفضحهم لكن هل تعتقد أنه من العسير على أن أعلم ما يدور ؟ هل تظن أن ما عرفه كهنة تامرى جميعا من أنك سوف تحمل جثة الأمير لم أعرفه أنا ؟ هل تعتقد أنه كان من العسير على بعد هذا أن استنتج أنهم سوف يسعون إليك ؟ وحينما سألت عنك علمت أنك قد ذهبت إلى معبد مين ، وقد لاحظت أن النبى الثالث للاله لم يحضر الحفلات الفرعونية رغم أهميتها ، فهل تعتقد أنه كان عسيراً على أن استنتج ما حدث ؟

لم أنبس ببنت شفه . كان الكاهن العجوز يتلاعب بى كما لو كنت فأراً صغيراً ، أو كما كانت حياتى أمامه كتابا مفتوحا يقلب صفحاته كيف يشاء . وشعرت بضآلة نفسى وعجزى حياله . ولاحظ أستاذى القديم ما أنا فيه من حيرة فسارع إلى نجدتى .

— على أى حال لقد جئت لأستفسر منك إن كنت تقبل ما يعرضه عليك سمو الأمير ؟

— وهل لى خيرة ؟

— أجل ما عليك إلا أن ترفض وسوف يعتبر الأمر ملغيا . لكن لا تتعجل الإجابة ، فلست أريد أن تشعر بأى ضغط . إن الفرعون سيذهب هذا الصباح ليقدم فروض الولاء إلى الاله مين ، وفى غد سيتوجه إلى بر سبوك ليزور معبد الاله سبوك ، وسيقضى ليلته التالية ، أو ليلتين فى المدينة ثم يعود إلى هنا ، ولن يصحب سمو الأمير معه فى زيارته للالهين ، وفى الصباح الذى يلى عودته سوف يتحرك الموكب الفرعونى إلى الأحراش القريبة ، والصحراء فى

رحلة صيد قد تستغرق يومين أو أكثر ، وسيكون سمو الأمير فى المعية الفرعونية . وحينما يعود الجميع فإننى أنتظر ردك وهـــذا يعطيك سبعة أيام ، وثمانية على الأقل للتفكير ، وأحسبها مهلة كافية .

أطرقت برأسى . ولم ينتظر الـكاهن منى إجابة وانما استطرد سائلا .

ــ هل لك رغبة فى أن تصحب الفرعون فى رحلة إلى المعبدين أو ايهما ؟

وأجبت بالنفى .

ــ حسنا . لـكنى أنصحك بأى تصاحب الموكب فى رحلة الصيد فما أحسب أنك قد شاهدت مثلها من قبل . وهى متعة ظريفة خاصة لمن هم فى مثل سنك .

ودون أن يرد على ذلك استدار الـكاهن قاصداً باب الحجرة ، ودلف منه وتركنى بمفردى أقلب ماسمعت وأنا فى حيرة . طوال حديثه كان هنالك سؤال واحـــد يدور فى رأسى . لماذا أتى الـكاهن إلى حجرتى بدلا من أن يستدعينى عنده . ولم يقدر لى أن أعرف الإجابة على هذا السؤال إلا بعد أيام .

لم أمكث فى حجرتى طويلا إذ ناديت على خندو لأسأله إن كان يعلم عن وجود إسطبل خيول لدى الحاكم فرد بالإيجاب قائلا أنه فى أقصى الحديقة من الناحية القبلية إلى جوار سكن الخدم . وشكرته راجياً ألايسير خافى ، ووعدته باسما الا أترك القصر دون علمه . ولم يكن خندو يعلم أن هنالك حارسا أمينا آخر لايفارقنى ، الا وهو الخنجر ، فقد إتخذتها عادة أن أضعه فى منطقتى تحت الرداء الفضفاض .

سرت فى ردهات القصر ، ثم هبطت الدرج إلى الدور الأرضى فالحديقة . وتطلعت حولى أمتع النظر فى ضوء الشمس بأنواع الزهور المختلفة ، وقد نسقت فى حياض ، كما ظللت جانبى ممرات الحديقة بأشجار شذبتها أيد مهرة . طالعتنى الرفاهية فى كل ركن ، وفى كل زهرة . وعاودنى سؤال . أيمكن لمثل هذه الرفاهية الناعمة المترفة أن تحفظ إمبراطورية بناها الفرعون الاله تحوتمس الثالث بدماء الشعب ، وحفظها خلفاؤه من بعده بقوة السواعد ؟ إن الشعوب التى خضعت ما كانت لتستمر فى خضوعها لولا ذكرى الهزائم المتكررة التى ألحقها بها فراعنة العظام ،

وماكان لفرعون مترف أن يحفظها لولا هذه الذكرى . لكن إلى متى يدوم هذا الخوف ؟ وإلى متى تحتفظ العقول بالذكرى ؟

طرقت برأسي متفكراً ، ومتجها إلى حيث أخبرني خندو عن مكان الحظائر . واتجه تفكيري إلى الضابطين الذين قابلتهما منذ أشهر فى حفل الاوبت فى القصر الفرعونى . حورحب ، ورعمس سو(١) . كانا جنديين بمعنى الكلمة . فيها روح تأمرى، وقوة الإمبراطورية . وإن كان هنالك أمل فى أن تستبقى بلدى الحبيب سلطانها، فإنما ينعقد هذا الأمل على مثل هؤلاء . لم أكن أدرى كم كنت قريبا من الواقع ولو كشف أمامى استار المستقبل لرأيت كلا أن الرجلين يتربع على عرش الفراعنة ويؤسس ثانيهما أسرة حفلت بأمجاد عظام .

وتنبهت أننى فى سيرى قد وصلت أمام مبنى ضخم من طابق واحد أرضى تبينت فيه مبتغاى — رأيت أمام الباب الكبير حدث أصغر منى سنا ، وقف ينتظر مقدمى وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة لطيفة . وتقدم منى الحدث مادا يده للمصافحة .

— أهلا بك أيها الكاهن . اننى نترى باوو ددف ، بن خع باوو ، رئيس حظائر فخامة الحاكم .

ومددت يدى ليشد عليها الحدث بقبضه دهشت لقوتها .

— أناكاى رع سنب أحد خدم رب الأرباب تعالت قدرته .

— ما الذى أتى بك إلى الحظائر ؟ لا أحسبك تود أن تمتطى جواداً .

— إننى أحب الخيل . فهى حيوانات جميلة التكوين متناسقة الحركة ، لكننى للأسف لم امتط احداها وإن كنت أود ذلك من صميم قلبى .

إزدادت الابتسامة اتساعا على شفتى نترى وهو يقول :

— ولم لا ؟ هيا بنا .

— إلى أين ؟

— ننتقى جوادين . ألا تريد أن تتعلم الركوب ؟

---

(١) لم يكن الرجلان فى هذا الوقت ارتقيا عرش مصر بذلك كان أسمهما الحقيقى جسر خبرو رع ومن يحتى رع ، ولكن لسهولة المعرفة أطلقت عليهما الاسمين اللذين عرفا بهما فيما بعد حينما ارتقيا عرشي مصر .

كان يتكلم بلهجة عملية كأن هذا أمراً قد انتهى فيه القرار ولا مجال لأن أناقشه. اعجبتني لهجته ، فسرت وراءه دون أن أعارض بينما استمر فى ثرثرته .

— مما يؤسف له أن بعض الخيل قد رحلت فى صحبة الفرعون له الصحة والرفاهية . وهى بالطبع — أجملها وأقواها . هنا لك جوادان بالذات كنت أريدك أن تراهما . لكن لا بأس سوف تراهما حينما يعود الركب الفرعونى كما أنه لايزال يوجد الكثير من الأفراس الجيدة .

وبدا جلياً أن ما يقوله صحيح . فبالرغم من أنه كان من الواضح أن الكثير من مرابط الخيل خالية إلا أن البناء الضخم كان مايزال يضم عشر جياد على الأقل . سرت خلف نترى وأنا اتأمل الحيوانات الجميلة . وبدا أنها هى الأخرى كانت تتأملنى وان لم تعر صديقى التفاتا إذ يبدو أن وجهه كان أليفا لديها . واستمر نترى يثرثر ونحن سائران :

— بالطبع سوف ترتبك فى أول مرة . ويلزمك على الأقل أسبوعا حتى تعتاد على الجلسة ، واهتزاز ظهر الفرس وهو يعدو كما أنك تلبس ملابس طويلة سوف تضايقك . أنظر إلى هذه المهرة . انها بديعة اليس كذلك ؟ إنى أسميها نفر الجميلة ، وهى تأتى إلى حينما أناديها بأسمها .

وفعلا أدارت الفرس رأسها إلى نترى حينما سمعت إسمها . ولاحت الوداعة فى عينيها ، وكأنها تريد أن تعبر عن حبها . مد نترى يده ليربت على رأسها وعنقها ، وبدت مستسلمة مطمئنة .

— سوف تتعلم الركوب عليها فهى وديعة ، مسالمة ، وخير من يراعى صاحبها . بالطبع إذا كنت تريد حصاناً لنفسك فأنه يلزمك حصانا ضخما يستطيع أن يتحمل ثقل جسمك فى المسافات الطويلة . تعالى معى لبضعة أمتار . أنظر هذا الحصان الأسود . إن اسمه « كم » أو الأسود ، وهو ليس فقط أسود اللون ، وانما أيضاً أسود القلب . لقد كاد أن يقتل أحد العبيد ، وليس من اليسير على أحد أن يمتطيه . وهو كثير الحيل ، ينتهز فرصة غفلة صاحبه ليلقيه أرضا . لكنه سريع كالريح ، وقوى كالأسد .

وقفت أنظر إلى الجواد . كان حقا تحفة رائعة من استعراض القوة المجردة .

نظر إلى بعينين يشع منها الخبث . لا لست أظن أن نظراته كانت خبيثة وإنما لعل التعبير الأصح أن - يقال انها نظرات كريهة . نظرة حيوان يحب الحرية ، ولا يستطيع أن ينالها ، فيكره الإنسان الذى حرمه منها . دنوت قليلا من الجواد ، لكن نترى جذبنى من ذراعى وهو يقول .

— لا تقترب منه . إن الشيطان قد اتخذه مستقرا . وسوف تجده ينتظر حتى نقترب منه بدرجة كافية ، ثم يقضم ذراعك أو أى جزء من جسمك يناله قبل أن تستطيع الابتعاد عنه .

لاحت ابتسامة على شفتى . إذا كان هذا الجواد مطية الشيطان فقد عثر أخيراً على من يروضه . كنت قد درست شيئاً من هذا العلم ، بل وروضت حيوانات متوحشة أثناء دراستى . ولست أظن أن هذا الحصان أشد شراسة من أفعى ، أو تمساح ، أو حتى فهد . وقفت على بعد كافى . واستقر نظرى على الحيوان « وبدأت أتمتم بكلمات كنت أعرف سرها وقوتها . لم يستطع الحيوان أن يحول نظره عنى . بدا قلقاً فى وقفته ، وراحت أقدامه تضرب الأرض بشدة . وتقدمت بخطوات بطيئة ، ولاح كأن الجواد يريد أن يتراجع لكننى كنت أعلم أنه لن يستطيع . وازداد قلقه كلما اقتربت منه ، وتصبب من جسده العرق فى حين راح ينتفض كأنه أصيب بنزلة برد مفاجئة .

استمر تقدمى البطىء نحو الحيوان ، استمرت تمتمتى بصوت لا يكاد أن يسمع . وفجأة توقف الجواد عن الحركة ، وهبطت رأسه نحو الأرض ، ثم تقدم نحوى يتمسح فى دعة واستكانة . ربت بيدى على رأسه ثم إلتفت إلى صاحبى . كان واقفاً كالمشدوه غير مصدق ما تراه عيناه ، وبدا عليه أنه كان يحاول الكلام . وأخيراً أفلح .

— ماذا فعلت ؟ انظر إلى الحظيرة كلها قد عمها السكون . . .

لا يوجد حيوان واحد يتحرك حتى المهور الصغيرة كفت عن حركتها من أنت ؟ وما أنت ؟

وأجبت فى صوت حاولت جاهداً أن يكون مطمئناً .

— لا تراع يا صاحبى . لم يحدث فى الواقــع شىء ، أنظر إن الأفراس والخيول رجعت إلى طبيعتها ، وحتى « كم » كما تسميه صار أكثر هدوءاً .

لم أشأ أن أذكره بأنني كاهن من كهنة رب الأرباب ، وقد درست من طفولتي في مدرسة الحياة ، وأن مجرد ترويض فرس ليس عسيراً على من كان مثلي ، بل أنه لا يعتبر من ضمن الأسرار الكبرى التي - لايجوز لنا أن نبوح بها . إن العلوم التي درستها لم تبلغ معشار الأسرار التي سوف أتعلمها بعد أن أكمل دراستي البدنية لأعود خرحب في المعبد ، ولا هي تبلغ ذرة من معلومات أحد الأنبياء الموقرين . هؤلاء هم العلماء الحقيقيون الذين يعرفون من أسرار الكون مالا يعرف سواهم . هم الذين يدمرون المدن ، ويهزمون الجيوش ، ويرعبون الشعب. لديهم أسرارالحياة والموت . هم الذين - يعرفون سر تناسخ أوزوريس، ولعنة إيزيس ، وبطش ست . هم الذين يعرفون سر الكلمة .

لم يطل بي الوقوف ، وانما مددت يدي إلى باب مربط الجواد ، وفتحته ليخرج الحيوان الجميل ويقف إلى جواري هادئاً وديعا . ولم يتحرك نترى من مكانه وظل يحدق في كالنائم حتى أيقظته كلماتي .

— هيا يا نترى . ألم تقل أنه قد حان لي أن أتعلم .

أفاق الغلام ، وقال وهو ما يزال كأنما في غيبوبة .

— أجل ولكن يجب أن تضع اللجام في فم الحصان أولا .

— أرني كيف .

تردد نترى في البداية ، لكنه حينما رأى أن الحيوان ظل هادئاً لا يبدى أية حركة عدائية تركنا برهة ثم عاد وقد حمل لجاماً . وبدأ يريني كيف أضع اللجام . ودون أن ينبث بكلمة ذهب مرة ثانية ليعود بعد بضع دقائق وهو يسحب الفرس الجميلة « نفر » وبدأت تمرينات الركوب . ولم تمض دقائق حتى كان جسمي يتحرك جيئة وذهاباً مع حركة الحيوان النبيل دون أن أجد عسراً إذ أنه كان سلس القيادة كحمل وديع .

خرجنا إلى البراري ، وبدأ الحصان خطواته السريعة الرشيقة . ولأول مرة أحسست - بالهواء يلفح وجهي . وتابعني نترى بتعليماته ، لكنني في الواقع لم أكن في حاجة فعلية إلى التوجيه إذ أن جسمي سرعان ما تآلف في بساطة طبيعية مع حركة الحيوان الجميل . كان - قلبي مليئاً بالسرور والغبطة ، كما كانت

كل عضلة فى جسدى تهتف فى حبور . كنت كأنما قد ولدت على ظهر الجواد ومضى الوقت دون أن أشعر . بل إننى نسيت فعلا زميلى ومقدرته على الاحتمال ولكنه أثبت أنه متعلق بالفروسية تعلقى بها

وأغرانى نجاحى واليسر الذى ألفت به الرياضة ، فبدأت أتمتم ببضع كلمات . فجأة توقف الحصان عن الجرى ثم لاح كأنه فى حلم ، بدأ يفيق منه وراح ينظر حوله وكأنه لم يكن يدرى ما الذى جاء به إلى هذه البرارى وقد كان فى حظيرته . ورأى تترى ما يحدث فأوقف فرسه ، ومضى يرقبنا ، نحن الاثنين وقد بدا التعجب فى نظره . لم أهتم به ، وانما ضغطت بساقى على جانبى الجواد وشددت بيدى على لجامه . وبدا كأن الحيوان قد شعر بوجودى فوقه لاول مرة ، فحاول أن يتأكد بأن يلوى رقبته ، لكن اللجام منعه من أية حركة . وبدون سابق انذار اندفع الجـواد وكأنما قد ركبه ألف من الجن . ارتفعت الساقان الاماميتان إلى أعلى حتى وقف مستقيما تماماً على ساقيه الخلفيتين . وكدت انزلق من ظهره ، غير أننى شددت الضغط على جانبيه ، وألقيت بنفسى على رقبته ، وقبضت بقوة على لجامه . اعتدل الحصان طارقاً ساقيه الاماميتين فى الارض بعنف كاد يلقينى من ظهره ، وعدا خطوات ليقف بغتة . أحسست كان تحتى بركاناً يثور . وخيل إلى أن عظام ظهرى قد تكسرت ، لكننى لم أترك اللجام ، ولم أخفف ضغط ساقى من جانبيه . فى سرعة خارقه انطلق الحصان يعدو على غير هدى . حاولت أن أوقفه ،وشددت بـكل قوتى على اللجام ، لكننى كنت كالطفل فى يد مارد .

راحت الأرض تطوى من تحتى طياً ، واندفع الهواء يلفحنى وكأنه يصفعنى . شعرت بأن عضلات ذراعى تكاد أن تنفجر من الألم ، ولكننى لم أرخ قبضتى على اللجام . كنت أعلم أن الحصان أيضاً يتألم ، وأن بينى وبينه صراع صبر وقوة تحمل ، وأن السيادة للفائز . لم يخفف من عدوه . وازدادت الآلام فى ذراعى ، وساقى . وفقد جسمى التآلف مع جسده فرحت أرتفع وأهبط على ظهره حتى احسست بالألم فى كل عظامى وعضلاتى ، ومع هذا فلم افكر لحظة فى أن أخفف من قبضتى ، بل ربما خشيت من الوقوع ، فازددت

ضغطاً . وبالرغم من شعورى بالخوف إلا أن الغبطة كانت تملأ قلبى : هنا كانت القوة البهيمية المجردة ، وكنت أصارعها بقوة بهيمية تمثلها . هنا كانت قوة تفوق أية قوة بشرية ، قوة تتصارع لمجرد الغلبة بلا هدف آخر وراءها . قوة ساذجة لا حفيظة فيها ولا خبث .

لم أشعر بمضى الوقت ، وإن كان قد خيل إلى أنه دهور ، وما أحسبه فى الحقيقة إلا فترة قصـــيرة . لم أجرؤ على الالتفات لأرى أين كان صاحبى فإن مقاومة الجواد كانت تشد كل انتباهى . وخفت السرعة فجأة وكأنما قد اكتفى الحيوان بما ناله . وبدأت أخفف الضغط لأريح عضلاتى المكدودة . لكن الجواد لم يكن قد استنفذ كل ماعنده . توقف ثم اندفع ثانية بأقصى سرعة . لم أدر ماذا حدث تماماً ، وإنما شعرت بنفسى طائراً فى الهواء ثم ارتطمت بالأرض بشدة رجت جسمى بأكمله ، ورأيت حافرى الحصان لا تبعدان بأكثر من ذراعين ، أو ثلاثة . أيقنت بالموت فلم يكن فى استطاعتى أن أفعل شيئاً . توقعت أن أشعر بالحافرين يضغطان على صدرى بكل ثقل الجسم القوى ، فأغمضت عينى ، ولكن شيئاً لم يحدث . التفت لأجد الحيوان النبيل وقد تسمرت ساقاه فى الأرض وهو لا يبعد عنى بأكثر من شبر حتى أن حافريه كادا يلمسان جسدى .

انتظرت لحظات . وحاولت أن أقف لكن جسمى كان قد أصيب بكثير من الرضوض والسحجات حتى أنه لم يكن فى استطاعتى النهوض . وثنى الحصان رقبته، وأخذ يتحسس بأنفه ، وكأنه يؤكد تقديره للصراع ، وما أبديته فيه من مقاومة . كان هو الفائز ، لكنه كان فائزاً كريماً يقدر قوة خصمه . كما بدا أنه يعرف أنه ما كان ليفوز لولا الحيلة التى استعملها فى طرحى من ظهره ، راحت عيناى تبحثان من مكانى عن صاحبى ، وأخيراً رأيته يأتى عدواً ممتط صهوة فرسه ثم قفز بحركة رشيقة إلى الأرض، وركع إلى جوارى، وسألنى بلهفة حقيقية .

— هل أصبت بسوء ؟

تبسمت من خلال العرق والتراب .

— وهل تصدقنى إن أنكرت ؟ أرجو أن تساعدنى على القيام .

وضع صاحبي يده تحت ذراعي يساعدني على النهوض . وأحسست بأن جميع عظامي قد تحولت عن أماكنها وبأن عضلاتي قد تمزقت ، لكني تمالكت نفسي بمجرد الإرادة البحتة . كانت ساقاي تخونانى لولا أنه شدد قبضته على . تأكدت من أن عظامي سليمة لم يكسر منها شيء ، وأن جميع الآلام التي أعانيها هى فى الواقع آلام سطحية . وانتصبت واقفاً . ونظر إلى تترى فى شفقة ثم قال :

— لماذا أطلقت عنانه ؟ أكنت تظن أنك تستطيع قهره وأنت فى أول مرحلة من تعلمك ؟

— كان من حق الحيوان أن يدافع عن حريته ، ثم أنني لم أكن أشعر بلذة حقيقية فى مجرد أن أمتطيه بعد أخضعت إرادته .

بدا التعجب فى عيني الغلام وقال :

— وكيف أخضعت إرادته ؟

شعرت بخطئي فما كان هنـــاك ما يدعو أن يعرف شخص عادى شيئاً من الأسرار العليا ، حتى ولئن كان هذا الشيء من المبادىء الأولية البسيطة . ولهذا أجبت ببساطة استبعدت فيها أى مجال للمناقشة .

— لا شك أنك تعرف أن إرادة الإنسان أقوى من إرادة الحيوان . أخبرني هل ستقومون فعلا ببيع هذا الجواد ؟

— إن والدى يفكر جدياً فى هذا وإن شئت سألته .

— شكراً. هلا فعلت ؟ دعنا نعود الآن . أحسبني نلت كفايتي اليوم . ولعلى أستطيع أن أعاود الكرة غداً .

— طبعاً فى أى وقت شئت ، وسأخطر والدى أن يعطى أوامره للفتيان فى الحظيرة أن يسرجوا لك أى جواد شئت . والآن هل أساعدك لتركب خلفى وتعود ؟

هززت رأسى بالنفى .

— كلا سوف أمتطى « كم » إن هناك نوعاً من الألفة الروحية بيننا ، وأنى أشعر كأنما الحيوان يود أن يعوضنى عن خديعته . بل ولعله يأسف لها . أعسدنى إن سمحت على امتطائه .

نظر إلى الفتى فى تعجب واضح ، لـكنه مد إلى يده يعاوننى على امتطاء الحصان . وبدا الحيوان قلقاً غير مستقر فى مكانه ، لـكنه لم يحاول التملص حتى أحس بثقل جسدى . إلتفت يثنى رقبته نحوى كأنما ليتأكد أننى أنا الذى أمتطيه . وقبضت على اللجام بيد من حديد ، وأدرت رأس الجواد إلى المدينة ثم تركته لينطلق . كان كل جزء فى جسمى يؤلمنى ، لـكن الآلام لم تكن شيئاً يذكر بالنسبة لـكاهن فى معبد رب الأرباب . إن اجتياز إمتحان الآلام هو أول درجة من درجات التأهيل للدخول فى سلك الـكهنوتية ، وما كانت بضعة رضوض وخدوش بشىء يذكر إلى جانب ما كنا قد اعتدنا عليه .

انطلق الجواد ينهب الأرض نهباً . وراح الهواء الجاف يلفح وجهى ، وشعرت بألفة عجيبة بينى وبين الحيوان النبيل ، بل أننى أحسست كأنما جسدى قد التصق بجسده ليكونا صورة واحدة ، وجسداً واحداً . كان هذا اليوم من أعظم أيام حياتى . لقد اكتشفت صديقاً حقيقياً لا يعرف رياء ، ولا مطمع له إلا إرضائى دون أن ينتظر حتى مجرد مبادلته حباً بحب . ولم أكن أدرى فى الواقع مدى ما كسبته حتى أثبتت لى الأيام المرة تلو الأخرى أننى كنت الرابح فى هذه الصفقة ، بل إن مجرى حياتى كاملة قد تغير تماماً منذ هذا اليوم ، لـكنى لم أكن أدرى هذا وقتئذ .

# الفصل الحادى عشر

## « الفهـــد »

كان اليومان التاليان من أجمل الأيام التى قضيتها . أما الصباح فكنت أقضيه جميعه بصحبة نترى وكم . وبدا جلياً أن كل دقيقة أقضيها مع الجواد تزيد من الألفة بيننا حتى أنه كان كثيراً ما يشعر برغباتى قبـل أن أبديها . كان فى عدوه يراعى أننى مبتدىء لا أستطيع كلية أن أجاريه . لاحظت ذلك أكثر من مرة ، خاصة حينما كان عليه أن يقفز قناة تعترض سيره، فكان يترفق فى عدوه ، ولا يقفز إلا عند الضرورة ، ويقدر المسافة المطلوبة تماماً ، كان الحيوان الذكى يريد أن أشعر بأننى جزء منه » أو بأنه جزء منى . وأخبرنى نترى أن والده رفض أن يبيع الجواد ، ولئن كان قد سمح لى بامتطائه طالما أنا فى المدينة . وكانت هذه صدمة قوية بالنسبة لى إذ أننى لن أراه بمجرد أن أرحل ، ولم أفقد الأمل فى شرائه حتى أننى ذهبت فى اليوم التالى إلى والد صـديقى أرجوه أن يبيعنى إياه بأى ثمن يناسبه ، لـكن الرجل رفض رفضاً قاطعاً . كان يعلم قدر الجواد ، وقد ظن أننى قد روضته ، ولهذا رفض البيع . وقد شاهدت صدفة فى عصر يوم من الأيام وأنا أسير فى حدائق القصر مع نفنت، أحد السائسين وهو يطير فى الهواء إثر ركلة قوية من كم . ويبدو أن خع باوو رئيس الحظائر قد ظن أنه ما دام أن غرامثلى استطاع أن يمتطى صهوة « كم » فلا شك أن أحد المدربين فعلا أضحى من اليسير عليه أن يفعل .

وأخبرنى نترى فى إحدى رحلاتنا أنه هو شخصياً حاول امتطاء الجواد دون فائدة ، كما أن والده جرب جميع الفرسان ، وجعـل جائزة لأول من ينجح ، لـكن لم يستطع أحد أن يثبت على ظهر الجواد أكثر من ثوان ، وأردف نترى .

ـــ ويبدو أن الأمر ازداد سوءاً منذ أن عرفك « كم » . إن بعض الحيوانات لا تعرف سوى صاحباً واحداً يكون هو سيدها ، وتأبى تماماً أن يكون لها سيد آخر، ولا شك أن « كم » قد منحك كل حبه حتى أنه لم يبق لديه شىء يعطيه لغيرك .

ولم يكن هنالك شك فى أن ترى كان يتحول حتما إذا أن الحيوان كان يبدى كل سعادة وسرور حينما يرانى فى الصباح ، بل أنه حينما ألقى السائس من ظهره ، وركله فى عصر اليوم التالى إنطلق عدوا حتى جاء إلى حيث كنت أقف ، وأخذ يمسح أنفه فى كتفى كأنما يخبرنى بما حدث ، ويشكو لى محاولات رئيس الحظائر.

قررت أن أفعل شيئاً ، فسألت تفنت عن مكان عمها . وحينما أخبرتنى أنها تركته فى حجرته بقصر الضيافة ، مسحت على رأس الجواد ، أؤكدله أننى سأفعل شيئاً . وكأنما فهم الحيوان ما أعنى فترك السائسين يقودونه إلى الحظيرة دون مقاومة .

استأذنت من الفتاة ، واتجهت إلى القصر . وسألت رئيس الخدم أن يستأذن لى من الكاهن رعموس إن كان فى إستطاعتى أن أراه . وعاد الرجل بعد دقائق ليخبرنى أن نيافه الكاهن يسره أن يستقبلنى فى حجرته . صعدت الدرج بخطى سريعة وراء أحد الخدم حتى توقفت أمام باب طرقة . وسمعت صوت الكاهن يأذن بالدخول . وفتح الخادم لى الباب ثم تنحى حتى دلفت إلى الحجرة فاوصده .

استقبلنى الكاهن مبتسما ، وأشار إلى بيده إلى أريكة قريبة . وحينما جلست بادرنى السؤال .

— ترى هل أتيت لتقول لى أن رأيك قد استقر ؟

تململت فى جلستى برهة لكنى سرعان ما اندفعت .

— كلا ياسيدى إننى لم أستقر بعد ، لكن الواقع أنى جئت أطلب معونتكم فى أمر هام بالنسبه لى .

لم يتكلم الكاهن وانتظر .

— إن هنالك جواداً فى حظائر السيد الحاكم . وهو جواد بلغنى أن رئيس الحظائر كان ينوى بيعه لأن أحداً لم يستطع أن يمتطيه ، لكن حينما أردت شراءه رفض البيع فهل يمكننى أن أطمع أن تتدخل نيافتكم فى الأمر ؟

كانت هذه أول مرة فى حياتى ألتمس طلباً من أى شخص كان . وكان ثقيلا على أن اتكلم . وزاد من ضيقى أن الكاهن لم يحاول أن يخفف من العبء الذى لم يكن من شك أنه كان يعرف أننى أعانيه . استمر الرجل فى صمته وهو

ينظر إلى باسما وكأنما يتلذذ بامتهانى لنفسى، وكرامتى وأنا التمس منه رجاء. وازداد ضيقى حتى أننى هممت بأن أترك المجلس دون كلمة أخرى. ولعل الرجل لاحظ هذا إذ أشار بيده فى هدوء.

— اسمع يابنى ... اننى لا أستطيع أن أذهب إلى الحاكم لأطلب منه مثل هذا الطلب إذ أنه يتعارض تماما مع كرم الضيافة. لكننى أستطيع أن أتكلم مع سمو الأمير، ولاشك عندى فى أنه سوف يستجيب — وإن كنت أفضل أن انتظر حتى تحين لحظة مناسبة لأتوجه إليه بالسؤال، فعليك بالإنتظار بضعة أيام.

فهمت مايعنى الرجل الماكر. إنه يضع شرطاً لالتماسه من الأمير مقابل قبولى العمل الذى عرضه على. وغلى الدم فى عروقى. لقد تقدمت بأول التماس فى حياتى. فقوبل بوضع شروط. ولم أثق فى نفسى أن أتكلم فقمت من مجلسى، وأحنيت رأسى فى حركة آلية، ودلفت خارجا من الباب.

قابلتنى تفنت أسفل الدرج، وكدت أتخطاها دون أن أخاطبها، لكنها وقفت فى طريقى ونظرت إلى وجهى متسائلة.

— ماذا هناك؟

ولم أجب.

- إنك خارج من عند عمى وأنت حانق غاضب، هل تريد أن تسير معى فى الحديقة قليلا لنكمل جولتنا التى قطعتها؟

كدت أن أرفض، لكننى تمالكت نفسى، وسرت إلى جوارها متجهاً إلى الحديقة. كنت حانقاً على نفسى لامتهانى إياها بالرجاء. وكنت حانقا على الكاهن الخبيث لامعانه فى امتهانى وإذلالى. وكنت حانقاً لأننى شعرت أننى خذلت صديقى دكم، فما كان على إلا أن أخبر الكاهن أننى قبلت الانخراط فى سلك رعية الأمير حتى يكون الجواد ملكى. ودون أن اتكلم سرت إلى جوارها.

سرنا مدة فى أنحاء الحديقة. وكانت تفنت حكيمة إذ لم تسألنى عن سبب غضبى، وإنما تركتنى فرصة لينقضى الغضب، وأهدأ قليلا. وساد الصمت بيننا فلم نكن نسمع سوى زقزقة العصافير، ووقع خطواتنا على أرض ممرات الحديقة

المرصوفة بالحصى الملونة ، والمنمقة فى أشكال هندسية جميلة . وأخيراً تكلمت الفتاه ، لكن كلماتها كانت بعيده تماماً عن الموضوع الذى كان يشغل ذهنى ، أو على الأقل هذا ماظننته فى حين .

— هل ستذهب إلى الصيد ؟

التفت إليها . لم أكن قد أوليت الأمر تفكيراً جدياً حتى هذه اللحظة لكن حينما طرحت الفتاه السؤال بدا لى وكأنما قد تعلق به مستقبلى . وحتى الآن لست أدرى لماذا انتابنى هذا الشعور . فالسؤال قد طرح ببساطة ، ودون أى تكلف ، ولم تكن اللهجة فيها أى شىء يوحى بأهميته ، ولست أحسب أن تفنت نفسها القته إلا لمجرد تجاذب الحديث . ومع هذا فإن إحساسى كان قويا بأن على ردى يتوقف مصيرى . بدأت أقلب النظر فى الموضوع . ولم أر فى الواقع مايدعونى أن اتخلف عن رحلة الصيد ، إلا رغبتى فى أن استمتع بصحبة الجواد « كم » صديقى الجديد ، لأطول مدة ممكنة قبل أن ارتحل عن المدينة . ومع هذا الا يجوز اننى لو سألت رئيس الحظائر أن أصطحب الجواد فى رحلة الصيد أن يوافق ، خاصة وانه يطمع ، حسبما فهمت ، فى أن اروض الجواد .

ويبدو أن تفكيرى قد طال حتى ان تفنت قلقت ونظرت إلى بتعجب .

— هل يستدعى سؤالى البسيط كل هذا التفكير ؟ ام تراك قد سرحت بتفكيرك فى إتجاه آخر !

— عفوا. الواقع اننى كنت افكر فى السؤال ، وفى موضوع آخر يتعلق به . أجل أعتقد أننى ساصحب سمو ولى العهد فى رحلة الصيد . هل تعلمين شيئا عن الرحلة ؟ وعن الحيوان الذى سوف يقومون بصيده ؟

— لست أدرى تماما ، وان كان الحاكم قد أمر الصائدين بإقامة السياج فى منطقة كبيرة سواء فى غرب النيل أو إلى الشرق . وأن المنطقة سوف تشمل قرى تسى من ، وفاو ، وتنو ، وتاوت ، وتمون اين يامن وغيرها من قرى الناحية من خن مين ( اخميم ) إلى باهو ( سوهاج ) ، حتى برسبوك ( المنشاه ) ثم شمالا حتى تانتمت ( طما ) .

— هذه مساحة ضخمة ، ولعل الصيد سوف يكون لأكثر من يوم ، وأكثر من حيوان .

— أعتقد أنه سوف يشمل الثيران ، والأسود ، والفهود ، وربما فرس النهر أيضا . وعلى أى حال فإن كل هذا يتوقف على رغبة الفرعون .

ران الصمت مرة أخرى . وسرنا فى الحديقة الواسعة نتمتع بآخر ضوء للشمس قبل المغيب . وتكلمت تفنت .

— أتدرى أنك تذكرنى بالجواد الذى رأيناه الآن ؟ ما أسمه ؟ « كم » أليس كذلك ؟

نظرت اليها مبتسما، وهززت رأسى بالإيجاب . إن تفنيت دائما تقول أعجب الأشياء ، وتتصرف أغرب التصرفات . ولعلى قد اعتدت على طريقتها فلم أحاول أن أستوضحها ، وماكانت هى لتقنع بالصمت .

— أتذكر وقت أن تقابلنا ؟ فى الأيام التالية كنت قويا صامتا لا تكاد أن تنطق بكلمة ، ولم تكن تألف صحبتى بل لم يكن لك صاحب على الاطلاق أما الآن فقد بدأت تميل إلى قليلا ؟

كانت قد وضعت الجملة فى لهجة استفهامية . ولم أر أى داع لأن أجيب . وبقيت هى تنتظر أجابتى فى صبر . وعندما يئست أدارت دفة الحديث إلى ناحية أخرى .

— أنى سأذهب إلى الصيد ، فقد أقاموا خياما عند نهاية السور حتى يمكن للنبلاء الذين لن يستطيعوا الاشتراك فى الصيد ، وللسيدات، مشاهدة نهاية المطاردة. وأنت هل سوف تشترك ؟

— كلا .

— لكنك سوف تطلب من رئيس الحظائر على الأقل أن يعيرك « كم » فهذه فرصة مناسبة لترويضه .

— أجل سوف أحاول .

— وبذلك يكون من الطبيعى أنك سوف تسير فى معية سمو الأمير ولى العهد .

كان أتوم ( شمس الغرب ) قد بدأ فى سيره اللانهائى نحو امنتى ( المغرب ) . وتطاولت ظلال الأشجار وساد الكون هدوء عجيب . ولاحظت أن الأضواء قد ظهرت فى القصر فأمسكت ذراع تفنت أقودها إلى طريق العودة .

التفتت إلى فجأة كمن فوجىء بحركة لم يتوقعها . والواقع أن هذه كانت المرة الأولى التى لمستها فيها ، وشعرت بجلدها الأملس الناعم . سرى فى داخلى شعور عجيب من السرور جعلنى أسحب يدى لأضعها داخل ردائى ثانية على عادتى . وساد بيننا الصمت أثناء العودة . كنا كمن يشعر بأنه ارتكب اثماً يحاول أن يخفيه وراء ستار من الصمت .

تركتها عند درج القصر . ولم تزد عن تحية مساء تمتمتها بصوت خفيض ثم اندفعت مسرعة .

* * *

حل يوم الصيد . وخرج الفرعون ومعيته فى أبهى مايكون من منظر . انتقلوا إلى الضفة الغربية للنيل العظيم فى سيل طويل من القوارب . وانتقلت الجياد والعربات فى قوارب خاصة . وخرجت فى المعية مع ولى العهد . إستاذنت أن اصطحب « كم » ، وإذن لى رئيس الحظائر . وكان يلزمنى تبعا لذلك أن أكون معه فى القارب ، إذ خشى نترى أن يثور الحصان ، ويقع فى النهر ليكون لقمة سائغة للتماسيح .

اضطرنى الأمر أن أنتظر حتى نهاية القافلة تقريبا ، إذ أن الخدم ، والسائسين كانوا قد سبقوا موكب الفرعون ، وولى العهد ليقوموا بترتيب اللمسات الأخيرة للصيد ، كما أن النبلاء ، والأمراء ، والسيدات كانوا بدورهم قد شغلوا كل القوارب تقريبا . وقف على الشاطىء الشرقى ممسكا بزمام « كم » أنتظر حتى يعود أحد القوارب لينقلنا . وفى الحقيقة أن المناظر على النيل كانت جميلة حتى أننى لم أشعر بمضى الوقت .

شاهدت موكب الفرعون وهو يتبختر على النيل مزينا بالورود ، والزهور ، والرايات المتعددة الألوان . وقف عند المقدمة الفرعون نفسه يرتدى رداء أبيض ، وعلى رأسه رباط ذهبى جمع به شعره المستعار . وخلف الفرعون على مسافة يسيرة ، وقف حاكم المقاطعة ، وسائر رجال الحاشية الذين سوف يشتركون فى الصيد . وامتلاء النيل بالزوارق المزينة التى زادها بهاء أن جميع راكبيها قد ارتدوا أجمل حللهم ، فكأن صفحة المياه قد إنقلبت إلى بساط تناثرت عليه الأزهار من جميع الألوان . واصطفت جماهير الشعب على كلا الضفتين بعيداً عن المرسى الفرعونى وهى تتزاحم ، وتهتف ، كل يبغى أن يلقى نظرة على المواكب الفخمة المتباينة .

وكان « كم » قلقاً والقارب ينزلق بنا على صفحة المياه ، لكنني لم أدع زمامه يفلت من يدى ، ولم يهـــدأ إلا حينما مسحت على أنفه باليد الأخرى ، وأنا أخاطبه مطمئناً . وعلى الشاطىء الغربى قابلنى منظر أخاذ . كانت عربات الفرعون ، وولى العهد وبعض من معهم من المعيه قد أستأنفوا السير . وتقدم الفرعون على عربته الملكية قابضاً على سوطه ووقف خلفه أحد المرافقين حتى يتفرغ الفرعون إلى القنص حينما تبدو الفرائس ، ويتولى المرافق قيادة العربة .

وانتشرت سائر العربات فى الوادى الفسيح حتى لكأنها ملأته بألوانها الزاهية والجياد الأصلية . وكان القليلون جداً من يمتطى الجياد بغير عربات . ووقف مدربو الكلاب يمسكونها بسيور من جلود متينة ، وهى قلقه تبغى الانطلاق وقد علا نباحها يملأ الجو حتى أنه كاد أن يطغى على صوت الجماهير الهاتفة .

وحينما بدأت أعد « كم » لامتطيه كان رئيس المدربين قد أعطى اشارته . وإنطلقت الكلاب بأقصى سرعتها تسابق الريح . وجرى خلفها مدربوها . وتحركت عربة الفرعون ، وانطلقت خلفها سائر العربات فبدت كأنما هى جيش إندفع لغزو الأعداء .

لم أهتم بأن اتبع الركب ، فلم تكن لى رغبة فى الصيد ، ولهذا لم أتعجل فى إقتفاء آثارهم ، وإنما أدرت رأس الجواد الكريم ووجهته إلى ناحية الصحراء ، ثم أطلقت له العنان . وأنطلق بى « كم » يبتعد عن ضوضاء الجماهير ، والعربات ، والكلاب . مرت بى الحقول بما فيها من مزروعات . وبدت مشارف الصحراء فى سرعة مذهلة ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت أصوات ركب الصيد تأتى من بعيد ، وكانت أقدام الجواد تنهب الأرض الصفراء .

كان نظام الصيد حسبما فهمت أن تنطلق الكلاب تتبعها العربات حتى تصادف أثر قطيع من الغزال يكون رجال الصيد قد قالوا إنه قريب من المنطقه . وتحاصر الكلاب القطيع حتى تلحقهـــا العربات ، ثم يطوقونه ، ويدفعونه إلى السياج السابق إقامته حتى يحاصر القطيع تماماً ويحبس داخل السياج ، وأخيراً تبدأ الجماعة الصائدة فى اطلاق سهامها .

لم أكن أرى لذة فى مثل هذه المذبحة . فإن الحيوانات المسكينة لم يكن لديها

أية فرصة للنجاة ، فبمجرد أن تدخل السيـــاج أضحت فى حكم المنتهية . ولم أدر لماذا لا يتركونها تجرى فى الصحراء ، ويتبعونها بخيلهم إن أرادوا ، فهنا يمكن أن يكون تـكافؤ الفرص ، وهنا يكون للحيوان فرصة الافلات كما يكون على الصائد أن يظهر مهارته فى التسديد . وكان هذا فى الواقع هو السبب فى عزوفى عن الاشتراك فى الصيد .

لم أحمل معى سهاماً أو قوساً ، فلم تـكن لى رغبه كما قلت فى الصيد ، وأنما أردت أن امتطى « كم » لأطول مدة مستطاعة ، وكان كل ما أحمله من سلاح هو الخنجر الذى لم يفارق منطقتى داخل الرداء . وتملـكتنى النشوة وأنا أقود « كم » متوغلا فى الصحراء بعيداً عن المدينة ، وعن أضوائها وجلبتها . وحينما كان «رع» يعتلى كبد السماء كنت قد أمضيت أكثر من ساعة جائلا مع جوادى أو جهه وسط سكون يبعث فى النفس السكينة .

وبدأ « رع » يميل نحو امنتى ( الغروب ) وأحسست بالجوع . ونبهنى هذا إلى أن الجواد الـكريم لم يذق هو الآخر طعاماً منذ الصباح ، وأنه ولا بد قد انتابه الجوع ، والظمأ أكثر مما انتابنى إذ هو الذى كان يقوم بكل الحركة ، فاتجه تفـكيرى إلى العودة ، والإنضمام إلى ركب الصائدين . لم أكن أدرى تماماً أين هم الآن إذ أن أصواتهم كانت قد إنقطعت عنى منذ وقت طويل ، لـكننى كنت أعلم بالتقريب موقع السياج ، ولم يكن هنالك شك فى أنه بما أن الصيد ينتهى عنده فإن هنالك إستعدادات لوليمة العشاء على الأقل ، واستقبال الضيوف لقضاء الليله الأولى .

اتخذت طريقى مخترقاً الصحراء متوجها إلى موقع السياج . ولم يمض وقت طويل حتى بدأت الأصوات تطرق إذنى ، خافتة فى مبدأ الأمر ثم أخذت تعلو كلما دنوت . وصادفتنى ربوة عالية فقدت « كم » نحوها إذ رغبت أن أشهد منظر الصيد عن بعد . وحينما وصلنا إلى القمة إنبسطت تحت نظرى الصحراء وأمكننى أن أشاهد المنظر كاملا .

كان هنالك غبار يسود منطقة كبيرة إلى الشمال . وأمكننى أن أحدد أنه صادر من عجلات مركبات الصيد . لم استطع أن اتحقق من الراكبين بداهة

لكننى كنت أشاهد المنظر جميعه . أمام هذا الغبار كان هنالك غبار آخر يثور أخف منه ، وبدت الحيوانات المسكينة مرتعبة فى عدوها ، وهى تندفع نحو السياج ، تلاحقها كلاب الصيد وتضيق عليها الحصار .

ضايقنى المنظر إذ دفعنى إلى التفكير فى المذبحة المقبلة فأشحت بوجهى عنه ، وشرعت فى هبوط التل ، وهنا توقفت . إلى الشرق قليلا امتدت الصحراء لتنتهى عند حافة خضراء . وقبل نهايتها تماماً تناثرت بعض الأشجار . ونحو إحدى هذه الأشجار كان يتقدم من الجنوب شىء أسود لم أستطع أن أتبينه جيداً لبعد المسافة . ومن الناحية الأخرى رأيت غباراً يثور كأنما حيوان شارد يندفع بأقصى سرعته . وخلفه كان هنالك غبار آخر لم يداخلنى ريب فى أنه كان من أثر إحدى عربات الصيد .

لم يكن فى استطاعتى على هذا البعد أن أتحقق من الرؤية ، لكن داخلنى شعور غامض من الرهبة ، والخوف لم أدر مصدره . أحسست بأن راكبى العربة فى خطر داهم من ذلك الشىء الأسود الذى إختفى فى ظلال الأشجار فلم أعد أراه . كانت المسافة بينى وبين الشىء أبعد من الغزال الشارد والعربة . كنا نكون مثلثاً رأسه عند الشىء الأسود وطرفاً قاعدته العربة ، وأنا مع طول نسبى للضلع الذى أقف عند نهايته .

لكننى كنت امتطى « كم » ولست أظن أنه كان هنالك جواد يدانيه فى قوة احتماله وسرعته . ووقفت لحظه أنظر . وحينما تحققت بأن الغزال، والعربة مندفعان فى خط مستقيم نحو الأشجار حيث يقبع ذلك الشىء لم أتردد فى أن أطلق العنان للجواد . لم يحتج « كم » إلى شىء أكثر من مجرد كلمة ، أنطلق على أثرها هابطاً التل ، ومندفعاً نحو الأشجار .

شعرت بأن السباق بينى وبين العربة هو سباق موت . فإن امكننى أن اسبقها كتبت لراكبها ، او راكبيها الحياة . لم افكر فى مصيرى الشخصى ، فلم اكن اتصور اننى قد اكون الضحية بديلا عن راكبى العربة ، وإنما كان يدفعنى شعور بأهمية أن أسبقها .

أستمر السباق على أشده . وابتدأت المسافة بينى وبين الأشجار تقل بسرعة .

لم تكن حوافر الجواد تكاد أن تلمس الأرض . ولفحنى الهواء منعشا جميلا ، لكننى كنت فى شغل عنه بمراقبة العربة والأشجار . بدا لى أن العربة فيهـــا راكبان أحدهما يمسك بأعنة الجياد ، والآخر يحاول أن يصوب سهاما من قوس فى يده ، لكننى لم أتبين أيا من الاثنين . وبدأت أطمئن إلى أننى بهذه السرعة سوف أتقدم العربة كثيراً ، وأسبقها إلى حيث يقبع ذلك الخطر الذى اتوهمه .

وفجأة توقف « كم » . وبدأ عليه قلق شديد . حاول أن ينثنى عن الطريق الذى أدفعه اليه . خاطبته راجيا أن يستمر ، وربت بيدى على رقبته ، لكن محاولاتى جميعا ذهبت أدراج الرياح . كان الحصان مرتعبا من شىء ولايود أن يتقدم ، بل انه كان يقاوم اللجام الذى لم يكن من شك فى أنه يؤلمه . وقف مرتعبا من شىء ولايود أن يتقدم ،وقف يضرب حوافره فى الأرض وهو يرفض كل حركة إلى الأمام . وحانت منى نظرة نحو العربة وراكبيها . وتأكدت من أن الراكبين كانا يعانيان المشكلة نفسها فقد توقفت العربة تماما فى حين اندفع الغزال مبتعدا .

حولت إتجاه الجواد إلى ناحية العربة ، فاندفع بأقصى سرعته . ويبدو أيضا أن الراكبين قدر رأيا أنه لم يبق هنالك فائدة ترجى من متابعة الغزال إذ رأيت أنهما قادا الجوادين إلى الشمال يبغيان الإلتقاء بباقى الركب عند السياج المقام تقريباً .

التفت إلى ناحية الأشجار . وجمد الدم فى عروقى . كان الشيىء الأسود قد ترك ظلالها ، واندفع كالسهم قاصداً العربة وراكبيها . لم تكن المسافة التى تفصلنى عن ايهما بعيدة ، وتحققت من الشىء المندفع . كان فهداً اسود . اشد الوحوش ضراوة ، وشراسة .

وسجل عقلى ملاحظة لم أتبين أهميتها فى حينها . ذلك أن الفهد لم يحاول أن يلحق بالغزال كما كان المتصور ، ولم يحاول كذلك أن يتجه إلى حيث كنت ، مع أننى كنت أقرب إليه ، وإنما اندفع مارقاً نحو العربة . كانت سرعته مخيفـة . لم يكن يجرى ، وإنما تحسبه يقفز قفزات ينهب بها الأرض نهباً .

ويبدو أن راكبى العربة رأواه أيضاً ، فقد ارتفعت يد السائق تلهب الجوادين

بالسوط بضربات متتالية مذعورة ، فى حين استمر يلتفت فى كل ثانية نحو الموت الأسود المندفع إلى ناحيته . لكزت « كم » لكزة قوية دون أن أعى ، وقفز الحيوان الكريم من الألم وكأنما أدهشه أن أعامله بمثل هذه القسوة . لكن أقدامه بدأت تقطع الأرض بسرعة لا أحسبها تقل كثيراً عن سرعة الفهد .

لم تكن هناك فرصة أن أرسل « آب » ، الارادة ، إلى الوحش لتوقفه ، ومع هذا فقد تمتمت ببضع كلمات سريعة ، وحاولت فى اللحظات القليلة أن أرسلها إليه . ولم يبد على الحيوان أنه تأثر ، فلم يقف ، كما لم يقلل من سرعته . وعلمت أنه لم يبق أمامى سوى القوة الجسمانية البحتة إذا أردت أن أنقذ الرجلين .

مددت يدى إلى منطقتى الداخلية ، وأخرجت الخنجر الحديدى ، وشددت قبضتى اليمنى عليه فى حين ظل اللجام فى يدى اليسرى . كان رأس المثلث قد أضبح الآن العربة ، وأضحى طرفى قاعدته أنا والفهد . وتناقص ضلعا المثلث بسرعة ليلتقيا عند رأسه فى اللحظة نفسها .

قفز الفهد فى الهواء قفزة عالية يبتغى بها الراكبين . ودفعت « كم » ليقف سداً ضخماً بين الوحش وبغيته . لكن الجواد كان قد انتابه الذعر ، فرفع جسمه فى الهواء واقفاً على خلفيتيه . اصطدم الفهد بالجواد صدمة عنيفة وقع على أثرها على الأرض ، وكدت بدورى أن يفلت منى اللجام وأسقط إلى جوار الفهد ، لكن « كم » اعتدل فى اللحظة التالية وأطلق ساقيه للريح .

توالت الأحداث سراعاً . فقد انتهز راكبا العربة الفرصة وألهبا جواديهما بالسوط ، وما كان الحيوانان المسكينان فى حاجة إلى أن يستحثهما أحد ، فقد اندفعا مذعورين يعدوان بأقصى ما يستطيعان من سرعة . لكن الفهد لم يلبث على الأرض أكثر من برهة ، اعتدل بعدها واندفع وراء العربة .

والمرة الثانية سجل عقلى واقعة دون أن يتبين مغزاها فى حينها . كانت العربة قد سبقتنى بحوالى عشرة أمتار . وكنت أنا فى منتصف المسافة تقريباً بينها وبين الفهد . ومع هذا فقد رأيته مندفعاً نحوها ، متجاوزاً الجواد وأنا ، وكأننا غير موجودين ، أو كأنه لا يرانا .

لكننى كنت أراه ، وفى اللحظة التى جاوزتنى مؤخرة الحيوان تركت اللجام

وألقيت بنفسى عليه ، ودفعت خنجرى فى جسمه . صدر فحيح مريع من الوحش وانقلب على الأرض . ثنى رقبته لتقع العينان الرهيبتان على . ولم يكن لدى وقت لأغرز الخنجر فى جسده مرة أخرى فقد كانت حركته خفيفة إلى درجة أننى بالكاد سحبت الخنجر من جسمه وأنا أعتدل من سقطتى .

وبدت لى الأحداث كأننى فى حلم . جرى « كم » بعيـــداً عن مكان المعركة ، وانطلق نحو الصحراء . وخيل إلى أن العربة قد توقفت وهبط منها أحد راكبيها وأنه يتقدم بحذر نحونا . ولكننى فى الواقع لم أكن واثقاً مما رأيت فقد كان كل اهتمامى منصباً على الموت الأسود . لم يدع لى الحيوان فرصة أفكر فيها . ما كدت أعتدل حتى كان قد قفز فى الهواء ليرتطم جسمه بى بشدة ألقتنى على الأرض . وفى اللحظة التالية كنت أحاول جاهداً أن أبعد أنيابه الحادة عنى .

وشعرت بثقل الجسد الدافىء وهو جاثم على صدرى ، وملأت أنفى رائحة الحيوان . قبضت على رقبته بإحدى يدى ، وللمرة الثانية دفعت خنجرى فى جسده . صرخ الفهد صرخة مرعبة وأحسست بلهيب من نار ينسحب من كتفى إلى صدرى ، واندفعت الدماء لزجة تغمرنى ، لكننى شعرت بأن الوحش لم يعد جاثماً على صدرى .

فى ثوان استبعدت الآلام فلم أعد أشعر بها ، وانتصبت واقفاً على قدمى لأتلقى الهجمة التالية للحيوان المفترس . وكنت مستعداً فى هذه المرة . على قدر خفة الفهد وسرعته كنت أنا أسرع . تنحيت عن طريق الهجمة الخاطفة بسرعة ما كنت أعتقد أننى أهل لها . وشاهدت الضربة القاتلة تطوح فى الهواء ، وسقط الفهد على الأرض فاقداً توازنه . وانتهزت الفرصة وألقيت بجسدى فوقه أسدد إليه الطعنات المتتالية من الخنجر الحديدى .

وهنا تبينت خطئى . لم أكن أقدر خفة الحيوان وقوته حق قدرها ، كما لم أقدر ليونة جسمه الهائلة . بسرعة خاطفة انثنى الجسم الضخم ليكون ما يقارب الدائرة . وللحظة رأيت عينيه اللتين ظهرت فيهما أقصى درجات الوحشية . وأكاد أقسم أننى شاهدت فيها أيضاً نوعاً من السرور للانتصار . لم تكن نظرة حيوان

تلك التى طلعت على من العينين البراقتين ، وإنما كانت نظرة إنسان عاقل مليئة بالحقد ، والكراهية ، والسرور .

فى اللحظة التالية أصابتنى ضربة قوية ، ومزقت المخالب ما بقى من ردائى ومزقت معه جلدى . وانقلبت الآية . ألقتنى الضربة على الأرض لمسافة أمتار ، وأذهلتنى السقطة . وقبل أن أفيق كان الوحش جاثماً فوق بكليته . حاولت بارتباك أن أبعد الأنياب الحادة عن نفسى فى حين كانت مخالب الفهد تعمل على تمزيق سائر جسدى .

لم أكن أظن أنى أستطيع المقـــاومة لأكثر من ثوان معدودات ، فإن قوة الحيوان الجاثم فوقى كانت أضعاف قوتى . كما أن مخالبه الحادة كانت تعمل فى جسدى العارى . وجاءتنى النجدة من حيث لا أحتسب .

فجأة بدا أن الوحش قد طار فى الهواء ليسقط على الأرض على بعد أمتار . ومن فوقى قفز الجواد الأسود النبيل ليقف حاجزاً مهولا بين الفهد وبينى . ومع أن الركلة التى أصابت الحيوان لا بد أنها كانت أليمة ، خاصة وأنها أصابته بعد الجروح التى سببتها له ، إلا أنه لم يبد أنها أخرجته من المعركة . فى سرعة مذهلة لا تخطر على بال ما أن ارتطم الفهد بالأرض حتى اعتدل ثانية مواجهاً غريمه . . الجديد .

حاولت أن أعتدل فى جلستى ، لكن محاولتى باءت بالفشل فاكتفيت بأن أنظر ناحية الخصمين من خلال سحابة الدماء التى تغطى وجهى ، وعينى . صدر فحيح مريع من الفهد ، ووقف متأهباً للهجمة التالية فاغراً فاه . وقد بانت أنيابه الحادة . وأمامه وقف « كم » الحصان الأسود ، قلقاً يضرب بأماميته فى الأرض . قفز الفهد قفزة عالية يبتغى أن يصل بأنيابه إلى رقبة غريمه . وفى لحظة كان الجواد واقفاً على خلفيتيه يضرب بأماميتيه الهواء . وتلقى الفهد ضربة ثانية أوقعته على الأرض ، وبنفس الطريقة الخاطفة اعتدل وانسحب مبتعداً . عن الحوافر القاتلة التى حاولت أن تطأه .

بدأ الفهد يدور حول الجواد . ودار الجواد معه يرقبه بعينين حذرتين . وكنت أرقب الحيوانين فى قلق . كنت أعلم أن الجواد الكريم ليس نداً للفهد

فى أى قتال عادى ، وكان الأمل الوحيد الذى يراودنى هو أن الفهد فقد الكثير من أثر الجراح التى أصبته بها ، فبدأ أثقل حركة من المعتاد . ومع هذا فإن الوحش أثبت قدرته الفائقة على التحمل . لست أدرى كيف أمكنه أن يأخذ الجواد على غفلة ، ولست أدرى كيف ماجرى بعد ذلك ، لكن فى لحظة ، كان الفهد يدور حول الجواد ، وفى اللحظة التالية كان فوق ظهره ينشب مخالبه فيه .

صرخ الجواد من الألم ، واندفع بحمـــله بعيداً فى الصحراء . تشبثت المخالب القوية فى جلد الحصان ، لكن فى لحظة ثانية كان الفهد قد سقط على الأرض . كانت الغشاوة على عينى لا تمكننى من أن أرى مدى خطورة الجراح التى أصابت « كم » ولا المكان الذى تسيل منه الدماء ، لكن مما لا شك فيه أنه كان قد أصيب ، وأن الدماء كانت تنزف منه .

مرة أخرى تصرف الفهد تصرفاً غريباً . لم يحاول أن يقتفى أثر الجواد ، وإنما ارتد إلى حيث كنت أرقد . رأيت والرعب يملأ قلبى ، أن خطواته كانت متأنية كالواثق من نفسه ، وأن عينيه قد انصبتا على تنظران فى حقد وكراهية . خيل إلى أنى رأيت شيئاً آخر . على مسافة كبيرة كان الجواد قد وقف ، ولعله أحس بأن الوحش لم يعد يطارده . بسرعة هائلة إندفع الجواد يحاول اللحاق بالفهد ، لكن المسافة بينى وبين الوحش لم تعدو أمتاراً فى حين أن الجواد كان قد أوغل فى الهرب . علمت أنه لا أمل فى أن ينقذنى الجواد فى هذه المرة فإن ضربة واحدة من الفهد كانت كافية للقضاء على ما بقى فى من حياة .

اندفع الفهد الخطوات الباقية . وثقل جفناى من الإرهاق ولم يعد فى استطاعتى حتى أن أرفع يدى لأبعد بهما أنياب الوحش . ودبت الآلام مريعة فى كتفى وذراعى ، فكأنى حاولت أن أدفع عنى الموت ، لكننى كنت أضعف من أن أقوم بأى مجهود . وسقط ذراعى إلى جانبى فى استسلام للموت . وللمرة الثانية جاءتنى النجدة من حيث لا أحتسب .

رأيت فيما يشبه الحلم وجهاً سقيما مصفراً يطل على ، وارتفعت يد هزيلة برمح طويل لتهبط به بين كتفى الوحش . صرخ الحيوان صرخة مروعة ،

وانقلب على الأرض ، ثم راح يتميز فى الهـــواء محاولا التخلص من الرمح ، أو لعلها كانت سكرات الموت فلم تمض لحظات إلا وكان قد سكن على الأرض جثة هامدة .

لم أستطع الحركة ، وبجهد زائد رفعت جفناى ، لأرى منقذى . وأطل على الوجه السقيم . وبدت . . نظراته قلقة ترتسم على العينين الواسعتين . لم أصدق عيناى . لم يكن منقذى سوى ، نفر — خبرو — رع ، سمو ولى العهد الذى عرف بعد ذلك باسم أخناتون . وكان وجهه الطويل هو آخر ما شاهدت عيناى قبل أن تغشانى غمامة لم أشعر بعدها بشىء .

* * *

## الفصل الثاني عشر

## الخنجـــر

لمدة ثلاثة أيام متصلة لم أفق من غيبوبتى . كان الأمل فى شفائى ضعيفاً إذ أن مخالب الفهد كانت قد مزقت معظم جسدى ، وعضلاتى كما نزفت دمائى بغزارة أفقدتنى كل قوة وحيوية . وحينما فتحت عيناى لأول مرة كانت الحمى تعيث فى جسمى .

نظرت حولى ، أعنى أن عيناى فقط هما اللتان دارتا ، فإن سائر أعضائى كانت مختفية تحت الضمادات والأربطة . كنت فيما يشبه الخيمة ، وشعرت أننى أرقد على فراش لين ، وأن وجه رعموسى يطالعنى شاحبا ينظر إلى فى قلق . وحينما ركزت نظرى عليه دهشت لما بدا عليه من تقدم السن عن آخر مرة رأيته فيها . كان وجهه شاحباً تعلوه صفرة ، وغارت العينان ، واتسعت حداقاتهما ، وثبتت نظراتهما ، وتجلت آثار الإرهاق والتعب واضحة عليهما .

كان يجلس على مقعد خشبي أمامى مباشرة ولم يحد بنظره من وجهى . وحينما لاحظ أننى قد أفقت تحركت شفاه الرقيقتان . وجاءنى صوته كأنما من بعد سحيق منهكاً مكدورا .

— استمع إلى جيداً يا كاى ، ولا تحاول الكلام . ثلاثة أيام وأنت فى غيبوبة ، وانت لم تفق تماماً بعد ، ولكننى أتصل بك عن طريق « الكا » - القرين - انك فى خطر عظيم ، ليس من جـــراء ما أصابك من جروح فهذه ثانوية نسبياً . وإنما لأن هنالك من يحاول أن يقتنص روحك ، إنه قد انتهز فرصة ضعف جسمك لينقض عليك ، ولكننى لم أدعه يفعل ذلك وقد ساعدتنى تمفت ، وبيننا لم نتركك لحظة واحدة . وقد أرهقنا فعليك الآن أن تحاول إستجماع قواك بأسرع ما تستطيع ، فلن نتمكن نحن الاثنين من مراقبتك أكثر من أيام قلائل ، وبعدها سوف تنهار تماما . اننا لا نستطيع أن نثق فى شخص آخر .

كلمة واحدة خرجت مني ، أعنى من الـكا .

— خنـــدو .

وعاد صوت الـكاهن الضعيف .

— آه طبعاً كيف لم أفكر فى هذا ؟ .

كنت أشعر كأن « كا » رع موسى تصاحبنى ، أو صاحب كا ـ ى (١) . وانهما يسبحان سوياً فى فضاء أزرق باهت تحوطه ظلمات من كل جانب . بدت ألسنة الظلمات تتطاول محاولة أن تطغى على الضوء ، فتتسع دائرة الضوء كأنما تهاجم بدورها . وخيل إلى أن الظلام ازداد سواداً ثم بدأ يمد أيديه تارة وينحسر أخرى ، تماماً كما ترى عند مد البحر وجزره . كان سواداً قاتماً كريهـا يقبض النفس، يحس المرء فيه بالشر المجرد دون أن يدرى من أين له هذا الشعور . ومن ثنايا الظلام برزت عينان حمراوتان مليئتان بالخبث والشر. ولسبب لست اعلمه خيل إلى انى تعرفت على هاتين العينين النفاذتين ، كانتا عينى الفهد ، لا بل إن صاحبهما كان سى موت النبى الرابع لامون .

ازدادت ظلمة النور الأزرق الباهت فعلمت أن رع موسى قد انسحب للحظات حتى يستطيع أن يصاحب « كا » خندو الذى لم يكن يعرف شيئاً عن طبيعة الـكا . وهاجمت الظلمات بشدة وبدا لى أن العينين قد لاح عليهما الانتصار. تماماً كما رأيت عينى الفهد . لم أكن اعلم أن جسدى الواهن قد ازدادت فيه الحمى، وانى كنت اهذى ، وأتقلب فى فراشى بشدة ـ وتطاولت الظلمات فبدت كأيدى هلامية لا شكل لها تحاول ان تصل إلى منتصف الزرقة لتطفىء تلك النقطة الوسطى التى كانت ما زالت تلتمع . أحسست كأن الظلمة تلتف حول رقبتى . برفق فى مبدأ الأمر ثم تزايد ضغطها حتى حبست انفاسى . ورحت اضرب الهواء محاولا التنفس ، والتخلص من السواد الخانق دون جدوى .

---

(١) الضمائر فى اللغة الهروغلفية هى ـ ى انا ، ك انت ، اف هو ، اشن ، هى ، ن ، نحن ، تش ، انتم ، سن ، هم ،ناى نحن الاثنان ، شناى ، انتما ، سناى ، هما . وتستعمل الضمائر ايضاً للتعبير عن الملكية وبذلك تكون ى ـ مثلا تعنى أيضاً يخصنى ، وسن تعنى يخصهم .

إنتابنى الذعر . والقيت نظرة سريعة على الخيمة أعنى أن الكا هى التى فعلت ذلك . كان المنظر كله يسوده السواد . حتى ضوء المشاعل كان ضعيفاً لا يصل لأبعد منها ، إستطعت أن امـيز شبح رع موسى الذى بدا نائماً ، أو نائماً فى غيبوبة . ثم دلف من الباب خندو ، عبدى الامين . كان جسمه القوى يسير وكأنه فى حلم أو كرجل مسير لا يعرف إلى اين تقوده قدماه . رأيته يجلس على الأرض إلى جوار الفراش من الناحية المقابلة لرع موسى ، ثم سقط رأسه كأنما قد انتابته غفوة فجائيـــة .

وضاعفت قوى الظـلام الهجـوم . أحسست انى ازداد اختناقاً ، وان انفاسى تخرج إلى غير عودة . وبذلت مجهوداً جباراً لاستجمع كل إرادتى فى مقاومة الوحش الهلامى ، لـكننى كنت أعلم أنه مجهود ضائع لا قيمة له . طغت الظلمات على الضوء الأزرق الباهت الذى أضحى وكأنه لا وجود له . وبدت نقطة الضياء ، فى وسط الظلام باهتة خافتة لا تـكاد أن تبين . وملأت المكان رائحة كريهة لايستطيع المرء معها إلا أن يلقى ما فى جوفه من الغثيان . كان الظلام يهاجم بشدة . يريد أن يقضى على قبل أن اتلقى المساعدة مرة اخرى ، ضاعفت من مجهودى الضعيف محاولا المقاومة . كانت الثوانى لها قيمتها فى المعركة ، لـكن أيدى الظلام كانت أقوى بمراحل من تلك الـكا التى تحتل جسدى الممزق . كانت هى ايضاً تعلم قيمة الزمن فراحت تهاجم بكل ما لديها من قوة . اتسعت حدقتا العينين الشريرتين . وتقلب جسدى الضعيف على الفراش مطالبا بالهواء النقى ، ومحاولا التخلص من الرائحة الـكريهة الخانقة . وتصبب العرق من جبينى ، ومن كل أجزاء جسدى حتى بلل الغطاء وبذلت الظلمة ـ مجهوداً إضافياً تبغى القضاء على كل مقاومة .

وعلى حين غره اندفع ضوء ، بدأ باهتا فى أول الأمر ، ولـكنه كان دائماً يمزق الظلام من حولى . بان السخط على العينين الشريرتين ، وبدا التردد عليهما ، وفى لحظات أخرى هربت فلول الظلام ، وزالت الرائحة الـكريهة ، واندفع الهواء النقى إلى الصدر المتفجر . وانضم إلىّ راع موسى وخندو . لاحت الخيمة ثانية بأضوائها العادية ومشاعلها المنيرة . كان على صاحب الظلام أن ينسحب أمام قوى النور وإلا ـ مزقته .

رأيت جسدى وقد هدأت حركته يستريح بعد المجهود الجبار الذى بذلته .
مددت يدى بضعف شديد ألتمس يد خندو . كانت « كا » خندو قوية تتبع الجسد القوى ؛ لكنه لم يكن قد تمرس فى معرفتها ، وسبر أغوارها ، ولهذا كان على أنا ، على مابى من ضعف ، أن أقودها إن كنت أنوى الإستعانة بها . لم يكن خندو يشعر فى الواقع بشىء ، لكنه مد يده القوية لتقبض على يدى الواهنة .

سرت سخم « القوة الحيوية » من يده إلى يدى ، وأحسست بها تندفع فى عروقى . كانت كسيل دافق يتخلل كل جسدى ، ويجرى مع الدم فى الشرايين والأوعية والشعيرات . وعرفت « كا » خندو ماتعطيه ، فضاعفت العطاء ، وازدادت قبضة يده على يدى قوة ، وازداد اندفاع سخم .

وتكلم رع موسى عن طريق « الكا » :

— أحسب انك قد اجتزت الخطر يا كاى . ولست أعتقد أن مهاجميك يستطيعون شيئاً الآن خاصة بعد أن أرهقتهم « كا » خندو . سوف يضطرون إلى الخلود إلى الراحة ، على الأقل لبضعة ساعات . أستطيع أن أستريح فيها أنا وتفنت. أتركك الآن فى صحبة خندو .

رأيت خات « الجسم المادى » رع موسى يتحرك ببطء . وعاد ينظر إلى جسمى الممدد على الفراش . لكنها لم تكن نظرة قلقة . وبتثاقل إبتدأ الكاهن يقوم من مجلسه حينما إندفعت تفنت تدلف من باب الخيمة . وسمعت صوتها المتهدج يقول بلهفة :

— لقد رأيت ماحدث ياعمى . وللحظات كاد الملعون أن ينجح فى القضاء على كاى ، لكنكما وصلتما فى الوقت المناسب .

جلست الصغيرة على الفراش إلى جانبى ، وراحت تمسح بمنشفة العرق الذى كان لا يزال يتصبب . وظل رع موسى واقفاً وهو ينظر إليها بحنان شديد ، يشوبه حزن . حينما نحت المنشفة جانباً ، ووضعت يدها على جبينى تمنحنى بدورها من قوتها الحيوية (سخم) أدار نظره وسار بخطى متثاقلة ، كأنما هموم العالم قد تركزت على كتفيه الواهنتين .

بين القوتين الحيويتين ( سخم ) لتفنت وخندو استراح جسدى . ونمت

نوماً حقيقياً عميقاً لأول مرة على ماقيل لى منذ ثلاثة أيام . واستيقظت فى اليوم الرابع . كان خندو عبدى الأمين مايزال قابضاً على يدى ، وقد وضع رأسه على حافة الفراش ، ويبدو أنه كان نائما . ولم يكن هنالك سواه فى المكان الذى أنا فيه والذى تحققت الآن من أنه خيمة يبدو أنها نصبت فى موضع المعركة مع الفهد.

ربما صدرت منى أنه ألم وأنا أحاول الحركة . وفى برهه كان خندو قد استيقظ، وهب واقفاً على قدميه ، وكأنه لم يكن نائماً . ظهرت على وجهه فى مبدأ الأمر علامات التعجب لوجودة داخل الخيمة ، فلم يكن يذكر أنه دخلها ، لكنه سرعان ماتناسى الأمر حينما رأى أننى أنظر إليه من خلال الضمادات . ارتسمت على شفتيه الغليظتين إبتسامة سعيدة كشفت عن أسنان بيضاء ناصعة ، ثم زالت الابتسامة وظهرت على وجهه الحيرة والشعور بالإثم وقال :

ـــ سيدى إننى اقترفت خطأ لايغتفر . لست أدرى كيف دخلت الخيمة وأنت نائم ، ولن أغفر لنفسى فوق هذا إننى غفوت عند فراشكم .

تحركت شفتاى فى محاولة ، لست أشك أنها كانت فاشلة ، للإبتسام . وددت لو أننى أخبرته بما يحدث ، وبأنه قد أنقذ حياتى دون أن يعرف ، بل أنه أنقذ «البا» ـــ الروح ـــ من مصير أسوأ من الموت . لكننى كنت فى حالة من الإرهاق والضعف بحيث انى بالكاد طلبت بعض الطعام . واختفى خندو ليظهر بعد دقائق حاملا صينية تتقدمه تفنت .

ابتسمت الفتاة ، وجلست على رأس الفراش إلى جوارى فى حين وضع خندو الصينية وما عليها على مائدة وضعها بالقرب منها . بدأت تفنت تسقينى من من معلقة ذهبية سائل حار به مرارة بالرغم من محاولة تحليته بالعسل ، وما أن استقر السائل فى معدتى حتى بدأت من فورى أشعر بالقوة تسرى فى بدنى . وبدأت تفنت ثرثرتها المعتادة وهى تطعمنى فى حين انسحب خندو خارجا من الخيمة .

سالتها عن «كم» فاجابت بأنه قد عاد ، وبأنه إتضح أن الجروح التى أصيب بها لم تكن بذى بال ، وإنما كانت مجرد خدوش وقد عالجوه منها ، وتماثل فعلا للشفاء . واضافت الفتاه إلى هذا شيئاً غريباً وهو أن الذى عاد بالجواد كان سمو الأمير ولى العهد بمفرده . دهشت لهذا النبأ فلم أكن أتصور أن يكون لدى الأميرة القوة التى يتحكم فيها فى الجواد ، لكن يبدو أن الحيوان قد إطمأن

إليه فأسلمه قياده . وساد الصمت برهة ، لكن الفتاة لم تتمكن كعادتها أن تستمر في السكوت فبدأت ثرثرتها ثانية .

— أتعلم يا كاى أنك اليوم قد اجتزت أسوا مرحلة . لم يكن عمى يظن أنك سوف تنجو . وقد أمر سمو الأمير ولى العهد أن لا يمنع عنك كل شيء . إن كل ما هو هنا من معدات الصيد الخاصة به . الخيمة، والفراش ، والموائد ، بل والصحاف ، والصوانى ، والملاعق . وكان يحضر شخصياً مرتين كل يوم للاستفسار عنك . وحضرت معه سمو الأميره — مرة ، بل وحضر الفرعون نفسه مرة . لقد أصبحت بطلا شهيراً يخطب وده جميع رجال الحاشية ونسائها . وأكثر من هذا إن الفرعون أمر أن يستمر الصيد فى الناحية ، وقرر أنه لن يرحل حتى يطمئن الجميع على صحتك ، وقد سمعته بأذنى .

ويبدو أننى قد غفوت لأننى لم أسمع ما سمعته تفنت .

مرت أربعة أيام أخرى قبل أن استطيع أن أجلس على الفراش ، وقبل أن يقرر رعموسى أن الخطر قد زال تماماً عنى . وفى هذه الأيام كنت أجد دائماً أن هنالك من يجلس إلى جوارى كلما استيقظت خيل إلى أكثر من مرة أننى سمعت صوت سمو الأمير يخاطب رعموسى ، لكن غالباً ما كنت فى غيبوبة ، أو فى نوم عميق حتى أننى لم استطع الانصات .

فى اليوم الحادى عشر بعد معركة الفهد إستيقظت فى الصباح لأرى وجه تفنت الجميل وقد اسندته إلى يديها ونامت على المقعد إلى جوار الفراش . أحسست بقوة لم أشعر بها فى الأيام الماضية ، فاعتدلت فى الفراش ، وبدأت أتحسس أماكن الإصابات والآلام . لم تكن هنالك إصابات شديدة فى وجهى ، ولا ساقاى . ولكن كتفى الأيمن كان يؤلمنى تحت الأربطة بمجرد أن أقوم بأية حركة .

كانت الأربطة أيضاً حول وسطى ، وفى ظهرى وجانبى الأيسر . ولا شك أنى كنت أبدو كالمومياء إذ التفت الأربطة حول كتفاى ، وصدرى ، وظهرى ، وبطنى ، وذراعى الأيمن ، والجزء الأعلى من ذراعى الأيسر ، وإن كان من الجلى أن كتفى الأيمن هو أكثر أجزاء جسمى إصابة .

شعرت بجوع شديد . ولم أشأ أن أوقظ تفنت فقد كانت جميلة فى نومها ،

كما أنه كان يبدو عليها أنها فى حاجة إلى النوم. مكثت أنظر إليها ، وأتأمل وجهها الملائكى . وجدت نفسى بلا شعور اقارن بينها وبين نيت افرت ، زوجتى المستقبلة . ولم أستطع ، على أقرب العهد ، أن اتذكر وجه نيت تماماً ، وإن كنت ذكرت أن وجهها نحيل مستطيل لا يتمتع بمسحة حقيقية من الجمال . وفاتنى فى الواقع انها كانت صغيرة جداً ، وأن الفتيات فى هذا السن لا تكاد ملامحهن تتضح حقيقة فى حين كانت تفنت تكبرها بخمسة أعوام أو ستة ، وهى أعوام هامة فى تكوين الفتاة . تمنيت أن تكون هذه الفتاة الجميلة هى زوجتى المستقبلة دون الطفلة التى اختارها لى والدى .

ويبدو أن الوقت طال بى وأنا مستغرق فى أحلامى ، ولم أشعر إلا حينما سمعت صوت تفنت :

— فيم تفكر ؟

وتنبهت لأرى عينيها الجميلتين تنظران إلى من تحت أهداب طوال . وأسرعت أتفادى السؤال .

— أننى أشعر بجوع هائل . ماذا يمكنك أن تقدميه لى ؟

صفقت الفتاة طرباً . ودخل خندو معتقـــداً أنها تناديه ، وحينما طلبت الطعام انصرف لتوه . وعادت تفنت إلى سؤالها ، وللمره الثانية تفاديت الاجابة القاطعة ، وقررت أننى كنت أفكر فى والدى وأهلى الذين تركتهم فى تهنى (طيبه). ولم تكن الإجابة كاذبة ، لكنها أيضاً لم تكن صحيحة تماما — وشعرت ببعض الضيق لإضطرارى لتفادى الحق كاملا . وظلت تفنت تحدجنى بنظراتها ، ولم ينقذنى من أسئلتهما سوى دخول خندو حاملا صحاف الطعام .

أكلت وجبة دسمة . ولم تمنعنى الالآم فى كتفى الأيمن من أن التهم الطعام وعلى العكس من عادتها بدت الفتاة صامته ترقبنى ، وكأنما تحاول أن تسبر أغوارى . لأول مرة شعرنا بالقلق من مجرد جلوسنا منفردين حتى أننى حينما فرغت من طعامى ونظرت إليها ، تفادت أن يلتقى ناظرانا ، وهبت من مكانها فجأة منادية خندو ليحمل الصحاف . ولم تنتظر بل هرعت خارجة من الخيمة دون أن تنبث بكلمة .

ودخل رع موسي . وكاد أن يصطدم بها ، لولا أنه تنحى عن طريقها ،

فمرت به بعد أن تمتمت — بتحية الصباح . واستقرت عينا الكاهن النفاذتان على وجهى برهة ثم أكمل سيره نحو الفراش وكأنه لم يلحظ شيئاً . القى تحية الصباح فتمتمت رداً سريعاً أحاول به أن أخفى ارتباكى ، وتشاغلت فى غسيل يدى وفمى . وانتظر الكاهن بصبر حتى فرغت، وحمل خندو الصحاف، وأوانى الغسيل وخرج ثم تكلم بصوته الهادىء .

— هل تشعر يا بنى الآن أنك تستطيع أن تتكلم دون ارهاق .

لم اثق فى صوتى إذ كان الشعور الذى طغى على منذ لحظات جديداً لم يداخلنى من قبل ، فأومأت برأسى إيجابياً . ومد الكاهن يده يسحب المقعد إلى جوار رأسى كأنما لايريد أن يسمع صوتنا احـــداً . وحينما بدأ يتكلم خرجت كلماته هامسة لا تكاد أن تصل إلى اذناى .

— حسنا . اسمع يا بنى اريدك أن تفكر جيداً ، وأن تستعيد الواقعة تماماً وقت هجوم الفهد . لقد رواها سمو الأمير وهو لا يمل من تكرارها ، ولكنه على عادته لم يذكر التفاصيل بدقة . وهنالك نقطة أو اثنتان جعلتانى ، قلقاً ، واود أن اسمع اكثر منك .

أغمضت عينى . وركزت آب ( الإرادة )(١) كاملة على الواقعة فاستبعدت كل مايحيط بى . راح لسانى يصف الحوادث وهى تتتالى أمام ناظرى بتفصيلاتها ودقائقها كأنما هى تحدث الآن . وفى الواقع كان هذا مايحدث إذ أن آب (الإرادة) قد صحبت الكا ( القرين ) وسارت به رجعاً إلى الوراء مع الزمن . تكلم خات ( الجسم المادى ) ، وراح يروى للكاهن الوقائع كما حدثت . وتوقف الكلام لحظة عندما روى خات كيف اندفع الفهد وراء عربة الأمير ، وترك الغزال يمر به بسلام . تردد لحظة ، لكن الكا كان لا يرى سوى الوقائع ، ويرويها كما

---

(١) أذكر القارىء بأن قدماء المصريين كانوا يعرفون كا — القرين ، وخات — الجسم المادى ، وبا — النفس ، وخو — الهالة أو العبير ، خايت — الظل ، وسخم — القوة الحيوية ، ورن — الإسم ، وآب — الإرادة ، وساهو — الجسم الروحانى ، وآخ — الحالة الروحانية النباتية بعد الوفاة .

يراها دون ما يجول فى الخاطر . وتوقف الكلام ثانية حينما اندفع الفهد ماراً بى « وبكم » وحاول أن يتجاوزنا مندفعاً وراء الأمير . وتردد مرة ثالثة حينما راح يصف عينى الفهد، وكيف أنهما كانتا كأنما هماعينا إنسان. ورابعة حينما ترك مطاردة « كم » ليعود أدراجه إلى . ثم انتقل الكا لجأة ، وكأنمـــا قد أفلت من آب ( الإرادة ) ، وراح يروى قصة العينين اللتين رآهما فى الظلام أثناء إغمائى .

توقفت أخيراً . وحينما فتحت عينى كان الكاهن ما يزال جالساً فى مكانه وهو مطأطىء رأسه كمن يفكر بعمق . واستمر كذلك قليلا حتى بعد أن انتهيت . ولم أتعجله فإننى كنت أيضاً أفكر . وحينما رفع رأسه كنت قد فهمت ما عناه حينما أراد منى أن أعيد الحوادث بتفاصيلها، ودقائقها، وفهم هو أيضاً أنى فهمت، واستمر صامتاً برهة قال بعدها :

ــ أعتقد أنك عرفت الآن أن الفهد لم يكن حيواناً عادياً ، وإلا لكان قد هاجم الغزال ، أو هاجمك فى المرة الأولى والثانية . إنه كان رسول الموت يحمله إلى الأمير وكان يتلقى تعليمات من تهنى ( طيبه ) رأساً . ولعلك تعلم أيضاً من أرسله . هل تعرفت على العينين يا كاى ؟ لقد ذكرتهما مرتين . الأولى حينما كان الفهد يهاجمك ، أما الثانية فلم يكن لها مجال فى القصة مطلقاً وإنما انتقلت « الكا » لجأة إليها . من هو يا كاى ؟

لذت بالصمت . كنت أعلم أنه سى موت النبى الرابع لآمون ، لكننى إن تكلمت فقد أدنت سائر أنبياء آمون الأربعة . فما كان يمكن أن ينفرد أحدهم بمثل هذه الخطة الجهنمية . ومعنى هذا أننى لو أدنت سى موت فسوف أدين أبى كذلك . وجاءنى صوت الكاهن هادئاً مستحثاً :

ــ تكلم يا كاى . وأنت تعلم أن كلمتك مصدقة وسوف يلقى المجرم جزاؤه .

وسكت الكاهن منتظراً الإجابة ، ولما بدا أنه لن يتلقاها عاود المحاولة .

ــ إن الاستنتاج هنا يسير ، وصمتك يؤكده . إن هذه القوة التى تسير الوحش عشرات « الخبات »[1] . ويظل تحت سلطتهـــا يأتمر بأمرها لا يمكن

---

(١) الخب : مقياس طولى .

أن تتوافر إلا الأنبياء ، وهم الوحيدون الذين يبغضون سمو الأمير بدرجة تكفى لقتله بهذه الوسيلة الجهنمية .

وعاد الكاهن إلى صمته وراح ينظر إلى منتظراً تأثير كلماته فى . ولما لم يفز بطائل عاد إلى محاولته ثانياً ، ولكن من طريق آخر .

— إنك بصمتك هذا تكون مشتركا فى الجريمة ، وأعدك أننى سوف أقدمك إلى « زازات »(١) .

عجبت لأستاذى السابق أن يلجأ إلى التهديد وهو أدرى الناس بى . ولعله هو أيضاً شعر بأن الغضب قد تملكه ، وأنه يتصرف تحت ضغطه فلم ينتظر منى إجابة وقام من مجلسه وخرج بسرعة . وبقيت فى موضعى لا أتحرك . كان على أن أعلم ما إذا كان والدى شريكا فى قتل الأمير أم لا . لكن لم تكن سخم — القوة الحيوية — تستطيع أن تحتمل الكا كل هذه المسافة البعيدة وجسمى ( خات ) على ما هو عليه من ضعف ، فكان على أن أنتظر حتى تكتمل قواى . وكان المجهود الذى بذلته فى الساعة الماضية قد أنهكنى حتى أننى استلقيت على فراشى متعباً مكدوداً وأغمضت عينى .

يبدو أن هناك أشياء كثيرة لا نعلمها عن أنفسنا إذ أنه بمجرد أن أغمضت عينى حتى فاحت فى الجو رائحة عطرة ظهر على أثرها « كا » والدى ممثلا أمامى بصورة جلية كأنما هو قد حضر . وسمعت صوته واضحاً رناناً مليئاً بالحنان .

— كاى ، ولدى لقد أحسست أنك قلق ، وأنك فى حاجة إلى ولا تستطيع المجىء . . .

وبادرته فرحاً .

— أبى — هل سمعت ما حدث للأمير ؟

— تقصد موضوع الفهد ! . أجل سمعت منذ أربعة أيام . وقد فخرنا بك على قدر ما انزعجنا جميعاً حينما علمنا بإصابتك ، ولم تطمئن والدتك وإخوتك

---

(١) مجلس المقاطعة للأمور القضائية الهامة .

إلا حينما أرسلت الكا ، وطمأنتهم عليك . لقد حضرت عدة مرات يابنى ، لكن يبدو أنك لم تكن فى حالة تسمح لك بالاتصال .

قفز قلبى فرحاً . كان فى كلامه كل الإجابات على الأسئلة التى كانت تحيرنى وتدور فى رأسى . لقد سمع منذ أربعة أيام فقط ، ومعنى هذا أنه لم يكن يعرف شيئاً عن الموضوع قبل هذا ، ولم يدبر تلك الجريمة الخرقاء ، ولم يشترك فيها .

وعاد والدى إلى الكلام .

— ماذا تريد يابنى ؟ إنك قد بدوت لى قلقاً ، لم تكن الكا هى التى اتصلت بى ولعلة ساهو ( الجسم الروحانى ) فنحن لا نعلم عنه الكثير . وأنت تعلم أننا لا نرسل الكا ليتجسس على الحياة الخاصة ، وما كنت لأرسله إليك إلا عندما شعرت بحاجتك إلى . هل تريد شيئاً يا بنى ؟

وأجبته غير كاذب .

— أردت أن أطمئن عليكم يا أبى . سلامى إلى أمى وإخوتى .

أخذ أبى الإجابة على المحمل العادى ، وبدا كأن يده قد امتدت لتمسح على رأسى ، وجبينى ، وتلاشت صورته ببطء حتى اختفت . ولم أفتح عينى . واستولى على نعاس شديد أسلمت له نفسى فرحت فى سبات عميق .

فى المساء دخل سمو الأمير الخيمة يتبعه رع موسى . حاولت أن أنهض من فراشى ، لكن الأمير أسرع ووضع يده برفق على صدرى يدفعنى . وجلس على حافة الفراش وهو ينظر إلى بهدوء مستمد من روح مخلصة طيبة .

— حمداً لله إنك تبدو فى أحسن حال .

تمتمت شاكراً لسموه تفضله بالسؤال وما أمدنى به من منقولات . ولاحظت وأنا أتمتم أننى كنت قد اعتدت على أن أسمع من الأمير كلمة الله ، أو الرب ، بغير جمع ، وأننى لم أعد أمتعض منها ، على العكس مما درجت عليه فى بيئتى ودراساتى . وتكلم الأمير .

— يلوح لى ياكاى أننى سأظل دائماً أسير صنيعك ، وأن إنقاذك لى من الموت سوف يصبح عادة . هذه هى المرة الثانية التى أنجو فيها على يديك من موت محقق .

ولن أكون سخيفاً بأن أعرض عليك أن تطلب منى ما تشاء ، وإلا فمعنى هذا أننى أمين تصرفك النبيل ، وأضع حياتى فى الميزان مع قيم مادية فى الوقت نفسه .

لكننى علمت أنه قد نشأت صداقة غريبة بينك وبين ذلك الجواد الأسود الذى كنت تمتطيه ، وكصديق لك أرجو أن تقبله منى هدية .

أبديت شكرى للأمير ، وتحولت عيناى رغم عنى إلى رع موسى الذى وقف يبتسم خلف الأمير .

وفجأة وضع الأمير يده داخل ردائه ، وأخرج شيئاً ناوله لى وهو يقول :

— وهاك أيضاً شيئاً يخصك ، أظن أنه الخنجر الذى قاتلت به الفهد . لقد انتزعته من جسده بنفسى . لكن قل لى من أين أتيت به ؟ إننى أعتقد أننى كنت قد أهديته ، أو خنجر شبيه به إلى رع موسى .

وحمدت الأرباب أن الأمير كان قد التفت إلى أستاذى متسائلا وهو يتكلم ، وإلا لكان لاحظ المفاجأة والدهشة وهما مرتسمان على وجهى فى بلاهة . انتقلت عيناى بسرعة إلى وجه أستاذى السابق الذى بدأ الارتباك يظهر عليه جلياً . وقبل أن يلحظ الأمير شيئاً كنت قد استعدت رباطة جأشى وتكلمت حتى أنه التفت إلى ثانية :

— إننى كنت قد إستعرت الخنجر يا مولاى ، فهو من معدن نادر ، ومحكم الصناعة ، وكم وددت لو كنت أستطيع أن اجد الصانع الماهر الذى يصنع لى مثله .

لقد تفاديت الكذب أيضاً هذه المرة فإنى أخذته فعلا إستعارة ، لكننى لم أقل ممن أخذته . والواقع أيضاً أننى كثيراً ما داخلتنى الرغبة أن أصنع مثله .

وأخذ الأمير متألق على محملها الظاهرى وتبسم فى رقة وقال :

— إذا فهو لك . هذا طبعاً إذا أذن الكاهن .

والتفت ثانية إلى رع موسى الذى سرعان ما هز رأسه موافقاً . وقلت شاكراً .

— إننى لا أستطيع أن أفى سموكم حقكم ، من الشكر على هاتين الهديتين . وأرجو ألا يكون فى قبولى الخنجر إحراج لأستاذى رع موسى .

كان لكلامى معنيان فهمهما الكاهن الذكى . وكان من البدهى أن سمو الأمير لم يلحظ شيئاً إذ أنه تبسم ثم قال :

— والآن وقد إطمأنيت عليك فانى سوف أخطر جلالة والدى . ولا شك فى أنه سيبتهج أيضاً خاصة وأنه مل فعلا رحلات الصـــيد ، ويود أن يرحل لتوه .

إزدادت الإبتسامة على وجه الأمير وهو يقول هذا . وحاولت أدباً ان أجاريه فى الإبتسامة . — وتحول الأمير إلى رع موسى .

— أنظر الآن هل هو فى حالة تسمح بنقله إلى قصر الحاكم ليتم نقاهته هناك ؟

— أجل يا مولاى . بل لعله من الأحسن أن ينقل إلى المراكب على ألا يتحرك طوال الرحلة . هذا أن شئتم سموكم . فإنه بهذا يكون تحت ملاحظتنا المستمرة .

— لا بأس سوف أترككم الآن وعليك يا رع موسى أن تبقى لتشرف شخصياً على جميع إجراءات نقله إلى المركب حتى تتم بأقصى راحة ممكنة لصديقنا الصـــغير .

حاولت القيام تحية للأمير ، لكنه أشار بيده ألا أفعل ، وانسحب من الغرفة تاركاً الكاهن ، وأنا منفردين . ظل أستاذى الأسبق واقفاً ينتظر أن أبادره الكلام . وبدأ كطفل صغير أذنب ويتوقع العقاب أو التأنيب . وسألته :

— إذا فقد كنت أنت ؟

— أجـــل .

— لماذا ؟ ما الذى فعلته لأستحق منك هذا ؟

— لا شىء . إننى فقط رأيت أن الدماء على يديك ، ورأيت أن الأمير سوف يموت على يديك وأن . . تفنت أيضاً سوف تموت . فكان لزاماً على أن أحاول شيئاً إن الاثنين هما كل ما لدى فى الحياة وإننى لأضحى بها رخيصة فى سبيل أيهما .

— لكنك تعلم أن إستطلاع الغيب والإفلاك شىء وأن محاولة تغيير هما شىء آخر ، وقد حذر الكهنة من هذا بل ، إنك كأستاذى حذرتنى ، مراراً من محاولة التغيير .

— أجل يا بنى ، لكننى لم أستطع المقاومة . كان على أن أفعل شيئاً .

وإنني مستعد لأن ألقى جزائى . ولو أخبرت الأمير فإنه لن يتوانى عن توقيعه حتى على . وإننى لأعلم مدى تقدير سموه وحبى لى .

— إذاً فلماذا أنقذت حياتى وأنا مريض ؟ لم يكن أيسر عليك من أن تتركنى لقدرى .

— كلا لم أكن أستطيع ذلك . إنى لو فعلت لتدخلت تفنت ، ولا أجرؤ على تصور أنها كان يمكن أن تقف بمفردها ضد أحد أنبياء آمون . لم يكن هنالك شك فى أنها كانت تلقى حتفها هى الأخرى بل وتضيع روحها أيضاً فى عالم الظلام .

— إذاً لم يكن تدخلك لإنقاذى ؟

— كـــلا .

— ومجيئك إلى حجرتى فى القصر بدلا من إستدعائى ، أكان ذلك لمحاولة استرداد الخنجر .

— أجـــل .

صدرت منى تنهيدة ، على الأقل لم يهبط أستاذى إلى درجة الكذب .

— لقد أنقذت يا سيدى حياتى على كل حال ، أياً كانت الدوافع . لكن . هلا أخبرتنى إذا كنت ستستمر فى محاولات قتلى ؟

— كلا يا بنى بل سأدع القدر يأخذ طريقه .

وتبسمت ثم قلت :

— وهذا معناه ألا أتوقع منك مساعدة إلا إذ صادف إرتباط صالح أحد الإثنين سمو امير أو . . . تفنت بصالحى. هل لى أن أعرف متى سيتم نقلى؟

— فوراً ، سأقوم بإعداد محفة يحملها الرجال فلن يكون من المستحسن أن تنقل فى عربة ، وسيشرف خندو على بقية متاعك وعلى نقل « كم » .

أغمضت عيناى من الارهاق . ولاحظ الكاهن ذلك فتركنى لأستريح وذهب يعد إجراءات نقلى إلى المركب .

* * * *

# الفصل الثالث عشر

## غرام الصبا

لم أشعر بأى تعب أثناء نقلى إلى المركب . اصطنع رع موسى محفة مريحة ، وأختار أربعة رجال أشداء لحملها ، ولم يتركنى خندو طوال المسافة ، فكان يسير أمام الجماعة وينظف الطريق حتى لا يتعثر أحدهم ، فلم أشعر بأى اهتزاز أو ألم . ولم يتركنى العبد الأمين بعد ذلك إلا ريثما ذهب ليستعيد الحاجيات ، وليشرف على نقل « كم » على أحد المراكب المخصصة لنقل الحيوانات .

لم أكد أستقر فى فراشى حتى طرق الباب ، وحينما أذنت دخل نترى ماو ودف ابن رئيس الحظائر . بدا مترددا فى خطواته وهو يدنو من الفراش وكأنما هو هياب من الاقتراب . واستقبلته بمحاولة ابتسامة لا أحسب أنها كان لها أثر كبير فى تغيير ملامح وجهى . وأشرت إليه بالجلوس على المقعد المجاور ، فجلس على حافته فى تردد ظاهر .

— مرحبا بك يانترى . جميل أن تأتى .

وكأنما كانت الكلمات محشورة فى فمه ، فما أن فتحه حتى انطلقت منه خارجة كالسهام تتالى :

— إنى آسف لأنى لم أستطع القدوم قبل هذا . إن والدى كان قد أوكل إلى مهمة مراقبة الجياد الفرعونية ، والسهر عليها مساء ، فلم أكن أستطيع أن أغادر حلبة الصيد . واليوم حينما استقر رأى الفرعون على السفر ، تجرأت وسألت والدى إن كنت أستطيع أن أتغيب ساعة ، أو اثنتين . وانتهزت الفرصة وأتيت.

— لا عليك إننى لم أكن فى حال أستطيع معها أن أجالسك .

ونظر إلى الغلام وعيناه تلتمعان بما يعتمل فى نفسه من إضطراب ولهفة .

— هل لك أن تروى لى ما حدث ؟ إنى سمعت قصة صراعك مع الفهد أكثر من مرة . لكننى أود أن أسمعها منك أنت .

وقالت فى بساطة :

— ليس هنالك فى الواقع شىء يروى ، فإن الفهد مزقنى كما ترى ، ولولا تدخل سمو الأمير لانتقلت إلى الغرب ( تعبير عن الموت ) .

— لالا . إنك قاتلته ، وهجمت عليه ، وأنقذت سمو الأمير . ولم يكن معك سوى خنجر صغير . هكذا كانت الرواية .

— من البدهى أن يدافع المرء عن نفسه حينما يكون أمام وحش مفترس ، حتى وإن كان هذا الدفاع لا يجدى كثيراً .

نظر إلى نترى كأنما هو يرى أحد الأبطال الأسطوريين ، أو كأنما كنت أحد الآلهة تجسد فى صور آدمية . كانت عيناه مليئتين بالإعجاب ، والولاء . وحينما تكلم وضح جليا ما كان يعتمل فى نفسه .

— أى الرجال أنت ؟ تدخل الحظيرة فتصمت جميع الأفراس . أشدها ضراوة ينقلب إلى حمل وديع ، وتمتطى الخيل لأول مرة فإذا بك تصارع الفرسان المتمرسين ، وتقاتل الفهد بمجرد خنجر صغير ، وتروى القصة وكأنها من الأحداث اليومية المعتادة .

— ألست تبالغ كثيرا فى قدراتى يانترى !

— خذنى معك إلى حيث أنت ذاهب . سأقوم على خدمتك وأعدك بالولاء والحب . علمنى كيف أروض الوحوش ، وأقاتل الفهود . علمنى كيف يختفى الخوف من قلبى ، ويمتلىء شجاعة وإقداما .

قلت فى صبر .

— إنك لست بتابع . إنك ابن رئيس حظائر الحاكم ، وليس هذا بالمركز الهين ولاشك فى أن والدك يطمع فى أن تخلفه فى مركزه يوما ما .

— لا لست أريد أن أبقى فى خن مين . إنك ذاهب للمران فى الحظائر الفرعونية فى نيوت ( منف ) أليس كذلك ؟ وأى مكان أنسب للمران من هذا ؟ اننى استطيع أن اقنع والدى بأن يدعنى أسافر إلى هناك ، وأرجو أن تعدنى بصحبتك .

— إذا وافق والدك فعلى الرحب والسعة .

تنهد الغلام بارتياح كأنما قد أزيح من كاهله عبء ثقيل ، وتململ فى جلسته كمن يريد أن يبقى ويخشى أن يكون بقاؤه غير مرغوب فيه . وأردت أن أخفف من قلقه فسألته .

— هل رأيت كم ؟

— أجل لقد صاحبت خندو لأساعده على وضع الجواد فى أحد القوارب . واحتاج الأمر إلى خمسة رجال . إننى أدهش كيف أحبك الجـواد بهذه السرعة ، وأسلس لك قياده . على أى الأحوال هو الآن سالم فى المركب .

وتململ نترى المرة الثانية . وأخيرا أستأذن ليذهب إلى والده يرجوه أن يأذن له فى الرحيل إلى نيوت ( منف ) . وبعد لحظات ودعنى إلى عودة ، وخرج من القمرة . ويبدو أننى قد أرهقت حتى أننى ما كدت أغمض عينى لأغفو قليلا حتى رحت فى سبات عميق لم أستيقظ منه إلا فى المساء .

أيقظتنى طرقات خفيفة على الباب ، وحينما أذنت للطارق دخـل خندو يحمل مصباحا وأوانى الغسيل . وضع المصباح فى مكانه دون أن يتكلم ثم تقدم منى ، وبدأ يساعدنى فى تنظيف وجهى ، أوما هوظاهرمنه ، وتدليكه بالطيب . وخرج بعد أن انتهيت ، ليعود مرة أخرى حاملا صحاف الطعام . كنت أشعر بجوع شديد فأكلت كفايتى . مرة أخرى حمل العبد الأمين الصحاف وخرج ليعود سـائلا إن كنت فى حاجة إلى خدماته . ولما سـألته عن الأخبار قال إن الفرعون قد قرر الرحيل فى الغد ، وأن سمو ولى العهد قد أرسل من يستفسر عنى ، ولما علم الرسول أننى نائم لم يشأ أن يوقظنى . وصمت خندو ، لـكنه لم ينسحب كأنما كان يعرف أن فى نفسى شيئا أريد أن استفسر عنه ولـكننى أحجم . والواقع أننى كنت أريد أن اسـأله إذا كانت تفنت قد جاءت . وترددت قليلا ثم أذنت له فى الأنصراف .

مكثت على فراشى أفكر . لم تهاجمنى قوى الظـلام بعد تلك الليلة المرعبة ، ويبدو أن سى موت قد أرهق من دفاعنا المشترك فلم يحاول إعادة الهجوم . لكننى لم أخدع نفسى بأنه نسينى ، أو غفر لى قتل الفهد المدرب ، وإنقاذ الأمير . لم أكن استهين بقوة النبي الرابع فقد خبرته عن كثب ، وعلمت مدى ما يتمتع به

من قوة خارقة ، زادها خطورة تفانيه المطلق فى عبادة رب الأرباب . لم يكن شريرا بطبعه ، وإنما كان متهوســـا فى معتقداته الدينية ، حتى أنه لم يكن يقبل معارضة ، أو حتى مجرد النقاش فى الدين . وهنا كان مكمن خطره .

لم يكن هنالك شك فى أن سى موت علم أننى لم أمت ، وأن صحتى فى تقدم مضطرد فقد كنت دائم الاتصال بوالدى عن طريق الـكا لأطمئنه ، وكثيرا ماكان يتصل هو بى ، ولابد أن النبي الرابع ، قد علم منه ، إن لم يكن عرف بوسائله الخاصة . وانتقل تفكيرى من سى موت إلى عائلتى ، ومنها إلى نيت زوجتى المقبلة لكنه لم يتوقف عندها إلا لحظات لينتقل منها إلى تفنيت .

عجبت منها عدم سؤالها عنى ، أومعاودتى بعد تلك الليلة التى أحسسنا فيها بأننا منفردين . كنت أريد أن أراها ، وأن أخاطبها ، وأستمع إلى صوتها العذب . كانت كل جوارحى تناديها وتريدها . كنت أستطيع أن اتصل بها عن طريق الـكا ، أو أن أرسل لها « ساهو » (الجسم الروحانى) ، لكننى لم أرغب فى إرغامها على الإتصال بى ، أو التلصص عليها . فكرت فى أن أرسل لها « خو » ( الهالة أو العبير ) ، وهى بهذا سوف تشعر بوجودى حولها ، وبرغبتى فى الإتصال ، بها ، لكننى عدت عن رأيى تاركا لها الحرية المطلقة .

ويلوح أن معلوماتنا عن « بـا » (النفس) ، وساهو ( الجسم الروحانى ) ، وعلاقتهما بآب ( الإرادة ) ناقصة وضعيفة . إذ يبدو أن استغراقى فى التفكير فى تفنت قد إنتقل بشكل ما إليها . ولم أشعر بهذا حتى خيل إلى أن هنالك رائحة غريبة فى القمرة ، وفى اللحظة التالية تعرفت عليها . ذلك العطر الذى تفضله الفتاة . بدأت الرائحة خفيفة لا يكاد المرء أن يلحظها . ثم أخذت تشتد حتى وضحت تماما . ومع إشتدادها ظهر أمامى ما يشبه الغمامة البيضاء ، شفافة غير جلية فى مبدأ الأمر ، ثم تكاثفت ، وتشكلت لتظهر تفنيت .

لم أعلم إن كان هذا الشبح هوساهو — شى ، أو خابت — شى(١) . ولم يكن فى الواقع يهمنى أن أعرف ، فقد قفز قلبى من السرور إذ كان يكفينى أن أراها . تقدمت

(١) ساهو الجسم الروحانى ، وخابت الظل او الخيال ، اما شى فهى هنا الضمير المسند للمؤنث الغائب .

تقف قريباً من فراشي وهي تبتسم في خجل . واعتدلت متكئاً على ذراعي ، وكان فرحي شديداً حتى أنني لم أشعر بأيه آلام من حركتي . ووقف ساهو — شي أو خابت — شي ، أياً كان ، إلى جواري ، ثم امتدت اليد كأنما لتمسح على وجهي ، أو على ما هو ظاهر منه تحت الضمادات .

لم يدر بيننا حديث . فلم أدري كما قلت الصيغة ولا الكيفية التي أتت بها ، كما أنني لم أحاول أن أتصل بها عن طريق الكا إذ كان مجرد ظهورها أمامي يعني أنها تشعر نحوي بمثل ما أشعر نحوها . لم أكن أعلم إن كانت هي في الحقيقة تعرف أن طيفها قد أتى إلي أم أن مجيئه كان خفية منها ، لكنني كنت على يقين من أنني أستطيع بعد ذلك بمجرد تركيز تفكيري ، وإرادتي أن أرى خيالها حينما أرغب .

فجأة خطر في بالي خاطر مزعج . إن معلوماتنا عن ساهو ، وخابت ، وخو ، وسخم ، لا شك ناقصة تماماً ، فهل يمكن أن تضار محبوبتي مما حدث ؟ ويلوح أن أثر هذا الخاطر قد ظهر على وجهي ، أو أن خوفي عليها قد أضعف من قوة رغبتي في رؤيتها ، إذ أن خيالها تلاشى في لحظات ، تاركا القمرة يملأها العبير طيب الرائحة . على هذا العبير أغمضت عيني ، واستسلمت لنوم هانيء سعيد ، غير عابيء بالآلام التي انتابتني في ذراعي وكتفي من جراء الاتكاء عليهما .

كان خبر ( شمس الصباح ) قد أرسل أشعته من وراء الجبال لينير بها السكون حينما أيقظتني الجلبة على سطح السفينة . أنصت قليلا حتى تبينت أن الضوضاء صادرة من العمال ، وهم ينقلون المؤن ، ويعدون العدة للرحيل . ودخل خندو حاملا معدات الغسيل ، وأعقبها بالإفطار . أحسست أن قواي تعود إلى سريعة وأن حركاتي في الفراش أضحت أكثر يسراً ، وأقل ألماً فاعتدلت جالساً .

بالرغم من أن الآلام لم تكن قد زالت تماماً ، إلا أنها لم تكن غير محتملة ، ولهذا استمر جلوسي ، ولم أحاول الاسترخاء ثانية . كنت في الواقع أفكر في الوقوف ، وترك الفراش ، حينما طرق الباب ودخل على أثر ذلك أستاذي رع موسى تتبعه تفنت حاملة بعض الأحقاق والضمادات .

ألقى على الكاهن تحية الصباح . ثم تقدم حتى وقف إلى جواري ، وراح يعبث في الضمادات وهو يتكلم .

— يبدو أنك أحسن كثيراً اليوم . دعنى إذا أرى مدى التئام الجروح ، وإن كنا نستطيع أن نخفف من بعض الضمادات حتى تسهل لك الحركة .

لم تكن تفنت قد تكلمت منذ أن القت التحية ، وظلت مكانها واقفة تنظر إلى . التقت عينانا . وحاولت أن أستشف من نظراتها إن كانت تعرف أن خيالها قد زارنى ليلة الأمس ، لكنها ما أن شعرت بعيناى المتطفلتين حتى إحمرت وجنتاها ، وخفضت نظرها إلى الأرض . طلب منها الكاهن أن تساعده فى حل الضمادات فتقدمت مترددة كأنما هى وجلة .

أحسست بلذة طاغية لقربها ، وزادتنى لمسات أناملها الرقيقة شعوراً بالسعادة حتى أنى لم أبد أى انتباه لما يفعله الكاهن أو يقوله . كانت عيناى تكاد ان تلتهما وجهها الجميل ، كما بدا أن جميع إحساساتى وشعورى قد تركزت فى المواضع القليلة من جسمى ، التى لامستها أناملها . كانت كل لمسة منها تزيد من سرعة نبضات قلبى ، وتترك أثرها فى وكأنما قد تحول جسمى كله ليتركز تحت أصبعها .

لم أتكلم طوال المدة التى إستغرقها فحص الكاهن ، كما لم تنطق تفنت بحرف واحد . ويبدو اننى كنت أتصور أن قربها منى لن يكون له نهاية ، أو أن جسدى قد إلتصق باصابعها فلن يتركها ، حتى اننى شعرت بخيبة أمل شديدة حينما إنتهت يد الكاهن الخبيرة من فحص جروحى ، ووضع الدهون ، والزيوت عليها .

تراجع استاذى قليلا ، ووقف يراقب تفنت وهى تكمل ربط الضمادات ، وشعرت بعينيه النفاذتين تنتقلان من وجهى إلى وجهها ، لكنه بقى صامتا لا يتكلم حتى إنتهت من مهمتها وتراجعت بعيداً . وتكلم الكاهن .

— لاشك أنك أحسن كثيراً اليوم . لقد رفعت بعض الضمادات عن رأسك ووجهك ، وكذلك ذراعك الايمن . أما باقى الجروح فإننا سوف نتركها على حالها لبضعة أيام أخرى . واننى أنصحك الا تتعجل الحركة ، ولا تترك الفراش ليوم أو يومين آخرين . وبعد ذلك يمكنك أن تحاول السير فى القمره ، لكن لا تبرحها حتى آذن لك . ولا تتحرك حركة فجائية . أو تحاول رفع شىء ثقيل .

والتفت الكاهن الى ابنه أخيه قائلا :

— هيا بنا يا تفنت فلن يحتاجنا إلا بعد يوم أو يومين .

وادهشتنى الفتاة .

— سأبقى قليلا ياعماه إذا أذنت .

لم يكن استاذى أقل دهشة منى لهذا الطلب حتى أنه رفع رأسه بحركة مفاجئة وحدجها بنظره ، وبدا عليه كأنما يريد أن يقول شيئاً ، ثم عدل عن رأيه ، واستدار خارجا من القمره دون كلمة ، ودون أن ينظر إلى ناحيتى .

بمجرد خروجه عاد إلينا ذلك الإحساس بالإرتباك حتى إننا مكثنا فترة دون حركة ، أو كلمة . ولاحظت الدم يرتفع فى وجنتى تفنت فبدت وجنتاها حمراوتان . خفضت عينيها إلى الأرض مسدلة أهداباً طوالا . ولاحت أكثر جمالا فى خجلها ، وإرتباكها حتى أننى إحتجت إلى كل ارادتى لأمنع نفسى من النهوض من فراشى على مابى ، واحتوائها بين ذراعى . ولم يكن فى الإمكان الإستمرار على هذه الحالة أكثر من ثوان معدودات . وقطعت حبل السكون .

— هلا جلست ؟

وكأنما أيقظها صوتى من حلم فتقدمت إلى المقعد وجلست .

— لعلك تريدين بعض الشراب !

لم أنتظر جوابها ، وصفقت . وفتح الباب ودخل خندو ، فطلبت منه أن يحضر بعض شراب الرمان أو الليمون .

وتكلمت تفنت .

— لقد ظننت أنك ربما تجلس وحيداً طوال اليوم فأردت أن أسليك ، ولعلى لا أثقل عليك .

كانت تتكلم وهى تتفادى النظر المباشر إلى ، ويبدو أنها كلما أمعنا فى الحديث إزدادت ثقة فى نفسها ، وازدادت جرأة لتعود إلى طبيعتها العادية . وأجبتها .

— مطلقا . العكس هو الصحيح .

— حسنا والآن ماذا تريد ؟ هل نتناول الحديث ، أم أن لك رغبة فى اللعب؟ اننى أعلم أنه توجد سنت [1] على المركب وإننى أجيدها . وكثيراً ماباريت سمو الأميرة ، فهل تريد منى أن احضرها ؟

---

(١) سنت لعبة منزلية أقرب إلى الشطرنج .

لم أكن فى الواقع ممن يجيدون الألعاب المنزلية ، ولا كانت بى رغبة إلى اللعب ، خاصة فى حالتى الراهنة ولهذا بادرتها .

— إننى كلما أزددت معرفة بك كلما تـكشف لى عبقريات جديدة . فأنت تجيدين الألعاب المنزلية ، وأنت من الرائين . وماذا أيضاً ؟

وبدا عليها السرور وهى تردف .

— وأنا طاهية ماهرة ، وحائكة من الطراز الأول ، وأمينة مخازن عمى المبجل ، ومديرة منزله ، فهو لم يتزوج كما تعلم . ومادمت قد ذكرتنى فهل لى أن أسائلك لماذا أراد النبى الرابع لآسون قتلك ؟

بدت على الدهشة لمعرفتها أن سى موت كان هو الذى يهاجمنى د فقد حسبت أننى لم أبح بهذا لأحد . وقبل أن أستفسر منها عں كيفية معرفتها شخصية الذى كان يهاجمنى أثناء مرضى ، دخل خندو حاملا صينية عليها أكواب الشراب ، ووضعها على المنضدة ثم انسحب خارجا .

— وكيف عرفت أن من هاجمنى هو نيافة النبى الرابع ؟

ترددت الفتاة قليلا ثم نكست رأسها فى الأرض وقالت :

— الواقع إننى كنت قد أرسلت كا ـ ى إليك لأطمئن عن صحتك ، فرأيته يهاجم كا — ك ، ولهذا هرعت إلى الخيمة حتى أساعد عمى المسكين .

لاحت الابتسامة على شفتى . ولعل تفنت أحست ببعض الحرج لأنها كشفت عن قلقها على فأندفعت الـكلمات حارة غاضبة من فمها .

— وأنت ألم ترسل با(١) ــ ك إلى منذ قليل ؟ لا تنكر فقد أحسست بها ، بل وشعرت بآب(٢) ــ ك تشدنى إليك حتى أننى لم أتمالك نفسى حينما إنسحبت منى خو(٣) ــ ى لتأتى إليك . أم لعلك لم ترها ؟

---

(١) النفس .

(٢) الارادة.

(٣) الهالة أو العبير

رفعت الفتاة عينيها متحدية . وجاء دورى فى أن تحمر وجنتاى خجلا . ولم أستطع أن أجابة نظرتها فقد طغى على شعور بالذنب . ولم تتركنى تفمت فى قلقى إذ سرعان ما قالت فى لهجة رقيقة ناعمة بعيدة كل البعد عن لهجتها السابقة .

— على أن أعترف لك أيضاً بأننى حينما شعرت بآب — ك لم أحاول أن أقاوم ، بل أحسبنى ساعدتها بالإستسلام لما تبغى ، فلا تفرط فى لوم نفسك .

كان هذا بمثابة إعتراف بالحب بيننا ، وإن لم يذكر أحدنا كلمة واحدة عنه . واحترت فى كيفية التصرف . فعلى قدر عمق العلوم التىدرستها فى مدرسة الحياة ، وعلى قدر تنوعها ، لم تكن لى أية خبرة بأمور النساء ولهذا وجدت نفسى كأنما أنا فى بحر لاقرار له . ويلوح أن الفتاة قد لاحظت مدى ارتباكى فحلا لها أن تلعب بى ، وتزيد من اضطرابى فقامت من مجلسها ، وتناولت عصير الليمون ثم تقدمت من فراشى قائلة .

— إننا نسينا الشراب،دعنى أساعدك . كلا . لاترفض ، وإعتدل فى جلستك قليلا حتى لا ينسكب شىء على الغطاء أو ملابسك .

أدنت تفمت وجهها منى إلى درجة لم يكن لها فى الحقيقة أى داع . وملأت رائحتها الجميلة أنفى ، ومس شعرها الناعم وجهى . أحسست بجسدى كله يختلج ، وبأنفاسى تتالى سريعة ، وإزدادت نبضات قلبى ، حتى خيل إلى أنه يكاد أن يقفز من بين ضلوعى . وكأنما من مكان سحيق أتى صوتها هامسا كله عذوبة وأنوثة ، وإغراء .

ازدادت دنوا حتى أن أنفاسها الحارة كانت تلفح خدى ، ورأيت صدرها المرمرى يعلو ويهبط . ويبدو أنها نسيت أنها أرادت معاونتى فى الشراب إذ أن يدها التى كانت تحمل الكأس ابتعدت قليلا عن فمى ، وإنسلت يدها الأخرى لتوضع فى رفق على كتفى ، وراحت أناملها الرقيقة تتحسس جلدى . حاولت جاهدا أن أمنع نفسى من الحركة . لكن يبدو أن كل مقاومة لى كانت قد زالت . ووجدت رأسى يدور ليواجهها . لست أدرى تماما ما حدث بعد هذا فلم أشعر بأية آلام من حركاتى الفجائية التالية، ولا احسست نفمت بالشراب وهو ينسكب على الفراش . اطبقت شفتاى الملتهبتان على شفتيها فى وحشية ، تنتهبان رحيق

الحب ، وكأنما هو رحيق الحياة(١) .

تناهى إلى أذنى أنينها عذباً ، سعيداً ، مستكيناً . وأحسست بيدى تقبض على شعرها الناعم بقسوة — لتضغط رأسها حتى يزداد فى إلتصاقاً بفمها . وتنقلت شفتاى تمتصان بلهفة حائرة من وجنتيها ، وأنفها وعينيها ، وجيدها . وطرق أذناى صوتها يهتف باسمى كأنما هو انشودة الهية ، ترنمت بها أنغام سماوية . وتسابقت تلك الأنغام إلى رأسى تملأ على الكون ، وتزيد من عمى بصيرتى . وتحركت يدى السليمة لتتحسس بقوة وخشونة كتفيها الأملسين . وتثنى الجسد اللدن تحت قسوة أصابعى حتى اعتدلت جالسة على الفراش تجابهنى. والتف ذراعاها البضان حول عنقى . وشعرت بصدرها الناهض من وراء الغلالة الرقيقة يضغط على صـــدرى — وازدادت شفتاى التهاباً وانتهابا ، وتضاعف ضغط يدى حتى تأود الجسد اللين تأوها .

غمرنا شعور باللذة الطاغية حتى لكأننا قد انفصلنا عن العالم وما فيه ، وضاع الاحساس بالمكان والزمان . ولست أدرى إن كان من الممكن أن نفيق من نشوتنا ، لولا أن تناهت إلى سمعنا طرقات على الباب .

أسرعت تفنت مبتعدة تصلح من شأن نفسها ، وتراجعت فى جلستى مستلقيا على الفراش . وانتظرت قليلا ريثما جلست ، ثم بصوت أجش حاولت جاهداً أن أجعله طبيعياً ، اذنت للطارق . ودخل خندو إلى المنضده فلما رأى كوباً لم يمس تراجع خارجاً ، وأغلق الباب . ولو كان قد لاحظ أن الكوب الآخر ملقى على الفراش ، أو أن الشراب قد سكب فلم يبـــد على وجهه أية إشارة تدل على ذلك .

نظرت إلى تفنت . وبادلتنى النظر فى خجل وسعادة . ويبدو أنها كانت تنتظر منى أن أناديها إلى جوارى ، لكن الغمامة التى ظللت عيناى فاعمتنى كانت قد انقشعت ، وحل مكانها عقل متزن يفكر فيما وعدت به استاذى . وحينما تكلمت كنت قد تمالكت نفسى تماما .

---

(١) الواقع ان هذه النقطة غير مقطوع بها فإن هنالك من يقول ان القبلات كانت تتم عند الفراعنة عن طريق حك الأنوف .

— اسمعى يا تفنت . أنى آسف إذ فقدت صوابى ، وتصرفت بلا روية . إننى وعدت عمك بألا تزيد معرفتنا عن الصداقة المجردة وها آنذا قد اخلفت بوعدى ، وأنى آسف .

بغضب جامح ردت على الفتاه .

— لكننى غير آسفة . وإذا كان وعدك هذا قد صدر من أجل تلك النبوءة السخيفة فلا أهمية له عندى ، وعليك أن تعلم هذا .

حارت الكلمات على شفتى . وعملت جاهداً أن يكون صوتى هادئاً مقنعاً .

— إنى احبك ، وكذلك عمك ، إذا كان فى هذه النبوءة شىء من الصدق ، وأحسبها كذلك ، فإن من الخير أن تبتعدى عن طريقى .

هبت الفتاة واقفة وهى تقول بحرارة :

— حتى مع فرض صحة النبؤة . فإننى أفضل أن أقضى معك أياماً ، أوساعات، القى بعدها حتفى ، على أن أعيش دهراً بدونك . ربما تكون قد اكتنزت من العلوم ما يسموبك عن مرتبة البشر العاديين ، ولكن يبدو أنك لا تفهم شعور الفتاة التى تهوى .

بهذه الكلمات استدارت وخرجت مسرعة من الحجرة دون أن تلتفت إلى ، أو تنتظر منى جواباً .

* * *

وصلنا من الأقدمين عشرة أقسام للإنسان . فنحن نعرف عن وجود :

خات — اى الجسم المادى
وكا — القرين
وبا — النفس
وخو — الهاله أو العبير
وخايت — الظـــل
وسخم — القوة الحيوية
ورن — الاســـم
وآب — الإرادة
وساهو — الجسم الروحانى
وأخيراً — آخ — الحالة الروحانية النهائية بعد الوفاة .

نحن نعلم عن هذه التقسيمات بل أننا أيضاً نعرف كيف نسيطر على بعضها ، فينا وفى الآخرين ، وكيف ننمى البعض الآخر ، ويبدو أن هنالك الكثير من العلم قد ضاع ولم يصل لنا منه إلا النذر القليل . فنحن نعلم مثلا عن الكا، وكيف نسيرها ، ونرسلها إلى حيث شئنا ، ونستطيع أن نحرك « الخو » لننبه عن وجودنا ، كما نعرف الكثير عن مظاهر ساهو ، وآب . لكن معلوماتنا أقل من القليل فى العلاقة بين هذه الأشياء وبعضها . وفى كثير من الأحيان نجد أننا نجابه بمظاهر لا نعرفها ، ولا ندرى كيف نفسرها .

خذ مثلا . شخصان يتقابلان لأول مرة ، وبدون أى سبب يميلان إلى بعضهما ، أولا يميلان . وحتى درجات الميل أو عدم الميل قد تتفاوت من مجرد الميل العادى إلى الحب العميق ومن مجرد التقدير إلى الكراهية المطلقة . هكذا دون سابق مقدمات أو أسباب ظاهرة . من أين يأتى هذا الحب أو البغض؟ من با النفس ؟! من ساهو الروح ؟! هما قطعاً لا يأتيان من آب ، الإرادة ، لأنهما يتغلبان عليها فى معظم الأحيان . إذا فمن أى يأتيان ؟ اننا لا نعلم . ربما كان آباؤنا الأقدمون يعلمون ، ولكن علمهم ضاع من الزمن .

هكذا لم أكن ادرى ، وأنا الكاهن فى معبد رب الأرباب . الذى تمرس وتعلم فى دار الحياة ، كيف داخلنى هوى تفننت بهـــذه القوة ، وعصف بعقلى وشعورى حتى أننى كنت ما زلت بعد أن تركتنى أشعر بشفتيها ، وبيدها على كتفى ، وبجسدها يملأ رحابه صدرى .

ومثل ثان . نحن نعلم قطعاً أن سخم ( القوة الحيوية ) تنتقل من خات ( الجسد المادى ) إلى آخر إذا ما تلامس الجسمان خاصة إذا كانت الملامسة فى مواضع محددة فى الجسم المتلقى ، لكن إذا سألنا أحد كيف تنتقل سخم وهل يفقد خات المعطى بعضاً منها مقابل هذا المنح فاننا نقف حيارى لا نستطيع الإجابة .

كنت استلقى على الفراش كما تركتنى تماما لم احرك عضلة واحدة ، وكأنما انا فى عالم آخر لاصلة له بالوجود من حولى . لم يخطر فى بالى فى هذه اللحظات أن أتساءل عن مستقبل هذه العلاقة ، ولا كيف أقابل أستاذى السابق رعموسى وماذا أقول له ، بل لم افكر لحظة فى موقف خطيبتى الصغيرة افرت . لم يخطر فى

تفكيرى شىء من كل هذا، وإنما غرقت كلية فى بحر من اللذة والشوق ـ والحنين إلى محبوبتى .

اعادتنى طرقات عالية على الباب إلى عالم الحقيقة من احلام يقظتى . ولما أذنت بالدخول دلف سسوباوو ددف رئيس حظائر الحاكم يتبعه نترى . ألقى رئيس الحظائر تحية الصباح ، ثم جلس على المقعد فى حين تمتم نجله بكلمات لم أسمعها ، ووقف بعيداً فى أدب . واستفسر رئيس الحظائر عن صحتى ، ولما طمأنته قال :

ـــ أحسبك تعلم أن إبنى نترى يرغب فى الذهاب إلى ينوت ، والالتحاق بالحظائر الفرعونية وقد أذنت له على شريطة أن يكون فى صحبتك . فهل تقبل أن تضعه تحت حمايتك ؟

ـــ إن هذا شرف عظيم لى . وعلى قصر عهد معرفتى به فانى فى الواقع ارحب بصحبته .

وتكلم الرجل فى لهجة جادة صادقة .

ـــ أشكرك . ونظراً لأنه ، لا مكان له على المراكب الفرعونية فقد رأيت أن يذهب إلى نيوت عن طريق البر . وأرجو أن يلقاك هنـــاك وانت معافى ، وفى صحة جيدة .

وتردد الرجل برهة ثم أردف .

ـــ إننى أعتذر عن عدم قبولى بيع « كسم » فى مبدأ الأمر لك . لكننى أخدم سمو الحاكم ، وقد تصرفت كما تصورت اصالحه .

وقبل أن ارد عليه قام من مجلسه ، والقى التحية ثم استدار خارجا . وتبسم لى نترى مودعاً إلى لقاء ، وانسحب وراء والده .

مضى بقية اليوم دون حادث يذكر ويبدو أن اللقاءات التالية ، والانفعال العاطفى قد أثرا فى كثيراً حتى أننى استغرقت فى النوم معظم ساعات النهار بالرغم من إزدياد الحركة على ظهر السفينة ، وأرتفاع أصوات البحارة ، والحمالين ،وهم يكملون العدة للرحيل . وفيما عدا فترات تناول الطعام وفترات ، أخرى قصيرة ، فإننى واصلت الليل أيضاً فى النوم .

جاء خبر ( شمس الصباح ) ليجدني منتعشا تماما ، وقد عادت إلى معظم قوتى . لم أكد أفرغ من إفطارى حتى طرق الباب ودخل أستاذى رعموسى تتبعه الفتاة . وكان هذا اللقاء هو الذى كنت أخشاه . فلم يكن هنالك من سبيل إلى تفادى مناقشة الموضوع بما تم بينى وبين تفنت ، ومحاولة الأعتذار للشيخ عن خلفى للوعود . لم أكن أدرى فى الواقع كيف أصرح له ، ولا كيف سيتلقى الموضوع ، لكن لم يكن هنالك أمامى بد من الأعتراف .

ألقى الكاهن تحية الصباح . ولم تتكلم تفنت . ولكنها تقدمت حينما طلب منها رعموسى ذلك حتى تكشف الضمادات ليرى آثار الجروح . أحسست بيدها ترتجف وهى تمس جسدى بينما نفاذت عيناها تماما الإلتقاء بعينى . وإنتهى الكاهن من فحص الجروح ، أزال بعض الضمادات ، وقرر أن حالتى أحسن مما كان يظن ، وأن فى استطاعتى الحركة كيفما أشاء ، وإن كان يستحسن ألا أبارح الحجرة ليوم أو أكثر .

— لن يكون هنالك أى داع لبقائك فى الفراش بعد هذا ، ويمكنك أن تتصرف كيفما يحلولك على أن تتجنب الإرهاق البدنى . ولست أعتقد اننا سوف نكون فى حاجة إلا إلى أربطة الذراع اليمنى فحسب . ولن نغيرها أو نبدلها إلا بعد أيام وحينئذ سوف ننتزعها تماما .

شكرت الكاهن على ما أبداه نحوى من عناية ، لكنه أشاح بيده ثم طلب من تفنت الإنصراف ، وجلس على المقعد أمامى وقال بدون مقدمات .

— لقد اخبرتنى تفنت بما بينكما ، وأننى أعلم ما أعتمل فى نفسك من جراء ماتظنه خلفا للوعد . وحتى لاترى أى داع لتأنيب الضمير أود أن أقول لك إننى أنا الذى شجعتها دون أن تشعر .

لابد أن الكاهن رأى الدهشة ، وهى ترتسم على ملامحى حتى أنه أسرع يفسر كلامه .

— لا تحكم سريعاً واستمع إلى . إننى أعلم الآن عن يقين لا تداخله أدنى ريبة بمصير الفتاه . ولن يكون فى إستطاعتى أو قــدرة أى مخلوق أن يوقف حبها ... أو يعدل نهايتها . أفلا ترى من العدل أن اتركها تمرح ما تشتهى على الأقل لتتمتع بما بقى لها من عمر .

ظللت صامتا برهه ، وحينما تكلمت كان صوتى أجشا .

— وهل تعتقد أنت يا نيافة الكاهن أنى أستطيع أن أبادلها الحب دون أن أتصور ما سوف يحدث لها من جرائه ؟

ورد الكاهن بحزن عميق :

— بنى . إن هذا من أكبر أخطاء التطلع إلى المستقبل . لو أننى لم أتكلم عما أعرف ، لسار كل شىء بسيطاً هيناً على طبيعته . أما الآن فلا مجال للبساطة . ولا أمل فى التغيير . حاول يا بنى أن تنسى ما اخبرتك به من أجلها .

كان صوته خفيضاً متعباً يأتى كأنما من غور سحيق ، وحينما وصل إلى الجملة الأخيرة تهدج قليلا ، لكنه سرعان ما تمالك نفسه . لم يزد حرفاً ، وقام من مجلسه بتثاقل تاركا القمرة ، دون أن يلق التحية . وبقيت فى مكانى أفكر فى كلماته ، خاصة الأخيرة .

° ° °

لم يزايلنى الألم تماماً حينما بدأت الحركة داخل القمرة ، لكنه كان مركزاً فى منطقة صغيرة نسبياً ، وهى الكتف والذراع اليمنى ، الا أننى سرعان ما اعتدت عليه ، وتبينت أحسن الأوضاع واقلها ألما . ومع استمرار الحركة بدأت عضلات الجسم تزداد مرونة ، لتعود سيرتها الأولى . ولم تعد تفنت فى ذلك اليوم ، كما أن ذراعى لم يكن فى حالة استطيع معها الكتابة ، ولهذا فإننى قطعت وقتى فى القراءة والتعبد لرب الأرباب .

لكن كان هنالك شىء فى تعبدى لم يكن موجوداً من قبل ، أو على الأصح كان تعبدى ينقصه شىء كان موجوداً . الإيمان . كنت كلما حاولت أن استغرق فى صلاتى ، وابتهالاتى أجدنى أنظر إلى تمثال رب الأرباب بتعجب لم يكن ليخطر لى على بال قبل هذا . كم من مرة لاح لى وجه سمو الأمير ، وتخيلته كما بدا حينما ظننت أن التهد سوف يقضى على . وجه قبيح شاحب عليل ، لكنه وجه هادىء خال تماماً من أى أثر للخوف . وكم من مرة سمعت صوته يردد . أعصبة متعددة أم اله واحد ؟ إن من يهب الحياة لايتسول الدعاء .

على أن هذا لم يكن يعنى أننى قد تحولت عن دينى ، وعقيدتى . ولا حتى بمجرد تزعزع الثقة فى رب الأرباب ، وإنما كنت دائماً أرجعه إلى الشعور بالعرفان

بالجميل ، فلم يكن هنالك شك فى أن الأمير قد أنقذ حياتى بتدخله ، وإلا فإننى كنت قد قضيت تحت مخالب الفهد وبين أنيابه . ولم تكن هديته ، اعنى « كم » بأقل أثرا فى نفسى فتمد إزداد امتنانى ، وشكرى بها ، خاصة وأنى لم أعد أسمع من الكاهن أية إشارة إلى رغبة الأمير فى أن التحق بخدمته ، ولو سأل الآن ما استطعت أن أتردد ، أو أرفض .

دارت افكارى حول الأمير ودينه الجديد . لم يكن الدين فى الحقيقة جديداً إذ أن آتون كان يعبد من قديم الأزل ، ولم ينكر أحد مطلقاً أنه من الآلهة . لكن الجديد هو تلك الرغبة الحمقاء التى تملكت الأمير فى أن يكون هو الإله الوحيد دون باقى الأرباب . بل إننى سمعت أنه يقول إنه رب العالمين ، وليس رب تامرى فقط . فكأنه بذلك يريد أن يقضى على كل الآلهة الأخرى ، سواء فى تامرى أو غيرها . لو شاء لجعله وزيراً ، أو وكيلا ، أى شىء إلا أن يكون الإله الأوحد . هنالك رع مثلا تكاد منزلته أن تدانى رب الأرباب ، بل أنه أحياناً ينازعه السلطة والمكانة ، ومع هذا فإن هنالك نوعاً من التعايش بين فئتى الكهنة ، وذلك لأنهم كانوا من الحكمة بحيث لم يحاولوا الإدعاء بأنه الرب الوحيد .

فجأة خطر لى سؤال . هل هو تنازع بين الأرباب على المكانة ، أو تنازع بين الأنبياء والكهنة على السلطة ، والقوة ، والجاه ؟ حاولت جاهداً أن استبعد السؤال فلم يكن من اللائق أو الإيمان طرحه ، لكنه ظل يعود بالحاح شديد . نعم هنالك بعض الأنبياء والكهنة الذين يخلصون تماماً لأربابهم ، ويعتقدون إعتقاداً جازما بألوهيتهم . ولكن الا يجوز أن يكون هنالك مستغلون أيضاً لهذا الإيمان؟!

مضى النهار وأنا حائر لا أجد إجابة شافية على السؤال ، وحينما جن الليل ، وهدأت الحركة على السفينة كنت قد أرهقت ولم البث طويلا بعد أن تناول عشائى ، حتى نمت نوماً قلقاً تتخلله أحلام بدا فيها الأمير ، والكاهن ، وتفمت وتمثال رب الأرباب ، وضوء ساطع خارق ينبعث من خلال أشعة آتون .

حينما استيقظت فى الصباح لم يكن حور قد أرسل أشعته بعد من وراء الجبال . دخل خندو يحمل أدوات الزينة ، وبعد أن ساعدنى على ارتداء ملابسى وحلاقة

أرسى ، وذقنى خرج ليعود بعد دقائق حاملا صحاف الطعام .

تناولت إفطارى بشهية كبيرة . وشعرت بعد ذلك برغبة ملحة فى الخروج إلى سطح المركب . لم أحاول أن اقاوم الرغبة ، فان المكوث الطويل الذى قارب أسبوعين كان قد بدا يظهر آثاره فى أعصابى . وحينما خرجت من باب الممر ، واستقبلنى الهواء البارد المنعش إزداد معه إحساسى بالحياة .

كان الحمالون والبحارة ما يزالون ينقلون المؤن والمياه بسرعة ، ونظام إلى داخل مخازن المركب الكبير . ووقفت فى مكان بعيد متكئاً على سور المركب أرقبهم فى غدواتهم ، وروحاتهم وأستمع إلى رؤساء العمال يحثونهم على زيادة النشاط . وسألت أحد الرؤساء إن كان يعلم أن الفرعون قد حدد موعداً نهائياً للرحيل فأجاب أن جلالته ، له الصحة والعافية ، سوف يكون على ظهر مركبه ( آتون يلتمع ) فى تمام الساعة العاشرة صباحاً ( أى قبل المغرب بساعتين حسب توقيتنا الحـــالى ) ،

طغت الفرحة على قلبي فانني فى الواقع لم يكن يهمنى أن أعرف متى اعتزم الفرعون السفر إلا لسبب واحد ، وهو أن تفنت كان من المحتم أن تصعد إلى المركب قبل هذا الموعد لتكون فى شرف استقبال سمو ولى العهد ، وزوجته الجميلة . ومعنى هذا أن لقائى بها سوف يكون قريبا ، وأننا سنظل أياماً أخرى سوياً على ظهر المركب ، ومن المسير ألا أراها .

تناسيت العالم وما فيه ، ودارت فى رأسى الأفكار تحوط تفنت بأعذب الأمانى والآمال . أحسست بذراعيها تطوقان عنقى ، وبفمها يلتهب على شفتى كنت فى عالم من الخيال تملؤه السعادة والحب . كنت أنظر ، ولا أرى سوى وجه تفنت ، وأستمع ولا يطرق اذنى سوى صوتها . استقرت عيناى على المياه تنساب فى هدوء وقد هبطت عليها أشعة الشمس ترسل انعكاسات وضاءه تلتمع حيناً ، وتنطفىء أخرى .

وبالهدوء نفسه ، هدوء انسياب المياه ، ظهر رأس ( مسح ) التمساح ، وبدا خلفه جسمه الطويل القوى . طالعتنى العينان الخبيثتان ، كأن فى نظرتهما نهم وتوقع . لكننى لم أكن أرى فى أى شىء سوى الجمال . حتى الفك القوى ، والرأس البشع ، لم ار فيهما وحشية أو خبثاً ، وإنما تصورت فيهما الحب ، والجمال .

كنت اتوقع أن ارى تفنت فى القريب ، فكيف يمكن أن يكون فى العالم خبث أو وحشية ؟

ويبدو انني إستغرقت فى تأملاتى السعيدة بعمق حتى انني لم الحظ أن العمل على ظهر السفينة قد توقف فجــأة ، وان العمال يركعون مصفرين جباههم على الأرض حيث هم . ربما كان اول ما استرعى انتباهى هو السكون المطبق الذى حل فجأة على المركب . استدرت فى وقفتى لا تأكد من أحساسى بالسكون . وكان فى حركتى المفاجئة انقاذ لحياتى . فى اللحظة التى استدرت فيها مرق من جانبي شىء لم اتبينه فى مبدأ الأمر ، وإن كنت قد احسست بصوت الهواء ، ولفحة سريعة شديدة تمر إلى جوارى ، وكأن جناحان يصفقان . تبعت عيناى المارق فى الهواء ، ولم يحتج الأمر لأكثر من جزء من ثانية لأ تبين ان الذى اندفع كان حورس الصقر . تابعته بنظرى وهو يختفى فى الأفق مطلقاً صرخات التحدى عالية ، تتجاوب أصداءها فى الفضاء .

أدرت نظرى إلى المياه من تحتى لتطالعنى عينا مسح (التمساح) الخبيثتان . بدا عليهما كأنما قد خاب رجاءهما فى الحصول على فريسة شهية . وفى االحظة التالية إختفى الرأس ، وإختفت العينان تحت سطح الماء . داخلنى شعور غريب ان الحادثة لم تكن مصادفة وان اصبع سى موت قد إمتدت مرة اخرى محاولة قتلى ، فقد كان على الصقر ان يترقب غفلة منى ، ويرتطم بجسدى بأقصى قوته ليختل توازنى ، واسقط فى اليم ليتلقفنى التمساح ، لكن حركتى المفاجئــة خيبت هدفه .

تطلعت عيناى إلى السماء تبحثان . لكن الصقر كان قد اختفى فى الأفق ، ولم يبد له أى اثر . ونما إلى اذنى صوت رئيس العمال وهو يأمر البحارة بالقيام بأعمالهم ، وينهرهم على تكاسلهم . وحينما التفت اليهم قابلتنى نظرات غريبة ترتسم على وجوههم فيها إتهام . وفهمت . لقد اعتقد البحارة ، والعمال اننى وأنا كاهن رب الأرباب ، قد اتيت عملا اغضب الاله حورس فأرسل رسوله لينتقم منى ويلقى بى فى اليم . وإذا لحق العمال لم يروا فيما حدث مجرد مصادفة ، وإنما كانت محاولة قتلى عامدة بغض النظر عمن كان يقوم بها، الاله حورس، او النبى سى موت. لم يكن هناك مجال بعد هذا لبقائى على سطح المركب ، فان الحادثة أخذت

معها كل احلامى وسعادتى ، لتضعنى بقسوة أمام الحقيقة المجردة . وبالاضافة إلى هذا فاننى لاحظت ان العمال ، والبحارة ، بالرغم من استمرارهم فى عملهم ، كثيراً ما كانوا يلقون على نظرات تعجب لم تكن خالية تماماً من الخوف . سرت بخطى بطيئة نحو قمرتى ، وما ان دخلتهـــا حتى جلست على المقعد ، وتركت لأفكارى العنان .

لم اخرج من القمره فى الساعات التالية . ورحت اقطع الوقت فى الصلاة او القراءة . حاولت كتابة ما فاتنى من مذكرات ، لكن كتفى الأيمن كان مايزال فى غير حالته الطبيعية. وبعد مدة يسيرة تركت المحاولة وعدت إلى المطالعة. ولم يحدث شيء حتى جاء خندو بطعام الغذاء فتناولته ، واغتسلت . لاحظت أن اصوات حركة العمل على المركب قد خفت تماماً، فعلمت ان عمليات نقل المياه والمؤن قد إنتهت ، وأن كل استعدادات الرحيل تمت ولم يبق سوى تشريف الفرعون وولى العهد وحاشيتهما .

غفوت فى القيلولة ، ولم استيقظ إلا على طرقات خفيفة على باب القمرة ، وحينما أذنت بالدخول دلفت من الباب تفنت . جلست فى فراشى معتدلا . وقفز إلى عقلى سؤال . هل علمت بحادثة الصقر ؟ واثبتت الدقائق التالية انها لم تعلم إذ انها بعد ان اغلقت الباب تقدمت فى حياء والقت التحية بصوت خفيض ثم جلست على المقعد وسألت :

ـــ كيف حالك اليوم ؟

ـــ فى احسن حال . والواقع اننى خرجت إلى سطح المركب ، ولو سمحت لى ببضع دقائق فسوف ارتدى شيئاً مناسباً ، ونستطيع بعد ذلك ان نجلس هنا او ان نتريض على السطح كيفما تشائين .

تبسمت الفتاة فى سعادة ، وقامت من مجلسها قائلة .

ـــ لا بأس سوف اتركك لبضع دقائق واعود . وسوف ارسل إليك خندو ليساعدك على إرتداء ملابسك .

فى اللحظة التالية كانت قد ذهبت ، لكنها لم تعد إلا بعد اكثر من ساعة وفى هذه المرة ـ استقبلتها واقفاً . وترددنا هنيهة ، وفى اللحظة التالية كانت بين احضانى ، نرتشف رحيق الهوى .

# الفصل الرابع عشر

# أخت آتـــون

كان الوقت صباحاً وأنا واقف عند مكاني المفضل . لكنني لم اكن بمفردي وإنما كانت تقف إلى جواري تفنت . كنا نتكلم في همس ، ونحن نرقب المياه تنساب حول المركب ، والفلاحين في حقولهم يعملون ويتوقفون ، يرون الركب الفرعوني ، يلوحون بأيديهم ثم يستمرون في عملهم ، والشبيبة تجري على الشاطىء تسابق السفن حيناً ثم تكل ، او ينادي عليهم اهلوهم فيعودون ادراجهم يراعون البقر ، والثيران .

كنا قد ابحرنا في الساعة الحادية عشره تماما ( قبل المغرب بساعة على توقيتنا ) من صباح امس وكان حابي ( النيل ) قد إمتلأ بمجموعات هائلة من القوارب والمراكب ، كما إكتظ الشاطىء بكل الطبقات من الأهالي الذين جاءوا يودعون الفرعون العظيم وحاشيته . ارتدى الجميع ابهى ما لديهم من ملابس فبدا المنظر جميلا وقد اكتست الأرض ، والمياه بآلاف من الألوان من احمر واصفر ، وابيض ، وازرق .

سارت المراكب الفرعونية بعظمة تتهادى وهي تبدو في ضخامتها كالأم بالنسبة إلى أطفال صغار . وكنا ، تفنت وانا ، في استقبال سمو الأمير وزوجته حينما شرفا المركب ، وسأل الأمير عن حالي ، وظهر عليه الابتهاج الحقيقي المخلص حينما تبين ان معظم جروحي قد التأمت . وتلطفت سمو الأميرة معي ، وباسطتني بكلمات رقيقة ، ثم توجه الأميران إلى المقصورة العالية يحييان منها جموع الشعب . وتركتني تفنت لتقف في خدمة سمو الأميرة فانسحبت بدوري لأستريح في قمرتي .

في الصباح كانت المراكب قد تعدت فعلا حات سحوتب ( طهطا ) ، وجزيرة بنهيو ، ونبيو ( عنبيس ) ، وتاتتمت ( طما ) ، وبرزباو ( كوم أشقاو )

وسارت فى طريقها متجهه نحو باشنا ( أبو تيج ) قاعدة القسم الرابع عشر التى كان من المنتظر أن نصل إليها بعد يومين ، ونقضى فيها يوماً أو بعض يوم .

وقفنا ، تفنت وأنا ، نرقب المناظر الوديعة الهادئة للريف وقد إمتدت وراءها الصحراء تحدها الجبال الشرقية . ولم نكن فى الواقع نعر إلتفاتاً إلى المراكب ولا من فيها إذ ملأ حبنا العالم فوضع سياجاً حولنا لم نر ما وراءه .

وقطع علينا تحليقنا فى سماء الخيال صوت اقرب إلى المرح .

— ماذا نرى هنا ؟ أهى قصة غرام ؟

التفتنا منزعجين ، لنرى الأميرين على قيد خطوات منا وقد وقفا باسمين . احنيت رأسى محيياً فى حين ركعت تفنت .

وتكلم الأمير .

— لا عليكما ، ودعنا من الرسميات . لكننا نريد ان نسمع إجابة عن استفسارنا . اهى قصة غرام ؟

اعتدلت تفنت فى وقفتها ، لكنها لم ترفع بصرها من الأرض ، وإحمرت وجنتاها فأسرعت إلى نجدتها .

— إن قلب سموكم اكرم من ان يأمر بالتباعد او الكراهية .

تبسمت الأميرة ، واطلق الأمير ضحكة عالية رنانة صادرة من الأعماق والتفت إلى قائلا :

— مرحى ، مرحى ، إلى الرجل يسارع إلى نجدة الحبيبة ، وجزاءك منا على هذا اننا لن نصمم على إجابة صريحة . وسندع الأمور على ما هى عليه ، لكن خبرنا يا كاى كيف حالك الآن ؟

— فى احسن حال يامولاى واشكركم على تفضلكم بالسؤال .

— إننا نعنى الم يصبكم الصقر بسوء ؟

التفت إلى تفنت منزعجة ، فلم اكن قد سردت عليها حادثة الصقر ، كما يبدو انها لم تكن قد سمعت بها . واجبت بلهجة خفيفة اهون من شأن ما حدث حتى لا ازيد من انزعاجها .

— لا يا مولاى . لعل من نقل إلى سموكم ما حدث قد بالغ فيه ، فأن حورس لم يمسنى مطلقاً ، وإنما اندفع فقط من جانبى . وهى حادثة عرضية قد تقع مصادفة لأى شخص .

لعل الأمير قد لاحظ ان الفتاة لم تكن تعرف شيئاً . ولعل تفكيره السريع قد هداه إلى محاولتى التهوين من شأن الواقعة حتى لا اثير إنزعاجاً لا مبرر له ، فانتقل بحديثه بلباقة إلى نواح اخرى . ولم يطل الوقت بعد ذلك إذ إنضم إلينا بعض افراد الحاشية ، وراح الجميع يتبادلون الأحاديث ، والنكات ولم اكن بطبعى استسيغ مثل هذه المجتمعات ، فانسحبت بهدوء دون ان يلحظ احد سوى تفنت التى تطلعت إلى مبتسمة وكأنها تعتذر .

لم اكد ابتعد عن سمو الأمير وحاشيته حتى التقيت بأستاذى السابق رعموسى الذى قابلنى بابتسامة باهتة ، واستفسر عن حالتى ، ولما طمأنته سألنى .

— ما قصة الصقر الذى هاجمك يا كاى ؟

— أجبته فى بساطة مهوناً من الأمر :

ليست هناك قصة ، واحسب ان الذين رووا ما حدث قد بالغوا كثيراً انها مجرد صدفة لا تزيد .

تفرس الكاهن فى وجهى وقال —

— هل تعتقد حقاً انها مصادفة لا تزيد .؟

ترددت فى الإجابة قليلا ثم اردفت .

— ليس المهم هو ما اعتقده او لا اعتقده فقد اكون مخطئاً فى تفكيرى .

— لكنك لا تظن ان ما حدث كان مجرد مصـــادفة . وهل تظن ان وجود مسح [1] ( التمساح ) منتظراً فى المياه كان ايضاً مجرد مصادفة .

وجاءنى سؤاله مفاجئة فلم اكن اعتقد ان احداً من الحاضرين قد لاحظ وجود مسح . لكن يبدو ان — منهم من رآه بل وربط ايضاً بين الواقعتين ولا احسب ان اى اثر للمفاجئة قد بدا على وجهى وحينما تكلمت كان صوتى طبيعياً .

— قد تكون كذلك ، وقد لا تكون .

---

(١) مسح الإسم العادى الذى كان يطلق على التمساح ، لكن حينما كانوا يعنون الاله التمساح فكانوا يطلقون عليه اسم سبك .

— اسمع يابنى . يبدو أنك تستخف بالأمر أكثر مما يجب ، هذه ثالث محاولة من أحد أنبياء آمون للقضاء عليك وأحسب أنه سى موت . ولا أعتقد أنها سوف تكون الأخيرة . إن معنى المحاولة الأخيرة أن واحداً على الأقل من الرائين مكلف بمراقبة حركاتك . وإلا فما كان فى الإستطاعة ضبط توقيت هجوم الصقر ، والتمساح ، والانتظار حتى تكون فى المكان المناسب الذى يؤكد فاعلية المحاولة . إن المصادفة الوحيدة هى حركتك المفاجئة التى أنجتك من موت محقق .

— ولكن السنن التى وضعها أباؤنا وأجدادنا الأولون لا تسمح لأحد من الرائين بالتطفل على الحياه الخاصة . فالنظر يجب أن يكون للصالح العام فحسب.

ورد الكاهن بتهكم واضح .

— السنن ، والقوانين ، والتقاليد ، هى مجرد خرافات يتمسك بها المثاليون والبسطاء ، أما بالنسبة لسى موت وأترابه فهى مجرد قواعد ، وضعت لحمايتهم من الغير ، وليس لحماية الغير منهم

أجبت بحدة نجمت عن اقتناع شخصى :

— لا . إن قداسته نبى رب الأرباب . وما كان ليستعمل علوم الأولين وقواهم لمجرد مصلحته الشخصية .

— هبك على حق . ألا يجوز أن الرجل يعتقد حتماً أن فى قتلك مصلحة عامة ؟ ألا يجوز أن يكون إعتقاده أن فى قتلك إبطال للنبوءة التى تؤكد أن موت الأمير سوف يكون على يديك ؟ لقد جربوا فيما أعتقد محاوله إغرائك بقتل الأمير، فإذا بك تنقذه المرة تلو الأخرى . ماذا لو انقلب تفكيرهم بأن الأميرسوف يموت بين يديك ليس لأنك ستكون قاتله ، وإنما كصديق ؟

— إذا كان هذا تفكير قداسة النبى الرابع فهو على حق

بان التأفف جلياً على الكاهن العجوز ، ولاح لى أن صبره قد نفذ حين قال :

— ألا ترى أن التعصب الأعمى هو الذى يقود سى موت ؟ ألا ترى أن الهوس الدينى هو الذى يجعله لا يقبل الجدال العقلى ، وهو الذى يدفعه إلى الإندفاع الأعمى فى أفعاله ، ثم يضع لها المبررات ؟ إن كنت لم تر هذا حتى الآن فإما أنك غبى ، أو أنك لا تقل عنه تعصبا ، وهوسا .

فجأة تركني الكاهن وسار متجها إلى داخل المركب ، وكأنما قد ملأه الغضب فلم يثق في الكلمات تخرج متزنة من فمه . واتجهت بدوري إلى قمرتي لأبتعد عن الضوضاء وأفكر فيما قاله الكاهن .

لم يمض على وجودي في القمره أكثر من نصف ساعه حين فتح الباب بلا سابق انذار لتدفعت منه تفنت . وفي اللحظة التالية كانت قد ألقت نفسها على صدري باكية ، وهي تتكلم بصوت أجش تحبسه الدموع .

— لم أستطع أن أنسحب من حضره سمو الأميرة قبل الآن . لماذا لم تخبرني عن حادثة الصقر ؟ لماذا كتمت عني ؟

أخذت أمسح على شعرها برفق ، تاركا لها الوقت لتهدأ ، ولتكفكف دموعها . ولما تماسكت أجلستها على المقعد برفق ، ووقفت أمامها أخاطبها .

— لم أخبرك لأن شيئاً لم يحدث عن يقين . وأحسب أن من نقل إليك الخبر قد بالغ كثيراً .

— إن عمي لا يعتقد ذلك ، وأنا موافقة ، لقد أصبحت طريد آمون وأنبيائه ، بل طريد كافة المعابد ، ربما باستثناء رع .

إذا كنت قد لاحظت تكرارها لأسماء الآلهه ونواجبات التجلة والاحترام فإنني تفاديت أن أثير أي اعتراض ، وإنما اتجه تفكيري إلى تهدئة ثائرتها .

— ألا نراك تبالغين ؟ إنني كاهن رب الأرباب ، وإذا كان هنالك من يعترض على بعض تصرفاتي فإنما هو نيافة النبي الرابع فقط ، هذا مع فرض صحة رأيكما ، ولست أحسب أن النبي الرابع بمفرده ، قادر على أن يضرني كثيراً .

— لكنه حاول قتلك أكثر من مره ، وفي كل مره تفلت من الموت بمعجزة .

— لا يا تفنت . لا أعتقد أن نيافة النبي الرابع قاتل هو متدين مخلص وربما زاد ايمانه على سواه ، ولست أحسبه لا عمل له إلا مجرد التفكير في استبعادي .

وأدهشتني كلمات الفتاة التالية .

— إنك مثل سمو ولي العهد . فهو يهون من أعدائه كما تفعل ، وهو لا يريد أن يقابل شرهم بشر ولا حتى لمجرد الدفاع عن نفسه .

الواقع إنه لم يخطر فى بالى مطلقاً أن أضع مثل هـــذه المقارنة . ولو أن أحدا سألنى قبل ذلك عن أوجه تشابه بينى وبين سمو ولى العهد لا تهمته بالبله ، والغفلة . لـكن كلمات تفنت وضعت أمامى أوجها لم أكن أفـكر فيها . تذكرت مناقشات الأمير عن الدين ، وتذكرت وقفته القوية ضدى حينما إتهمنى بقتل رئيس البحارة . وتذكرت هجومه الباسل على الفهد حينما أوقعنى تحته . لم يظهر أى أثر للخوف فى ذلك الوجه النحيل المريض ، وإنما كان وجهاً هادئاً بسيطاً غير منفعل . إن المرء ليكون فخوراً إذ يقارن بمثل هذا الشخص .

احترمت الفتاه صمتى فتركتنى ، وظلت تراقب وجهى فى محاوله لاستطلاع ما أفـكر فيه .

أخيرا جاء ردى .

ـــ أجل أحسب إنك على حق ، لقد كشفت لى كلماتك أشياء عن سمو الأمير لم تـكن تخطر لى على بال .

إندفعت الفتاه على عادتها فى حماسة غريبة .

ـــ أنك لاتعرفه ، أنه عطوف رقيق متفهم الشعور والإحساس . وهو شجاع لايخاف أحداً ، يدافع عما يعتقد أنه صواب ايا كانت النتائج ، وأيا كانت الشخصية التى يعارضها . لقد رأيته يناقش الفرعون له الحياة والصحة ، فى الدين الجديد حتى كاد الفرعون أن يقتنع . بل إننى رأيته يناقش جلالة الملـكة تى .

لم أتمالك أن ابتسم إذا أنها وضعت الملـكة تى بهذا الشكل فى مكان أعلى من الفرعون دون أن تلحظ . والواقع إننا كنا جميعاً نعرف أن الملـكة كانت أقوى من الفرعون ، وأنها تسيطر عليه حتى فى شئون الملـكية ، وتصريف أمور البلاد . على أننى سرعان ما طرحت هذا التفـكير جانبا إذ كنت أود أن أخاطب الفتاه فى أمر أهم بالنسبة لنا من الملـكه تى وسيطرتها .

ـــ أسمعى ياتفنت ، إن هنالك أشياء يجب أن تعليمها عنى . إن ملاحظة سمو الأمير اليوم قد فتحت عينى على أن حبنا لم يعد سراً . ولهذا يجب أن تـكونى على بينة من موقفى . إن والدى قد خطب لى قبل سفرى نيت أفرت ابنة نيافة النبى رع ور . وهى أيضاً أخت صديق طفولتى وصباى ، واج . إننى لا أحب الفتاة . وهى صغيرة جداً فلا أحسبها تتعدى التاسعة من عمرها ، لـكن هذه رغبة والدى

ولامناص لى من طاعته . ساحاول أن أقنعه بفسخ الخطوبة ، أما إذا أبى فلا حيلة لى ولابد من الزواج منها .

استمعت الفتاة إلى كلامى حتى نهايته بصبر لاينفذ ورأسها مطاطىء فى الأرض وحينما فرغت رفعت رأسها لتصب عينيها على وجهى . لم تكن نظرة فتاة غريرة صغيرة تلك رأيتها وإنما كانت نظرة إمرأة ناضجة مكتملة الأنوثة . ولما تكلمت جاء صوتها هادئا رزينا .

— ومن قال إننى أريد أن أكون زوجة أولى لك ؟ بل ومن إننى أريد أن أتزوجك أصلا ؟

— لكن يا تفنت . . . . . . ؟ . . . . . . . . ؟

يقاطعتنى قبل أن اتم جملتى .

— لحظة واحدة . إذا كان حقا إننى سالقى حتفى قريباً فمن العبث أن نفكر فى الزواج فإنك لن تصب منه إلا الحزن . على أى حال فإننا لازلنا صغيرين جداً ولدينا متسع من الوقت . دعنا من هذا الآن . واخبرنى كيف حال كتفك ! ألم يقل عمى متى سوف يسمح بإزالة الأربطة ؟

— إن كتفى فى أحسن حال ، وإن كان ما يزال يؤلمنى عند الحركة المفاجئة ، وأحسب أن أمامى بضعة أيام قبل أن أعود إلى حالتى الطبيعية . و لواقع أن أصاباتى عموما كانت بسيطة بالنسبة لما حدث .

— هذا حسن لكن لا أحسبه يؤلمك إذا مالاعبتنى دوراً من السنت . لقد قلت لك إننى أجيدها وسوف أهزمك لا محالة .

وهكذا صرفت تفنت الموضوع ببساطة ومرح .

لكننى لم أصرفه . فى الليلة نفسها اتصلت كاـــى بوالدى وأطلعته على جلية الموقف من جميع نواحيه . وبدا لى أبى متفهما أكثر مما كنت أعتقد ، ولعله كان على علم بهذه العلاقة قبل أن أنبئه ، على أى الأحوال فإنه قرر أنه سوف يستطلع رأى سماحة النبي الثانى فى الأمر ثم يعطينى الأجابة .

ولم يطل الموقف بعد هذا ، إذ جاءنى رد والدى فى اليوم الثانى مباشرة . اخبرنى أن النبي الثانى قد وافق على أن أخطب تفنت على أن تكون زوجه ثانية. صحيح أن هذا الزواج لم يكن عاديا بين الكهنة لكن سبق حدوثه . وزاد

والدى على ذلك بأن قرر أنه إتصل بالكاهن رع موسى وطلب منه يد تمنت ، وأنه قبل هذا الوضع .

أخبرت تمنت فرحبت بدورها ، وكانت الأيام التالية بعد ذلك أيام كلها سعـــادة .

كنا نقضى اليوم جميعه سويا ، وشطراً كبيراً من الليل . واتخذنا سمو الأميرين لهما خادنين فكانا يقضيان معظم أوقاتهما معنا ، وتبادلنا الألعاب ، السنت ، والداما ، و « بوتو » «الثعبان»(١) . وتريضنا على سطح السفينة ، وتناولنا الغذاء ، وتجاذبنا الحديث . تكشفت لى شخصية الأميرين فى بساطة خارجا عن المظاهر . وتفهمت طبيعة الأمير السمحة . كانت عقليته جبارة ، وشجاعته لاحد لها ، سواء من الناحية العقلية أو الجسمانية . كان يتقبل النقد بسعة أفق وصبر لاينفذ ، يقارع الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل ، فى هدوء وبلا حدة ، أوغضب أو تعصب . ولست أدرى هل لم تطرأ الفرصة ، أو أنه تجنب عامداً عدم المناقشة فى الدين ، لكن المدة التى قضيناها على السطح سويا لم يحاول فيها أن يعيد مناقشاته كما لم يحاول أن يسألنى إذا كنت قد قبلت أن أكون من ضمن حرسه الخاص . شىء واحد كان يضيع الكثير من محاسنه ، أو لعله كان يجبها جميعا . كان رجلا حالما يبعد عن الواقع . كان يتخيل العالم كله يعيش فى وئام وحب . لافرق بين تامرى وطومياح ( قبائل ليبيه ) ، ورتنو ( سوريا ) ، وحاسوت ( الرعاة ) وشاسو ، وعامو ( الأسيويون ) وميتنو ستت (البدو الأسيويون) ، وكوش ، (الصومال) كانوا كلهم لديه سواء . كان يقرر أن المرء سواء فى الحياة أو ما بعدها باخلاقه ، وأفعاله ولا أثر مطلقا لحسبه أو نسبه . وحتى الفرعون كان أمام محكمة أوزيريس شأنه شأن أى كوشى . لايجب أن يكون هنالك سفك دماء إذ لايجوز إخضاع بشر لآخر بالقوة . وإنما يجب أن يحل الوفاق والتآخى مكان الحرب والاخضاع ، والسيطرة . كان يحلم بعالم لا وجود له ويكفى أن نتصور أن قبائل الطومياح سوف

---

(١) السنت لعبة أشبه بالشطرنج ، والداما هى اللعبة المعروفة الآن ، وبوتو أو الثعبان هى لعبة كانت تلعب على رقعة مستديرة تمثل ثعباناً ملتفاً حول رأسه فى الوسط كما أن هنالك ستة قطع للأسود ، ثلاث أناث وثلاثة ذكور .

توقف من غاراتهم المتعددة على تامرى ، أو أن العابيرو سوف يتخلون عن خستهم ولؤمهم ، حتى ليضحك أى شخص عملى من تصورات الأمير واحلامه .

لم يكن من شك لدى فى أن الأمير شخص حالم ، وهو بهذا سوف يكون ضعيفا كحاكم . وهنا بدت لى بجلاء حكمة آى حينما قرر مدى الانقسام والضعف الذى سوف يحل بتامرى إذا ما ارتقى الأمير العرش . إن الأعداء تحوط بتامرى من كل مكان ، وقد بادلوها العداء منذ مئات ، بل آلاف السنين ، ولولا قوة جيش تامرى وحكامها لانتهت الدولة لتكون مجرد مستعمرة لأحدهم يعبث فيها الفساد .

بالرغم من هذا فإن سمو الأمير كما ذكرت كان شخصاً محبوباً لا يستطيع المرء الا أن يعجب به . حتى أراؤه ، على ما يخالطها من أحلام ، كانت جميلة لعالم من الفردوس ينتقل إليه المستمع لينسى الحروب والأوبئة والمجاعات ، ويرى التعاون، والتآخى ، والتسامح .

عالم يتسامى حتى على الآلهة الذين تقاتلوا وحاربوا بعضهم . ألم يقتل الرب ست آخاه أوزوريس وقطع جثته وبعثرها فى الأقاليم الاربعة عشر ؟ ألم يحاول حورس الإنتقام لأبيه من عمه ودار بينهما قتال استمر أعواماً طويلة ؟ ألم تساعد الربة العليا لها السناء والجلالة ، إيزيس ، ابنها حورس فى قتاله مع عمه ست بطرقها السحرية ودهائها وذكائها ؟ أجل ان سمو الأمير يريد بالبشر أن يسمو حتى على مرتبة الآلهة ؟

وقطعت تفنت حبل أفكارى .

— أجل يا كاى إن سمو الأمير يريد أن يسمو بالبشر حتى على آلهتك ؟

كنت قد استرسلت فى تفكيرى وأنا واقف عند مكانى المفضل ولم اشعر باقترابها منى . وفوجئت بالجملة ، فالتفت إلى الفتاة غاضباً .

— لا لا تظن أننى قد استعملت الرؤية بطريقة غير مشروعة أتلصص على عقلك ، لكن يبدو أن شيئاً آخر لا املك التحكم فيه يجعلنى اقرأ أفكارك لا أدرى ما هو ، وإنما يخالجنى شعور بما فى عقلك دون أية محاولة منى لمعرفته .

تحول غضبى إلى تعجب .

— هل تعنين بذلك أنك تستطيعين دون محاولة الرؤيا معرفة مايدور فى خلدى؟

— أجل . لكن ليس دائماً .

— وهل تشعرين بذلك مع كل الناس ؟

— لا أدرى . احياناً فقط يخالجنى هذا الشعور .

— دون أن يحاول الشخص نقل أفكاره إليك !

— أجـــل .

— إذاً فليس هذا هو التخاطر !

— لست أدرى ما هو التخاطر !

— هو نقل الأفكار بين شخصين أو اكثر دون وساطة الإشارات أو الكلام ولو لم يجمعهم مجلس واحد . أعنى ولو كانوا متباعدين . وهو أحد الأسرار العليا التى نتلقاها . ولكن هذا لا يتم إلا برغبة كلا الطرفين ، وهو قطعاً ليس ما تدعينه .

— ربما كان نوعاً من الاستشفاف .

— أجل لقد سمعت عن هـــذا ، وسمعت أن بعض الأشخاص يمكنهم التنبؤ بالأحداث القادمة دون أية معونة من طقوس أو عزائم ، أوفلك او غير ذلك وإن كان هذا النوع خارجاً تماما عن وسائل العلم التى تعرفها بل أنه لم يرد لنا عنه شيء من أجدادنا السالفين .

وقطع علينا حديثنا صوت سمو الأمير وهو يدنو مصاحباً زوجته الجميلة .

— آه هذا أنتما ! هل منكما من يعرف أين نحن تماماً ؟

انحنيت للأمير ، فى حين ركعت الفتاة تحييه ، لكن ولى العهد أشار إليها بيده . . . فاعتدلت فى وقفتها ، وأجبت الأمير .

— أعتقد يا مولاى أننا تركنا ساووت(اسيوط) وحات نوب (ابنوب) مما يجعلنا قريبين جداً من كست . . . ( القوصية ) .

وبان القلق على الأمير وهو يتكلم

— إذاً فليس بيننا سوسونى ( الأشمونين ) سوى يومين أو ثلاثة .

ولم أدر سبباً للتوتر والعصبية اللتين كان يتكلم بهما الأمير ، وإن كنت لاحظت نظرة القلق التى تبادلتها الأميرة وتفنفت ، وكأنهما تودان لوأن الأمير قد اتجه فى حديثه إلى ناحية أخرى .

— أجل يا مولاى ، هذا إلا إذا رأى جلالة الفرعون ، له الصحة والحياة والرفاهية أن يتوقف فى كست قليلا فهى عاصمة الاقليم الرابع عشر كما تعلمون .

لم يترك القلق واللهفة الأمير حتى وهو يبدى ظاهرياً عدم اكتراثه ، وكأنما هو يريد أن يوهمنى أن الحديث كان لمجرد التسلية . ولم تفتنى كذلك نظرة الإرتياح التى تبادلتها الأميرة مع الفتاة . وبدأت أعجب من السر الذى يكمن وراء تلهف الأمير على الوصول إلى سوسونى ، وإلى الإرتياح الذى بدا على المرأة ، والفتاة عند ما إنتهى الحديث .

لكن الحديث فى الواقع لم يكن قد انتهى ، فقد اقترب فى هذه اللحظة شبح سرعان ما اتضح أنه نيافة الكاهن رعموسى ، وحينما أدى تحيته كان أول ما نطق به الأمير هو سؤاله عن موقفنا وأجاب الكاهن فى تؤدة بدت لى أكثر مما يستدعيها المقام .

— أننا سنصل إلى كست فى الصباح الباكر يا مولاى وإننى أعلم أن جلالة الفرعون له الصحة والحياة والرفاهية ، قد أمر أن نقف بضعة ساعات فحسب ريثما يتم تموين السفن بالمياه العذبة ثم نواصل السير فى عصر اليوم نفسه .

لم تزايل اللهفة الأمير وهو يسأل الكاهن . وبدا على وجهه الانفعال حتى أنه خيل إلى انه قد نسينى تماماً ،

— وهل اتممت حساباتك ؟

— أجـــل يا مولاى .

— وتستطيع أن تحدد لى تماماً البقعة التى طلبتها منك ؟

بان التردد على الكاهن ، ونقل نظره من وجه الأمير إلى وجهى ، ثم رده ثانية إليه وكأنما لينبهه إلى وجودى، وأحسست فجأة أنى غير مرغوب فى بقائى فتدخلت فى الحديث مستأذناً فى الإنصراف محتجاً بأن لدى بعض الكتابة فى مذكراتى ، وأشار إلى الأمير بالموافقة فأحنيت رأسى له ثم إلى الأميرة وتفنت ، واستدرت تاركا الأربعة . وسمعت الأمير يكرر سؤاله قبل أن أبتعد تماماً .

لم أنم كثيراً فى هذه الليلة ، فبعد أن أديت فروض الصلاة والدعاء لرب الارباب دخل خندو يحمل صحاف الطعام فرفضت . وتناولت بعض الفاكهة ، ثم أويت إلى فراشى . ولم يوافينى النوم لمدة طويلة إذ ظللت أفكر فيما قاله سمو

ولى العهد ، وفى معنى النظرات التى تبادلتها الأميرة والفتاة . ولعلى شعرت ببعض خيبة الأمل لأنه كان من الجلى أن تفنت ( تخفى ) عنى سراً ، لكننى سرعان ما طرحت هذا الشعور جانباً ، وأوليت إهتمامى لكلمات الأمير . لم أكن أريد فى الواقع أن أتطفل على سر لم يرغب صاحبه فى اطلاعى عليه . لكن يبدو أنى شعرت فى هذا بامتهان لكرامتى مما دفعنى لأن أمعن التفكير .

إن الأمير كان يتكلم عن بقعة طلب من الكاهن تحديدها ، فهى إذا بقعة من الأرض يجب أن تحدد فلكياً . وهى بقعة قريبة من سوسونى ( الأشمونين ) فقد كان سؤاله عنها . إلى هنا والأمر جلى . لكن لماذ يسأل الأمير عن قطعة من الأرض تحدد فلكياً ؟ هل ليقيم عليها معبداً لآتون ، أو ليبنى عليها قصراً له ؟ أم أن هناك هدفا آخر ؟ . إن بناء المعابد ، وقصـــور الفراعنة يتم دائما بعد حسابات فلكية دقيقة : لكن ما السر فى هذا ؟ ولماذا لا يريد الجميع أن يخبروه عنى ؟ لم يكن هنالك شك لدى أحد فى تامرى أن الأمير قد إنتحل ديانة جديدة وهو حر فى أن يبنى معبده فى أية بلد يشاء فلماذا الغموض إذاً ؟

وكلمح البرق خطر فى بالى خاطر . هل يمكن أن يكون هدف الأمير هو بناء عاصمة جديدة للملكة ؟ هل يمكن أنه يهدف إلى القضاء على عبادة رب الارباب عن طريق نقل العاصمة الثانية إلى المدينة بعيدة عن محيط تهنىء ؟ إن هذا يفسر عدم رغبته فى إذاعة السر حتى يتخذ جميع الإجراءات اللازمة ، وحتى يكون قد إعتلى العرش فعلا . فهو بهذا يؤجل ما يمكن أن يتخذه أنبياء رب الأرباب من إجراءات مضادة حتى يفاجئهم بالأمر الواقع .

أمضيت بعد هذا فترة طويلة فى فراشى أقلب الأمور على أوجهها ، وكلما أمعنت التفكير ، كلما إزددت اقتناعا بصحة الرأى الذى انتهيت إليه . ولم أكن أتصور المدة التى قضيتها فى التفكير حتى لاحظت أن الحركة على السفينة قد هدأت تماما ، وبدا أن الجميع قد آووا إلى فراشهم . ولا بد أننا كنا قد تخطينا الساعة السابعة مساء ( الواحدة صباحاً تقريبا بتوقيتنا الحالى ) حينما أطفأت السراج وبدأ النوم يداعب جفونى .

لكن لم يكن قد قدر لى أن أنام بعد ، فقد فتح الباب بشدة واندفع منه شبح ضخم لم اتبينه فى مبدأ الأمر على ضوء بصيص ضوء القمر الخافت الذى

كان يدخل من كوة القمرة . قفزت من فراشي وامتدت يدى بسرعة إلى الخنجر الحديدى الملق إلى جانبى ، وانتحيت فى أكثر أركان القمرة إظلاما متأهبا لأن أغمده فى صدر الدخيل .

لم يتجه الشبح إلى الفراش كما كنت أتوقع . بدلا من هذا أخذ يأتى بحركات غريبة كأنما هو يتلوى من ألم هائل ينتابه . بدا كأن هنالك من يدفعه رغم أنفه إلى الفراش فى حين كان يقاوم بشدة فى كل خطوة . وفى أثناء حركاته الغريبة سقط شعاع القمر على وجهه . وإنتابتنى الدهشة فسمرت فى مكانى . كان الدخيل هو خندو عبدى الأمين . لكن أى خندو ؟ لم يكن وجه ذلك الوجه الأسمر السمح الجميل الذى يشع من عينيه فيض المحبة والولاء ، وإنما كان وجها تتلاعب قسماته بشدة ، وقوة . إتسعت حدقتا العينين حتى لاح بياضهما الناصع أكبر من حقيقته ، كأنما العينان ملؤها الرعب والألم .

لم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد التوت الشفتان الغليظتان فى حركات عصبية وسال منهما زبد أبيض . لاح أن الرجل يريد أن يقول شيئاً دون أن تكون لديه الإرادة الكافية لتحرك لسانه ، وشفتيه الحركات المطلوبة . ولم تكن اليدان أحسن حالا ، كأنتا متقلصتين فى عصبية واضحة ، وبدت العروق بارزة نافرة ، وتحجرت عضلات الساعد ، حتى أخذت أقصى تكورها .

كانت الثوانى تمر وكأنها دهور وأنا أرقب عبدى الأمين مشدوهاً مما أرى واستمرت حركات جسمه ، ووجهه الغريبة بل لعلهـــا إزدادت شدة فى الثوانى الأخيرة . وفجأة اخترق فحيح غريب سكون الليل . فحيح لم أتبين فيه صوت تابعى الأمين ، فلم يكن بين الصوتين علاقة . كانت الشفتان تتحركان كمن أصابه شلل ، والتوت الرقبة فى وضع غير طبيعى مما جعل الرأس تكاد أن تأخذ وضعا أفقياً ، ودار إنسانا عينيه وسط البياض الناصـــع . وبدا من الجلى أنه يبذل مجهوداً جباراً حتى يستطيع أن يخرج كلمات مفهومة .

— سيدى أهرب أو قتلنى . . . . . . لقد ركبنى الشيطان . . . . . .

كان فحيحاً خافتا لا يكاد أن يسمع صدر فى تمتمات لم يكن من الممكن أن تفهم لولا السكون المطبق على السكون .

وانقشعت غشاوة الدهشة من عقلى ففهمت . إن سى موت لم يزل يحاول

قتلى وقد اختار فى هذه المرة أحسن وسيلة لبلوغ مأربه ! يالعبدى المسكين . إنه لم يكن يعرف شيئاً من العلوم الخفية فكان فريسة سهلة فى يدى النبي الرابع الذى بلغ أعلى شأن فى المعرفة والعلم . وسيطر النبي على العبد المسكين سيطرة كاملة ، على روحه ، وعقله ، وإرادته ثم دفعه إلى قتلى . لكن النبي لم يحسب حساباً لمدى الولاء، والحب الذى يكنه العبد لى ، هذا الحب الذى جعله يقاوم ، ولست أدرى كيف ، كل إرادة النبي ، ووراؤها كل علوم الأقدمين .

أحسست بتقدير وإجلال عظيمين لعبدى الأمين . لو أن النبي أراده أن أن يلقى بنفسه إلى التهلكة لما تردد لحظة . لكنه حينما أراد منه أن يقتلنى أبدى ، وما زال يبدى ، كل هذه المقاومة ، ولم أطل التفكير بعد هذا . كان لا بد أن اسرع لنجدة صديقى ، فلو ترك على حاله مع صراعه الداخلى فإما أن يقتل نفسه أو تصيبه لوثة ؟ أو ينهار جسمه كلية ويفقد صحته تماماً .

لم يكن كل هذا قد أخذ إلا لحظات لا احسبها تعدو الدقيقة فى مجموعها . وكانت العين ، ووراؤها العقل ، قد سجـــلا هذه المشاهد والأحاسيس بسرعة خاطفة حتى انى لم أتبين دقائق الموقف إلا حينما بدأت أسطر ، واضطررت أن أستعيد الوقائع بتفصيلاتها .

كان على أن انقذ عبدى الأمين فى خـلال ثوان معدودات . ومعنى هذا أنه كان على أن افصل كا ـ ى لأطلقها تحارب كاسى موت . وفى نفس الوقت كان على أن أكون حذراً حتى لا يفلت الزمام من يدى خنـدو فيقتلنى رغم أنفه . كنت أعلم انى لست نداً لسى موت فى أحسن حالاتى ، أما وانا مشتت بينه وبين خندو فلا شك أنى لن أزيد على العوبه يلهو بها . لم يكن عندى سوى ثوان لأستقر على رأى ولم أكن فى الواقع أحتاجها .

فى لحظات اندفعت كا ـ ى كالشهاب لنجـــده عبدى ، لا بل صديقى . رأيت أن سى موت قد إلتف كا ـ ف كالظلام يحتويه كاملا . واستعان النبي بـ آب ـ ف(١) ليخضع « با » خندو، فكان العبد طوع بنانه يسيره كيف شاء . والتفت كا ـ النبي إلى كا ـ ى لير اها تندفع محاولة اختراقه والوصول إلى كا خندو. إزداد تركيز الظلام . ورأيت عبدى المسكـين يقع على الأرض وهو يتلوى ،

---

(١) ف . ضمير الغائب . . . . . . ى ، ضمير المتكلم .

فضاعفت من جهودى حتى بدأت أفلح فى إخـــتراق السواد المعتم .

فجأة غير النبي من خطته ، وجدتني أخترق الدياجير فى يسر . ومع أنه قد خطر فى بالى أننى ربما أكون قد خدعت ، إلا أننى لم أجرؤ أن أتراجع أو أناور وأحاور . كنت أخشى على عبدى ، وصديقى من الثوانى القاصمة ولهذا سرنى نسبياً أن النبي قد ركز جهوده على كا - ى . وتركنى سى موت أتوغل مخترقاً ما اختاره لنفسه من ظلام حتى وصلت إلى منتصفه تقريباً ، ثم ، . . . إشتد التركيز حتى لم أستطع التقدم ، وبدأت الحلقة تزداد ضيقاً ، وتركيزاً وشعرت أنها بدأت تضغط على ، بدلا من أن اخترقها .

لم أكن بالفريسة السهلة فعلى قدر خبرة سى موت وقدرته ، فإنى كنت أمتاز عنه بصغر سنى ، وقوتى البدنية ، أستمد منهما سخم ( القوة الحيوية ) . ولست أدرى يامن سوف تقرأ هذه البردية من ستكون ! فان كنت منا فسوف تعلم مدى ما يمكن أن يصل إليه القتال من وحشية وضراوة ، وسوف تقدر مدى حكمة أسلافنا فى تحريم استعمال الأسرار العليا فى المسائل الشخصية ، فهى قوى رهيبة تفوق إلى حد كبير إستعمال أشد الأسلحة فتـــكاً . إنها لا تقتل خات ( الجسم العادى ) فحسب ، لـكنها تمزق با ( النفس ) ، وسخم ( القوة الحيوية ) وآب ( الإرادة ) ، بل آخ ( الروح ) ذاتها . أما إذا كنت يا من تقرأ ، ولا تعلم شيئاً من الأسرار العليا فانك إذا تصورت ثعباناً هائلا يلتف حول نسر ، ويضغط عليه بقوته الفائقة يشل بها حركته ، وإذا تصورت النسر يقطع جسد ثعبان بمخالبه تارة ، وبمنقاره أخرى ، إذا تصورت مقدار شراسة هذا الصراع ثم ضاعفته عشرات المرات ، فربما أمكنك أن تصل إلى تقديره .

تماماً كالثعبان الهائل بدأت كا - سى موت تلتف حول كا - ى . وكالنسر شعرت بمدى قوة الضغط .. فأخذت أمزق كا - ف . وعلى قدر مقاومتى المستميتة كان الضغط على يزداد . . ببطء ، لـكن فى ثقة . كان الثعبان يتحمل ما يصيبه من النسر من تمزيق . لـكنه يستمر فى التشديد ، والضغط ، يخرج الهواء من رئتيه ، ويمنع دخوله ثانية . ولم تـكن هنالك رئتان ليخرج منها الهواء ، وإنما كانت البا ( النفس ) تعصر من الـكا . . وتستنزف سخم ( القوة الحيوية ) شيئاً فشيئاً

علمت أن النهاية قد قربت ، وانني لن أستطيع الاستمرار فى المقاومة مدة طويلة بعد هذا .

سمعت أن الأسلاف كانوا يقولون إن الذى يموت يرى حياته جمعاء تمر أمامه فى لحظات . وهذا حق . فى برهات قلائل قفزت الأحداث والأشخاص أمامى . رأيت والدتى ، ووالدى ، وإخوتى وشاهدت تفنت تبتسم لى . وظلت الحوادث تتابع فى سرعة مذهلة ، ومع ذلك فإنها كانت واضحة جلية لاشبهة فيها ، بل اننى أستطيع أن أقول انها كانت تمر بتأن متعمد . قد يبدو أن فى هذا القول تناقضاً لكنه الحق ، وما كان ربيب معات (الهه الحق) أن يقول غيره ، أو أن يحيدعنه

لم تستمر هذه الحالة طويلا ، وما كان لها أن تستمر ، فقد رأيت شهاباً آخر يندفع نحونا يمزق الظلام الدامس تمزيقاً . وفى اللحظة التالية إختفى الظلام وظهرت كا رعموس.وهمس إلى الـكاهن، بلاصوت كما تخاطب كا قرينتها الأخرى.

— إتبعنى يا كاى سنلقنه درساً لن ينساه لكى يفكر مرتين بعد هذا قبل أن يقدم عـلى مثل فعلته .

لم يتوقف كا الكاهن ، وإنما إندفع كالبرق الخاطف ، وإندفعت وراءه . هل شاهدت ذات ليلة . . مارقا أشد سواداً من ظلمة الليل يتبعه شهابان يلتمعان ؟ هل رأيت أرنباً برياً تطارده كلاب الصيد ، إن كنت قد فعلت فيمكنك أن تتصور كيف كانت المطاردة . عاليا طارت كا سى موت ، . . وعاليا أتبعتها كا ـ ناى (١). فى برهات معدودات كانت السفينة قد إختفت وبدا النيل (حابى) كشريط رفيع يتلوى وتتلألأ صفحته، واتسع أفق الرؤيا حتى ضاعت معالم الأرض فلم يبق منها سوى الشريط الأخضر حول حابى ، وسلاسل الجبال إلى الشرق ، والرمال الصفراء إلى الغرب . ولم أكن أتصور إلى أين يرميد سى موت أن يذهب فهو فى صعوده لا بد له أن يهبط ، فهنالك المنطقة المحرمة التى لا تستطيع الـكا أن تتعداها إذ هى من إختصاص ساهو ( الجسم الروحانى ) وآخ ( الحالة الروحانية بعد الموت )، فحسب، أما الكا فمكانها الأرض إلى جانب خات (الجسم المادى) لا تستطيع أن تبعد عنه كثيراً لا فى المسافة علوا إلى نوت (السماء) بعيداً عن الأرض ، ولا فى الزمن .

---

(١) ضمـــير المثنى المتكلم .

لكن كا سى موت لم يتوقف عن الصعود إلى أعلى . كان يعلم أننا لو لحقناه فسوف نشطر كا ـ ف ، ومعنى هذا أنه سوف يصاب بالمرض . قد يشل أصبعه وقد يجن . وقد يقضى حياته أبدا لا يعى . لم نكن نعلم تماماً ، ولم يكن هو يعلم ، لكنه لم يكن مستعداً لأن يقضى بقية حياته قعيدا ، ولهذا سهلت عليه المجازفة وفجأة أشار إلى كا رع موسى أن أتوقف ، ولما فعلت ، تناهت إلى كلماته .

— إننا نقف تماماً عند الحاجز . أما كا سى موت فقد اخترقها . دعه لمصيره لقد دخل إلى مجال آخ . حتى إن عاد منها فلن يكون سليما . وسيكفينا هذا مئونة التفكير فيه على الأقل لأشهر قادمة . دعنا نعود إلى السفينة .

عدت إلى قمرتى . كان خات ـ ى ( جسمى ) ملقى على الأريكة فى أقصى القمرة . وتحت قدمى جلس خندو يتصبب عرقاً . ويدلك فى قدمى ، وسائر أطرافى . كان العبد الأمين يظن أنى قد أغمى على . ربما من الرعب ، أو ربما لأنه ظن أنى قد أصابنى سوء . وحينما حلت كا ـ ى فى خات ـ ى وبدأت أتحرك كاد المسكين أن يجن من فرط سروره . تكلمت .

— أأنت بخير يا خندو ؟

نظر إلى خندو وكأنه لا يصـــدق أنى أنا الذى أسأله عن حاله . كان المفروض بالنسبة له أنى كنت فاقد الوعى . ومن الجلى أنه لم يكن يعلم تماماً ما الذى أتى به إلى قمرتى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، لكنه لم يكن يفكر فى هذا فالمهم بالنسبة له أنه أتى ، وأنه رآنى فى حالة إغماء ملقى على الأريكة بعيداً عن الفراش ، وقد ظل دقائق يحاول فيها أن يعيدنى إلى رشدى ، وها أنذا أسأله إن كان هو بخير .

— إنى بخير يا مولاى ، لكن كيف حالك أنت يا سيدى ؟

وتظاهرت بالتثاؤب وأنا أجيبه فى عدم اهتمام .

— أحسبنى فى أحسن حال . قم أنت إلى فراشك الآن .

تثاقل خندو ومترددا ، لكنه ما لبث أن قام وانسحب من الحجرة . ولم يمض دقائق بعد هـذا إلا وسمعت طرقات خفيفة على الباب ، وحينما فتحت دخلت تفنت وهى ترتدى غلالة رقيقة بيضاء .

— كاى حمدا لله على نجاتك . إنى كدت أموت فرقا أن يتأخر عمى عنك .

سألتها متعجباً .

— وكيف علمت ؟

— لقد أخبرتني أنت . ألم تأتى إلى مستنجداً ؟

إزدادت دهشتى .

— أنا ؟ كلا . لا أذكر أنى إستنجدت بك .

— لكنك فعلت . لم تكن كافـ ف التى أتت ولكن خوـ ف . لا شك أنه يأتى ولهذا أسرعت بالإستنجاد بعمى .

تذكرت إننى حينما كنت قاب قوسين ، أو أدنى من الموت ، طارت أفكارى إلى والدتى ، ووالدى ، وتفنت . ولا شك أن الرابطة الروحية التى ألفت بينى ، وبينهما ، هى التى نقلت إليها الخطر الذى كنت أتعرض له . واجبت ببطء .

— أجل أحسب أنى استنجدت بك .

وفجأة شعرت بتعب شديد، وبرغبة ملحة فى أن أخلو إلى بنفس، وأن استلقى على فراشى لأريح جسدى المكدود . أخذت الفتاة بين ذراعى ، ورحت أمسح على شعرها الناعم فى حين وضعت رأسها على صدرى فى إستكانة ، ودعة . كانت هذه هى وسيلتى فى شكرها . وكانت هـذه هى وسيلتها فى . . . إظهار سعادتها بإنقاذى . مضت لحظات ونحن على هذه الحال . وأخيراً همست فى أذنها .

— هل تسمحين الآن يا تفنت . إننى متعب وقد ذهب من الليل أكثره .

هزت الفتاة رأسها ايجاباً ثم رفعت فمها إلى وطوقت عنقى بذراعيها فاحنيت رأسى أقبلها وأتمنى لها ليلة سعيدة . وبعد لحظات كانت قد تركت القمرة وكنت مستلقياً على فراشى مجهداً .

حينما استيقظت فى صباح اليوم التالى كان خبر ( شمس الصباح ) قد بزغ منذ ساعات . لاحظت أن السفينة تكاد أن لا تتحرك . وتناهت إلى سمعى أصوات كثيرة ، وهتافات فعلمت أننا قد بلغنا ساووت (أسيوط) ولا بد أن حاكم المدينة قد خرج مع الحاشية لاستقبال الموكب الفرعـــونى ، وأن الأهالى قد تجمعوا بزوارقهم ، وقواربهم ، يحيون فرعونهم ويهتفون بحيانه . ولم أكن أريد أن أخرج من القمرة فتثاقلت فى حركاتى . وحينما دخل خندو حاملا أدوات الغسيل إعتنيت أن أزيد نظافتى ، وأمرته أن يكرر حلاقة رأسى وذقنى .

تناولت طعام إفطارى بشهية لم أكن اتوقعها إذ شعرت بجوع شديد لا بد أنه نتيجة المجهود الجبار الذى بذلته فى الليـلة الماضية . وأدهشنى أن تفنت لم تحضر لرؤيتى على غير عادتها ، ولما سألت عنها خندو أجابنى بأنها تلازم حجرة عمها الذى يبدو أنه أصيب بوعكة خفيفة .

أسرعت فى استبدال ملابسى وأنا ألوم نفسى أنى لم افـكر فيما قد يـكون اصاب أستاذى الاول ، خاصة وأنه كبير السن ولا بد أن المجهود الذى بذله لينقذنى فى الليلة الماضية قد أنهكه . هرعت خارجا من القمرة ، وسرت فى ممر السفينة حتى وصلت إلى قمرة الـكاهن ، وحينما طرقت الباب كان صوت تفنت هو الذى أذن لى بالدخول .

دلفت إلى الداخل فالفيت الـكاهن مستلقياً على فراشه وقد جلست الفتاة إلى جواره تسقيه عصيراً فى كوب ذهبية . ألقيت عليهما تحية الصباح ، وتبسم الـكاهن إبتسامة باهتة بينما إستقبلتنى تفنت ببسمتها العريضة المملوءة حيوية ونشاطاً وأشار إلى أستاذى أن اجلس ففعلت ، وحينما سألت عن صحته أجابتنى تفنت أنه بخير ، إلا أنه قد أرهق من ليـــلة البارحة . والتفت إلى أستاذى السابق أخاطبه .

— سيدى لست ادرى كيف اشـكرك على إنقاذك لى . ومما لا شك فيه أنى لو كنت تركت لشأنى للقيت حتفى .

حينما تـكلم الـكاهن كان صوته ضعيفا .

— بل أشكر الصغيرة فهى التى هرعت إلى .

وعلى حين غرة رنت ضحـكة الفتاة تملأ جوانب القمرة .

— أتعلم يا كاى أن سى موت مريض جداً ، وانه لا يستطيع أن يحرك نصفه الأيسر كله . لقد عاده الأطباء صباح اليوم وهم يقولون إنه سوف يشفى لـكن بعد سنة على الأقل وأن ابنه خع باوو قلق .

التفت إليها مندهشاً ، لـكنها أجابت قبل أن أطرح سؤالى

— أجل انى من الرائين ، ونحن ممنوعون من استعمال الرؤيا فى المسائل الشخصية ، لـكننى لم أستطع أن أقاوم فضـــولى . ولعل أسلافنا الأقدمين يقدرون فضول المرأة .

شاهدت الكاهن يبتسم وهو ينظر إليها بحب وعطف ولم أملك نفسى أن تنفرج شفتاى .

وصلنا إلى كست ( القوصيه ) قاعدة القسم الرابع عشر من تامرى . ووقفت السفينة تعيد تموينها من المأكل والشراب والميـــاه . وكانت المواكب المعتادة والهتافات . فانتهزت الفرصة فإنتقلت إلى سفينة البضائع والحيوانات لأطمئن على « كـم » جوادى الحبيب . وما كاد يرانى حتى بدت على وجهه علامات السرور والفرح ، وراح يضرب برجليه فى الأرض الخشبية وحينما قربت منه ومسحت بيدى على أنفه قرب رأسه منى فى إستكانة ، وكأنما يشكو من سجنه .

مكثت معه أطول فترة ممكنه واطمأنيت على إنه يلقى الرعاية الكافية . وحينما حان الوقت تركته مرغما لأنتقل إلى سفينة ولى العهد . وقبل أن ينتقل أتوم إلى الغرب ( تغيب للشمس ) تحرك الركب الفرعونى متجهاً إلى شمون أو سسونى ( الأشمونين ) مدينة الالهة الثمانية .

كانت الأحوال قد عادت إلى طبيعتها بعد تلك الليلة المشئومة ، فقد أبل الكاهن من وعكته واسترد صحته تماماً فى حين أنى عدت لسابق نشاطى وقوتى بل إن كتفى الأيمن عاد إلى حالته الطبيعية ولم أعد أشعر بأى ألم من حركته . رجعنا إلى سابق عادتنا فى مجالسة الأميرين ، والوقوف معهما على ظهر السفينة ، وكثيراً ما كان الكاهن يرافقنا سواء فى التريض أو الوقوف .

كانت محطتنا التالية شمون أو سوسونى ( الأشمونين ) حيث أبدى الفرعون له الصحة والحياة والرفاهية رغبته فى أن يزور معبد الإله تحوت وأن يتعبد للآلهة الثمانية (١) ويرى معبد القطط « بس » .

وحينما لاحت لنا مبانى شمون ـ سوسونى ، وبدأ النيل يمتلىء بالقوارب والزوارق التى أتت لتستقبل الركب الفرعونى ، سمعت حديثاً مقتضباً كان له أكبر أثر على مستقبل تامرى بأثرها . كنا نقف على الجانب الشرقى للسفينة نحن الأربعة

---

(١) الآلهة الثمانية هى نون وانثاه نونت ، وحوح وأنثاه وحوحيت ، وكوك وانثاه كاوكت ، وآمون وانثاه أمونت . وهناك أيضاً التاسوع وهو أتوم ثم شو وتفنوت . وجب ونوت ، وأوزوريس وايزيس ، وشت ونفتيس .

سمو ولى العهد وقرينته ، وتفندت وأنا نتسامر على عادتنا حينما اندفع نحونا فجأة الـكاهن رعموسى وقد لاحت عليه علامات الانفعال الشديد . ولم يبد على الـكاهن أنه لاحظ وجودى إذ تقدم نحو الأمـــير وهو يشير إلى الجبال على شاطىء النيل الشرقى .

— هنا يا مولاى . هنا تماماً .

لاح كأنما كان الإنفعال داء وبائياً إنتقل من الكاهن إلى الثلاثة الآخرين ، لـكن الأمير كان أسرعهم فى السيطرة على أعصابه ، إذ سأل الكاهن فى هدوء عجيب وهو يتفرس فى وجهه .

— أأنت متأكد ؟

— لا شك عندى مطلقاً يا مولاى .

تحول الأمير عنه ونظر إلى الشاطىء والجبـال فى نظرة حالمة . أدرت وجهى بدورى عسى أن أتبين سبب هذا الانفعال فلم أر سوى شاطئا مهجوراً لانبات فيه ولا زرع ، يمتد موحشا حتى يلتقى بسلسلة الجبال العالية الـكئيبة . ولا شىء سوى هذا . وكنت على وشك التساؤل حينما قال الأمير هامسا حالما .

— هنا ، حيث لا نبات ولا زرع ، حيث لا يمتلك إنسان أو رب ، هنا فى الوسط تماماً سوف تكون مدينتك . أى آتون هنا سماؤك ، هنا أفقك وحدك دون سواك ، هنا أخت آتون .

# الفصل الخامس عشر

## نيوت نحح ... المدينة الأبدية

لم يكن خبر ، شمس الصباح ، قد لاح حينما استيقظت من نومى على أصوات هرج على السفينة . كان يبدو أن البحـارة منهمكون فى أعمال مبكرة على خـلاف العادة . تحركت من فراشى وناديت على خندو ، ولم تمض لحظات حتى كان العبد الأمين يطرق على الباب مستأذنا فى الدخول .

فرغت من زينتى الصباحية وعبـادتى لرب الأرباب ، وتعجلت فى تناول إفطارى . وحينما خرجت إلى السطح كانت أشعة خبر تملأ الـكون بهجة وحيوية . ولم أكن أنا الوحيـد الذى بكر فى النهوض إذ أننى وجدت تفنت وعمها نيافة الـكاهن ، يقفان عند المقدمة ، وقد اتجه ناظراهما نحو دجتى (الشمال) .

لم يشعرا بقدومى حتى ألقيت عليها تحية الصباح ، فألتفت إلى تفنت مبتسمة ، ووجهها يشع حيوية وسعادة واستقبلتنى ببسمة أرسلت الضياء إلى قلبى ، فى حين رد على أستاذى السابق بتؤده . وتكلمت الفتاة .

— أنظر يا كاى . هناك على يسارك قليلا تجد ساكت (سقاره) . هل ترى أهراماتها المدرجة ؟ وإلى الشمال قليلا تستطيع أن ترى مبانى نيوت . وأجمل من هذا كله أنك تستطيع أن ترى الأهرامات الثلاثة الـكبرى . وسوف نصل هناك عندما يعتلى رع (شمس الظهر) كبد نوت (السماء) .

أجلت طرفى فى الأفق الممتد أمامى . والواقع أن المنظر الذى قابلنى كان رائعا بمعنى الـكلمة . فعلى إمتداد النظر كانت حنقت (سيده ماء النيل — ويرمز لها بالغزالة) تبارك حابى (النيل) ومياهه المنسابة فى روعة وتؤده . وعلى جانبى حابى إنتشرت الخضرة تخفى عن العين رمال الصحراء . وفى وسط الحقول ، وعلى ضفاف حابى تناثرت المنازل ، والقصور البيضاء .

وفى أقصى الشمال بدأت تظهر مبانى نيوت ، المدينة ذات الأسماء الثلاثة ، عنخ

تاوى حياة الأرضين ، ونيوت نحح المدينة الأبدية ، أو نيوت ، المدينة فحسب. كانت هذه هى المرة الأولى التى أزورها فيها . وإذا كانت واست (تهنى) طيبة ، تفخر بأنها مدينة آمـون ، فان نيوت لتفخر أيضاً بأنهـا تضم رع ، وإذا إدعت واست أنها مركز إشعاع حضرى وأن بها آثار الفراعنة العظـام ، ومقابرهم فان نيوت أيضاً كانت تفخر بأنها ظلت لآلاف السنين ترمز إلى أمجاد تامرى (مصر) ، وكفاها فخراً أن بها الأهرامات الثلاثة وأبا الهـول . وإذا كان فى واست مركزا حكومى ، وقصور فرعونية ، ووزير للجنوب فان نيوت أيضاً مركز حكومى وبضاحيتها الجميـلة قصر الفرعون . وبها أيضاً وزير الشمال . ولعـله يكفى عظمة لنيوت أن العادة جرت منذ الأزل أن يـكون حفل إعتماد وريث عرش الفراعنة بها ، فـكل ولى للعهـــد كان يجب رسمياً أن يمضى سنوات فى نيوت ينصب فيها أور ماو ، أو ، كاهنا أول لمعبد الإله بتاح ، وليلتقى التعـليم العسكرى ، ويشرف على شئون الجيش .

تهادت السفن على صفحة حابى ( النيل ) الهادئة ، وشيئاً فشيئاً إبتدأت معالم نيوت فى الظهور ، وبدأ سور المدينة الضخم يحيط بالمبانى كأنما ليحميها من الأعداء ، ومن عوامل الطبيعة ، ظهرت أفواج القوارب والزوارق تستقبل الموكب الفرعونى ، وعلت الهتافات والأناشيد ، ودقت الطبول . ولم أقف بعد هذا مع صاحبى إذ أن هذه المظاهر كانت قد تـكررت أثناء الرحلة الطويلة حتى أنها كانت مصدر إزعاج لى أكثر من أن تـكون سبباً للتسلية ، وان كان سرنى شىء فهو أن الرحلة إنتهت ، وأننى سوف أبدأ حياتى الجديدة يصاحبنى فيها صديقى الجديد « كم » أو « سمت كم » الجواد الأسود .

حينما دخلت القمرة كان خندو منهمكا فعلا فى ترتيب حاجياتى . وتوقف حين رآنى . . وتطلع إلى متسائلا إن كنت أريد شيئاً ، فأمرته أن يستمر فى عمله وقلت أننى ساساعده فى ترتيب قراطيسى ولفائفى إذ أنه لارغبه لى فى التطلع إلى المراكب ولاسماع الهتافات ، التى شاهدتها وسمعت منها فى هذه الرحلة أكثر مما سمعت طوال حياتى حتى فى الاعياد ، بل وأكثر مما أعتقد أننى سوف أسمع فى المستقبل ، فقد كان من العسيرأن يذكر المرء ساعات قلائل متتالية لم ير فيها موكبا أو سمع هتافا طوال أيام الرحلة .

أمضيت فترة طويلة وأنا ارتب لفائفي بعناية ، وأضع كلا منها في مكان مناسب يسهل على معه أن أعرف مكانها . وحينما فرغت ، كانت أصوات الهتافات تكاد أن تصم الآذان مما قطع بأننا قد قاربنا جداً الوصول إلى المرفأ . وانتهى خندو بدوره من ترتيب حاجياتي الأخرى في الصناديق ، وسأل إن كنت أريد شيئاً من الفاكهة أو العصير ، وأجبته بالإيجاب كما أخبرته بأنني سوف أتولى شخصياً إنزال « كم » إلى الشاطىء وإنني غالباً ماسوف امتطيه وأصل به إلى قصر والدى ، الذي وان كنت أعرف إنه عند الضاحية الغربية للمدينة ، برونفر ، إلا أنني لم أكن أدرى مكانه تماما .

وقبل أن يعود خندو بالفاكهة والشراب كانت تفنت قد جاءت ، وجلست على المقعد أمامي . وفي رقة متناهية تكلمت .

ـــ كانت هذه رحلة جميلة ياكاى ، ولن أنساها ماحييت ، ولست أظن إنك سوف تنساها .

بالرغم مني أرتسمت على شفتي إبتسامة باهتة .

ـــ كلا لن أنساها .

لم أقل إن المرء لاينسى أول رجل كان السبب في موته ، ولاهو في كل يوم يهاجمه من يريد قتله ، ولا يجد دائما حية قرناء في فراشه . ولاينسى المرء أول جواد يمتطيه . ولاهو في كل يوم يصارع فهدا ، وماكان يمكن أن أنسى آثار الجروح في كتفي وذراعي وصدرى ، التي لاأحسب أن الأيام سوف تمحوها . كل هذا غير بعض الحوادث الأخرى . كلا لن أنسى الرحلة ، وما كان يمكن أن أنسى الفتاة التي أحببتها . إن الإنسان لا ينسى مثل هذه الأشياء .

كان جليا أن الفتاة تنظر إلى وهي منتظرة أن إنتهى من سلسلة أفكارى التي أثارتها ملاحظتها البسيطة ، وحينما انتبهت كانت تتطلع في وجهي باسمة . وبدا وجهها صبوحا وضاء جميلا حتى إنني لم أملك أن أردد أفكارى بصوت عال .

ـــ لا ياتفنت لن أنسى كل لحظة قضيتها معك ، ولن أنسى السعـــادة التي أسبغتها على .

تضرج وجه الفتاة إحمرارا فزادها اللون والحياء بهاء حتى أنني شعرت برغبة جامحة أن اتناولها بين ذراعي لاعصرها وأقبل كل جزء فيها . وكأنما شعرت الفتاة

بهذا فإزداد تضرج وجهها وأسرعت تتلعثم بصوت خفيض .

ـــ أنك تتكلم كما لو إننى سأصير ذكرى، لا تأمل فى هذا إننى سوف الازمك كظلك حيثما ذهبت .

وتضاحكت لتخفى إرتباكها ، وما كان فى استطاعتى أن أتمالك نفسى بعد هذا لولا أننى سمعت طرقات خفيفة على الباب . وحينما أذنت دخل خندو حاملا صحاف الفاكهة ، وضعها على المنضدة أمامنا ثم انسحب بهدوء . وتناولت تفنت ثمرة من التين وقضمتها بشهية .

ـــ آه لقد نسيت هل لكم قصر فى نيوت ؟

ـــ أجل عند ضاحية برونفر .

وبانت خيبة الأمل على وجهها .

ـــ هذا مما يؤسف له فقد استأذنت عمى أن أدعوك لأن تقيم معنا ، وكان كريما حتى أنه قال انه يضع قصره ومافيه تحت أمرتك لامدة إقامتنا فى نيوت فحسب ، بل طوال مدة إقامتك أنت مهما طالت .

تبسمت وأنا أتصور أن الفتاة قد خطر فى مخيلتها أن أقبل الإقامة بصفة دائمة فى قصر عمها .

ـــ إننى سوف أقيم هنا على الأقل لخمس سنوات يا تفنت .

ـــ إذا فإننى لن أراك إلا لفترات قصيرة فى السنوات القادمة . على أى الأحوال فإن قصرينا فى ضاحية واحدة وفى هذا عزاء .

تعالت الهتافات فى الخارج ، ووصلت إلينا أصوات الجماهير وهى تنادى بحياة الفرعون ، وولى عهده ، وهبت الفتاة من مجلسها ، ومدت يدها تشدنى من يدى إلى خارج القمرة .

ـــ تعالى معى نلقى نظرة على المواكب التى أتت لإستقبال الفرعون وصحبه.

تركت نفسى أنقاد وراءها ، لكن حينما دلفنا من الممر غلبها فضولها ولهفتها ، فتركت يدى وهرعت إلى سياج السفينة . واستقبلنى رع (شمس الظهيرة) قويا براقا حتى أننى لم أتمالك من أن أحجب عينى بيدى برهة حتى اعتادت على الضوء . وتلفت أنظر على سطح السفينة . كان ولى العهد يجلس فى مقصورته العالية وإلى جواره زوجته الحسناء ، وقد إرتديا ملابس بيضاء ناصعة ، ووضع الأمير

على رأسه اكليلا صغيراً من الذهب يطوق له الشعر المستعار، وأحاط ذراعه بسوار عريض من الذهب الخالص. تزينت الأميرة ببعض الأحجار الكريمة ترصع بها شعرها الفاحم المرفوع إلى أعلا، وأحاط جيدها عقد كبير من الذهب المرصع، والتف سوار يشابهه حول معصمها. كانت المقصورة مفتوحة من جميع الجوانب، ويظللها مظلة من حرير مستورد من رتنو (سوريا) وفى الوسط تماماً كان موضع المقعدين الفاخرين. ووراء ولى العهد وقف حاملا المروحة يروحان بمروحتين من ريش النعام على الأميرين. وإلى جانب ولى العهد، إلى الخلف قليلا وقف الكاهن رعموسى وإلى جواره وقف باـ رن نفر وصيف الأمير، وحامل القدح.

كان المنظر فخماً يشعر الإنسان معه برهبة العظمة. لكن كان هنالك شيء غريب. شيء لم أره .. طوال حياتى، بل ولم أسمع به، كانت الأميرة ولية العهد، فرعونة مصر المستقبلة، تحتضن طفلتها الصغيرة مريت آتون. كان هذا شيئاً لم نسمع به من قبل، فيه خرق لجميع التقاليد الفرعونية. كان الشعب ينظر إلى الفرعون كإله. وكذلك ولى عهده ووارث ملكه، فكيف يمكن لإله أن يظهر فى صورة عائلية كأنما هو من البشر العاديين؟ ووقفت كالمبهوت أنظر إلى المنظر الفريد. لن يصدقنى أحد إذا رويته له وساءلت نفسى لماذا يقوم ولى العهد بهذه الفعال التى أقل ما يقال عنها إنها خروج على تقاليد الاسلاف العظام؟

انتبهت إلى أنى قد وقفت فى مكانى أكثر مما يجب، واننى بدأت ألفت النظر إلى، فتحولت، بسرعة إلى مكان قصى، وتشاغلت بالنظر إلى جماهير الشعب. كنا قد وصلنا فعلا إلى المرفأ. وكان البحارة يعملون بجهد بالغ، وبسرعة متناهية، لربط السفينة، وتثبيت السقالات من السفن إلى الشاطىء. ودارت عيناى فى الوجوه التى بدأت ملامحها تظهر، وهى تنتظر الركب الفرعونى. كان النبلاء. والوزراء، وقادة الجيش يصطفون فى آخر السقالة يتوسطهم شيخ ضخم الجثة بادى الهيبة يرتدى رداء أزرق. من قماش مطرز يلتمع. وكان من الجلى أنه صاحب المكانة الأولى بين الجموع المنتظرة، بل إن شخصيته كانت طاغية إلى درجة أن الذين وقفوا إلى جواره قد تواروا فكأنما لا وجود لهم. حتى من هذه، المسافة البعيدة خيل إلى أن نظراته ترسلان أشعة تخترق الحجب، لتتغلغل فى أغوار النفوس.

لم يكن هنالك داع لأن أسأل عنه . كنت قد رأيته قبل ذلك مرة واحدة حينما أتى إلى واست (تهى) ليصطحب الأمير تحوتمس إلى نيوت (منف)، وما كان يمكن لإمرىء أن يراه مرة واحدة وينساه بعدها . أجل ليس أمونحتب بن حابو بالرجل الذى يمكن أن ينساه المرء ولو لم يره سوى مرة واحدة من زمن بعيد . أمونحتب بن حابو وزير الشمال ، والمهندس العبقرى والكاتب الفذ ، والساحر الأول الذى ابتدع طرقاً جديدة فى السحر ، والف كتباً عن حكا ( القوى فوق الطبيعة ) . الرجل الذى كانت تخشاه أعداء تامرى أكثر حتى مما كانت تخشى الجيوش . كان الفرعون قد أطلق يده فى عمارة نيوت ، فحولها إلى جنة النعيم ، حتى أطلق على الضاحية الجميلة التى بناها (عنخ تاوى) حياة الأرضين ، واشتهرت نيوت نفسها بهذا الإسم .

كانت شهرة الضاحية الجميلة تملأ الأسماع حتى أنها وصلتنا فى واست ( طيبه ) فسمعنا عن القصر الجميل الذى بنى للفرعون ، والمعبد العجيب الذى أقيم إلى جواره ، والذى اعتنى أمونحتب بن حابو بان تكون أحجار عمارته قد قدت من صخور، وأن أبوابه فصلت من خشب الأرز، وصفحت بالذهب، ووشيت بالذهب والفضة ثم طعمت بالأحجار الكريمة . وسمعنا عن البحيرة التى حفرت فى ساحة المعبد ، وأعتنى الوزير بأن يجمل شواطئها بنباتات ، وأشجار ، استوردها من بونت (الصومال) خصيصاً . كان هنا الترف بأجلى معانيه مختلطاً بعبقرية الهندسة ، وفن البناء . وكانت نفسى تتلهف إلى زيارة هذه المعالم ، والتعرف عليها حتى أن اذنى لم تكن تسمع الهتافات المدوية ، ولم ترعينى ، إلا فيما يشبه الحلم ، الفرعون وزوجته وهما يهبطان من السفينة الفرعونية إلى الشاطىء ، ولاحظت أن سمو ولى العهد وزوجته قد هبطا بدورهما إلا حينما ربتت يد على كتفى برفق . والتفت منزعجاً لأرى تفنت تنظر إلى متعجبة .

— ألن تنزل فى معية الأميرين ؟

— كلا . سأذهب لأرى جوادى .

— وهل سنراك فى حفل الاستقبال الذى يقيمه الوزير الليلة ، للفرعون وولى عهده .

— لست أدرى، وعلى كل حال فإنى سوف أراك فى الغدإن سمح نيافة الكاهن.

— سأكون غداً فى معية الأميرة فى قصرها فهلا أتيت ؟

— أجل سوف أحضر لأشكر الأمير على حسن ضيافته .

— حسناً سوف أراك فى الغد إذاً .

تركتنى الفتاة ، وسارت فى عجل لتلحق بحاشية الأميرين الذين كانا قد هبطا فعلا من السقالة . لم أتحرك من مكانى . وأخذت أراقب الموكب وهو يسير ببطء وقد بدا أن الشعب قد أصابه مس من الجنـــون لرؤية فرعونه ، وولى عهده فازدادت الهتافات علواً حتى بلغت عنان السماء . ومكثت أرقب هذا الخضم الضخم من الأجساد البشرية المتزاحمة يقفز بعضها فوق بعض ، وكل يريد أن يلقى نظرة على الموكب الفرعونى .

مضت أكثر من ساعة قبل أن يخف الزحام قليلا . وحين بدأت أفكر فى الحركة إلتفت لأرى خندو آتياً نحوى وبرفقته رجل جاوز الأربعين من عمره . وتوقف الإثنان على بعد مناسب منى ثم إنحنى الرجل محيياً . وتكلم خندو .

— هذا هو سحتب — ايب يا مولاى مدير القصر فى نيوت .

— أجل لقد ذكره لى نيافة والدى المبجل .

— إننى فى خدمتكم ياسيدى ، وقد انتظرت أن تكونوا فى معية ولى العهد أطال الله بقاءه ، ولما استعلمت قيل لى أنكم مازلتم على السفينة فأتيت . إن المحفة فى انتظاركم .

— لا لن أستقل محفة . وإنما سأمتطى صهوة جوادى . ولا بأس إذا كنت أسير معكم لترشدنى إلى الطريق .

إنحنى الرجل مرة ثانية ، وتراجع الإثنان ثم إنصرفا . ولم أضع وقتاً بعد هذا فذهبت بصحبة خندو إلى سفينة البضائع والحيوانات . وتلقانى « كم » فرحاً ، وحينما بدأت أضع اللجام على فمه بدا كأنما هو لا يتحمل الانتظار . وهبطت السقالة . وأنا أسحبـــه ورائى ، وما وطئت قدماى الشاطىء ، حتى وجدت مفاجأة فى إنتظارى إذ وقف نترى باوو ددف إلى جانب المحفة وما أن رآنى حتى تقدم منى مبتسما ، وشد على يدى .

— مرحباً بك فى نيوت .

— أهلا يا نترى . جميل منك أن تأتى لتستقبلنى . هلا شرفتنى بالمصاحبة .

— شكراً إن معي جوادي ، ولا أحب ركوب المحفات .

— ومن قال إننى سأستقل المحفة ألا ترى أن معى كم ؟ أننى سأمتطيه .

— فى هذه الحالة يسرنى أن أرافقك .

سار الموكب ببطء ، ليس فقط لأن حاملى المحفة ومدير القصر كانوا يسيرون على أقدامهم ، وإنما أيضاً لأن جموع الشعب كانت وما تزال تمـــلأ الشوارع والطرقات . سرنا الهوينا . وبذلك كان من اليسير على أن ألاحظ المبانى والأشخاص ولم يكن هنالك فى الواقع أى خلاف بين نيوت وواست فى المبانى عامة ، وإن كنت قد لاحظت أن بعضها يرتفع إلى ثلاثة طوابق وهو منظر نادر فى واست . لكن الخلاف الحقيقى الذى يسترعى الانتباه كان فى الأشخاص . كانوا عموما لونهم أكثر بياضا من الشعوب التى مررت عليها فى رحلتى ، وكانت ملابسهم أكثر تنوعا فى الألوان ، الأصناف ، الزى . كان من الجلى أن الكثيرين منهم لم يكونوا من أهل المدينة نفسها ، بل وربما ليس من تامرى كلها ، تدل على ذلك أزياء الملابس واللحيات الطويلة لدى البعض ، والأنوف المتناهية الاستقامة لدى آخرين . وقد علمت فيما بعد أن المدينة كانت غاصة ، بالأجانب الذين أتوا إليها من جميع أنحاء العالم ، من رتنو (سوريا) ، ومن واوات وغيرها . على أن الفارق الحقيقى كان فى الروح السائدة بين الشعب إذ كنت تشعر بأنهم أكثر حبوراً ، وأبسط تصرفا وأخف حركة ، من أهل واست . كانت البشاشة ترتسم على وجوههم وهم يتطلعون إلى الموكب بفضول صريح يخلو من الصرامة العادية التى كانت سمة أهل تامرى العليا .

واستمر موكبنا فى إتجاهه نحو غرب المدينة ، وبدأت المنازل تقل ، تبتعد عن بعضها . وخف الزحام كثيرا حتى أننا كنا نستطيع أن نحث الســـير بسرعة أكبر ، ثم أختفت المنازل ، وعلمت أننا دخلنـــا الضاحية الغربية ، إذ ظهرت الأسوار البيضاء العالية تحف بالقصور والحدائق . وبدت الطرقات أكثر تعبيدا ونظافة ، وكان من الجلى أنها تحظى بعناية تفوق ما تحظى به مثيلاتها فى المدينة .

أخيراً ، وبعد مضى حوالى ساعة على تركنا المرفأ توقف الموكب أمام باب ضخم يتوسط سورا لا يختلف كثيرا عما حوله . واعتدل حارسان فى وقفتيهما بينما رأيا الموكب ، وأسرعا فى فتح الباب ثم عادا إلى مكانيهما . ولم أكن فى الحقيقة أتوقع أن يكون قصرنا فى نيوت فى مثل فخامة ضريبه فى واست ، لكنها كانت

مفاجاءة سارة حينما وقع نظرى على القصر الابيض الجميل ذى الطابقين يتوسط الحديقة الواسعة . كانت الحديقة بديعة التنسيق، وقد تناثرت منها أشجار الفاكهة والزينة ، والزهور فى نظام أبدعته يد فنان . وإلى الجانب الشرقى من القصور رأيت بركة مياه صغيرة نسقت حولها أشجار ظليلة وشد إلى شاطئها ثلاثة أو أربعة زوارق ، ولم تظهر مبانى الخدم والعبيد ، لكننى كنت أعلم أنها دائماً كانت تبنى خلف القصور ، بعيداً إلى الناحية القبلية .

اتجهنا إلى القصر ، ووقفنا عند درجات قليلة واسعة ، وأسلمنا جوادينا إلى التابعين ، لكن « كم » رفض أن يتحرك من مكانه ، وبدت حركاته عصبية قلقة . ونظر إلى نترى مبتسما .

سألت سحتب مدير القصر عن مكان الحظيرة ، لكنه أبدى أسفه قائلا أنه لا توجد حظائر فى القصر إذ أن أحداً لا يركب الجياد . لكنه من ناحية أخرى قرر أنه يمكن مؤقتاً تخصيص حجرة من حجرات الخدم، لإيواء الجوادين حتى يتم بناء حظيرة للجياد . ووافقت على الرأى ، فتقدمنى إلى البناء الخلفى حيث كانت فعلا المبانى المخصصة للحاشية مقامة من طابق واحد على مستوى سطح الأرض، ومكونة من حجرات متلاصقة تفتح أبوابها إلى الحديقة الخلفية مباشرة ،

انتقينا أول حجرة ، وحينما فتح الباب رأيت أنها حجرة نظيفة ، وتسع الجوادين . وحينما رأى سحتب أنها تفى بالغرض أمر الخدم باخلائها من الأثاث والأمتعة . وسرعان ما نفذوا الأمر ، وأدخلنا الجوادين ، وأعطيت أوامرى أن يلقيا الرعاية الكافية من الطعام والشراب .

عدنا إلى القصر فقابلتنا شرفة واسعة غير مسقوفة الا عند مدخل القصر حيث حملت السقف عمد تنتهى بزهرة اللوتس ، ودلفت منها إلى صالة واسعة حملت سقفها عمد مماثلة . ولم تكن الصالة كلها مسقوفة وإنما كانت هنالك دائرة فى الثلث الأول بلا سقف لتدع أشعة الشمس تدخل إليها ، ولتكون منفذاً لتكييف الهواء بداخل القصر أيام القيظ، وغطيت جدرانها بالرسومات وأنواع النحت وكذلك كان جزء السقف . ولم تكن المنقولات الموجودة كثيرة ، لكنها وضعت فى أماكن متفرقة بنظام ينبىء عن ذوق رفيع .

وكان بالصالة ثلاثة أبواب جانبية ، بخلاف بابين صغيرين عند نهايتها

تبينت بعدئذ أن الأبواب الثلاثة كانت لغرفتى الطعام والإستقبال ، وحجرة مكتب أما البابان الصغيران فكان أحدهما يؤدى .. إلى حمام ، والآخر ليستعمله الخدم والعبيد حينما يقومون بأداء واجباتهم . وفى أقصى الصالة إلى اليمين كان الدرج المؤدى إلى الطابق الثانى ، حيث اصطفت ثمانى حجرات للنوم تصل بينها ردهة طويلة شملت كل طول القصر .

انتحينا ، نترى وأنا ، جانباً من حجرة الاستقبال الفسيحة حيث قدمت لنا احدى الخادمات بعض المرطبات . ومضى نترى يقص كيف أنه قد ارتحل من خن مين على جواده وانه وصل إلى محيت منذ يومين ، وأنه توجه فوراً إلى الحظائر الفرعونية حيث قدم نفسه لقائدها الذى أسلمه بدوره إلى أحد الضباط ليشرف على تدريبه . وأردف نترى أنه استأذن اليوم من الضابط ليستقبلنى . وأن الأخير حينما سمع اسمى قال أنه سوف يحضر بنفسه ليرانى .

حينما سألته عن اسم الضابط أجاب بأنه جسر خبر ورع ( حور محب ) . وعادت ذاكرتى إلى الضابط الوسيم القوى البنية الذى أعجبت بصراحته ، وشجاعته حينما رأيته لأول مرة فى واست (طيبه) برفقة خبرو رع - ( آى ) . وعرضت على نترى أن يقيم معى فى القصر ، لكنه أجاب أن كل من يرغب فى .. الالتحاق بالحظائر الفرعونية عليه أن يقيم فى ثكناتها . وأنه لا يسمح مطلقاً بالسكن خارجها إلا فى أوقات محددة ، لأعذار شديدة .

وفى أثناء حديثنا أعلن أحد الخدم نبأ وصول جسر خبرو رع (حور محب) وأنه يود مقابلتى . واستأذنت من نترى وقت لاستقبال جسر ، لكنه كان قد دخلا فعلا . ولم يبد عليه أى تغيير عما أذكره فكان وجهه باسما ، وكانت عيناه صريحتين فيهما جرأة ، وثقة بالنفس . وشد على يدى بقبضة قوية وقال ، ومازالت عيناه تتفحصان وجهى .

— مرحباً بك يا كاى فى نيوت لقد علمت عن قدومك مع الحاشية الفرعونية من الزميل نترى .

رحبت به مشيراً إلى أحد المقاعد القريبة .

— تفضل بالجلوس وشكراً على تشريفك .

— إن نترى راح الليلة البارحة جميعها يروى لى قصصاً عنك هى أقرب إلى

الخيال بأنك صارعت فهداً ، وامتطيت جوادا نافرا لا يقبل أن يمتطيه أحد مع أنها كانت المرة الأولى على حد تعبيره التي جربت فيها حظك فى الفروسية .

— لعل نترى يبالغ فى الوقائع فإن سمو ولى العهد هو الذى قتل الفهد .

تشعب الحديث بيننا بعد هذا فسألنى جسر إن كنت قد رأيت خبر ( آى ) رلما أجبته بأنى كنت أراه كثيراً ولكن لم يدر بيننا حديث هام قال :

— أرجو ألا تسىء فهم خبر . أنه ماكر وطموح ، لكنه يحب تامرى أولا وفوق كل شىء وهو يراعى مصلحتها ، حتى ولو كان فى ذلك تضحية بمصالحه . صدقنى فما كنت لأعرفه لو كان غير ذلك . أتعلم بأنى سأتزوج ابنته نوت نود جم ؟

كانت هذه مفاجئة لى .

— هذه أول مرة أسمع فيها الخبر . دعنى أهنئك .

وتدخل نترى فى الحديث فاعطانى هذا فرصة للتفكير . لم يكن جسر من أولاد النبلاء ، أو الأمراء ، بل كان من عامة الشعب ، ولم أكن أتصور أن خبر ( آى ) ليزوج ابنته من مثل هذا الشخص إلا وله مصلحة قوية . صحيح أن جسر كان شاباً وسيما ، وضابطاً فى الجيش الفرعونى ، لكن كان هنالك مئات مثله ، بل ويمتازون عنه بعراقة الأصل ، ونبل المحتد فلماذا هذا الإختيار ؟ وما سر هذه الصداقة الغريبة بين الاثنين على الفارق الكبير بين عمريهما ومركزيهما ؟ ولم يتركنى جسر لأفكارى لكنه حينما قطعها أضاف جديداً إليها .

— إنك مستغرق فى التفكير يا كاى فعسى أن يكون الأمر خيرا ! هل تذكر صديقنا الثالث الذى تقابلت معه فى واست . من بحتى رع - ( رمسيس الأول فيما بعد ) لطالما تكلمنا عنك ، وكنت أود أن تقابله فى نيوت لكنه إرتحل منذ أسبوع إلى ثارو ( القنطرة ) حيث عين ضابطاً فى فرقة الرماه .

وابتسمت . أجل إننى أذكر الضابط المديد القامة الذى كان يرافق جسر ( حور محب ) واذكر استقامة جسده النحيل وخطواته العسكرية ، وابتسامته الباهتة . ترى ما دوره هذا أيضاً مع الثنائى الغريب ( جسر وخبر ) ؟ هل يكونون ثالوثاً ؟ ! شعرت بأنى قد أطلت الصمت وبأنى يجب أن أقول شيئاً . لكن قبل أن أتكلم هب نترى واقفاً وقال :

— لقد حان موعد عودتي إلى المعسكر . هل سنراك هناك في الغد يا كاى ؟
وقفت مصافحا .

— كلا ، على أولا أن أذهب إلى سمو ولى العهد لأقدم إليه فروض الشكر على ما أكرمني به طوال الرحلة ثم سأخرج قليلا للتريض والتعرف على المدينة . وفي اليوم التالى سأكون في الحظائر إذا كانت مشيئة رب الأرباب .

حيا نترى جسر الذى لم يبد عليه أنه يريد الإنصراف ، وحينما انسحب نترى جلس الضابط الوسيم ، ونظر إلى بتعجب .

— قل لى يا كاى . إنك صغير السن جداً ومع هذ فانك دائب التفكير قليل الحديث .

كان كلامه يتردد بين الإخبار والاستفهام . اخترت أن يكون استفهاماً .

— انى نشأت نشأة كهنوتية .

وبصراحته المذهلة سأل :

— هل أنت كاهن لرب الأرباب حقاً ؟ أم إنك على دين سمو ولى العهد له الحياة والصحة ؟

— إننى من خدم رب الأرباب أما علاقتى بسمو الأمير فلا تتجاوز العرفان بالفضل . لعلك سمعت أنه أنقذ حياتى ؟ !

— آه قصه الفهد أجل سمعت .

وفاجأته بسؤال في مثل صراحته .

— وأنت ؟ أى دين تتبع ؟

لم يبد على الرجل أى إندهاش أو إنزعاج للسؤال ، وخاب أملى في أن أفاجئه إذ أجاب ببساطة وكأنه شيء عادى .

— إننى جندى ، ولست برجل دين . إننى أدين بالولاء لتامرى وعن طريقها أدين بالولاء للحاكم طالما أنه يراعى مصالحها .

— لكن أليس لك دين ؟ أليست لك آلهة ؟

— ان دينى هو سيفى ، وقوسى ، وسهامى ، ورمحى ، أما ان شئت أن تعلم إن كنت أومن بإله فانى أعتقد في وجود قوة مسيطرة ، إن كنت لا أعلم ماهيتها سمها آمون إن أردت ، أو اتون فلا قيمة لهذا عندى ،

وكان سؤالى التالى مفاجأة حقيقية له .

— وهل هكذا خبر ( آى ) .

بدت الدهشة جلية على الوجه الوسيم ، وضاقت العينان الصريحتان لتتفرسا فى وجهى وتتركزا على عينى . ثم كما بدت الدهشة فجأة اختفت فجأة ثم انفجر الرجل ضاحكاً .

— إنك عميق التفكير يا كاى ويبدو انى لم أقدرك حق قدرك ، لكن لعل لى من صغر سنك عذرا .

لم أدر تماماً ما كان يقصده وهل هو يهدف إلى التهديد أم أنه مجرد كلام عابر . ولم يدع لى الضابط فرصة للتفكير بل انتقل فى حديثه .

— بما أن لك مكانه خاصة كابن لقداسة النبى الثالث لرب الأرباب فلك الحرية فى انتقاء الضابط الذى تتم معه تدريباتك العسكرية ، وقد جئت فى الواقع لأحييك من ناحية ، ولأسألك إن كنت تريد أن تنخرط فى سلك طلبتى .

— أجل إن سمحت لى بذلك فأنى أريد أن اكون زميل سلاح الك ، ولصديقى نترى .

— هذا حسن ، لكن دعنى أحذرك بأنك معى لن تجد أن لك ميزة خاصة بسبب مكانة والدك .

— اننى لم أطلب هذا . لكن هل لى أن اسألك لماذا طلبت إلى أن انخرط فى سلك طلبتك ؟

وبصراحته المعتادة أجاب الضابط .

— لأننى أعجبت بتصرفاتك فى أول مقابلة لنا . ولأنك على صغر سنك تمتلك البنية التى تؤهلك لأن تكون ضابطاً ممتازاً ، وأخيراً لأنى أود أن تستمر صداقتنا .

ولم ينتظر منى تعليقاً ، وإنما قام من مجلسه فجأة ، ومد يده القوية مصافحاً .

— سأراك بعد غد ولا مانع من مصاحبة جوادك ان شئت أن ترعاه بنفسك ، وإن يكن عندنا فى الحظائر الفرعونية جياداً جميلة .

وسرت معه إلى الباب دون إجابة .

فى الصباح التالى توجهت إلى القصر الفرعونى ، لأقدم فروض الشكر والطاعة إلى سمو ولى العهد . والواقع أن القصر كان تحفة فنية تشهد الوزير

أمنحوتب بن حابو بالذوق الرفيع ، والعبقرية فى الهندسة . وفى الجناح المخصص لسمو الأمير وحاشيته . رأيت الأمير مسترخياً على أريكة طويلة حفت بها الوسائد الموشاة ، وجلست الأميرة الجميلة على مقعد إلى جواره . وإمتلأت القاعة بحاشية من الرجال والنساء .

توجهت من فورى إلى الأميرين وركعت أمامهما . ولما أبديت شكرى على الأفضال التى أسبغها على الأمير صرف الأمر بسهولة ، بل انه أخجلنى بأن قرر أنه هو المدين لى بحياته . واجتمع حول الأمير بعد هذا عدد من الحاشية ، ومن ذوى المطالب ، فاضطررت إلى الإنسحاب. وقبل أن أترك القاعة لحقت بى تفنت فهرعنا إلى الخارج وسرنا فى الحدائق الواسعة جنباً إلى جنب . ويبدو أن السفينة كانت تعطى نوعاً من الرابطة ، أو الألفة افتقدناها فى مبدأ الأمر فاحسسنا كأننا غريبين يلتقيان لأول مرة .

ولكن هذا الحاجز المؤقت لم يلبث أن زال بعد فترة من الإنفراد ، وتبادل الحديث . سألتنى عن ترتيب حياتى فى المستقبل وعما أعتزمه بالنسبة للإنخراط فى سلك الضباط ، وعما إذا كنت سوف أعود بعد فترة التدريب إلى كهنوت رب الأرباب . وذكرت لها أن التدريب العسكرى كان يستدعى الإقامة الدائمة فى ثكنات الحظائر الفرعونية وانى لن أستطيع أن أقابلها إلا فى أوقات متفرقة .

أمضينا أكثر من ساعتين حتى حان موعد الغذاء . واضطرت تفنت إلى الانسحاب لتلحق بمعية الأميرة ، فتركت القصر الفرعونى ، وسرت فى شوارع المدينة الجميلة وطرقاتها . ولم تكن المدينة كما قلت تختلف كثيراً عن واست من ناحية المبانى ، وإن كانت طرقاتها أوسع وأكثر تعبيداً كما أن المبانى ذات الطوابق المتعددة كانت أكثر عدداً . لكن الذى لا شك فيه ان التجارة كانت أكثر رواجاً ، وأنشط حركة كما أن الصناعات أكثر تعدداً خاصة المعدنية ، وأعنى بها صناعة الأوانى النحاسية، وأعمال صياغة الذهب والفضة ، بل اننى شهدت حانوتين لحدادين يطرقون ذلك المعدن النادر ، واعنى به الحديد ، كما رأيت صناعة العجلات والمركبات فى أكثر من مكان ، وكذلك المصنوعات الجلدية .

ولعل أكبر ظاهرة تستلفت النظر هى التعدد الغريب ، فى أشكال الناس ،

وأجناسهم ، ولغاتهم فكنت لا أكاد أخطو خطوتين إلا وأرى وجها لا يمت لتامرى بصلة . كنت ترى أشخاصاً من نوخاشى ، ( حلب ) ، وتونب (بعلبك) وخاتى ( شرقى أنقرة عاصمة الحيثيين ) . وأمكى( إقليم شمال نهر الأورونط ) وكوميدى ( شمال فلسطين ) ، وأوبى ( مقاطعة حيث دمشق الآن ) ، ومن الطوميـــاح ( قبائل بليبيا ) ، وسينون ( صقلية ) ، والخسيتو ( البدو ) والحارو ( منطقة بفلسطين ) بل ومن واوات (النوبة) وبونت (الصومال) وكوش (السودان).

لـكن أكثر الأجانب كانوا فى الواقع من اولئك الذين يطلقون عليهم عابيرو ، وهم فئة كانت تقوم بأحط الأعمال وأحقرها ، ويقال إنهم يعبدون تمثال إمرأة لها ذيل سمكة أطلقوا عليها اسم داجون ، وكذلك لهم إله آخر اسمه مولوخ يدعى البعض أنهم كانوا يخطفون الأطفال ليضحوا بهم له . وكانت هذه الفئة كثيرة العدد ، كما أن أهل نيويت لم يـكونوا يسمحون لهم بالإقامة معهم ، حتى أنه قد خصص لهم حى فى الطرف الغربى للمدينة ، لا يقطنه سواهم ، ولا يقبل أى مواطن من تامرى مهما إنحطت منزلته أن يقطن معهم .

كان أتوم (شمس الغروب) قد آذن بالأفول ، وبدأت المصابيح تضاء فعلا فى المنازل فـكان على أن اعود سريعاً إلى قصر والدى ، خاصة وأنى شعرت بتعب شديد نتيجة لسياحتى الطويلة فى المدينة ، كما أنى لم أكن ذقت طعاما منذ أن خرجت فى الصباح . ولم أهتد إلى مكان القصر بسهولة ، وحينما وصلت كان أتوم قد ذهب فعلا إلى الغرب (تعبير عن أن الشمس قد أفلت) وبدأت دياجير الظلام تطغى على الـكون .

أجتزت حديقة المنزل ، وعلى درجات الشرفة إستقبلنى خندو مقرراً أن هنالك شخصاً ينتظر عودتى منذ مدة طويلة ، وأنه موجود فى حجرة الإستقبال . أمرت خندو ان يعد لى حماما دافئاً على أن يعقبه مباشرة تقديم الطعام ، وبعد أن ألقيت أوامرى دلفت إلى الحجرة . كان الذى ينتظرنى شخص لا أعرفه ، لـكنه كان قطعا أحد كهنة الرب بتاح . وتقدم الرجل بخطوات بطيئة وبدا عليه التردد والدهشة ثم سأل :

— عفواً ، هل أنت كاى رع سنب ؟

— أجل .

— لكنك صغير السن جداً. لقد أمرت أن أتصل بأحد كهنة رب الأرباب فهل أنت هو ؟

وبدا على الكاهن أنه مازال بين التصديق والتكذيب ، لكنه أمام تأكيدى لم يجد مندوحة من التسليم .

— إنى أمرت أن أبلغ رسالة عفوا كان يجب أن أبدأ بتقديم نفسى أنا حوتى نخت ، وعب (كاهن متطهر) فى معبد الإله بتاح .

أشرت إليه بالجلوس ، وجلست على مقعد قريب منه . ودخلت إحدى الخادمات تحمل أكوابا من العصير فتناولت كوبا ناولته إياه ، وأخذت لنفسى آخر . إرتشف الكاهن رشفة ، وإنتظر أن أسأله عما أتى به ، لكننى فضلت الصمت . وأخيراً تكلم الرجل وكأنه مازال متردداً .

— إننى أمرت أن أبلغك عن قلق رب الأرباب للتأخر فى أداء ما كلفك به ، كما أمرت بأن أمدك بأية مساعدة . شئت سواء بالمال ، أو الرجال . فهل هنالك ماأستطيع أن أقوم به ؟

— هلا تفضلت بأخذ هذه الصرة ؟

تحير الكاهن وهو يتناول الصرة من يدى ونظر إلى مستفهما فاشبعت بعض فضوله .

— أن فيها ثلاثة تالنتات .

— وماذا أفعل بها ؟

— هذه هى رسالتى ، وسيفهم من أرسلك الرد ، كما أنه سوف يقول لك ماتفعل بالتالنتات الثلاثة .

مكث الوعب (الكاهن المتطهر) برهة ، وهو ينقل النظر من النقود فى يده إلى وجهى متفرسا مفكراً . وبقيت فى مكانى أنتظر منه أن يتكلم . وبحنو زائد جذبنى إليه قال :

— أتسمح لى أن أناديك يابنى فإنك لاتزيد فى السن عن هذا .

وأحنيت رأسى .

— إن هذا يشرفنى .

— هل تظن يابنى أن ماتفعله يساير العقل ؟ لاتغضب ، وانتظر قليلا . إننى

وعب فى معبد الإله بتاح دلمت طلعته . ولى من العمر أكثر من أربعين عاما هل تعتقد أنى لم أفهم الرسالة بالرغم من أن مرسليها قد أحاطوها بالكتمان ؟ إنك أعطيتنى ثلاثة ثالنتات لأعيدها ، ومن البدهى أنك لاتتبرع بها لرب الأرباب ، ومعنى هذا أنك أعطيتها لتساعدك على تنفيذ مهمة ما ، وانك ترفض التنفيذ ، وإعادة النقود هو ردك . . أما المهمة فليس من العسير على من كان فى مكانى أن يتصورها إذ أن كل مايشغل بال أنبياء رب الأرباب هو سمو ولى العهد . هل تريدنى أن أتمم كلامى ؟

لم أجد جوابا فقد كان منطق الكاهن سديداً إلى درجة أنه كان يستحيل معه الرد. وأنتظر الرجل مدة أخرى ولما رأى انه ليس فى نيتى أن أتكلم استطرد.

— هل ترى يابنى أن من الحكمة أن تعارض الأنبياء الأربعة ؟

إزداد إصرارى على موقفى ، وشاهد الكاهن أمارات القطع والحزم ترتسم على وجهى فقطب جبينه .

— إلى هذا الحد ! إذا فهى ليست مجرد مؤامرة للإطاحة بسمو الأمير وأبعاده عن العرش هو إذا القتل ؟ !

التقت عيناى الصارمتان بعينيه المتفرستين . ولست أعتقد أنه استطاع أن يكتشف من وجهى اكثر مما عرف . والواقع انه لم يكن هنالك الكثير ليعرفه بعد ان صدق فى حدسه فى كل كلمة قالها . ثم جاءنى صوته رزينا متزنا وكأنما هو يأتى من مكان سحيق .

— ربما كنت على حق يابنى فإنى ايضاً أكره القتل غيله . لكن ما مصيرك أنت؟

لم أجد بعد هذا أى داع للأستمرار فى السكوت . أو لعلنى كنت صغير السن إلى درجة أنى كنت فى حاجة إلى قلب أب ، وعقل رجل ناضج ليقف إلى جانبى . لم أكن أستطيع أن أطلب المساعدة من والدى بحكم مركزه . ولم أكن أستطيع أن أعتمد على أستاذى السابق ، فقد كان من الجلى أنه أضحى قلبا وقالبا من أشياع الدين الجديد ، وعدو لكل من يعارضه أو يعرض حياة أميره للخطر ، وماكان ليتحملنى لولا حب تدفنت لى ، ومصادفة إنقاذى للأمير . كنت صغيراً لدرجة أنى كنت فى أشد الحاجة إلى قلب رجل ناضج وعقله . وجاء سؤال الكاهن البسيط عن مصيرى فمس وترا حساسا من مشاعرى حتى أن كل تدريبى وتعليمى

فى السنوات السابقة كاد أن يختنق ، وكادت الدموع أن تطفر من عينى . لقد دربونى لأكون كاهنا . وحملت من العلم أكثر مما يستطيع عقل صبى أن يحتمل . وكان لى جسم ضخم نما قبل اوانه ، فاضحى جسم رجل، وتلقيت من التعليم ، والتدريب أكثر مما يعرف الرجل العادى ، لكن قلبي كان ما يزال يافعاً صغيراً . وجاءت المؤامرات ، وحوادث القتل ومحاولاته فجثمت ثقيلة على صدرى ، ولم أجد أحداً يقف إلى جوارى يساندنى ، فلم يكن عجباً بعد هذا أن أكاد أن انهار أمام أول جملة رحيمة أصادفها . ومع هذا فقد كانت هنالك بقية من التدريب الصارم الذى لقيته طيلة حياتى منعتنى من أن أنهار تماما .

لم يتكلم الكاهن ، وتركنى لافكارى منتظراً بصبر لا ينفد . ولعله رأى الانفعالات التى تعتمل فى داخلى فلم يرد أن يثقل على ، واحس أنه من الأصوب أن يتركها بلا تدخل من جانبه حتى يطفو على السطح منها ما يجب أن يطفو . ولعل صوتى جاء على غير طبيعته . إذ انى سمعت صوتا غريباً أجشا يتحشرج .

— أنا ؟ ! وما قيمتى ؟ !

كانت صرخة صبى صغير حركت مشاعر الرجل الطيب حتى اننى لاحظت أنه اتى بحركة كأنما يريد بها أن يضمنى إلى صدره وكأنى ابنه حقيقة ، لكنه تمالك نفسه ، وعاد إلى جلسته المعتدلة .

— ليس هنالك شخص فى الوجود يابنى ليست له قيمة . وأنت نفسك تعترف بهذا المبدأ . إنك تكره القتل ، يستوى لديك إذا كان المراد قتله أميراً أو شحاذا ، وفى سبيل هـــذا المبدأ تعرض حياتك للخطر . فكيف تقول أنك لا قيمة لك ؟

وكان لكلماته أثرها . إذ ربطت بينه وبينى بوثاق استمر لمدة طويلة بعد هذا ، كما أنها اعطتنى الوقت الذى تمكنت فيه من أن اتماسك وأعود إلى حالتى الطبيعية . وحينما تكلمت جاء صوتى عادياً لا أثر فيه لأى انفعال .

شكراً ياسيادة الوعب . لعلى كنت مخطئاً ، ولعل لحياتى قيمة ، لكننى لم أكن إذن كما .

تبسم الوعب ابتسامة رزينة باهتة أقرب إلى الحزن منها إلى السرور .

— يسرنى أنك تمالكت نفسك ، ولعله من المستحسن أن انبئك بخبر .

إننا نعلم ، ولاشك أن نيافة أنبياء رب الأرباب يعلمون ، أن الفرعون ، له الصحة والحياة والسعادة ، قد عقد العزم على أن يتزوج من ابنة توشراتا ملك ميتانى وهى فتاه صغيرة السن تدعى تادوجيبا ، وأنه لهذا السبب سوف يتعجل فى إعلان تتويج سمو ولى العهـــد ليشاركه الحكم . وفى الواقع سوف يكون هو الفرعون الحقيقى للبلاد إذ أن الفرعون لاشك سيتفرغ لعروسه الصغيرة الحسناء .

كان الوعب يتكلم ببطء متعمد وكأنه أراد بذلك أن أعى كل كلمه قالها . والواقع أنى فهمت أن مايرمى إليه هو أن يقول إن الأنبياء قلقون ، وأن فرصتى الأخيرة فى إطاعة أوامرهم هى قبل اعتلاء ولى العهد العرش مشاركة مع أبيه ، وبعد هذا لن تكون لحياتى قيمة عندهم .

* * *

# الفصل السادس عشر

## الحظائر الفرعونية

أعتقد أن الحظائر الفرعونية أشهر من أن تعرف . فلست أظن أن هنالك شخصاً فى أركان الدنيـــا الأربعة لم يسمع عنها حتى أنها تعتبر من الأماكن التى يرتادها زوار نيوت، تماما كما يذهبون إلى الأهرامات أو إلى أيون (هليوبوليس). فيها جمعت أكبر مجموعة من أجمل الجياد ، سواء للركوب أو لجر عربات القتال . وفيها تدريب كل ضباط الجيش الفرعونى الذى فتح كل بلاد العالم ، وهزم كل الجيوش ، وانتصر فى كل المواقع .

كان الانتساب إليها شرفا لأى مواطن مهما سمـــا مركزه ، أو علت منزلته وعراقة محتده . لم يكن لابن أمـير ، أو نبيل ، أو حاكم ، أو كاهن كبير من أمنية قدر ألتحاقه بالحظائر الفرعونية . حتى أبناء الفراعنة العظـــام ، كانوا يتلقون تدريباتهم العسكرية فيها . وما كان لغير أبنـاء تامرى أن يتعلموا بها مهما كان مركزهم فى بلادهم إذ أن الأنظمـــة المتبعة فيها تعتبر من الأسرار التى لا يجوز إطلاع الغريب عليها أو مناقشتها . وربمـا يكفى هنا أن أقرر أن هنالك نوعين من التدريب . أحدهما للضباط الذين يصلون فى ترقياتهم إلى أمير الجيش ، أو على الأقل أمير الجند ، أى قائد فيلق ، أى رايشع ، والآخر لا يتعدى الضابط فى ترقيته رئيس فرقة (خرى) . ومن البدهى أنه كانت تشترط فى الأول شروطا أقسى بكثير من الثانى ، ليس أقلها أن يحسن الضابط القراءة ، والكتابة ، وأن يدخل امتحانات عسيرة فى العلوم عامة .

لـكن التدريب البدنى كان واحداً تقريبا بالنسبة للجميع . لم يكن يهمل أى فن من فنون القتال ، والصراع . فهنالك ساعات لانهائية يقضيها الضابط تحت التمرين فى المبارزة ، سواء بالخناجر ، أو السيوف ، وفى التدريب على التصويب ، بالقوس والسهام ، والتحطيب ، واستعمال الدروع ، وفؤوس الحرب ، والمصارعة

والملاكمة ، والجرى ، والقفز ، والسباحة ، وحمل الأثقال . وكانت تجرى المباريات في كل من هذه التدريبات ، ويكافأ المتفوق ، ويعاقب المهمل أو المسيء .

ولم يكن جسر ( حور محب ) . وهو الذى كان يتولى تدريب جماعتنا ، بالمدرب المهمل . لم تكن هناك مرتبة بالنسبة له تعنى الكفاية ، بل يجب ان يصل الطالب إلى الكمال فى كل شيء . ولم يعن التفوق فى بعض التدريبات أنه يتسامح فى الأخرى ، وإنما كان على كل طالب ان يتفوق فى جميع التدريبات بلا إستثناء . وحينما أمضت فرقتنا وقتاً كافياً كان يقسمنا ، ويجعلنا نجرى مناورات حربية هى أقرب إلى القتال الحقيقى سواء بعربات الحرب ، أو الخيول ، أو على الأقدام حتى انه كثيراً ما كان يخرج بعض الطلبة من هذه المناورات بجروح وإصابات

ولعل أشق التدريبات كان ذلك الذى إبتدعه الضابط الشاب إذ كان يتوغل بالجماعة فى الصحراء لمسافة بعيدة ثم يحدد مكاناً معيناً لا يجوز لنا أن نتجاوزه ولم يكن يقبل أن يحمل أحدنا أى نوع من الطعام ، وإنما مجرد جرة واحدة من الماء لكل شخص . ثم كان علينا بعد هذا أن نقتات مما تجود به الأرض الجرداء وكان يصاحبنا فى هذه التدريبات ، كما أن مدتها كانت قصيرة لا تتجاوز ثلاثة أيام لكنها فى كل مرة كانت تزداد قليلا كما تضيق رقعة الأرض . وبالرغم من شدة الحرارة فى ساعات النهار ، وشدة البرودة أثناء الليل ، وبالرغم من أننا كنا نضيع ساعات لنستطيع أن نعثر على أى نوع من الطعام فى الصحراء إلا أنه كان يحتم علينا إلا نقوم بتدريباتنا الأخرى .

وحينما بدأت هذه الرحلات كنا سعداء بها ، لكننا سرعان ما بدأنا نحس بوطأة الحر نهاراً ، والبرد ليلا ، والجوع ، والعطش . وفى مقابل هذا سرعان ما زالت كل آثار الترهل أو الليونة ، أو الرخاوة التى كان العيش الرغد الطيب قد ترك آثارها على أجسادنا . تعلمنا كيف نصطاد الثعابين ، والسحالى ، وان نقتات بها ، بل ونستسيغ لحومـــها . شربنا عصارة بعض أنواع الصبار ، ومضغنا سيقانه ، وحينما كان يتمكن بعضنا من اقتناص حيوان كبير ، كنا نقيم وليمة ، وإحتفالا نبتهج فيه ونسرى عن أنفسنا . وحدث مرة أن كنا نطارد غزالا ، وكدنا نقتنصه فعلا إلا أن جسر قد منعنا من ذلك إذ قرر أن الحيوان قد تخطى حدود المنطقة التى حدد لنا الصيد فيها ، وبذلك استحق هو أن يعيش كما

يجب أن نجازى نحن بالحرمان من الطعام الشهى . ومنذ ذلك الحين كنا نبذل قصارى جهدنا أن تبقى الفريسة داخل النطاق الذى يحدده لنا ضابطنا الصارم . ومع مرور الشهور كانت المساحة التى يحددها لنا قائدنا تضيق ، فى حين تزيد أيام المعسكر .

ولم تكن مثل هذه الحياة تروق لبعض الذين إندرجوا ليتعلموا ، كما أن آخرين لم يكونوا يتحملونها، ولم يكن أمامهم من خيرة إلا الإنسحاب ، والبحث عن عمل آخر يتدربون عليه غير الجندية . وبهذا كان يقل عددنا يوماً بعد يوم حتى انه لم تمض شهور قلائل إلا وكان عدد الفرقة تحت امر جسر لا يزيد على ثلاثين ، أى أقل من ثلث العدد الذى بدأنا به . ولم تعط هذه الرحلات عائدا بدنياً فحسب ، وإنما علمتنا أن نستفيد من كل حجر فى الأرض ، وأن نتتبع كل أثر لحيوان ، أو زاحف ، وأن نميز بينها . تعلمنا أن نلائم أنفسنا مع الأجواء وأن نستفيد من أشياء لا يلاحظها الشخص العادى ، وأن نتصرف فى مواقف يرى غير المدرب فيها نهايته . تعلمنا عادات الحيوانات والثعابين ، والزواحف الأخرى ، وتصرفاتها فى حياتها العادية ، أو حينما يهاجمها ، عدو أو يحاصرها . وفوق هذا جميعه تعلمنا كيف نحب ، ونقدر ، ضابطنا الذى لم يأ كل أكثر من الشخص الآخر ، ولم يشرب سوى من القدر المخصص له ، والذى بدأ مدرباً قاسياً صارما لا يعرف الرحمة، لينتهى رفيقاً يتعلم منا كما نتعلم منه . كان العلم الذى إختاره لنا ضابطنا يمثل الأسد واقفاً، ومن خلفه نبات البردى يعلوه هلال يتفرع منه أوراق نبات اللوتس على شكل نصف دائرة كاملة. ولم يكن منا من لا يقدس هذا العلم ، أو من لم يشعر بأنه هو الرمز الذى يجمع حوله قلوبنا .

ولعل من أكثر التدريبات التى تمتعت بها هى أنواع القتال على ظهور الخيل . كان علينا أولا أن ندرب جيادنا . وهنا ظهر ذكاء « كم » ان لم أقل عبقريته . كانت مجرد لمسة من الركبة ، أو ضغطة صغيرة باللجام ، أو كلمة هامسة ، تكفى لأن يفهم الجواد الكريم وأن يستجيب استجابة فورية . كنت أشعر أنه جزء منى جسداً ، وإحساساً فلم أكن فى حاجة لأن أنقل إليه رغباتى باكثر من مجرد إشارة يسيره . وبالرغم من ضخامة جسمه فان حركاته كانت خفيفة سريعة بشكل لا يصدق ، مع هذا فانها كانت حركات ثابتة ، أعني انها لم يكن فيها إرهاق لا مبرر

له للراكب ، فلم يكن فيها حركات لا داعى لها . ولم يكن هنالك من يدانيه فى كل الحظائر الفرعونية فى سرعته أو قدرته على الاحتمال . شىء واحد لم يقبله الجواد ، هو أن يقيد إلى عجلة حربية مع جواد آخر . حاولت ذلك أكثر من مرة ، ولكنه رفض رفضاً باتاً حتى اننى تنازلت فى النهاية عن استعماله فى العجلات .

على ظهر « كم » أجريت تدريباتى فى الفروسية بشتى أنواعها ، وفى القتال بمختلف ضروبه وأساليبه . بالرمح ، والسيف والقوس ، والنبال ، وفأس الحرب . ولو تكلمت عن أنواع التدريبات المختلفة لما كفانى كتاب كامل ، ويكفى أن أقرر انها شملت جميع الأوضاع ، وجميع أنواع الأراضى ، وكل الأضواء ، وكل درجات الحرارة . لم تكن هنالك تفصيلات مهما دقت يعتبرها قائدنا هينة يمكن إهمالها . كان كل شىء لديه هاماً يجب أن يدرس بدقة ، وعناية ، وأن ندرب عليه التدريب الكافى الذى يصل به إلى حد الاتقان .

لكن حياتنا فى الحظائر لم تكن كلها دراسة ، وتدريب ، وتحمل الشدائد بل أن هنالك أوقاتاً كانت تترك للسمر الجماعى ، كما كانت هنالك أوقات أخرى يترك كل فرد فيها لنفسه يفعل ما يشاء . واحسب أنه فى جميع أنحاء العالم حينما يكون هنالك عمل شاق ، وخطر ، فانه دائمـــاً . . يستتبعه إغراق فى اللهو والتسلية . ففى مثل هذه الأوقات ، أعنى التى كنا نترك فيها لأنفسنا كان الضباط تحت التمرين يتوجهون إلى المدينة ليتذوقوا جميع أنواع اللهو البرىء وغير البرىء ، وكان الأخير هو المفضل . دائماً . لم تكن توجد حانة تخلو من مجموعة صغيرة ، أو كبيرة من الضباط وقد انطلقوا فى مرح صاخب ليس له حدود . خمر ، وموسيقى ، ونساء ، ولهو ، وما يتبع هذا عادة من شجار وقتال .

ولم أكن بطبيعتى ، أميـــل لمثل هذه الأنواع من التسلية ، كما أنى كنت أعتقد محبوبتى تفنت ، ولهذا كانت الساعات التى أقضيها خارج الحظائر تمر كلها معها ، فى حديقة قصر عمهـــا أو على صفحات النيل ، أو بين المزارع والحقول ، أو فى الصحراء وفى القصر كان لى لقاء مع عم الفتاة أستاذى رعموسى كنا كفنت وأنا جالسين فى الشرفة نطل على الحديقة الواسعة حينما ظهر الكاهن يتقدم نحونا باسما .

— مرحباً بك يا كاى . لقد مضت مدة طويلة لم نرك فيها .
ووقفت إحتراماً لاستاذى .
— شكراً يا سيدى إننى كنت فى الحظائر الفرعونية .
— آه إنك تبدو فى أحسن حال ، ربما أنحف قليلا ، وربما أطول قليلا
قل لى كيف حال كتفك الأيمن ؟
— لقد التأم الجرح تماماً ولم أعد أشعر به .
كان الكاهن أثناء الحديث قد تناول مقعداً وجلس ، لكنه حينما سأل عن كتفى ، قام من مجلسه وإقترب منى . وحينما حاولت النهوض ، وضع يده برفق على ليمنعنى .
— دعنى أراه .
قال هذا وأزاح طرف الرداء قليلا ، ومكث برهة ينظر فى آثار الجروح ويتحسس مواضعها بأصابعه الدقيقة ، وبعد أن اقتنع أعاد الرداء إلى حاله وعاد إلى مقعده .
— أجل لقد التأم تماما . إنك حسن الحظ فلن يكون هنالك أى أثر على حركة الكتف أو الذراع وكل ما تركته مخالب الفهد هى آثار تذكرك بالواقعة .
وتدخلت تفنت فى الحديث فقالت مبتسمة .
— لست أحسب يا عماه أنه سوف ينساها سواء أتركت آثاراً أو لم تترك أتعلمان أن سى موت ما زال طريح الفراش ؟
وابتسم الكاهن الوقور .
— ألا زلت عند عادتك فى النظر إلى أحوال الآخرين ؟
— لا يا عماه إننى فقط لا أطمئن لهذا الرجل ولا أعتقد أنه سوف يترككما كاى فى حالكما . وبهذه المناسبة اتعلمان أن ابنه خع قد وصـــل إلى نيوت ذ يومين ؟
قطب الكاهن ما بين حاجبيه .
— لست أحسبك تتجسسين عليه أيضاً ؟
— لا لكنه جاء لزيارتك البارحة ولما لم تكن موجوداً فقد استقبلته .
— ولماذا لم تخطرينى بذلك ؟

— لأنى لم أرك .

وقال الكاهن مفكراً .

— ترى ما الذى يريده خع منى . . ؟

وأدليت برأيى .

— أعتقد أنه أتى برسالة من والده .

— هل تعلم ما هى ؟

وبدلا من أن أجيبه على سؤاله طرحت عليه سؤالا آخر لم يكن يتوقعه .

— هل تعلم يا سيدى متى سوف يتزوج الفرعون من إبنه ملك ميتانى ؟

ظهرت علامات التفكير على أستاذى .

— حينما تصل من بلادها ، وأحسب أن والدها قد وافق على إرسالها فعلا أوعلى الأقل هكذا قد توارد ت الأنباء . لكن ماعلاقة هذا بسى موت أو نجله .

— إن الفرعون سوف يتزوج من الأميرة ، وهو يريد أن يخلو بعد ذلك إلى عروسه ، وقد سمعت أنه سوف يأمر باشتراك سمو الأمير معه فى العرش ، ومعنى هذا أن أية محاولة لاستبعاد سموه يجب أن تتم قبل أن يتم الزواج الفرعونى وإلا وجد سى موت نفسه يحاول إستبعاد فرعونا وليس مجرد ولى عهـــد .

كنت أتكلم والكاهن ينصت فى صبر ، بينما إعتدلت الفتاة فى مقعدها وتحفزت للتدخل . وكانت هى فعلا التى تكلمت بعد أن فرغت من حديثى .

— أتعنى بهـــذا أن سى موت يريد القضاء على سمـــو ولى العهد قبل زواج الفرعون ؟

— أجـــل .

— وما علاقة هذا بزيارة ابنة لعمى ؟

— انه يعلم أنه لن يستطيع ألوصول إلى سموولى العهد طالما أن سيدى الكاهن على قيد الحياة .

وتدخل الكاهن فى الحديث .

— ألا تظن يا بنى أنك قد أسرفت فى الخيال ؟ ومع هذا فهب انك على حق فى استنتاجاتك ما الذى يستطيع خع باوو أن يفعله ؟

— سيدى اننا نعلم أن سى موت ليس الآن فى حالة يستطيع أن ينازلك فيها

أعنى أن كا ـ ف ، وبا ـ ف(١) ليسا من القوة والنشاط بحيث يجرؤ على المجازفة بنزالك ، وفى الوقت نفسه اننا نعلم أنه يريد القضاء عليك ، وربما على أنا أيضاً، بأسرع ما يستطيع ، أعنى قبل أن يتولى سمو ولى العهد العرش .

توقفت عن الحديث برهة ريثما ترسخ كلماتى ، وما أهدف إليه ، وأخيراً تكلم أستاذى السابق .

— أتعنى أنه سوف يلجأ إلى القوة المادية المباشرة ؟

— أجـــل .

— إنه لا يجرؤ .

— لماذا؟ لقد جرؤ على استعمال وسائل الحـكا (٢) ، فما الذى يمنعه من استعمال القوة المجردة .

تردد الـكاهن قليلا ثم أجاب بصوت يغالبه الضعف .

— ربما تكون محقاً يا بنى . وعلى أى الأحوال فسوف توضح لنا الأيام مدى صحـــة رأيك .

انتقل الحديث بعد هذا إلى موضوعات أخرى ، لـكن كان من الجلى أن سحابة قاتمة قدحلقت فوق رؤوسنا، وأن كلا منا كان يفكر فيما قديلجأ إليه سى موت وولده . وبعد فترة استأذنت فى الإنصراف إذ كان على أن أتفقد شئون قصر والدى ثم أستعد للعودة إلى الحظائر الفرعونية فى الصباح المبكر .

كان خندو فى إنتظارى عند باب قصر الكاهن ومعه جوادى « كم » فامتطيت صهوة الجواد ، ووجهته إلى القصر حيث تبعنى العبد ، وهو يعدو بخطوات واسعة سهلة لا أثر فيها للتعب أو الـكلال . ولم تـكن المسافة بين قصر الكاهن وقصر والدى بعيدة فقطعناها فى دقائق معدودات ، وحينما وصـلنا استقبلنى سحبت ابب مدير القصر ، وأخطرنى أن نترى فى إنتظارى فى قاعة الإستقبال ، كما أنبأنى بأنه فى فترة غيبتى ابتنى اسطبلا يسع عشرة جيـــاد ، فاتجهت أولا إليه ، وحينما تفقدته أعجبنى ترتيبه ، ونظام التهوية فيه ، فادخلت « كم » إحدى الحظائر ثم عدت إلى القصر .

---

(١) ف ضمير المفرد الغائب

(٢) القوى فوق الطبيعة .

وتلقانى نترى باسماً متسائلا .

— أين كنت ؟ لقد بحثنا عنك فى كل حانة من المدينة .

— بحثنا ! ؟ من كان معك ؟

— قائدنا جسرو، كما أننا قابلنا أحد اصدقائك، أتعرف خع باووسى موت؟

— آه أجل أعرفه .

— لقد رأيناه فى إحدى الحانات ، وحينما سمع اننا نسأل عنك قدم لكل منا كأساً من النبيذ وقرر أنه زميل صباك .

— وماذا قال أيضاً ؟

— لم يقل شيئاً إلا أنه يود أن يراك ، وأنه جاء ليلتحق بالاسطبلات الفرعونية ، وأن تكن لديه مهمة سوف يقوم بها قبل ذلك .

— ألم يقل كم سوف تستغرق هذه المهمة ؟

— لا . وإن كنت أعتقد من سياق الكلام أنها لن تستغرق أكثر من بضعة أيام .

— وهل تعلم أين جسرو الآن ؟

— أجل إنه عاد إلى الإسطبلات . إن هذا الشخص لا يعيش إلا للجيش فهو لا يستطيع أن يبتعد عن محيطه حتى للراحة ، أو الترفيه .

وبالرغم مما كنت أشعر به من قلق فإنى إضطررت للإبتسام إذ أن وصف نترى لقائدنا كان صحيحاً .

— إسمع . هل تستطيع أن تطلب لى أجازة لمدة اسبوع ؟

قطب نترى عن جبينه ، لكنه أجاب .

— بالطبع أستطيع . وإن كنت لا انصحك بهذا . إنك تعلم مدى شدة القائد ، ولست أحسب أنه سوف يرحمك بالرغم من الود الظاهر الذى يبديه نحوك .

— قل له إنها مسالة حياة أو موت .

— كاى ! إنك فى مشكلة هل أستطيع المساعدة ؟

ترددت قليلا قبل أن أجيب . الواقع اننى كنت فى حاجة إلى المساعدة ، ولم أكن أدرى .. ما أستطيع أن أفعله بمفردى. كنت واثقا أن خع باووسوف

يحاول الإضرار بالكاهن خلال الأيام القليلة القادمة ، لكننى لم أكن أدرى كيف سيفعل هذا، فكان على أن أراقبه . ولم يكن فى استطاعتى أن أقوم بالمراقبة بمفردى ، وقد فكرت فى الاستعانة بخندو ، ولم يكن من شك فى أن العبد الأمين سوف يقوم بالمهمة خير قيام ، كما أنه من البدهى أنه من الأفضل أن يقوم بالمراقبة أكثر من شخص . وأخيراً استقر رأيى أنه لا داعى الآن لاقحام نترى فى الموضوع . فالتفت إليه قائلا :

— كلا يا صديقى ، على الأقل ليس الآن .

لم يبد على نترى أنه اقتنع بالإجابة ، لكنه لم يلحف فى الطلب خشية أن أتضرر من تدخله فى أمورى الشخصية ولم أشأ من ناحيتى أن أعطيه فرصة للرد أو التفكير، فسألته إن كان قد تناول عشاءه ولما أجاب بالنفى صفقت لحضر واحد من العبيد وطلبت إعداد الطعام فإنسحب ملبيا . والتفت إلى صديقى قائلا :

— والآن هلا تفضلت بقبول ضيافتى الليلة . إنك لن تتوجه بالطبع إلى الإسطبلات قبل الصباح .

ارتسمت على شفتيه إحدى إبتساماته البسيطة ، الصريحة ، التى جعلتنى أميل إليه من أول لقاء لنا .

— الواقع انى كنت أرجو أن تدعونى للمبيت .

ورددت الإبتسامة بمثلها .

— إنك دائماً فى منزلك ، وإنك لتعلم أنك تأتى على الرحب والسعة فى أى وقت تشاء .

انتقلنا بالحديث بعد ذلك إلى مواضيع أخرى حتى جاء أحد الخدم وأعلن أن العشاء قد أعد . وبعد تناول الطعام صعدت مع صديقى إلى الغرفة التى أفردتها له ثم تركته إلى غرفتى ، حيث استقبلنى خندو ليساعدنى على الاغتسال وابدال ثيابى .

وابتدرت خندو بعد أن فرغ من مهامه .

— خندو إنى أريد منك خدمة ، لكنها تحتاج إلى صبر وحذق ، ولن تستطيع أن تفعلها بمفردك فهل هنالك من الخدم من تثق فى أمانته وحسن تصرفه ؟

ولم يزد العبد الأمين على أن أجاب :

— أجل يا مولاى .

— إن هنالك شخصاً إسمه خع باوو بن سماحة النبي الرابع لسي موت هل تعرفه؟

— أجل يا مولاى .

— حسناً لا أدرى أين يقطن ، لكن لا بد أن لوالده مقراً فى المدينة ، وكل ما أريده أن ترصد تحركاته . ولكى تكون على بينة من الأمر إنى أعتقد أنه يريد الحاق الأذى بأستاذى رعموسى أو بابنة أخيه ، وعلى أن أمنع ذلك .

— حسناً يا مولاى .

وهم العبد بالإنسحاب ، لكننى استوقفته .

— خندو إننى لا أريد أن يعلم أى شخص بما أخبرتك به ، وحتى من سوف تستخدمه لا أريده أن يعلم شيئاً عن السبب فى مراقبة تحركات خع باوو .

أحنى الرجل الأمين رأسه ، ثم انتظر برهة حتى إذا علم أن الحديث قد إنتهى إنسحب من الحجرة ، وتركنى نهباً للأفكار والهواجس . ومضى من الليل شطر طويل وأنا مستلق على فراشى لا يواتينى النوم ، وحينما بدأ النعاس يغالبنى طرأت على عقلى فكرة جعلتنى أفتح عينى وأنا فى كامل انتباهى وصحوى .

إننى كاهن لآمون ، ولا شك أن سى موت وولده يعملان لصالح رب الأرباب ويحاربا المارق . لماذا إذاً أقف ضدهما ؟ لماذا لا أقف على الحياد على الأقل ؟ أهو بسبب محبوبتى تفنت ؟ أم هو الولاء لأستاذى ؟ أم هو ذلك الوجه القبيح الهادىء الذى يشع رقة ، والذى يطالعنى بابتسامته الصريحة الساذجة ، والذى تتحرك شفتاه الغليظتان لتخرج صوتاً عميقاً ، وكلمات رصينة تنفذ إلى أعماق القلب مباشرة ؟

مضى يومان على الأحداث السابقة . وكنت أذهب كل صباح إلى قصر رعموسى حيث أقضى بعض الوقت معه ، ومعظم الوقت مع تفنت ، حتى أننى فى هذين اليومين تناولت غذائى معهما . وان كان الكاهن قد لاحظ اننى لم أعد إلى الإسطبلات الفرعونية كما كنت قد أعلنت ، وكما هو الواجب فانه لم يشر إلى ذلك ، وإن سألنى فى حديث له معى أننى ما دمت أصر على الاستمرار فى الإقامة فى نيوت فلماذا لا أذهب لأستزيد بعض العلم فى دار الحياة فى أون ( هليوبوليس ) . وكنت فعلا تواقا لأن أذهب إلى هناك لكثرة ما سمعت عنها لكنى أجلت ذلك إلى ما بعد الانتهاء من المشكلة التى أمامى .

فى كل يوم كان خندو يأتى إلى حجرتى فى المساء ليعطينى تقريره . ويبدو أن خع باوو كان يعيش فى هذين اليومين حياة مترفة لشاب صغير جاء إلى نيوت لمجرد التسلية واللهو . وفيما عدا هذا ، وخلعه رداء الكهنوت، ليستبدله بالملابس العادية ، وارتياده الحانات ، لم يكن هنالك ما يمكن أن يشير من قريب أو بعيد إلى أنه ينتوى أن يقوم بأى عمل مما كنت أتصور أنه قد أرسل من أجله .

وحل مساء اليوم الثالث . وبالرغم من أنى بقيت مستيقظاً إلى ساعة متأخرة من الليل فان خندو لم يحضر حتى أنى بدأ ينتابنى القلق عليه . ونمت فى هذه الليلة نوماً مضطرباً أرى فيه أشباحاً تتحرك فى الظلام، وخيالات تشبه وجوها سلخت عنها جلودها ، وأفاعى كثيرة تملأ أرض الحجرة حتى أنها كانت تتلوى فوق بعضها. ولما نهضت فى الصباح كان أول وجه يطالعنى هو خندو . كانت أعصابى مرهفة من أثر الأحلام التى رأيتها فى نومى حتى أننى سألته بغضب عن سبب عدم مجيئه فى المساء السابق .

وأجابنى العبد بصوت هادىء أنه كان يتتبع خع باوو الذى ذهب فى المساء إلى إحدى الحانات ، ومكث بها إلى ساعة متأخرة ، فانتظره حتى خرج ؛ لكنه كان يصحب إحدى فتيات الحانة ، ويبدو أنها من العابيرو ، إذ أنهما ذهبا إلى سوياً إلى حى هؤلاء القوم حيث دلفا إلى أحد المنازل ولم يخرج خع باوو إلا قبل الفجر وحينما تأكد خندو أنه قد ذهب إلى قصره لينام مكث بعض الوقت يراقب القصر ثم عاد ليرفع تقريره .

وانتابنى الخجل من أن يتملكنى الغضب فى الوقت الذى قضى فيه الرجل كل ليلته فى خدمتى دون أن ينال أى قسط من النوم ، فاعتذرت له ، وطلبت منه أن يذهب إلى غرفته لينال كفايته من الراحـــة ، وانسحب خندو دون كلمة أخرى بعد أن تركنى فى رعاية أحد خدم القصر .

بعد أن أتممت زينتى ، وتناولت إفطارى ذهبت إلى قصر أستاذى السابق فوجدت مدير القصر فى إنتظارى ليخطرنى بأن تفنت ذهبت إلى قصر الفرعون وأن أستاذى ينتظرنى فى حجرة المكتب . وتلقانى الكاهن واقفاً مرحباً وأشار إلى مقعد مريح أمام المكتب الذى يجلس خلفه ثم إبتدرنى قائلا :

— كاى إننى خائف !

وإن كنت قد دهشت لإعتراف الكاهن الوقور بالخوف بمثل هذه البساطة فإن وجهى بقى على جموده لا تنىء قسماته عما يعتمل فى داخلى . شعرت بعينى

استاذى تتفرسان فى محاولا أن يستشف وقع كلماته . ودام الصمت بيننا برهة قطعه الكاهن .

— انى رجل علم ودين . ولا أعتقد أن أى عدو عاقل يجرؤ على منازلتى فى هاتين الناحيتين . اعنى اننى استطيع أن أقاوم أى شخص إذا هاجمنى عن طريق العلوم الروحية . لكن أنبياء آمون ، خاصة سى موت ، قد اثبتوا أنهم لن يقفوا عند حد فى سبيل القضاء على سمو ولى العهد ومن يتبعه . إنك أحبطت محاولات لهم فعلا ، لكنهم لن يقنطوا وان يهنـوا ، وسوف يستمرون فى محاولاتهم حتى ... ينجحوا .

انتظر الكاهن قليلا ريثما يلتقط أنفاسه ، ويعيد ترتيب أفكاره ثم استطرد .

— إن أكثر المحاولات ، إن لم تكن جميعها تأتى من ناحية سى موت كما تعلم . وهو الآن طريح الفراش لا يستطيع أن يستخدم قواه الشيطانية فى محاولات جديدة ، لكنه ليس عاجزاً . لقد أرسل ابنه ، ومعنى هذا أنه سوف يستخدمه فى الهجوم . فهل تستطيع أن تعطينى أية إشارة لما قد يقوم به ؟

تململت فى جلستى . كنت حتى هذه اللحظة لم ألق كل ما يجول فى خاطرى ، لكننى أمام هذا السؤال الصريح ، وأهمية ما يدور حوله لم أر أن من الحكمة أن أظل ساكتاً .

— إن خع باوو كان من أنبغ الطلبة فى دار الحياة . ولاشك أن والده أيضاً قد أضاف إلى معلوماته الكثير . وإنى أعلم أن سماحه النبى الرابع سى موت ، لم يهمل فى تربيته من الناحية العسكرية حتى قبل أن يرسله إلى هنا لاتمام تعليمه ، إذ كان قد استأجر له مدربين فى جميع فنـون القتال سواء باليد من ملاكمة ومصارعة أو للسلاح من العصى إلى الرماح والسهام والسيوف . فإذا أضفتم إلى هذا أن خع باوو ماكر خبيث شرس النفس لأمكنكم أن تتصوروا مدى إمكانياته .

— اتعنى بهذا أنه سوف يهاجمنا عن طريق الحكا ( القوى الطبيعية الخفية ) ؟

أحنيت رأسى إيجاباً ثم أضفت .

— وعن طريق القوة البدنية المجردة أيضاً .

أطرق الكاهن مفكراً ، وحينما رفع رأسه كانت عيناه قلقتين .

— هذا ما أخشاه . إننى قلت لك إننى ند لأى شخص فى العلوم الخفية .

أما الناحية البدنية فلا قبل لى بها ، وهو لن يهاجمنى رأساً وإنما عن طريق تفنت إذ أنه يعلم أنه بهذا سوف يصيبك كما يصيبنى .

— ولكنكم تستطيعون أن تعينوا حرساً حولها .

— وهل يصمد هذا الحرس أمام قوى الحكا ؟هذا مع فرض أنك وجدت الحرس الأمناء ؟

وجاء دورى فى الأطراق ، فلم تكن هنالك إجابة قاطعة يمكن أن يطمئن بها المرء . وتكلم الكاهن .

— أرأيت ؟ إنك لا تستطيع الإجابة . على أن الأمر ليس بهذا السوء ونحن الاثنان موجودان . لكنك سوف تضطر إلى الذهاب إلى الاسطبلات الفرعونية كما اننى على أعباء مراعاة سمو ولى العهد وأسدائه النصح وبهذا سوف تبق تفنت بمفردها عرضه لكل هجوم .

— إذا فلن أترك ينوت .

هز الرجل العجوز رأسه نفياً بحزن ظاهر .

— كلا يا بنى إنك لن تستطيع أن تقطع دراستك ، وتدريباتك بل إنك قد عرضت نفسك فعلا الآن للعقاب على التأخير فى العودة ولست أقبل هذا ، بل لن تقبله تفنت .

— أليس هنالك حل إذا لحمايتها ؟

— لست أعتقد أن هنالك حلا حاسماً ، لكننا نستطيع أن نتخذ أقصى ما يمكن من حيطة ، وسوف التمس من سمو ولية العهد أن تقبل أن تقيم تفنت فى القصر الفرعونى بصفة دائمة ، كما أنى سوف استخدم أحـــد الرائين لمراقبتها أطول وقت مستطاع .

— لكن ألا أستطيع أن أفعل شيئاً ؟

— كلا يا بنى ، ليس الآن على كل حال ، لكننى لن أتردد فى الإتجاه إليك إذا دعت الضرورة .

ولم أكن مستعداً لأن أقف موقف المتفرج فى حين يعمل أعداء محبوبتى على قتلها ، ولكننى من ناحية أخرى رأيت عدم جدوى مناقشة الكاهن أكثر

من هذا فأستأذنت منه أن أذهب إلى تفنت لأودعها قبل عودتى إلى الحظائر الفرعونية ، وحينما أذن انسحبت .

امتطيت جوادى « كم » متجهاً إلى قصر الفرعونى ، وحينما وصلت اخترقت البوابة الضخمة وقدت الجواد عبر الحدائق الفسيحة الرائعة . كانت هذه هى المرة الثانية التى أدخل فيها إلى القصر الفرعونى فى نيوت ، وبالرغم من أننى فى المرة الأولى سرت مع تفنت فى أرجاء الحديقة ، أو بعضها إلا اننى كنت فى الواقع مأخوذا بجمال رفيقتى حتى أننى لم أكد الحظ أى شيء حولى سواها ، أما الآن وأنا اخترق طرقات الحديقة فقد بهرنى المنظر حتى اننى نسيت مؤقتاً المهمة التى جئت من أجلها .

إن أول مايستلفت النظر هى الضخامة . الضخامة فى كل شيء، فى الحديقة، فى المبانى ، فى الأشجار ، فى سعة الطرقات . كان كل شيء ضخماً . كان القصر فى الواقع مدينة صغيرة نسقت تنسيقاً جميلا تشهد مدى ما لمهندسها ، امنحوتب بن حابو ، من مقدرة ، وعبقرية . كانت المبانى ، والحدائق تشغل مساحة تقارب ثمانين فداناً مما أعطى فرصة كبيرة لأن تتباعد المبانى عن بعضها ، خاصة عن القصر نفسه . ولن أطيل فى الوصف ، وإلا لاحتاج الأمر منى إلى صفحات وصفحات كما أن كل قارىء لابد أنه يعلم عن مدى الضخامة والفخامة التى تميز بها البناء .

كان القصر يتوسط المساحة جميعها ، ويصل إليه الداخل عن طريق طويل يبدأ من الباب الرئيسى مباشرة فى خط مستقيم حتى أن أول مايراه الناظر هو القصر الذى يبدو كطائر أبيض ضخم فرد جناحيه وربض قابعاً يحتل مساحة هائلة بغرفة التى تزيد على الخمسمائة وصالاته الفسيحة العديدة ، وشرفاته وردهاته الواسعة ، وتناثرت الأشجار والزهور فى تنسيق بديع حول الطريق المؤدى إليه ، فى حين ظهرت البحيرة الصناعية الصغيرة إلى الجنوب منه تحف بها أشجار النخيل المتباين الثمار . ومن جميع النواحى كانت حدائق الفاكهة تحيط بالقصر حتى أنها تكاد أن تحجب باقى المبانى التى تناثرت بعيداً كأنما هى فى مدينة أخرى . ومن خلال الأشجار يستطيع الرائى أن تبين بوضوح قصر الوزراء وكبار الموظفين ، وقصر الضيافة ، ومبنى موظفى القصر وأماكن مبيتهم . لكن الناظر لا يرى كل الأبنية فهناك مبانى لسكن الخدم وأخرى للعبيد وثالثة للمطابخ ، وهناك صوامع الغلال ، ومخازن

الطعام ، وحظيرة الخيول الملكية ، وأماكن للكلاب ، وعشرات المبانى الأخرى التى خصصت لأغراض متعددة .

الضخامة والفخامة . هما طابعا العصر ، لا القصر فحسب . كل شىء فى البلاد كان يتسم بهما حتى بدت مترفة متخمة . ولم أستطع أن أمنع نفسى من التساؤل هل تستطيع دولة وصلت إلى هذا الحد من الرفاهية أن تحتفظ بالملك العريق الذى قام على أكتاف فراعنة أمجاد بنوه بأنفسهم وبحد حسامهم ؟

عرجت بجوادى إلى الجناح المخصص لولى العهد وحاشيته . واستقبلنى أحد السائسين ليأخذ بزمام « كم » . وبدأ الجواد يتمنع ، لكننى ربت على كتفه ، وخاطبته بلهجة رقيقة سرعان ما استجاب لها ، وسار خلف السائس . صعدت الدرج إلى الشرفة الواسعة ليستقبلنى واحد من موظفى التشريفة ، ولما سألت عن تفنت ، قادنى عبر الصالة الفسيحة ليتركنى فى حجرة جانبية هى أقرب إلى صالة أخرى منها إلى حجرة استقبال .

مضت حوالى عشرة دقائق ظهرت بعدها تفنت فى ثوب سماوى رائع وتقدمت نحوى بسرعة وحيوية مادة كلتا يديها . فتناولت اليدين الرقيقتين بين يدى وراحت عيناى تلتهمانها . وسمعت صوتها موسيقيا هامسا يتهادى فى حياء .

— كاى إنك تؤلمنى .

ويبـــدو أنى ضغطت على يديها أكثر من اللازم دون وعى منى ، وحينما نبهتنى كلماتها سحبت يدى سريعاً ، ورفعت عينى إلى وجهها لأرى حمرة الخجل تضرج وجنتيها .

— إننى آسف لم أقصد إيذائك .

— طبعا لم تقصد لكنك فعلت . أنك لاتدرى مدى قوتك .

خرجت من فمها الكلمات الأخيرة فى لهجة أقرب إلى الفخر منها إلى اللوم ، حتى أنه جاء دورى ليتملكنى الخجل من الإطراء الذى لم أعتده . لكن تفنت على عادتها لم تدع لى فرصة للرد واردفت .

— إسمع إن الأمير قد سمع بوجودك، وهو يدعوك إلى الغداء معه ،وسوف

تكون نحن الأربعة فقط . الأميران وأنت وأنا ، وربما لحق بنا نيافة عمى

— لكن أليس الوقت مبكراً جداً على الغداء ؟

— أجل ، لكن سمو الأميرة كانت لطيفة معى فأعفتنى من المدة الباقية لأبقى معك حتى يفرغ الأميران من مهامهما الصباحية .

— إذا فعليك أن تعودى إليهما ثانية فإنى أزمع الرجوع إلى الحظائر الفرعونية اليوم ، وهنالك مهمة أريد أن أؤديها قبل أن أترك نيوث .

بدت خيبة الأمل على وجه الفتاة .

— هل ستعود هكذا سريعاً إلى الحظائر ؟ ألا تستطيع أن تؤجل ذهابك ليومين آخرين ؟

— كلا إننى متأخر الآن وما كان يجوز أن أتغيب الأيام الأربعة الماضية . متى يتناول الأميران عادة طعامهما ؟

— فى تمام الساعة السابعة ( الواحدة بتوقيتنا الآن ) .

— إذا فلدى حوالى الساعتين أستطيع فيهما أن أؤدى مهمتى ، وسوف أكون هنا قبل الموعد بقليل .

لم أنتظر ردها ، بل اختطفت قبلة سريعة وهرعت خارجا قبل أن تستطيع إيقافى . ولم يكن « كم » فى حاجة إلى أن يأتى به أحد ، وإنما رأيته يندفع نحوى ، وكأنى قد غبت عنه أياما فى حين كان السائس يركض وراءه محاولا اللحاق به . لم أتمالك نفسى من الإبتسامة للمنظر ، وتعمدت أن أتكلم برفق مع الرجل اللاهث لأؤكد له أنه لم يخطىء . وإمتطيت صهوة جوادى ، وأطلقت له العنان مخترقا حدائق القصر ، متجها إلى المعبد .

سبق أن ذكرت أن معبد الرب بتاح بناه أيضاً المهندس العبقرى امنحوتب بن حابو ، وهو تحفة فنية لم أشاهد لها مثيلا فى كل معابد الأرباب ، لاحتى ولامعبد رب الأرباب فى واست . لكننى لم أكن مهتما بما كان حولى من جمال وعظمة ، ولارعيت إلتفاتا إلى الأبواب الموشاه بالذهب ، والفضة ، والمحلاة بالأحجار الكريمة ، وإنما كان كل ما يجول فى خاطرى هو أن اقابل الوعب ( الكاهن المتطهر ) حوتى تحت ذلك الرجل الطيب الذى اولانى صداقته ، واشعرنى بالأبوة ، والحنان فى المقابلة الوحيدة التى تمت بيننا فى قصر والدى .

لم تمض دقائق قليلة منذ أن أخبرت أحد خدم الإله برغبتى فى مقابلة الوعب حتى ظهر الكاهن نفسه بوجهه الطيب الباسم وشد على يدى مصافحا .

— كاى ... بنى مرحبا بك فى رحاب الاله .

— إنى أريد أن أخاطبك على إنفراد يا أبى .

— إذا تعالى بنا نسير فى حدائق المعبد فهى أضمن مكان للإنفراد فما يعلم أحد من يكون وراء الجدران فى هذه الأيام المضطربة .

تعجبت لقول الوعب ، لكننى سرت إلى جانبه صامتا ، وبعد دقائق وقف الرجل ونظر إلى فى إشفاق .

— والآن هل من خدمة أؤديها لك ؟

— أولا خبرنى ياأبى عما حدث للصرة التى أعطيتك أياها ؟ .

أجاب الوعب ببساطة .

— لقد رددتها إلى من حملنى الرسالة .

— وماذا كان تأثير ذلك ؟ .

— لست أدرى تماماً ، لكننى أعتقد أن من تسلمها لم يكن راضيا .

— من الذى تسلمها ياأبى ؟ .

نظر إلى الوعب متفرسا برهة ثم علت على شفتيه شبح ابتسامة .

— سأغفر لك هذا السؤال فإنك صغير السن

شعرت بمدى خطئى فى سؤاله الذى قد يعنى خيانة لأمانة اؤتمن عليها ، فبادرت بالإعتذار خجلا ، لكن الرجل الطيب أشاح بيده إشارة إلى أن الموضوع قد إنتهى . وبادرته خائفا .

— أب إننى فى حاجة إليك .

لم يتكلم الرجل ووقف صامتا ينتظر بصبر أن أقرر حاجتى .

— إننى لا أعلم إن كنت سوف تقبل معونتى فإن ماسوف أطلبه يتعلق بواحدة ممن يطلق عليهم « المارقون » ولكننى سأروى لك القصة حتى تكون عالما بالحقائق قبل أن تقرر أن كنت سوف تمد يد المعونة إليها وإلى .

ظل الوعب على صمته ، ولم ينه بكلمة طوال ربع الساعة التالية وأنا أروى

له ما فعله النبي الرابع لرب الأرباب ، وأبوح له بمخاوفي مما قد يفعله نجله .
وحينما إنتهيت سأل الكاهن .

— وما سر إهتمامك أنت ، وأنت كاهن في معبـــد رب الأرباب ، وإبن النبي الثالث ؟

وتضرج وجهي وأنا اعترف .

— إنني أهوى الفتاة تفنت .

تفرس الكاهن في وجهي .

— أهذا كل مافي الأمر ؟

— لا بل إنني أكره الغدر والقتل غيلة ؟

وبدا عليه أنه يفكر مليا في مامر عليه من حديث ويزن كل كلمة بحت بها . وبعد اطراقة طويلة رفع رأسه وكأنما قد استقر على رأي .

— وما هو الذي تطلبه مني ؟

— أن ترعى الفتاة . أن تكلف أحد الرائين . بمراقبتها فإذا مارأى خطرا أنذرك لتنذرني . وسوف أترك خندو عبدي الأمين ليكون طوع اشارتك .

— حسنا سأفعل هذا . لكن ألا يكون من الأيسر أن أتصل بك عن طريق السكا ؟

— أجل ، لكنني سأترك خندو هنا على أي الأحوال فقد يتعذر الإتصال لسبب أو آخر ، أو ربما إحتاج الأمر لتدخل سريع لا تمكنني ظروفي في الحظائر الفرعونية من أن أهرع بالسرعة الكافية فيكون في وجوده فائدة .

وهز الكاهن رأسه موافقا ، وحينما شكرته وهممت بالانصراف إستوقفني بحركة خفيفة من يده . ثم قال :

— إستمع إلي ياكاي . لقد استأمنتني على أسرارك ، وهذا شرف عظيم لي وإنني لأرى من واجبي أن استأمنك على سري ، وإلا شعرت بأنني بشكل ما خائن لك . إنني يابني أحد هؤلاء المارقين .

لم أتمالك نفسي من التراجع كأنما أصبت بضربة مفاجئة . والواقع أن إعتراف الوعب جاء مفاجأة تامة لي ، فحتى هذه اللحظة كنت أظن أن المارقين لا يتعدون بضع عشرات ، أو على الأكثر مائة ، وأنهم جميعاً معروفون ،

لكن إعتراف الكاهن ألقى ضوءا مغايرا تماما ، إذ أنه يعنى أن جميع المارقين غير معروفين ، وقد يبلغ عددهم المئات بل الآلاف ، ومنهم الكهنة فى المعابد المختلفة ، وقد يكون منهم من هو فى الجيش ، أو الوزارة ، أو فى أية مهنة أو وظيفة . ولست أدرى لماذا تمثل لى وجه خبر (آى) فى هذه اللحظة كما رأيته فى الحديقة عند أول مقابلة لى مع جسم (حور محب) ، وتمثلت لى كلماته وهو يقول إن هذا الدين الجديد قد يؤدى إلى تمزق البلاد .

ويبدو أن المفاجأة قد أذهلتنى تماما حتى أن صمتى طال إلى حد أقلق الكاهن إذ أننى سمعت صوته كأنما يأتى من مكان سحيق .

— أننى لم أكن أرغب فى إخفاء دينى ولكن سمو ولى العهد أمر بذلك لحكمة يراها . أرجو ألا يكون قد أزعجك هذا

وعجبت له . إنه لا يعتذر عن مروقه ، وإنما عن إخفاء هذا المروق ، وكأنما هو خجل من هذا الإخفاء . ورأيت أنه لا بد لى أن أقول شيئاً .

— كلا يا أبى لم يزعجنى شىء ، وإن كنت قد دهشت . إنك حر فى إتباع أى دين شئت ، ولو أننى أعتقد أنك مخطىء فى ترك دين الأسلاف .

— وهل كان هذا هو دين الأسلاف حقا ؟ إننا نعلم أن العلوم التى وردت لنا منهم ضاع منها الكثير . ونعلم أن ماورد لنا من العلوم قد مسخ فى بعض نواحيه . فما الذى يمنع أن يكون ما تظنه دين الاسلاف ماهو إلا مجرد مسخ للدين الحقيق ؟ إننا نستبعد من العلوم التى وردت لنا ما نرى أنه لا يطابق العقل فما الذى يمنع أن نعامل الدين على هذا الأساس ؟ أنك غلام ذكى فاستعمل مامنحك الله من عقل وفكر .

وكأنما أعادتنى الكلمة الأخيرة من ذهول المفاجأة إلى الواقع إذ إنتقل تفكيرى إلى أننى مرتبط بموعد مع الأميرين ، وتفننت ، فالتفت إلى الوعب وقلت معتذرا .

— ربما سأفصل فى وقت آخر ، أما الآن فاننى أكرر شكرى على إستعدادك للمعونة ، وامتنانى على تشريفى بافشاء سركم . ولا بد لى أن اعتذر عما أبدو فيه من عجلة إذ أننى مرتبط بموعد الغذاء مع سمو الأميرين .

ارتسمت على شفتى الكاهن ابتسامة رقيقة وقال وهو يمد يده إلى مودعا

— هذا طبعا عدا وجود الفتاة الصغيرة مع الأميرين .

تركت يد الكاهن ، واتجهت إلى جوادى بسرعة لأخفى الارتباك الذى شعرت به .

° ° °

وجدت تفنت تنتظرنى عند عودتى فى القاعة التى تركتها فيها منذ ما يقرب من ساعتين . ولما كانت هنالك فسحة من الوقت قبل أن يتلقانا الأميران ، فقد جلسنا على مقعدين متجاورين نتحادث همساً . وبعد فترة قالت الفتاة .

— آه لقد نسيت إن خندو هنا وهو يسأل عنك .

تعجبت لأن يأتى عبدى إلى القصر الفرعونى ليبحث عنى ، وتأكدت أن شيئاً غير عادى قد حدث فاستأذنت منها ، وخرجت أبحث عنه حتى جاءنى به أحد خدم القصر ، وما أن رآنى الرجل الأمين حتى بادرنى بالكلام .

— مولاى إن السيد خع باوو ترك المدينة متجها إلى الاسطبلات الفرعونية وظننت أن سيادتكم تريدون معرفة ذلك فوراً .

— أحسنت ياخندو . إذهب إلى مطابخ القصر الآن وتناول طعامك ، وإنتظرنى حتى أخرج إذ أننى أعتزم الذهاب أيضاً إلى الاسطبلات الفرعونية ، وأود أن أعهد إليك بمهمة . إنك لن تأتى معى بل ستمكث هنا إلى حين .

تركت خندو بعد أن أوصيت به أحد خدم القصر ، وعدت إلى حيث وجدت أن تفنت قلقة خشية أن نتأخر على موعد الأميرين ، فلما رأتنى هرعت إلى وأمسكت بيدى ، وقالت وهى تقودنى بسرعة إلى الدرج عند نهاية القاعة الرئيسيــة .

— أسرع فأننى أخشى أن نكون قد تأخرنا على سمو الأميرين .

صعدت الدرج وهى تكاد أن تركض ، وصعدت خلفها ، ثم تبعتها عبر ردهة طويلة إلى باب جانبى دلفت منه لأرى حجرة فسيحة كان من الجلى أنها أشبه بغرفة إستقبال خاصة . ولم تتوقف الفتاة وإنما عبرت الغرفة إلى حجرة أخرى بدت كغرفة طعام خاصة . ظننت أننا قد وصلنا إلى بغيتنا ، لكنها إستمرت فى سيرها حتى إنتهت إلى شرفة واسعة . وحينما لحقت بها رأيت

الأميرين يجلسان على مقعدين تحف بهما وسائد من رياش وأمامهما منضدة واسعة ، وقد وقفت على بعد منهما بعض الوصيفات ينتظران أوامرهما .

وركعنا على الأرض تجلة لولى العهد وزوجه منتظرين الاذن منهما . وتكلم سمو ولى العهد بصوته الرفيع الحاد .

— أهذا أنتما ! لقد ظننا أنكما نسيتمانا فى غمرة لقائكما .

وتبسمت الأميرة فى عطف ، وإلتفتت إلى زوجها قائلة .

— لا تقس عليهما يامولاى فإن لهما كل العذر .

تضرجت وجنتا تفنت خجلا ، وتململت فى ركوعها ، لكن الأمير الرقيق سرعان ماجاء لنجدتها .

— هيا قوما واختارا مقعدين ، ولا تظلا راكمين هكذا كتلك الكباش التى أمر ببنائها جلالة والدنا فى معبد آمون ولنبدأ الطعام فإننا نوشك على الموت جوعا . إننا سنأكل هنا .

أشار ولى العهد بيده فهرعت الوصيفات ، والخادمات لإعداد الطعام . وترددنا فى إختيار المقعدين فتدخل الأمير ثانية .

— تعالى هنا ياكاى وإجلس إلى جوارنا ودع تفنت إلى سمو الأميرة .

وحينما جلسنا إستمر الأمير فى كلامه وهو يرمقنى بنظرات فاحصة .

— إنك تبدو أنحف قليلا مما كنت على السفينة ، لكنك لا شك أصلب عودا . ويبدو أن الاسطبلات ، وحياة الجندية تناسبك .

— أجل يامولاى . إننى فى الواقع أميل إليها .

— إذا فلماذا لا تدع الكهنوتية وتستمر فيها ؟ من الضابط الذى يدرب بك ؟ .

— إن إسمه جسر - خبرو - رع يامولاى .

وبدا أن الأمير يفكر وكأنه يحاول أن يتذكر ، ثم التفت إلى زوجته وقال .

— هل نعرفه ؟ يبدو أن الإسم ليس غريبا علينا .

وكانت الأميرة تحادث تفنت فلم تستمع لحديث ولى العهد ، لكنه حينما وجه إليها الخطاب تحولت بكليتها اليه .

— من يامولای ؟

— هذا الضابط جسر خبرورع .

قطبت الأميرة حاجبيها كمن يحاول التذكر ثم انفرجت أساريرها وقالت بصوتها الناعم .

— آه . أليس هو الضابط الذى قدمه لنا خبر « آى » بعد أن طلب إذن جلالة الفرعون ليزوجه من ابنته ؟

— أجل لقد تذكرناه . لست أدرى ماذا رأى فيه خبر ليزوجه من إبنته . إنه من عامة الشعب أليس كذلك ؟ .

— أجل يامولاى . وإن كان يبدو عليه الذكاء ، وقوة الشخصية .

— ثقى أن خبر ما كان يختاره زوجا لإبنته إلا لسبب .

ولم أملك نفسى من الابتسام . إن ولى العهد لم يكن بالسذاجة التى تصورها خبر حينما دبر تمثيلية محاولة قتله ثم إنقاذه ، ويلوح أنه قد شك فى أمره حينما وصل إلى علمه نبأ وفاة أخيه . فلم يكن أيسر بعد ذلك من أن يتابع سلسلة الأفكار ليعلم أن محاولة إغتياله فى حديقة القصر فى واست لم تكن سوى مجرد تمثيلية دبرها خبر . وكان السؤال الثانى الذى وجهه إلى ولى العهد قاطعا فى ذلك .

— هل تعلم من الذى حمل إلينا خبر وفاة أخينا تحوتمس ؟

ولم أستطع أن أتردد أو أنكر فأجبت .

— جسر ياموى .

— آه لقد ظننت ذلك.

إنفجر ولى العهد مقهقها ، وعلى العكس مما توقعت بدا مسرورا مرحا فى حين كنت أعتقد أن الغضب سوف يتملكه . وجاءت كلماته التالية مفاجأة أخرى .

— إن خبر رجل داهية ،ولعل تامرى فى أشد الحاجة إلى مثل هذا الرجل ، خاصة فى الظروف القادمة . لكننا لم نأت بكما هنا للكلام فى المؤامرات والسياسة .

قال هذا ومد يده إلى الطعام الذى كان الخدم يقدمونه . وانتقل الحديث أثناء الطعام إلى نواحى أخرى عادية . وحينما فرغنا رفعت الصحاف ، وجاءت

أوانى الغسيل مصنوعة من الذهب الخالص . وتقدمت إحدى الوصيفات تقرر أن الكاهن رعموسى يبغى الإذن بالمقابلة ، وحينما أذن الأمير إنسحبت الفتاة ليظهر الكاهن بعد لحظات . ولم يركع الكاهن للأميرين ، وإنما إنحنى أمامهما فى إحترام ، ولم يرفع رأسه إلاحينما أذن له ولى العهد بالجلوس . وتكلم الكاهن .

— إننى جئت ألتمس صنيعا يامولاى .

لم يتكلم ولى العهد وإنما أشار بيده ليستمر أستاذى السابق .

— إننى أرجو من سموكم أن تأذنوا بقبول إبنة اخى لتكون وصيفة لسمو ولية العهد إن سمحت الأميرة بذلك .

قطب ولى العهد حاجبيه .

— تريدها أن تقيم فى القصر ؟

— أجل يامولاى .

— لماذا ؟

— لأن فى ذلك حماية لها ؟

— ممن أو من ماذا ؟

— لاشىء يامولاى ، لكنها فتاة صغيرة ، وأنا رجل كهل كثير العمل ، ولاشك أن فى بقائها إلى جواركم شرفا لها .

لم يرتفع تقطيب الحاجبين ، ولا تغيرت سمات وجه ولى العهد وهو يلتفت إلى زوجته متسائلا . وأسرعت الأميرة تقول وهى تضع يدها برفق وحنو على يد الفتاة .

— إننى ليسرنى جدا يامولاى أن أتخذ من تفنت رفيقة إذا أذنتم .

— فليكن إذاً . والآن لعل وقت القيلولة قد حان . هلا أتيت ياعزيزتى .

قام الأمير فجأة وكأنما قد مل الحديث ، وقامت وراءه الأميرة ، ووقفنا جميعا . وقبل أن يتوجـــه الأمير إلى الداخل التفت إلى قائلا .

— عسى أن نراك قريبا ياكاى .

ولم يزد على ذلك فى حين إبتسمت لنا الأميرة إحدى إبتساماتها العذبة ، وسارت إلى جانب زوجها . وقفنا برهة بعد إختفاء الأميرين ثم التفت إلى أستاذى قائلا .

— إننى أريد أن أخاطب نيافتك لحظات قبل أن أتوجه إلى الاسطبلات الفرعونيـــة .

— حسنا هيا بنا إلى إحدى قاعات الطابق الأرضى . وأنت ياتفنت عليك أن تبقى هنا .

رفعت الفتاة حاجبيها دهشة وقالت وهى تنظر إلى عمها غير مصدقة .

— وملابسى وحاجياتى ؟ !

— إنها فى الطريق إليك .

إزدادت دهشة الفتاة ، وقالت بتأثر ظاهروقد ترقرقت الدموع فى عينيها .

— لم أكن أحسب أنك تريد التخلص منى بهذه السرعة ياعماه ،

تقدم منها الرجل الطيب ووضع يده على كتفها فى حنو زائد وحب ظاهر .

— انك تعلمين أن هذا غير حقيقى ، لكننى لست أريدك أن تتعرضى لأى خطر ، وأحسب أن هذا أكثر الأماكن أمنا .

أحنت الفتاة رأسها خضوعا فقبلها فى جبهتها ، وتردد قليلا ثم سار تاركا إيانا منفردين . وإنتهزت الفرصة فأمسكت بيدها قائلا .

— إننى سأذهب اليوم إلى المعسكر ، وقد تركت خندو هنا فى نيوت ليكون دائما تحت إمرتك إن أردت شيئا كما أننى سوف أنتهز أقرب فرصة للعودة .

لم تتكلم تفنت ، وحينما شددت على يدها أودعها إندفعت إلى صدرى باكية . وتركتها هنيهة ، ثم وضعت يدى تحت ذقنها ، وحينما رفعت رأسها قبلتها بسرعة ، وانتزعت نفسى مسرعا وراء أستاذى .

لقيته منتظرا أسفل الدرج ، وحينما رآنى عرج على أحد الأبواب الجانبية . ولما تبعته رأيته أنه قد إنتحى ركنا فى صالة أخرى كبيرة ، وجلس على مقعد بينما أشار إلى بالجلوس إلى جانبه ، وحينما جلست بادرنى بقوله .

— لاتؤاخذنى يا كاى إذ أننى رجل عجوز لا أحتمل المؤثرات العاطفيـــة والآن ماهو الذى تريده ؟

— إن خع باوو قد ترك المدينة إلى المعسكر .

قطب الرجل جبينه .

— وماذا تستنتج من هذا ؟

— إما أنه قد تنحى عن عمله ، وأن تفكيرنا كان فى غير محله ، أو أنه يدبر أمرا ويريد أن يكون بعيدا عن مكان حدوثه . ولعل الاخير هو الاصح ، والاقرب إلى المنطق .

وهز الكاهن رأسه إيجابا .

— أجل هذا هو الأغلب عقلا ، والمعنى الحتمى أنه قدأوكل التنفيذ إلىغيره ولكن إلى من ؟

— لست أدرى فهو لم يقابل أحدا فى حدود علمى ، وقد تبعه خادمى كظله طوال مدة مكوثه فى المدينة ، ويبدو أنه لم يكن يفعل شيئا سوى تمضية أوقاته فى اللهو والعبث ، والحانات .

— هذا هو إذا . ألست ترى يابنى إنك إن أردت أن توكل عملا غير مشروع إلىشخص، أو أشخاص فإنك توكله إلى السفلة، أو الرعاع . وأين تجد هؤلاء سوى فى الحانات ، وأماكن اللهو ؟ لقد ذهب إلى الحانات يتردد عليها حتى عثر على ضالته فى إحداها وأحسبها الأخيرة ؟ قل لى ماذا فعل الليلة الماضية ؟

— ذهب إلى إحدى الحانات ، وخرج منها بصحبة إمرأة من بنات الهوى ، وقضىبقية الليل معها فى منزلها على مايبدو فى حى العابيرو . هذا كل مافى الأمر .

— العابيرو ؟ هؤلاء إذا هم المنفذون . إنهم طغمة من الرعاع ، والأشرار وهم يفعلون أى شىء مقابل النقود .

استمر الكاهن فى كلامه ببطء وكأنما يفكر بصوت عال .

— لكنهم جبناء ولا يجرؤوا على مهاجمة أحد ، أو الاعتداء عليه إلا إذا ضمنوا عدم تعرضهم للخطر . وهم فى المدينة أذلاء لايرفعون رؤوسهم .

ورفع الرجل رأسه وكأنما قد استقر تفكيره .

— اسمع ياكاى انك سوف تتجه اليوم إلى الإسطبلات الفرعونية هل ستأخذ معك حرسا .

داخلتنى الدهشة لكننى أجبت بصوت هادىء .

— أنا طبعا لا لكن أتعتقد نيافتكم أن سى موت وإبنه يقصدان قتلى أنا ؟

— أجل . ولم لا ؟ إن المحاولات قد تكررت وأظن أنها لن تقف .

هل نسيت النبوءة ؟ إن سمو ولى العهد لن يموت إلا على يديك . هكذا تقول النبوءة . ولا تنس أن سى موت شديد التدين ، بل إنه بالغ حد التهوس . وهو يصدق نبوءات آمون ، ويثق فيها بلا تحفظ ، وبلا حدود ، ولهذا حاول إغراءك بقتل سمو ولى العهد ، ولما لم يفلح بدأت محاولاته لقتلك حتى يبطل آثار النبوءة . وهو لن يمس ولى الأمير بسوء مادمت أنت حيا . انه يعتقد إعتقادا جازما أنه لن يفلح . لقد حاول فعلا مرتين . وكنت أنت الذى أنقذت الأمير ، ومات أحد أتباعه فى المحاولة الأولى ، فى حين قتل فهده المدلل ، وكاد هو أن يفقد نفسه فى الثانية . إننى لاأعتقد أنه سوف يجرؤ على محاولة ثالثة قبل أن يقضى عليك أولا . أجل إنه سوف يركز جهوده حولك .

سكت أستاذى السابق . وحم بيننا الصمت لحظات كنت أقلب فيها وجهة النظر التى طرحها وبالرغم من أننى لم أجد ثغرة فيها إلا أننى إستبعدت الفكرة برمتها . وأخيرا تكلم الكاهن ثانيا .

— خد معك بعض رجال قصر والدك ، وان شئت بعثت معك بعض رجالى ، فالمابيرو كما قلت جبناء على قدر خطرهم .

— إن نيافتك تبالغ فى تقدير قيمتى .

— لاتكن أحمقا وافعل ما أقول .

— لكنهم لايعلمون أننى سوف أتوجه اليوم إلى الإسطبلات بل إننى شخصيا لم أكن قد قررت ذلك إلا منذ ساعات .

— ثق أنهم يراقبونك ، وسوف يعلمون ويعدون العدة لقائك .

وقلت محتجا :

— لكن كيف يكون منظرى حينما أصل إلى المعسكر وحولى حاشية وحرس ؟

— ليس المهم منظرك ، وإنما المهم أن تصل .

— حسنا سوف أنزل على رأى نيافتكم ، وإن كنت أعتقد أنه لاضرورة لذلك .

تنهد الرجل بارتياح واضح ، ثم مد يده إلى مودعا .

— رافقتك السلامة إذا يابنى . ولا تتلكأ حتى الليل .

تركته متجها إلى الخارج ، وأنا مازلت أقلب الأمر على وجوهه معتقدا أنه

يبالغ كثيرا فى مخاوفه . وحينما هبطت من الشرفة الخارجية تلقانى خندو وهو يمسك بزمام « كم » . ووقف صابرا حتى بادرته .

— خندو إننى سوف أتجه الآن إلى المعسكر . وسوف تبقى أنت هنا تحت إمرة الآنسة تفنت ، وأريدك أن تكون دائما على إتصال بنيافة لوعب حوتى نخت فى معبد الرب بتاح ، وأيا كانت أوامرهما فعليك تنفيذها كما لو كانت صادرة منى . والآن أريدك أن تتجه فورا إلى القصر لتخبر سحبت إيب مديزه أن ينتقى حارسين قويين ، وأن يرسلهما ليقابلانى عند نهاية المدينة فى الطريق إلى المعسكر خلال ساعة .

لم يتكلم العبد الأمين . وإنما أنتظر حتى إمتطيت صهوة الجواد ، واتجهت به إلى المدخل الرئيسى للقصر فى بطء ، وحينما إلتفت بعد ذلك لم يكن فى مكانه ، ولكننى رأيت شبحا يعدو بأقصى سرعة متجها إلى مدخل الخدم . خرجت من القصر الفرعونى ، وقدت جوادى ببطء شديد حتى أعطى الفرصة كاملة لعبدى ، والحارسين ، خاصة وأنا أعلم أنهما سوف يأتيان راجلين فلم يكن فى القصر جياد . وسرت فى شوارع المدينة الجميلة ، وأنا أتطلع إلى الأبنية والحوانيت . لكننى فى الواقع لم أكن فى هذه المرة مدفوعا بفضول معرفة أحوالها وإنما كنت أفكر فيما قاله الكاهن من أن العابيرو يراقبوننى لينتهزوا فرصة لإ غتيالى . كان رأيه يبدو وجيها لا ثغرة فيه ، ومع هذا فقد كان يلوح لى مبالغا إلى حد كبير

خطر فى بالى خاطر أردت أن أضعه موضع التجربة . فتوقفت عند حانوت صائغ وترجلت من جوادى ، ووقفت أساوم الرجل على قطعة ذهبية ، وبحركات طبيعية كانت عيناى تدوران فى أرجاء الطريق . كان هنالك كثير من الأغراب يسيرون فى أعمالهم ، أو لمجرد النزهة ، والتسكع ، لكن على بعد لا يزيد عن عشرين مترا لمحت إثنين من العابيرو يتكلمان . كانا فى الظاهر يتناقشان فى موضوع ما ، لكن عينى التقتا بعينى أحدهما . أجل لاشك فى أنهما يراقبانى ولا شك أن ذلك يسير جدا عليهما إذ أننى كنت الفارس الوحيد فى الطريق الذى يمتطى صهوة جواده ، فكان يكفى أن يراقبا الجواد ليعلما أننى قريب منه .

امتطيت « كم » ، وفى أحد النواصى تعمدت أن التفت فجأة ورائى . كان هنالك واحد فقط من العابيرو . ولم أعر الأمر أهمية أكثر من هذا إذ أننى

كنت أعلم أننى سوف أقابل الحارسين فى أقل من ساعة ، وأننى فى هذه الفترة لن أترك المدينة الغاصة بالناس . كانت الساعة قد جاوزت العاشرة ( الرابعة عصرا بتوقيتنا الحالى ) ومعنى هذا أننى سوف أقابل الحارسين فى الخامسة لأتجه رأسا إلى المعسكر الذى لا يبعد بأكثر من ساعتين عن المدينة أى أننى سوف أصل إليه بعد أن يختفى أتوم ( شمس المغيب وراء الامنتى ) ( الغرب ) .

طرحت بعد ذلك الموضوع من ذهنى . وانصرف تفكيرى فى تفنت الجميلة ، وكان هذا يكفى لأن يمضى الوقت سريعا دون أن أشعر . وحينما شارف وقت اللقاء اتجهت بجوادى إلى أطراف المدينة . ودهشت حينما وجدت أن خندو كان ينتظرنى فعلا مع الحارسين إذ كنت أتصور أننى بالرغم من تلكؤى سوف أصل قبلهم . والتفت إلى خندو كمن يريد أن يقول شيئا فانتحيت به جانبا وهمس الخادم الأمين .

— مولاى أريد أن أحذركم ، أننى رأيت إثنين من العابيرو يتعقبانى ، وتأكدت من ذلك عند خروجى من قصر نيافة والدكم ثم إختفى أحدهما ، وأعتقد أنه ذهب ليفبئ رفاقه .

— شكرا ياخندو والآن عليك بالعودة ولا تنس ما أمرتك به .

تردد العبد قليلا ثم قال بقلق ظاهر .

— دعنى أصطحبك هذه الرحلة يامولاى ثم أعود .

— كلا لا أحسب أننى فى حاجة إلى كل هذا الحرس ويكفى وجود الحارسين معى .

بان القلق على العبد ، وتلكأ فى حركته كأنما يبغى أن يقول شيئا ، أو لعله كان يأمل أن أغير رأيى ، لكننى أشرت إلى الحارسين أن يتبعانى ، وأوليته ظهرى متقدما فى الطريق فلم يجد مناصا من الرجوع .

ينقسم الطريق إلى المعسكر إلى ثلاثة أقسام تكاد أن تكون متساوية . الجزء الأول يحف به مزروعات وحقول ، وبما أنها كانت على الجانبين ، مزروعة بالبقول ، والخضروات التى تغذى أهالى نيوت فلم يكن من اليسير على أحد أن يختبئ بها ، كما كان يمكن فيها الرؤيا على مسافات طويلة ، ولهذا فإننى إستبعدتها من حسابى . ويحف بجانبى القسم الثانى بعد ذلك مستنقعات واسعة تمتد مساحات هائلة لم يعرف

أن أحداً قد ارتادها سوى بعض الصائدين . مليئة بالتماسيح ، والثعابين ، والحشرات ، وتتطاول الحشائش فيها إلى أعلى من قامة الرجل . وبما أن مياهها ضحلة فى الأغلب ، فإنها كانت مكانا خصبا يتوالد فيه الناموس ، مما يجعل الحياة فيها مستحيلة . وقرأنا فى كتب الأقدمين أن هذه المستنقعات كانت فى قديم الأزل تغطى مساحات كبيرة تبدأ من حافى ( النيل ) لتنتهى إلى الصحراء التى لم تكن فى مثل جفافها الآن ، وإنما كانت غابات تمرح فيها الحيوانات والوحوش والقردة . لكن طمى النيل ظل مئات السنين يترا كم حتى جاء الوقت الذى تمكن الناس من الزراعة على شاطئيه ثم راحوا ، يجففون حوافيها كما قلت الأمطار من ناحية أخرى فماتت أشجار الغابات فى كثير من المناطق ، وغلبتها الرمال فأضحت صحراء ، وانحصرت المستنقعات بذلك بين الزراعة ، من ناحية ، والصحراء من الأخرى. ولم تجف المياه مع مرور الزمن نظرا لإنخفاض مستواها ، فكانت تتغذى من النيل فى أوقات الفيضان ، ومن المياه الجوفية ، كما كانت تتجمع كميات الأمطار التى مازالت تسقط فى فصل الشتاء بغزارة نسبية .

وكان الطريق الذى اختطته حكومة الفرعون وسط هذه المستنقعات مستقيما عريضا ليسمح بمرور مركبات الجيش فى ذهابه لتأديب قبائل الطومياح (ليبيا)، التى كانت تثور ، وتغير من وقت إلى آخر فكان إتساعه يسمح بمرور أربع مركبات متجاورة . وبالرغم من أن على جانبى الطريق كانت تنمو الحشائش الطويلة التى يمكن أن تكون مخبأ آمنا لأية مجموعة من الرجال ، إلا أننى استبعدت أن تكون هى المكان الذى اختاره العابيرو لمهاجمتى ، هذا إذا كان هذا فى نيتهم حقا ، وذلك أولا لأن الاختباء بين الحشائش الكثيفة فى حد ذاته عسير ، وثانيا لخطورته نظرا لإحتمال وجود الثعابين ، أو الحشرات السامة أو حتى التماسيح .

يتبقى بعد ذلك الجزء الأخير من الطريق،وهو صحراوى تحف به فى بعض مناطقه تلال عالية تصلح تماما لعمل كمين، كما أنه ، وإن كان يعيبه قربه النسبى إلى المعسكر إلا أنه كان فى المرحلة الأخيرة من الصلة بحيث أصله عند الغروب أو حتى بعده مما يقرب من الظلام الذى يمكن أن يكون ستارا يساعد المجرمين عند فرارهم بعد إرتكابهم جريمتهم . ولهذا كنت أرجح أن يكون هؤلاء العابيرو

قد نصبوا كمينهم فى هذا الجزء ، بل وفى مكان معين منه بالذات . هذا بالطبع إذا كان ثمة كمين وهو ما كنت لاأزال أشك فيه .

لم أفكر كثيرا فى الكمين بعد هذا إذ طاف فى عقلى خيال تفنت الجميلة ، وهى غاضبة ، حزينة لتركى إياها بهذه الصورة ، وعدم تلبيتى رغبتها فى البقاء فى نيوت . وراح عقلى فى شبه غيبوبة لذيذة وأنا أفكر فيها حتى لم أشعر بمضى الوقت إلا حينما رأيت أن على جانبى الطريق قد ارتفعت الحشائش ، فعلمت أننا قد تجاوزنا الحقول إلى المستنقعات . والواقع أن تفكيرى لم يبعد عن تفنت إلى هذه الملاحظة اليسيرة إلا برهات عاد بعدها إلى التحليق حول الحبيبة فى أحلام طاغية سعيدة .

لابد أننى كنت مستغرقا جدا فى أحلامى حتى أننى لم أشعر بما أبداه « كم » من قلق ، واحجامه عن التقدم أكثر من مرة ، فكنت أقومه على الطريق بحركات آلية لأعود إلى أحلامى ثانية .

ودون سابق إنذار وقعت الواقعة . إمتد شىء لم أتبينه عبر الطريق ، وارتفعت قائمتا « كم » الاماميتان فى الهواء بحركة مفاجئة ، وأخذتنى الحركة على غرة منى تماما فسقطت عن ظهر الجواد الذى إندفع مذعورا بأقصى سرعة صوب المعسكر . وأذهلتنى السقطة فلم أتحرك برهات ، وفى اللحظة التالية امتلأ الطريق بأشباح تتصايح ، وهى تطبق علينا من كل جانب .

## الفصل السابع عشر

# فى المستنقعات

---

مما شك فيه أن السقطة قد أذهلتنى لبرهات ربما كانت كافية ليقضى على المهاجمون لولا أن الحارسين الشجاعين وقفا عند رأسى ، ظهراً لظهر ، يدافعان عنى بأسلحتهما البسيطة . ولم أشعر فى اللحظات الاولى بأى ألم فى جسمى ، ولا فكرت فيما إذا كنت قد أصبت بكسور ، أو رضوض ، لكن كل احساسى تركز فى صوت صلصلة السلاح ، وحركة الأرجل ، والأقدام، وصيحات الرجال المختلطة ببعضها .

على أن شبه الغيبوبة هذه لم تمكث طويلا ، فسرعان ما كنت واقفاً على قدمى ، وقد سللت سيفى القصير من غمده ، وإنضممت إلى رفيقى فى القتال . ومنذ اللحظة الاولى إتضح لى أن المهاجمين كانوا أصلا يعتمدون على كثرتهم العددية المتفوقة فى أن يقضوا علينا فى ثوان معدودات دون أن يصاب منهم أحد ، معتمدين فى هذا على المفاجأة الاولى . فلما وجدوا أنهم لم يحققوا غرضهم ، بان التردد عليهم حتى أنهم كانوا يحاولون إصابة أحدنا بجراح محاذرين أن يقتربوا بدرجة كافية من حد الحسام .

كانوا من العابيرو ،وكانوا حوالى الثلاثين رجلا ، ومع أنهم لو صح عزمهم لقضوا علينا جميعا فى دقائق ، الا أن تلك المحاورات إستمرت مدة طويلة دون أية محاولة جدية للهجوم . وكنا نحن ثلاثة نقف فى شبه حلقة واحدة وظهورنا إلى بعضنا ، فلم نكن نستطيع أن نفترق حتى لانعرض أنفسنا للطعن من الخلف . وأضحت خطتهم جلية . فهم لايريدون أن يقتل أحدهم ، أو حتى يجرح إن أمكن ، كما يريدون القضاء علينا ، وبهذا فما كان عليهم إلا أن يبقونا حيث نحن ، ويستمرون فى المناوشة حتى تكل أيدينا ، ثم ينقضوا علينا إنقضاض رجل واحد .

كان الزمن فى صفوم ، فأتوم يميل نحو الغروب ، وبعد قليل سوف يسود الظلام . ولن يكون أمامنا إلا القتال حتى الموت ، أو الهرب إلى المستنقعات حيث لا أمل لنا فى النجاة . ومما زاد من حرج موقفنا أن التعب حل بالحارسين فعلا حتى أن أحدهما أخطأ فى حركته وتعثر فكان جزاؤه أن تلقى طعنة من خنجر حجرى أصابت ذراعه وأسالت الدماء . وراح عقلى يعمل بسرعة . أن جميع الظروف فى صالح المهاجمين ، ولا توجد ناحية ضعف لديهم إلا عدم رغبتهم فى أن يقتل أحدهم ، أو يجرح ، وكان على أن أستغل هذا . لكن كيف ؟

فكرت فى جوادى « كم » وأنه ربما يكون ذهب رأسا إلى المعسكر ، وأن النجدة قد تأتى فى أية لحظة ، لكننى ما لبثت أن استبعدت هذا الأمل الضعيف ، فلم يكن فى الإمكان أن أقطع بأن الجواد إتجه إلى المعسكر . وحتى إذا كان قد فعل فهل سيعود ومعه النجدة ، وهل سيصل فى وقت مناسب يسمح بانقاذنا ؟ كلا إن هنالك أكثر من إحتمال ، ويجب أن أستبعد هذا التفكير الخيالى ، لم يكن هنالك مفر من أن نعتمد على أنفسنا .

كنت لا أزال أحاور المهاجمين دون أن أجرؤ على التقدم ومهاجمتهم ، لكننى من ناحية أخرى وقد علمت خططهم لم أجهد نفسى ، واكتفيت بتهديد كل من يحاول الإقتراب . بينما راح عقلى يفكر فى وسيلة للخلاص . لم أجد مناصا من أحد اثنين ، أما الوقوف حيث نحن والمناوشة حتى نقتل ، وأما الهرب إلى المستنقعات . فالأخير أولى ، فعلى الأقل ربما كان هنالك أمل فى البقاء على قيد الحياة ، أما وقوفنا فلا مناص فيه من القتل .

وفجأة خطر فى بالى خاطرا أحيى موات الأمل ، إن هؤلاء العابيرو جبناء ، وليسوا مستعدين للموت ، فكيف إذا بقوا فى المستنقعات ينتظروننا فى حين أنها مليئة بالهوام ، والتماسيح ، والثعابين ؟ وجاءنى الرد فى أنهم ولا شك قد صنعوا لأنفسهم قوارب من البردى بحيث يسهل عليهم الحركة ، أو الانتظار فيها بأمان . وإذا فلو استطعنا أن نستولى على أحد هذه القوارب فربما كان هنالك أمل فى النجاة .

كان الإستقرار على الرأى والتنفيذ بالنسبة لى شىء واحد . همست فى أذن الحارس

بجانبي أن علينا أن ننتقل إلى الحشائش نحن الثلاثة ككل لا يتجزأ . وهمس الحارس في أذن رفيقه الجريح الذي بدت عليه إمارات الإعياء واضحة . وبدأنا نتحرك مهاجمين . جرى الرجال أمامنا ، وأخلوا المسافة بيننا وبين الحشائش ، فأمرت الحارس السليم أن يدخل الحشائش ويبحث عن قارب من البردى قريب وبأنني ساقف وزميله الجريح ندافع وظهورنا إلى المستنقع .

اختفى الرجل في الحشائش الطويلة . ولم تمض لحظات حتى إخترق السكون صوت صيحة عالية . صيحة رعب وموت . ووقف المهاجمون مشدوهين برهات . ولم أتردد . دفعت الحارس الجريح بين الحشائش ، وهجمت بمفردي مطوحا سيفي في شبه نصف دائرة . وتراجع العابيرو إلى الوراء بعيدا عن متناول السيف لكن أحدهم ظن أن الفرصة قد أتته حينما كان سيفي في الإتجاه الآخر فاندفع محاولا طعني بخنجره . وكنت أنتظر هذه الحركة . في لمح البصر ، تراجعت قليلا بعيدا عن الخنجر ، وفي اللحظة التالية كان سيفي قد أصاب هدفه . ولأول مرة منذ بدء القتال شعرت بلذة طاغية أن أخترق حسامي القصير صدر واحد من العابيرو . صرخ الرجل رعبا ، وترك الخنجر يقع على الارض ، وأمسك بالجرح بكلتا يديه محاولا إيقاف سيل الدماء التي انبعثت غريزة تصبغ ملابسه الرثة .

جرى المهاجمون رعبا بعيدا عن السيف رسول الموت . وانتهزت الفرصة لأدلف بين الحشائش ، ولم أكن في حاجة إلا لبضعة ثوان لأفهم ماحدث إذ أنني وجدت الحارسين في قارب طويل من البردى كما كانت جثة رجل من العابيرو متدلية نصفها على الأرض ، والآخر في المياه ، وقد إصطبغت المياه بلون الدم الأحمر القاني . ولم أتوقف لأتحقق من موت الرجل ، وإنما إندفعت إلى القارب . وبسرعة بديهة حاضرة كان الحارس قد دفع بفرع الخشب في قاع المستنقع ، ودفع القارب بعيدا عن الحشائش، والطريق . وتمايل الزورق قليلا مهددا بالانقلاب ، لكنه سرعان ما إعتدل ، وإنزلق في يسر وسهولة على الصفحة الهادئة خفيفا على سطح المياه الراكدة . في اللحظة التالية ظهر العابيرو من الحشائش يتصايحون ويهددون .

كان الحارس يدفع الفرع في الماء في دفعات قوية سريعة حتى أن الزورق

كاد أن يغير اتجاهه لولا أنى تلقفت أحد الفروع العائمة، ورحت أساعده . ولم تمض لحظات كان قد استقام ، واعتدل فى طريقه . وفى لحظات أخرى إختفى عن أعين العابيرو فى منحنى مائى . انقطعت الأصوات فجأة . وتطاولت حولى فى ذلك السكون الرهيب . وعلى مدى النظر لم هنالك سوى جزر صغيرة متناثرة وسط المياه الضحلة ، تعلوها حشائش طويلة ، وبعض الأشجار القليلة المتباعدة .

ظننت فى مبدأ الأمر أن العابيرو لن يجرؤوا على الخوض فى المستنقعات لما أعرف من جبنهم ، ولهذا لم أعتن بالتغلغل فى أعماقها ، وأردت أن أسير حذاء الشاطىء لمدة حتى يحل الظلام ثم نخرج منها للتوجه إلى المعسكر . لكننى لم أعمل حسابا لشيئين . أولهما أن المستنقعات لا تسير فيها مجارى المياه حسب هواى ، وأنه من اليسير جدا بعد مجرد الدخول فيها قليلا أن يفقد المرء كل إحساس بالإتجاه . وثانيهما أن العابيرو قد علموا أننا تعرفنا عليهم ، أو على الأقل على بعضهم ، وأن مهاجمتهم لضابط من ضباط الفرعون ، وابن للنبى الثالث لآمون لا يمكن أن تمر دون توقيع عقوبة ، ليس عليهم فحسب ، وإنما على كل من ينتمى إليهم ، وأن عليهم أن يقتلونا جميعا حتى تختفى كل آثار الجريمة ، ولا يعرف من القتلة الحقيقيون .

وثمة عامل ثالث لم يظهر أثره إلا بعد فترة قصيرة ، ذلك هو الجرح فى ذراع الحارس . صحيح أن الجرح فى حد ذاته لم يكن له أهمية نسبيا ، لكن الخنجر الحجرى كان دون أدنى شك ملوثا ، كما أن الدماء التى نزفت سرعان ما جمعت حولها عشرات الأنواع من الذباب مصاص الدماء والناموس ، حتى أن الحارس المسكين كان يضرب جسمه ، ووجهه بحركات هستيرية ، وكأنما أصابه مس من الجنون .
ولم تدعنا الحشرات . هاجمتنى أيضا بعنف مع الحارس الآخر حتى انى إضطررت للإشارة بالتوقف ، ومددت يدى فى الماء الضحل ألتقط بعض الطين ، ألطخ به وجهى وذراعاى ، وسائر الأماكن المكشوفة من جسدى . وفعل الحارس الآخر مثلما فعلت ، وبدأ يلطخ زميله ، حينما سمعنا وراءنا صيحة جعلتنا نمسك بالفرعين وندفع الزورق بسرعة فى المياه .

كان العابيرو لا يبعدون عنا بأكثر من عشرين مترا ، وقد رأيناهم فى أكثر من زورق يتسابقون نحونا معتمدين على أن كل زورق يدفعه أربعة رجال ، بدلا من إثنين . لكن الزوارق كانت مصنوعة من البردى وهى لذلك خفيفة .

والمياه ضحلة ، ولا يحتاج الزورق إلى أكثر من دفعات بسيطة حتى ينزلق بسرعة على صفحة المياه الراكدة ، فى حين أن ثقل الرجال فيه كانت من عوامل تأخيره ، وليس من العوامل المساعدة . ومن اليسير جدا أن تختفى فى المستنقعات ، فالحشائش الكثيرة الطويلة ، والممرات المتشابهة تهون من عملية الاختفاء وتجعل مهمة المطاردة عسيرة ، فلم تمض دقائق أخرى حتى كنا قد إختفينا عن مطاردينا . وأمنا مهاجمتهم .

على أن هذا الإختفاء اضطرنا إلى زيادة التوغل فى المستنقعات ، وأبعدنا بالتالى عن الشاطىء . كما أن الواقعة كان فيها النذير الكافى ألا نقترب ، وأن العابيرو لن يتركونا نخرج أحياء إلا مرغمين . ولم نتوقف بعد هذا ، وإنما إندفعنا إلى الداخل حيثما تقودنا مجارى المياه . حاولت فى مبدأ الأمر أن ألحظ أية علامات فى الطريق قد اهتدى بها فى محاولة الخروج ، لكننى أيقنت بعد مدة يسيرة أن من العبث أن أبحث إذ كنت كلما ظننت إننى إهتديت إلى علامات سرعان ما يتكشف لى أن هناك عشرات مثلها ، كانت جميع الحشائش ، وجميع الأشجار ، وجميع الجزر نسخة تكاد أن تتطابق . ربما كان هنالك اختلاف ، وربما كان بعضها أكبر من بعض ، ، أو يتميز عن الآخر ، لكن الأمر كان يحتاج إلى عين خبيرة مدربة تستطيع التميز ، والتعرف على الأشياء التى تكاد أن تكون متماثلة .

بدأ الليل يرخى سدوله كثيبا . وعلت قمقمة الضفـــادع مزعجة تصم الآذان ، وتثير الأعصاب . وإزدادت الرطوبة فى الجو حتى أضحى الهواء ثقيلا يطبق على الصدور . ولاحت سحب من الضباب بدأت خفيفة ثم مالبثت أنها تكاثفت حتى غمت الرؤيا ، أو كادت . وعلمت أنه لابد لنا أن نختار أحدى الجزر حولنا لنقضى فيها الليل . ولم تكن المهمة عسيرة فالجزر كلها متشابهة لا فرق بين واحدة وأخرى لكننى ظننت أننى لو أنتقيت أكبرها لكان ذلك أفضل إذ ربما تكون أرضها أقل رطوبة .

كنت فى مبدأ الأمر أعتقد أن على أن اتفادى العابيرو أثناء النهار حتى إذا ما جن الليل عدنا إلى الشاطىء وربما كان لنا أمل فى الإفلات منهم ، أما وقد هبط الضباب يزداد كثافة فى كل لحظة ، فلم يكن هنالك أى أمل فى الاهتداء إلى

طريق العودة ، وأضحى حتما علينا أن نقضى الليل فى هذه المستنقعات الرهيبة حتى الرؤيا البسيطة التى كان يمكن أن نتمتع بها على ضوء النجوم ، أو القمر كنا نحرم منها شيئا فشيئا كلما ازداد الليل ظلمـــة ، وازداد الضباب كثافة .

من خلال الضباب المنتشر ظهرت فجأه أفرع كثيرة لشجرة عملاقة خلناها أيادى الشياطين، تمتد لتتلقفنا. وكدنا نصطدم بالفروع ،والأغصان المتدلية حتى الماء لولا أن أمسك الحـارس فى المقدمة بالأغصان يمنع تقدمنا . توقفت بدورى عن الدفع . وأمرت الحارس أن يتقدم بالزورق عن طريق رفـــع الأغصان والفرع . وامتثل الرجل الأمين ، وسرعان ما كنا فى ظلمة تامة إذ حجبت الشجرة الجزء القليل من الضوء الذى كان ما يزال يصل إلينا . ولم يمض وقت طويل حتى اصطدم الزورق بالأرض وكدت أفقد توازنى لولا أننى تشبثت بأحد الأغصان .

بمجرد أن رأيت الشجرة تبلورت فى ذهنى خطة تمكننا من قضاء الليل فى أقل قدر من الخطر ، وأ كبر قدر ممكن من الراحة . أخبرت الحارسين بأن علينا جميعا أن نحمل الزورق وأننى سوف أكون فى المقدمة وأنه لايجوز لأيهما بأى حال أن يتركنا ، أو أن يبتعد . كان الزورق خفيفاً ، سهل الحمل . وسرنا نحن الثلاثه نخوض أولا فى الأوحال على الشاطىء ثم بعد أمتار قليلة جفت الأرض نسبيا حتى استطعنا أن نسير براحة . لم نكن نرى شيئا مطلقا فى الظلام الدامس . لكننى كنت أحمل مقدمة الزورق على كتفى ممسكا أياه بإحدى يدى ، بينما كانت الأخرى تنتقل ببطء ممسكه بأحد الأفرع . لم تكن المهمة سهلة خاصة وأن الخوف من وجود بعض الوحوش ، أو الحشرات السامة ، كان يملأ قلبى ، لكننى كنت أعلم أننا لابد أن نصل إلى جذع الشجرة بعد أمتار قليلة . وكان ما حدسته ، فبعد بضعة خطوات أخرى بدأ الظلام أقل حدة ، وحينما تطلعت رأيت أن الأغصان تقل كثافة كما أنها تجردت تماما من الأوراق . وبعد خطوتين ، كنا قد وصلنا إلى جذع الشجرة الضخم .

ألقيت بحملى إلى جوار الشجرة ، وأمرت الحارس الجريح أن يبقى فى الزورق وألا يبرحه ، ثم استفدت بآخر ما بقى من الضوء لاقتطع بسيقى بعض الأغصان

القريبة ، وساعدنى الحارس السليم فى نقل الأغصان إلى الزورق ، وأخذنا نغرزها فى الأرض لتكون سياجا بدائيا حوله . صحيح أنه كان سياجا ضعيفاً قد لا يقوى على صد أى وحش ، لكنه سياج على كل حال ، وقد يعطينا لحظات نشعر فيها بهجوم أى عدو ، وربما كان فى هذه اللحظات إنقاذ احياتنا. فرغنا بسرعة من غرس الأغصان وعدنا إلى الزورق لنجد أن الحارس الجريح نائم فى قاعة وهو يتألم من جرح ذراعه ، وقد بدأ جليا أن الحمى أصابته .

لم يكن فى استطاعتى أن أفعل الكثير من أجله ، وكل ما أمكننى هو أن اقتطع بخنجرى قطعة من ثيابى ، ربطت بها الجرح الذى أحسست به ملتهبا متورما بمجرد اللمس . كان الظلام قد أطبق تماما ، وتكاثف الضباب حتى أضحت مجرد رؤية اليد مستحيلة ، وصرنا كلية تحت رحمة الاقدر . جلس الحارس السليم عند أحد طرفى الزورق ، وجلست عند الطرف الآخر ، فلم يكن هنالك مكان لأن يتمدد أحدنا إلى جوار الرجل الجريح . وعلت قمقمة الضفادع . وارتفع نقيق صرصور الماء ، وتناهت إلينا تأوهات الرجل المحموم وازداد الجو برودة حتى سرت فى بدنى رعشة ، وهبط الضباب ثقيلا على الصدر حتى كان مجرد التنفس عملية شاقة . وبين هذا وذاك ، والرعب من هجوم حيوان مفترس ، أو حشرة سامة ، ولدغات حجافل الناموس ، قضيت ليلتى الاولى جالسا القرفصاء ، يحاول جسدى المنهمك أن يقتنص لحظات نوم .

من البدهى إن النوم فى مثل هذه الحالة يكوى قلقا ، مضطربا تتخلله الأحلام المزعجة . لم يكن نوما بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، وإنما كان أقرب إلى الغيبوبة المؤقتة ، لا فائدة ترجى منه ، ولا يعود على الجسد بأى نفع حقيقى ، ولعل هذا فى حد ذاته كان السبب فى إنقاذ حياتنا ، فى إحدى تلك الغفوات ، أو النوم الحذر القلق ، شعرت كان يدا ناعمة قد وضعت على جبهتى ، وانتبهت فزعا ، وهنا ظهر أثر تدريب جسر بأجلى معانيه . كانت انتباهتى يقظة كاملة ، ومع هذا فلم يتحرك الجسد ، فبدى كأنما هو مايزال نائما . كان الفجر بدأ يتبلج ، وإن كان الضباب مايزال مخيما على المستنقعات ، إلا أن الضوء كان يوضح اشباحا تتحرك بحذر ، وبلا صوت .

عمل عقلى بسرعة عجيبة . مددت يدى ووضعتها على فم الرجل الجريح الراقد . وتفتحت عينا الرجل . وحاول فى مبدأ الامر التخلص من اليد ، لكنه توقف حينما رأى وجهى قريبا منه أشير إليه بالسكون ، وبأن يستعد بخنجره . وكانت المشكلة فى الحارس السليم الذى ينام جالسا فى أقصى القارب . كان يجب إيقاظه فى لحظات قبل أن يهاجمنا العدو ، وكان يجب أن يستيقظ متنبها ، وإلا راح ضحية لأول هجمة . وتولى الحظ ، والرجل الجريح ذلك.فقد ركز الحارس زميله بقدمه فى حين أنه يبدو أن المهاجمين لم يروا السياج الصغير الذى وضعناه لحماية أنفسنا من الحيوانات ، فتعثر فيه أحدهم وسقط على الأرض تحت قدمى الحارس النائم فمنع للحظات هجوم الباقين .

لم أتبين فى مبدأ الأمر عدد المهاجمين ، وإن كنت رجحت أن يكونوا بين ثمانية وعشرة ، إذ يبدو أن العابيرو كانوا قد قسموا أنفسهم إلى ثلاثة أقسام ، أو أربعة للبحث عنا إستقل كل أربعة أفراد منهم زورقا . فإن كان حدسى صحيحا لكان عدد مهاجمينا ثمانية أتوا فى زورقين . وعلى أى الأحوال فإن التفكير فى عددهم لم يزد على معشار الثانية لمجرد تقدير قوتهم . وما كان ثمانية منهم ، أو حتى عشرة بالكافين لمنازلة ضابط فى الجيش الفرعونى . ومنذ اللحظة الأولى إتضحت لهم هذه الحقيقة إذ ما أن قدرت عددهم للتقريبى حتى هاجمتهم بلا هوادة ، أعمل سيفى فيهم القطع والجراح ، حتى أنهم راحــــوا يتجمعون ويشجع بعضهم البعض . كان ثلاثة منهم قد إنفردوا لمناوشة الحارسين ، وتكالب الباقون حولى . وأحسب أنهم ظنوا أنهم لو قتلونى لكان من اليسير عليهم بعدئذ التخلص من الحارسين . لكن خاب تقديرهم بضربة واحدة أصيب أحـدهم إصابة قاتلة أخرجته من المعمعة . ثم راح سيفى القصير يتحرك فى كل اتجاه بسرعة أذهلت الباقين ، واضطرتهم إلى التراجع فى شبه نصف دائرة .

كنت أقاتل وظهرى إلى جذع الشجرة الضخم ، بينما حمى أحد جانبى وجود الحارسين اللذين كانا ما يزالان يقاتلان ، وبهذا كان الأمر يسيرا نسبياً ، خاصة وأن كل أسلحة المهاجمين لم تزد عن الخناجر ، سواء الحجرية ، أو النحاسية فكانوا قاصرين عن الهجوم الفعال . ويبدوا أنهم فطنوا إلى هذا النقص إذ إختفى

أحدهم ليعود بعد لحظات حاملا غصنا طويلا راح يناوشني به عن بعد محاولا إصابتي . أو على الأقل إعطاء فرصة الهجوم لزملائه .

وبدت لى خطورة هذه المناوشة حينما أصابت ضربة طائشة من الغصن رسغ يدى اليمنى ، وأسقطت منها الحسام . تعالت صيحات الفرح من المهاجمين ، وحملوا على حملة رجل واحد . ظهرت فائدة — تدريبات القائد جسر ثانية وإصراره على الكمال . بحركة واحدة أمسكت بطارف الغصن ، وبدلا من أن أبعده كما كانوا يظنون جذبته بشدة . ولم يكن الرجل يتوقع هذا التصرف ، فاندفع نحوى وهو ما يزال قابضا على الطرف الآخر . وفى اللحظة التالية كان ظهره يتلقى الطعنة القاتلة التى أراد بها أحدهم أصابة صدرى .

ثقل جسد الرجل وبدأ يتهاوى على الأرض ، لكننى لم أدعه يقع . فى مثل سرعة البرق وضعت يدى تحت أبطيه ودفعته نحو أصحابه ، بينما قبضت على ذراع القاتل أثنيه بأقصى قوتى إلى عكس إتجاهه . وعلا صوت العظام وهى تتكسر ، وعلت منه صرخة ألم عاليه أطلقها الرجل . ولما أحسست بأن عظامه قد تكسرت دفعته بدوره نحو المهاجمين الباقين . وانتهزت لحظات الهرج التى سادت لألتقط حسامى وأندفع وراءهم . ولم يستطع الرجل الذى كسرت ذراعه أن يتفادى الهجمة ، فأصابته أول طعنة ، وأسقطته على الأرض مضرجا بدمائه فى حين طارت البقية الباقية من الشجاعة لدى رفاقه فاندفعوا نحو الشاطىء غير عابئين بصراخ الجرحى ، ولا بالأغصان المدلاه التى تعترض طريقهم ، وتخدش وجوههم ، وأجسادهم .

على الشاطىء شاهدت زورقين ، إندفع إلى أحدهما الرجال الخمسة الباقين . ولم يتوقف السابقون ليلتقطوا زملاءهم إذ أن الذعر قد استولى تماما عليهم . إبتدأ أولهم فى دفع الزورق فى المياه ، وقفز الثانى ، والثالث ثم ساعداه فى عمله . لكن حينما اقترب الرابع كان الزورق قد ابتعد فعلا فتحول مع زميله إلى الزورق الثانى لكننى كنت قد ادركتهما ومعى الحارس السليم . ولم تمض دقائق حتى كان الإثنان يرقدان على الأرض المبتله وقد سالت دماؤهما غزيرة من أثر الجروح القاتلة التى إصابتهما .

عدنا سريعا إلى حيث الحارس الجريح لنرى منظرا بشعا . كان الرجل

الذى تلقى الطعنة فى ظهره قد زحف ، وفاجأ الحارس ، وجز رقبته ، ففصل رأسه تماما عن جسده ثم راح يعمل بجنون فى تمزيق الزورق حتى يستحيل إستعماله . ويبدو أن الرجل كان يريد أن يحرمنا من وسيلة إنتقالنا فى المستنقعات ولم يكن يتوقع أن رفاقه سوف يتركون لنا أحد زورقيهما .

كنت أعلم أننا لا نستطيع أن نضيع الوقت فى دفن الحارس المسكين ، أو الترحم عليه . بضربة سيف واحدة قطعت رأس العابيرو ثم أشرت إلى الحارس أن يتبعنى ، وعدنا إلى الشاطىء لنستقل الزورق الثانى للعابيرو ، ورحنا نجدف بسرعة متوغلين فى المستنقعات مبتعدين عن جزيرة الدماء .

استمر تجديفنا أكثر من ساعتين بلا هدف محدد سوى الابتعاد عن جزيرة الموت والتوغل فى المستنقعات عسى أن نأمن شر مطاردينا . كان خبر ( شمس الصباح ) قد بزغ فى هذه الأثناء ، وابتدا يبدد سحب الضباب حتى أضحت الرؤيا أيسر . وبالرغم من أننا كنا فى منتصف شهور برت ( الربيع ) فإن الجو كان حارا خانقا حتى أن العرق بلل ملابسنا كما بدأ الاجهاد واضحا على الحارس المسكين الذى كانت ضرباته فى الماء تزداد ضعفا ، وتباعدا . ولم أجد مناصا من البحث عن أقرب جزيرة نأوى إليها لنستريح ونستعيد قوانا الخائرة .

لم تكن أية جزيرة تقضى الغرض ، فإننى كنت قد لاحظت أثناء هروبنا أن أعواد البوص والبامبو تنبت فى بعضها ، ولهذا لم اتعجل الرسو حتى بدت لى إحدى تلك الجزر فأشرت إلى الحارس أن يتجه إليها . والواقع أن هذا الاختيار جاء موفقا إذ أنه أتضح أن الجزيرة لا تحتوى على نبات البامبو فحسب ، لكنها كانت كبيرة نسبيا ، تتوسطها شجرة ضخمة ، ذات فروع وأغصان كثيفة مما جعلها تصلح لأن تكون مخبأ مؤقتا ، وملاذا من وهج الشمس ، ولفح الحر . حملنا القارب الخفيف فيما بيننا حتى ظلال الشجرة ، ثم ألقينا جسدينا المنهكين على الأرض الرطبة لنستريح .

أعطتنى هذه الراحة فرصة التفكير . كانت هنالك أسئلة كثيرة تدور فى عقلى منذ البداية لكن تتابع الحوادث السريع لم يعطنى مهلة للتفكير فيها . فمثلا كيف أمكن للعابيرو ، وهم لم يعرفوا عن عزمى على السفر إلا حينما تتبعونى فى

نيوت ، أى قبل ساعة على الأكثر من بدء السفر ، أن يسبقونا إلى المستنقعات وأن يكون فوق ذلك عندهم الوقت الكافى لإعداد الكمين ، وترتيب الزوارق اللازمة ؟ صحيح أننا كنا نسير على مهل لأن الحارسين لم يكونا يمتطيان جيادا ، فإذا كانوا قد سبقونا فلا يمكن أن يكون ذلك بأكثر من ساعة ، هذا مع فرض توجههم مباشرة إلى المستنقعات فور علمهم بعزمى على السفر !!

كيف تسنى لهم إذاً أن يعدوا العدة للكمين ، وأن ينقلوا ، أو يصنعوا زوارق البردى فى هذه الفترة الوجيزة ؟ وسؤال آخر . كيف واتتهم الجرأة على الدخول إلى المستنقعات مع ما هو معروف عنهم من جبن ؟ ثم كيف استمروا فى البحث عنا داخلها ؟ ولم لم يتركونا نلقى مصرعنا فيها ، واكتفوا بأن يحرسوا الشواطىء ليمنعوا هربنا ؟ وجاءتنى الإجابة على هذه الأسئلة سهلة يسيرة . إن بعض العابيرو قد أنشأ مستعمرة فى مكان ما فى المستنقعات . بهذا الفرض فقط يستوى منطق الأمور ، بهذا فقط تكون الساعة ، أو جزء منها ، كافية لاعداد الكمين . فما على القاطنين فى نيوت إلا إخبار إخوانهم فى المستنقعات ليكون كل شىء معدا خلال دقائق .

على أن هذه الإجابة البسيطة إستتبعتها أسئلة عديدة ؟ لماذا يقيم العابيرو مستعمرة فى المستنقعات ؟ هل تعلم حكومة جلالة الفرعون عن هذه المستعمرة ؟ وأخيرا أين موقعها بالضبط ؟ كان السؤال الأخير هو الأقرب إلى الحل وهو الأهم بالنسبة لموقفنا الحالى ، ان أردنا الخروج من هذا الجحيم . وتصورت المستنقعات . كان يحفها جنوبا الطريق إلى المعسكر فيجب إذاً أن يستبعد الجنوب لكثرة ما يطرقه من ضباط ، وجنود . وشرقا توجد الأراضى الزراعية ، مع كثرة العاملين بها . وللسبب السابق إستبعدتها ، وبقى الشمال حيث يوجد مزيد من المستنقعات تصلها بمستنقعات الدلتا ، ولم أتصور أن العابيرو كانوا مستعدين للدخول فى هذه المتاهات إذ لابد لهم من الاتصال السهل السريع بإخوانهم فى نيوت . وبذلك لم يبق إلا الغرب ، حيث الصحراء التى لا يرتادها أحد إلا فى القليل النادر .

كان فى هذا إجابة تكفى مؤقتا على السؤال الأخير . وبقى الأولان دون

إجابة . وبالرغم من أنني بذلت جهدى فى المحاولة ، خاصة للاجابة على السؤال الأول ، فإنني لم أتمكن من إستنباط إجابة شافية . فتركتهما إلى الزمن يحل لغزيهما وانتقلت إلى التفكير فى موقفنا . . لم نكن نعرف أين نحن ولم يكن لدينا طعام ، ولاشراب . وكنا فى مستنقعات مليئة بالحشرات والأفاعى ، والتماسيح ، غير أعداء لانعرف بالضبط عددهم ، ولا مكانهم . أعداء أضحى قتلنا بالنسبة لهم مسألة حياة ، أو موت وليس مجرد كسب بعض المال . وفى مقابل هذا كانت عندنا ثلاثة خناجر وثلاثة خوبشات ( سيوف ) ، إذ كنا قد جردنا الحارس القتيل من سلاحه . طرأ فى بالى أن استخدم الحكا ( القوى فوق الطبيعية ) لأخطر أصحابى يأتون لنجدتى ، لكن الواقع أنني لم أكن أعرف أين أنا . ومن ناحية أخرى ماكنت لألجأ إلى إستخدام الحكا إلا بعد أن أعجز كلية عن استخدام قواى المادية ، إذ كنت اعتبر الإتجاه إلى سلاح لا يعرفه خصمى نوع من العجز .

ليس الجوع والعطش مشكلة بالنسبة لى ، إذ أنني كنت قد إعتدت عليهما . وما كان أيسر على من قتل ثعبان مثلا ، وأكله . أو حتى البقاء دون طعام أو شراب لأيام ، لكن الحارس المسكين لم يكن قد اعتاد على هذا . وظهرت آثار اليوم السابق واضحة عليه . أعجبنى فيه أنه لم يتكلم أو يتذمر ، ويبدو أنه صمم على أن يتحمل ما أستطيع أنا أن أتحمله . ولعله خجل من نفسه الا يجارى فتى صغيراً فى الصبر ، وقوة التحمل ولم يكن يعرف ، أو يقدر مدى التدريب الذى مررت به منذ نشأتى خلال سنوات طوال من الكهانة فى معهد رب الأرباب ، ودار الحياة .

مكثت مكانى مدة كافية لأسترد انفاسى ، ثم أشرت إلى الحارس ، وقمنا نقتطع من البامبو أعوادا منتقاه . كان خوبش(١) أداة نافعة فى القطع ، ولهذا لم يمض وقت طويل حتى كنت قد جمعت العيدان التى أريدها . سألت الحارس إن كان يستطيع أن يشكل أقواساً وسهاما فقال إنه لا يعرف . ولما كان من اليسير تعلم صناعة السهام ، دون الأقواس فقد بدأت بها وسرعان ما التقط الصناعة . وتركته يشكل السهام ، وقطعت بعض الوقت فى صناعة قوسين .

كانت الشمس قد بزغت تبدد الضباب وترسل أشعتها متلألئة ملتهبة على سطح

---

(١) سيف قصير هلالى الشكل كان يستعمله قدماء المصريين .

المياه . وأعطتنا أفرع وأغصان الشجرة بعض الحماية ، لكن الجو ظل خانقاً ثقيلا على الصدر . وإذا كان فى المستنقعات شيء جميل فلا شك أنها الطيور فقد كانت كثيرة متعددة الألوان والأحجام ، ومنها ما كان يرسل أصواتاً جميلة تتنافى تماماً مع المنظر الموحش حولنا . وسألت الحارس .

ـــ هل تستطيع أن تأكل اللحم نيئاً ؟

بان التردد عليه . ثم قال .

ـــ إذا رأى مولاى أنه لا مجال آخر للأكل .

ـــ لست أظن . فإنه فضلا عن أن الأخشاب هنا رطبة لا تصلح لإيقاد النيران ، فإننا لا نجرؤ على ذلك حتى لا نسهل لعدونا مهمة العثور علينا .

كنت قد رأيت الكثير من الأوز . والبط البرى فلم يمض وقت طويل حتى كنت قد اصطدت أوزة بسهم واحد . ونظفناها بالخناجر ، ثم جلسنا نتناول وجبة من لحم نيء . حينما إنتهينا كان خبر قد تحول إلى رع . ورأيت أنه قد آن الوقت لأن نرتحل فركبنا زورق المزات ( البردى ) ورحنا ندفعه إلى الماء . لكننا فى هذه المرة لم تكن مجرد هاربين لا يعرفان أين يذهبان وكل هدفهما التوغل فى المستنقعات ، وإنما أضحى لى هدفاً هو معرفة مكان مستوطن العابيرو ، إن كان ثمة مستوطن . ولهذا كان إتجاهنا دائماً إلى الغرب على قدر ما تسمح به الممرات المائية .

سبق أن ذكرت أن المسافة من نيوت إلى الحظائر الفرعونية تنقسم إلى ثلاثة أقسام تكاد أن تكون متساوية ، وأنها تقطع عادة فى حوالى الساعتين . ومعنى هذا أن عرض المستنقعات من ناحية الطريق لا يمكن أن يزيد بحال من الأحوال عن وترو(١) وهذه مسافة بسيطة . لكننى لم أشك من ناحية أخرى أن حكومة الفرعون إختطت الطريق فى أضيق مكان ، وأيسره ، وربما كان الإتساع فيما عدا هذه المنطقة هائلا ، خاصة وأننا لا نعلم مدى توغلنا منذ بداية فرارنا من العابيرو ،

على أنه لم يكن أمامنا خيرة على كل حال فمادمت على ثقة من أن العابيرو

---

(١) وترو مقياس طولى يساوى ١٠،٥ كم تقريبا .

مايزالون يطاردوننا فلاشك أنهم قد قطعوا علينا خط الرجعة إلى الطريق من الناحية القبلية ، ولم نكن نملك التوغل إلى مالا نهاية فى الناحية البحرية ، ولا كنت أود العودة إلى المزارع الشرقية ، وبذا لم يبق إلا الغرب . إستمر تجديفنا طوال بقاء رع فى كبد ( السماء ) ، وحينما بدأ أتوم (شمس المغرب ) فى ذهابه إلى رحلته الليلية نحو أمنتى ( الغرب ) ، ظننت أنه آن الأوان لأن نتوقف لأبدأ دراسة موقفنا ، فاتجهنا إلى إحدى الجزر القريبة ، وأخفينا الزورق بين بعض الأعشاب ، واستلقينا على الأرض الرطبة التى أضاف إلى رطوبتها العادية بدء هبوط الضباب . وبدأت التفكير فى موقفنا .

لم نكن قد رأينا طوال اليوم أحدا من العابيرو ، وكل مامر بنا كانت بعض التماسيح ، التى كانت تنزلق إلى المياه حينما ندنو منها ، وتنظر إلينا فى تعجب، وخبث ، ثم تختفى ثانية ، والثعابين التى كانت تتلوى ساعية فى المياه لتندس بعد قليل وسط الحشائش الكثيفة الطويلة . هذا طبعا عدا الضفادع التى لم تتوقف عن ثرثرتها المزعجة فى أية لحظة ، وآلاف الناموس الذى كان يمنع لذعاته المؤلمة ما كنا نضعه على أجسادنا ووجوهنا من طين .

أين ذهب أعداؤنا إذاً؟ كيف لم نر لهم أثرا طوال اليوم؟ هل تناسونا، وضربوا صفحا عن مطاردتنا إعتقادا منهم أننا لن نستطيع ان نخرج من هذه المستنقعات اللعينة أحياء ؟ لم أكن أعتقد هذا حتى أننى لم أشك لحظة فى أنهم كانوا بشكل ما مازالوا يتعقبوننا . وأنهم بالرغم من المتاهات ، والضباب ، يعلمون تماما موقفنا ، وهم فقط ينتظرون الفرصة المناسبة للتخلص منا دون أن تراق لهم دماء . أجهدت نظرى أجوس به حولنا ، لكن الضباب كان قد أضحى كثيفا حتى أننى لم أستطع أن أتجاوز رؤية بضعة أمتار قليلة ، لم أر شيئا لكن إحساسا عجيبا كان يلح على بأن أعداءنا قريبون ، وأنهم إنما ينتظرون حتى يغلبنا النعاس ثم يهجمون . والتفت إلى رفيق المغامرة .

كان الحارس قد استلقى على الأرض ونام فعلا . أنهكت المغامرة قواه تماما فابتدأ شخيره يعلو ، ولو تركت لنفسى لانتهزت هذه الفرصة لاستطلع أحوال أعدائنا ، لكننى خشيت إن تركت الجزيرة أن أضل عنها فلا أستطيع أن

أجدها وسط هذا الضباب . إذاً فلا أقل من أجوب أنحاء الجزيرة التى آوينا إليها لعلى أرى شيئاً قبل أن يحل الظلام ، وتزداد كثافة الضباب ، وتستحيل الرؤيا تماما . لم أتردد . قمت من مكانى بخفة حاذرا أن أحدث صوتا يقلق الحارس من نومه ، وسرت بمحاذاة الشاطىء جاهدا نظرى فى الاستطلاع . كانت الجزيرة فيما بدا لى كبيرة ، كما أن مسطح المياه حولنا كان متسعا حتى أننى لم أتمكن فى هذه الرؤيا المحددة أن أرى شاطئا آخر . كنت أسير ببطء شديد فلم أكن أخشى الماييرو فحسب ، وإنما كنت أيضا أحاذر أن تطأ قدمى عن غير عمد على ثعبان ، نائم أو تمساح قابع . وأكثر من هذا أننى سمعت عن الطين المتحرك فى المستنقعات الذى يبتلع كل من رماه سوء طالعه أن يطأه ، فرحت أتحسس الأرض بقدمى تارة ، وبفرع خشبى إلتقطته أثناء سيرى تارة أخرى قبل أن أتم خطوات .

مضى مايقرب من نصف ساعة قبل أن أفكر فى العودة ، ولم أكن أكملت دورة الجزيرة ، وخشيت أن تكون أكبر كثيرا من أية جزيرة أخرى مررنا بها أثناء تجوالنا ، خاصة وأننى لاحظت بعد مدة أن هناك أشجارا متناثرة داخلها مما يعنى أن الأرض جافة إلى درجة تسمح بنمو الأشجار . بدأ الظلام يرخى سدوله ، وأضحت الرؤيا شبه مستحيلة لأكثر من خطوتين أو ثلاثة . وعدت أدراجى بخطوات أكثر اطمئنانا إذ أمنت عدوا كنت أخشاه أكثر من أى عدو آخر ، الطين المتحرك . مضت نصف ساعة أخرى ، وظننت أننى وصلت إلى المكان الذى تركت فيه رفيقى نائما . أجلت النظر ، لكننى لم أر شيئا . ولم يكن هنالك أحد .

أول ماجال فى خاطرى أننى أخطأت التقدير ، فربما لم أصل إلى المكان الذى تركت فيه رفيقى ، أو لعلنى مررت فعلا به دون أن أراه . فالشاطىء كان متشابها فى مناظرة تتناثر الأعشاب والحشائش عليه ، وكان من اليسير جدا أن تختلط الأماكن ، فى هذا الظلام ، والضباب ثم خيل إلى أنى سمعت حركة خفيفة بين الأخشاب . تجمدت حيث أقف وأصخت السمع ، لكن الصوت لم يتكرر .

كان من المستحيل أن أرى أية آثار على الأرض . مالم انحنى وأتحسسها ، لكننى لم أفعل . إذا كان هناك عدو متربص فى الحشائش فسوف تكون فرصته للقفز على وقتلى حيث أنا ، هذا بالطبع إذا كان يرانى فى هذا الظلام الدامس . وقررت أن أجاذف بإحداث صوت أنبه به الحارس إن كان قريبا فناديت بصوت خفيض ، ولم يجبنى سوى صوت الضفادع ، وصرصور الماء يزيدان من وحشة المكان .

اقتنعت للمرة الثانية بأنى ربما أخطأت ، واختلطت على الأماكن ، فاستدرت فى وقفتى وهممت بأن أتابع سيرى ، حينما اصطدمت قدمى بشىء على الأرض . انحنيت بسرعة ألتقطه ، وعلمت فى اللحظة التالية أننى لم أخطىء كان أحد السهام التى صنعناها ، والتى تركتها مع القوسين حينما اعتزمت الاستطلاع ودارت الأفكار فى رأسى متلاحقة . إن العابيرو كانوا هنا . ولعلهم ما يزالون موجودين . وقد اختطفوا الحارس وهو نائم ، وجمعوا القوسين والسهام ، ولابد أنهم لم يروا هذا السهم ، ربما لتعجلهم حتى لا أراهم ، وربما لشدة الظلام .

أما وقد علمت موقفى ، ومصير رفيقى فلم يكن هنالك مجال للتردد . لم يكن قد مضى منذ إرتطمت قدمى بالسهم أكثر من ثوان معدودات لاأحسبها تجاوز نصف الدقيقة (١) ، وما كنت لأضيع الوقت بعد هذا وأنا أعلم أن كل ثانية تمر قد يكون فيها حتفى . مددت يدى وسللت خوبش ( السيف ) . ولم اتجه إلى الحشائش لأننى أيقنت أن العابيرو ما كانوا ليتركوا هبو ( القارب ) دون حراسة ، متوقعين دون شك أن أتجه إليه فور اكتشافى إختفاء زميلى . إتجهت إلى داخل الجزيرة رأساً ، وكان هذا خطئى الذى كاد أن يكلفنى حياتى ،

لابد أن العابيرو قدروا ما فكرت فيه ، فلم أكد أتقدم بضعة خطوات

---

(١) كان المصريون القدماء يعرفون تقسيم الساعة إلى دقائق وثوان وكانوا يستعملون لفظ آت بمعنى الدقيقة وحات للثانية .

حتى إنقضت على أشباح كأنما انشقت الأرض عنها ، وامتدت أيدى كثيرة تريد أن تقبض على . ويبدو أنهم لسبب مالم يكونوا يريدون ... قتلى ، وإنما يرغبون فى القبض على حيا . لكنهم لم يدخلوا فى حسابهم أن أكون قد سللت خوبش — ى ( سيفى ) فعلا ، وظنوا أن الصراع سوف يكون بالأيدى فحسب ، ففوجئوا بالسيف يعمل فيهم القطع ، والبتر دون هوادة .

شقت السكون صرخات الفزع والألم ، وتعالت صيحات التساؤل ، والتحذير ، ولثوان إختلطت الأجسام ببعضها ، وعم الهرج بين المهاجمين ، وهم يتدافعون محاولين الفرار أمام السيف الذى يلاحقهم دون هوادة ، أو رحمة . لم يتوقف حسامى لحظة واحدة . كنت أعلم أن لى حليفين ، أولهما الظلام الدامس ، وثانيهما حقيقة أننى بمفردى ، فأى شخص سواى عدو . فى حين أن المهاجمين لم يكونوا بعد الهجمة الأولى ليجرؤوا على الانقضاض على أى شخص ، إلا بعد أن يتأكدوا منه ، ولهذا السبب نفسه كان على أن أتابع استغلال لحظات الهرج الذى سادهم .

كانت فرصتى الوحيدة فيما رأيت ألا أحاول الهرب ، وأنما أن أكون معهم حتى يحسبوا أننى واحد منهم . ولى فى ستر الظلام خير معين فى أنهم لن يحاولوا التحقق من رفاقهم . إندفعت وراء الهاربين . لم استعمل سيفى بل على العكس ، دسسته بين طيات ثيابى من الداخل . ظللت أعدو معهم حاذرا أن أفقدهم فى الظلام . وإستمر عدونا دقائق ، ثم صدرت من الرجل إلى جوارى أنة ألم وتكلم بلسان لم أتبينه فى أول الأمر . ورد شخص آخر ، ثم توقف الجميع حتى أننى كدت أن أصطدم بمن أمامى . وساد الصمت لحظة تكلم بعدها واحد باللغة نفسها ، وفى هذه المرة تحققت من أنها كانت العبرية .

نظرا لاتساع رقعة الامبراطوريه فإن جميع اللغات كانت تدرس فى برعنخ ( دار الحياة ) لاضطرارنا ، نحن كتبة الالهة إلى ترجمة الرسائل الواردة من الرؤساء . والملوك . لهذا لم تكن العبرية غريبة على ، وإن كانت فى الواقع

لغة يقتصر التخاطب بها على فئة قليلة . ولهذا ، وان كان فى استطاعتى تفهم ما يكتب بها الا أن قدرتى على تتبع الكلام فيها محدودة . على اننى بالرغم من هذا فهمت اجمالا ما قاله الرجل . كان يأمر اثنين من الجماعة بمرافقة الجريح إلى المستعمرة فى حين كان على الآخرين أن يتبعوه ، ليعودوا إلى زملائهم حيث المصرى اللعين . كان من اليسير على نسبيا أن أفهم ما يقال ، لكن لم يكن من اليسير على أن أتكلم .

تقدم اثنان ليرافقا الجريح ، ولم ار بدا بعد هذا من أن أرافق سائر الجماعة العائدة إلى حيث كنا . لم تكن لى مندوحة من ذلك فإن عدد الجماعة كله كان سبعة ، وإختفاء واحد يكفى لإثارة الشك . صحيح أن الظلام ، والضباب كانا كفيلين باخفاء الملامح ، لكن الأشباح كانت تتحرك ، ويمكن معرفة تحركاتها ، وإتجاهها ولو إلى مسافة ، فاذا ما نقص أحدهما فمن اليسير معرفة ذلك .

انفصلت الجماعتان ، وتبعت العائدين ، لكننى لاحظت لخطوات قلائل أن الجماعة الأخرى لم تتجه إلى الشاطىء ، وإنما سارت متوغلة فى الجزيرة . وهنا طرأت فى ذهنى ملاحظة أخرى . إن الأرض التى كنا نسير عليها كانت جافة تماما لا أثر فيها لأى ماء ، اللهم إلا الرطوبة البسيطة الناتجة من الضباب . وتبع هذا استنتاج ثالث . إن الجزيرة كبيرة جدا ، ولعلها تتصل بالأرض مباشرة ، أو لعلها امتدادها داخل المستنقعات ، وبذا لا تكون جزيرة على الاطلاق وأن مستعمرة العبيرو لابد أن تكون فى هذه المنطقة .

ارسل واحد من الجماعة صفيراً خافتا لا يكاد أن يلاحظ ، وفى التو ظهر رجل من بين أحراش قريبة . وابتدره من لاح أنه الرئيس بصوت هامس .

— هل قبضتم على المصرى اللعين ؟

— كلا

— هل تعلمون أين هو ؟

— كلا ، ويبدو أنه تبخر فى الهواء . على أنه لن يفلت منا فقد مزقنا قاربه ، ولا نحسب أنه يجرؤ على الخوض فى المياه . وإن فعل فمما لا شك فيه أنه سيلقى حتفه بين فكى تمساح ، كما أننا منتشرون فى جميع انحاء الشاطىء نراقب أيه حركة غريبة . ولولا الضباب لكنا قد قبضنا عليه منذ فترة . وعلى أى حال فان مما ريب فيه أننا سنقبض عليه فى الصباح .

ساد الصمت برهة بدا أن الرئيس يفكر فيها .

— أجل ، لكن بين الآن والصباح ساعات ، وفيها يحدث الكثير . أحسب أنه لم يتوغل نحو المستعمرة .

— يستحيل أن يحدث هذا . إن رفاقنا منتشرون حولها كأنما هى فى حصار . وأى شخص يتحرك بمفرده سوف يكون عرضه للهجوم عليه .

وعاد صوت الرئيس خفيضا غير واثق .

— أجل أظن أنه من العسير على أى شخص أن يتخطى الحصار ، ومع هذا فكم كنت أود أن ينحسر هذا الضباب ، وأن ننتهى من مهمتنا . عودوا إلى أماكنكم ، وليذهب كل اثنين مع بعضهما ، وإذا رأيتم ما يريب فلا أريد بطوله ، أرسلوا الصفير المتفق عليه . ولا اريد ان يتكلم أحد ، ولا أن يتحرك إلا بحذر شديد مع رفيقه .

انسحبت صامتا مع أحد الرجال . فى لحظات ابتلعنا الظلام ، والضباب فصرنا كأنما نحن فى عالم آخر انقطعت فيه الصلة بالآخرين . ولم اشأ أن أقود فسرت متتبعا خطوات رفيقى الذى كان يسير بحذر متلفتا حوله جاهدا نظره . ولم أكن بداهة احتاج إلى اجهاد نظر ، أو السير بحذر . ولعلها كانت المرة الأولى التى شعرت فيها بأمان نسبى منذ أن بدات الأحداث فى المستنقعات . توقف زميلى عند بعض الأعشاب القريبة من المياه ، ثم أشار أن أدلف فيها ، وتبعته . وعاد السكون يطبق على السكون فيما عدا أصوات الضفادع ، والصراصير .

لم يكن زميلى يبعد عنى بأكثر من خطوتين ، ومع هذا فان الاعشاب

كانت تغطيه كله تقريبا ، ولا يكاد ، بين الليل والضباب ، يبين منه سوى اقل من شبح ، ولو لم اكن اعلم انه هنالك ، ما كان فى الاستطاعة رؤيته . تضاربت فى رأسى الأفكار . لو مكثت فى مكانى فسوف تبزغ الشمس ، ويتعرفون على ، وفى هذا نهايتى . وإذا تحركت فلن تمض دقائق إلا ويعلمون انى كنت بينهم ، وسيترصدون لكل فرد متنقل ، ولن تجوز عليهم الحيلة مرة اخرى . فضلا عن هذا فان الليل كان ما يزال فى اوله فلم تكن قد مضت عليه أكثر من أربع ساعات ، وإن أردت أن يكون عندى فرصة الهروب فيلزمنى أن ابادر به . وأيا كان الوضع فقد كان على أولا أن اتخلص من الرجل إلى جانبى . ولم اتردد .

سحبت خنجرى بحذر شديد ، ومددت يدى المس كتف الرجل . وحينما إستدار إلى هبطت بالخنجر بأقصى قوتى على رقبته . كانت ضربة صائبة أنهت الصرخة التى كانت قدبدأت تعلو ، وقتلت الرجل فى اللحظة نفسها . انبثقت الدماء بشدة من الجرح العميق فى الرقبة حتى أنها عمت ثيابه ، ولوثت يداى . وسحبت الخنجر ، ومسحته فى ثياب القتيل كما مسحت يداى . ومكثت برهة أتصنت إن كان واحد من المابيرو قد سمع شيئا ، أو أحس بحركة ، لكن كل شىء كان هادئا . قبعت فى مكانى فترة أستجمع فيها رباطة جاشى فإن قتل شخص دون إعطائه فرصة الدفاع عن نفسه ، حتى ولو كان عدوا ، لم يكن بالعمل الذى تطمئن اليه نفسى ، ولهذا اهتزت أعصابى بشدة . حتى أننى احسست بالعرق يتصبب من جميع أجزاء جسمى .

مضى وقت طويل قبل أن اتحكم فى أعصابى . رحت أفكر فى الخطوة التالية . لم تكن هنالك فائدة فى أن أفكر لأكثر من خطوة ، فلم أكن أعرف طبيعة الارض ، أو الظروف المحيطة بها أو عدد أعدائى ، او مكانهم ، ولهذا فاننى لم اضع خطة محددة ، وإنما تركت نفسى للظروف معتمدا على سرعة التصرف فى كل موقف على حدة . واستقر رأيى على الخطوة الثانية . اخرجت الخنجر ، وجرحت به كتفى الأيسر، ليس جرحا عميقا ، وإنما

يكفى ان تسيل منه الدماء . وللمره الثانيه مسحت الخنجر فى ثياب الرجل القتيل إلى جوارى ، واعدته إلى مكانه . جررت الجثة ببطء وحذر حتى ادخلتها فى الميــــاه بعد أن جردتهـا من الخنجر البرنزى ، وعدت إلى مكانى بهدوء .

اطلقت صرخة تحذير ، وتحركت بسرعة فى الأعشاب ، والمياه محدثا أصوات كأنما هى اصوات عراك . وصرخة اخرى تنم عن الألم ثم طوحت خنجر الرجل القتيل ، وسيفى ، فى الماء فسقطا محدثين صوتاً مسموعا . وإمتلأ الليل بالأشباح تجرى نحوى من كل صوب ، وحينما وجدونى كنت ممسكا ذراعى ، ومتهالكا على الشاطىء بين الأرض والمياه ، وبدا أن كل ما أستطيع أن أقوله هو ،

— هنالك ........ المصرى .........

خرجت منى تأوهات ألم ، وأنات من فقد أعصابه ، وأمتدت ايدى كثيرة تساعدنى على النهوض . وسمعت أصواتاً مختلطة تسأل عمـا حدث . بدا لهم أننى على وشك الإغماء . إنحنى رأسى على صدرى ، فضاعف ذلك من عدم إمكان التعرف على ، فاليد اليمنى تمسك بأعلى الذراع الأيسر من ناحية ، والوجه نصف المخفى فيها من ناحية اخرى كان فيهما الكفاية لإخفاء ما بقى من ملامحى إذا حاول أحد التحقق من شخصيتى فى هذا الظلام . جرنى اثنان من اعدائى خارج الماء . واستمرت أصوات الرجال تتناقش فيما حدث بعد أن يئسوا من استخلاص شىء منى . وأشار أحدهم إلى الماء قائلا إنه يرى شيئا هناك . وكتم الباقون انفاسهم وهم يجهدون النظر . وعم السكون فترة ، ثم صدرت من جوف المياه أصوات لم يكن هنا لك مجال الشك فيها . كانت أصوات تمساح يجر شيئا ثقيلا ليبتعد به إلى مكان آخر . ووقف الجميع مشدوهين . وعلا صوت رئيسهم .

— لعل مسح ( التمساح ) قد أراحنا من عدونا اللعين ، لكننا لن نبرح المكان ، أو نكف عن البحث حتى الصباح لنتأكد مما حدث أو حتى يستطيع الأخ أن يروى لنا قصته . فليساعده اثنان منكما إلى المستعمرة ، ويستجوباه

بعد أن يفيق قليلا ويعودان الينا بالقصة ، وكونا حذرين ، فإنني ما زلت لا آمن لهذا المصرى .

أمسكنى رجلان . وحاولت أن أرى وجه الرئيس ، لكن الظلام كان شديدا ، والضباب كثيفا حتى أنه لم تكن هنالك فائدة فى إجهاد النظر ، وإن بدا الصوت قريبا جداً ، كل ما استطعت أن أستخلصه أنه كان نحيلا غير طويل . كما أن صوته ينبىء بصغر سنه . ولم تكن لدى حيلة بعد هذا سوى أن أنساق بين الرجلين . وتأوهت ألما حينما أمسك احدهما بذراعى الأيسر حتى أنه تركنى وسار إلى جوارنا .

اتجه ثلاثتنا نحو المستعمرة ، وعلمت أن الوقت لن يطول حتى يكتشف امرى ، وتنتهى حياتى .

## الفصل الثامن عشر

# مولوخ ... ملتهم الاطفال

كان حالى وأنا أسير بين الرجلين يعاونانى ، أو لعلهما آسرى ، يدعو إلى الرثاء ، فإن حوادث اليومين الماضيين ، وخاصة الساعات الأخيرة ، كانت قد أجهدتنى ، كما أن الجرح الذى اصطنعته بدأ يؤثر فى . صحيح أنه لم يكن عميقا ، لكنه أيضا لم يكن سطحيا إذ كان لابد أن اجعله عميقا بدرجة تكفى لأن تنزف منه دماء ، وبحيث يمكن أن يكون حجة لى فى عدم القدرة على التفوه إلا بألفاظ محدودة ، متباعدة ، حتى لاينكشف أمرى لعدم تمكنى من اللغة . شعرت فعلا بأن كتفى الأيسر بدأ يؤلمنى فى كل حركة ، وخطوة . وإذا أضفت إلى هـــذا الجوع ، والعطش ، وتوتر الأعصاب المستمر ، والنوم القلق غير المريح ، وغير الكافى ، لأمكن تصور مدى مالاقيته من عناء .

ولا كانت ملابسى فى حالة أحسن من جسدى ، إذ أنها اتسخت إلى درجة كبيرة من أثر النوم على الأرض بالإضافة إلى العرق المستمر . وفى وقت ما فى هذه الليلة فقدت صندلى ، ولعل هذا كان خيرا إذ أننى لاحظت أن جميع العابيرو كانوا يسيرون حفاة . لكن قدماى بدأتا تؤلمانى فى كل خطوة إذ لم أكن معتادا على السير بهما دون حذاء ، على العكس من آسرى الذين اعتادا على الحفاء فخشنت جلود أقدامهما ، ولم يتأثرا بالطين الزلق ، أو ما يصادفهما فى الأرض من قطع أخشاب متناثرة ، أو حشائش .

بعد قليل بدأت الأرض تجف فأصبحت أكثر صلابة وأقل تمهيدا . وكثر تعثرى ، ولعل آسرى ظنا أن هذا التعثر من أثر ضعفى لما فقدته من دماء ، فلم يثر فيهما أى شك أو ريبة ، وكل ماهنالك شدد الرجل الذى يمسك بذراعى الأيمن قبضته على حتى يمكنه أن يقيل عثراتى . شعرت بخوف قاتل يعتصر قلبى . لاحظت أولا أن الرؤية تحسنت نسبيا إذ أمكننى أن أرى قدمى . ودعانى

هذا إلى أن أرفع رأسي قليلا ، فرأيت أن الضباب أضحى أخف كثافة ، حتى أنني رأيت أشباح أشجار كثيفة نسبيا . وبدأت أرى ملابس الرجل إلى يميني، حتى أنني أيقنت أنني لو رفعت رأسي لأمكنه أن يرى وجهي . ومن حسن الحظ أن الرجلين كانا مشغولين بالتحديق في الظلام ، خوفا من عدوهما ولم يعيراني أي انتباه .

لكن أشعة القمر بدأت تتغلغل في الضباب حتى بدا سحابا أبيض بدلا من أن يكون مجرد حائط أمام العينين لا يستطيع المرء معه أن يرى شيئا . علمت أننا كلما توغلنا في الجزيرة ، كلما خف الضباب ، ولن تمضي دقائق قليلة حتى تتيسر الرؤيا ولو إلى مسافة معقولة ، ومعنى هذا أن الخطر من انفضاح أمري سيكون أكبر ، والفرار أصعب . فإن أردت أن أفعل شيئا فيلزم أن يكون الآن .

تعثرت متعمدا حتى أنني كدت أسقط على الأرض . وأخذت الحركة المفاجئة الرجل عن يميني على غرة ، لكنه إنحنى بسرعة يريد مساعدتي . في لحظة كان خنجري في يدي ، وفي اللحظة التالية كان قد انغرس في رقبته . بدلا من أن ينقلب الرجل من أثر الطعنة ، انكفأ على وجهه ، وحشرجات الموت تصدر منه ، في حين اندفعت الدماء تغطي الأرض . وأفقدني انكفاؤه القدرة على استرداد الخنجر ، ولم يكن لدي متسع من الوقت لاسحبه ، فتركته مع الجثة .

كان الرجل الآخر قد انحنى هو أيضا بحركة غريزية مادا كلتا يديه للمعاونة . ورأى الخنجر يلتمع في الضوء الخافت ، أو لعله رأى زميله ينكفيء على وجهه والدماء تنبثق من رقبته ، إذ رأيته يحاول أن يعتدل في وقفته . لكن المفاجأة كانت أذهلته لحظات كافية بالنسبة لي لأستعيد توازني . إندفعت يدي اليمنى بأقصى قوة لتصدم بعنف شديد بمعدته لتخرج الهواء من صدره . وتمنعه من إطلاق صرخة أوشكت على الانطلاق .

إرتد الرجل لحظة ثم انحنى ممسكا بطنه بيديه ، وراح يحاول أن يلتقط أنفاسه الضائعة . ولم أعطه الفرصة . اعتدلت في وقفتي ، وتقدمت منه خطوة سريعة ، ثم عاجلته بلكمة شديدة في فكه . كانت اللكمة من القوة بحيث شعرت بآلام في عظام أصابعي ، ومفاصلها ، وإنسحب الألم إلى كتفي الأيمن ، وسار فيه ليستقر في كتفي الأيسر الجريح . وبصرخة مكتومة هي أقرب إلى الشهقة ،

ارتد الرجل إلى الخلف ، وهو شبه معتدل فى وقفته . وتابعت فرصتى . اندفعت وتناسيت تماما الآلام التى كانت تحز فى كتفى وذراعى الأيسر ، ولاحقته باللكمات فى وجهه . أصابت أحداهما فمه . وسمعت صوت أسنانه تتكسر تحت ضرباتى ، وامتلأ فمه دماء، لكن أصابعى أيضا أصابتها الجروح ، وبدأت أشعر بآلام شديدة فيها كما أننى فجأة شعرت ، لسبب لا أعلمه ، بأن ركبتاى تخذلانى. كان على أن أنتهى من الرجل فى أسرع وقت أستطيعه .

لست أدرى كيف استجمع الرجل قواه ، ولا كيف تسنى له أن يتفادى ضرباتى ، لكن قبضته هبطت على وجهى فجأة مرتين متتاليتين . لاقت إحدى الضربتين أنفى . وأحسست به يدمى وبالدماء حارة تنزف ، وبغمامة من الدموع تغطى عينى . بشعور غريزى تراجعت إلى الوراء . وانتهز الرجل الفرصة ، وبدلا من أن يتابع ضرباته ، استدار ، وأطلق ساقيه الريح .

لم يكن فى استطاعتى أن أتركه ، فإن معنى هذا أن أفقد الفرصة التى واتانى بها الحظ إذ ظن أعدائى أننى قد افترسنى التمساح . بالرغم من الآلام التى انتشرت فى أصابعى ويدى، وبالرغم مما كنت أشعر به من ضعف ، انطلقت وراءه . كان فمه مليئا بالدماء، وما كنت أحسبه يستطيع الصراخ ، ولو لفترة ، ومن هذه الناحية كنت آمنا . لكننى لو تركته للحظات ، أو لو أمكنه أن يسبقنى بخطوات لاختفى فى الضباب ، وكان من شبه المستحيل بعد هذا أن أعثر عليه .

يبدو أن الذعر انتاب الرجل فلم يفكر إلا فى الفرار ، وهو يعلم أن القتال إن استمر ، فهو الموت . لم يفكر فى العودة من حيث أتينا ، حيث يزداد الضباب كثافة ، وإنما اندفع إلى داخل الجزيرة ، حيث لاحظت أن الضباب يخف نسبيا . لاح أمامى وهو يعدو وكأنه شبح وسط هالة من السحاب يظهر أحيانا ويختفى أخرى . ووصلتنى أصوات تنفسه ثقيلة متحشرجة فى صدره ، فلم يكن قد أخذ الوقت الكافى ليستعيد أنفاسه . على أن حالى لم يكن أحسن منه كثيرا إذ أن الإرهاق ، والتوتر المستمرين طوال يومين ، والجرح الغائر فى الكتف ، والآلام التى كنت أعانيها فى أصابع يدى كانت جميعها عوامل تزيد من وهنى . وبالرغم من هذا كله فقد ضاعفت سرعتى .

لعل الرجل قد شعر بأننى سألحقه فى لحظه ، أو لعل صدره أبى أن يسمح الهواء الكافى بالدخول ، أيا كان فقد رأيته يتوقف فجأة ، ويصوب لكمة شديدة إلى وجهى . لم أستطع فى اندفاعى أن أتفادى الضربه ، أو أتوقف ، فأصابتنى فى وجنتى بشدة ، ربما كانت أقوى حتى مما سددها عدوى . إندفعت الدماء من وجنتى . ورجعت رأسى إلى الوراء بحركة فجائية حتى أننى أحسست كأنما قد انفصلت رقبتى عن جسدى ، وتطايرت شرارات من أضواء متعددة الألوان أمام عينى ، وشعرت بركبتى تخذلانى من تحتى .

كانت اللكمة أشد مما يستطيع الرجل نفسه فى حالته الراهنة ، وقد ساعدها اندفاعى فازدادت قوة ، ولم يكن هو إستعدار بدرجة كافية ليحتفظ توازنه ، ولم توقف الضربة اندفاعى تماما ، فارتطمت به بشدة ، وفى اللحظة التالية كنا قد وقعنا على الأرض . ارتطمت رأس الرجل بالأرض اليابسة ، ووقعت فوقه ، وشعرت بوخزة أليمة فى كتفى ، لكننى كنت فى حالة أشبه بالغيبوبة فلم أعد أعر الآلام انتباها .

ترددت أنفاسنا لاهثة ، وشعرت بأن صدرى يكاد أن ينفجر ، وللحظات لم يستطع أى منا أن يتحرك . كنا ساكنين يحاول كل منا أن يسترد انفاسه الضائعة ، وحينما بدأت أحرك يداى لم أصدق فى بادىء الأمر أنهما ثقيلتان إلى الحد الذى أحسسته ، فكانا كأنما قيدا فى أثقال حديدية تصلبهما حيث هما . إمتدت أصابعى إلى رقبة الرجل الملقى تحتى ، وبدأت استجمع قواى لاضغط على العنق ، أمنع البقية القليلة من الهواء أن تدخل إلى صدره .

تحرك جسد الرجل يحاول أن يتملص من تحتى ، ويتخلص من ثقل جسدى . حاول أن يدفعنى بيديه ، وكال لى اللكمات فى كل جزء طالته يداه ، لكنها لكمات ضعيفة واهنة لا أثر فعلى لها . ودسست وجهى فى الأرض قريبا من وجهه أحتمى من لكماته . وإزداد ثقل جسمى عليه ، ودخلت أنفى رائحة جسده الكريهة ، وتضاعفت الام كتفى ، وأصابعى ، لكنها كانت تزيد من ضغطها على عنقه ، تمنع عنه الهواء وتخرج آخر ما تبقى من أنفاس فى صدره .

إستجمع الرجل قواه ، وأنشب اظافرة فى ذراعى ، وكتفى ، وراح يمزق الجلد بوحشية إستمدها من رغبته فى الحياه . لكن الحياة كانت تنسحب منه

شيئا فشيئا ، ولم يكن فى إستطاعته أن يدفع عنه الجسد الثقيل الذى يجثم فوقه ، ولا الاصابع الحديدية التى إستمر ضغطها يزداد على عنقه . وفجأة تراخت الذراعان وأحسست بالجسد الملقى تحتى تهمد حركته . وخرج من الفم المليء بالدماء نفس هو أقرب إلى تنهيده إرتياح ، ومع هذا فلم أتوقف عن الضغط حتى تأكدت تماما من أنه قد مات .

تراخت أصابعى عن العنق ، وأنقلبت بجسدى إلى جوار جثة الرجل . وكانت هذه هى الحركة الوحيدة التى قمت بها قبل أن يغمى على . لم أدرك كم من الوقت لبثت فى إغمائى ، ولم أدر حينما أفقت أين أنا ، ولا ماذا حدث . كنت فى شبة ذهول لا أستوعب معه الحوادث التى مرت . وكان أول إحساسى بعطش شديد ، وأن حلقى الجاف كأنما بدأ يتشقق .

ببطء بدأت الذاكرة تعود . مكثت فترة لاأستطيع إستعادة الحوادث . ولم اتحرك من مكانى إذ إنتابنى شعور بأنى فقدت القدرة على الحركة . وببطء أيضا بدأت أشعر بجسدى . بوجهى الملتهب وبأنفى الدامى ، وعينى المتورمتين وبأصابعى المهشمة ، وذراعاى الممزقين ، وكتفى المجروح . وكأنما نبهتنى حالة جسدى إلى ما أنا فيه من خطر إذ انقشعت الغمامة التى كانت تغشى عقلى فجأه . ووجدت أن تفكيرى قد أزداد صفاء .

لم أبال بالآلام التى انتابتنى حينما بدأت اعتدل فى جلستى . وشعرت فى مبدأ الأمر انى اضعف من أن انهض ، لكنى إستجمعت قواى ، وبمجرد الارادة البحته ، قمت . ودارت الأرض الفضاء وكادت ركبتاى أن تخذلانى فاتهاوى ثانية على الأرض . شعرت بآلام حاده فى قدمى إذ تسلخت كفوفهما من الجرى على أرض صلبه . لم أحاول السير للحظات حتى ذهب عنى الدوار ، ثم سرت فى طريقى عودا إلى الرجل لأسترجع خنجرى .

لم يكن العثور على جثة الرجل ، واستعادة الخنجر بالأمر الهين . فبالإضافة إلى المجهودين العقلى والجثمانى ، اللذين بذلتهما فى الفترة الأخيرة ، فإن الضباب كان كثيفا نسبيا ، ولم استطع العثور على الجثة الا بعد مضى مدة طويلة كدت أفقد فيها الإتجاه اكثر من مرة . لكنى أخيرآ استرحت حينما شعرت بالمسة الباردة الخنجر ، فاسرعت باخفائه بين طيات ثيابى . وأمضيت مدة أخرى وأنا جالس بجوار الجثة أفكر فى موقفى ، والخطوة التالية الواجب اتباعها .

لم اكن اعلم شيئا عن الجزيرة التى أنا عليها، وبذلك فلم يكن فى استطاعتى أن اخفى الجثتين كما دار فى تفكيرى أولا . ولم اكن استطيع أن ادفنهما ، فلم يكن لدى الوقت أو الجهد اللازمين للقيام بهذا العمل . ومعنى هذا أن الجثتين سوف تكتشفان بصفة قاطعة فى الصباح على أكثر تقدير ، هذا إذا لم تكتشفا أو احدهما مصادفة قبل ذلك . ولم يكن هذا الاحتمال مستبعدا ، خاصة وأن رئيس الجماعة طلب منهما العودة بعد استجوابى . فلو أرسلوا أشخاصا للاستفسار عن سبب تأخيرهما ، فمن المحتمل جدا ان يعثروا على جثتيهما ومن البدهى أن يكون إستنتاجهم ان الشخص الثالث هو الذى قتلهما .

هذا هو موقفى إذا . انا فى جزيرة لا اعرف حجمها ، ولا موقعها ، ولا تضاريسها ، ومن المؤكد انها مليئة بأعدائى . ولن يحاولوا أن يقبضوا على حيا حينما يرون جثتى زميليهم . يقابل هذا أن الظلام ، والضباب فى صالحى مؤقتا ، وبذلك يكون لدى أقصى حد حتى الصباح إن لم قبل ذلك . ربما بعد ساعة أو اثنتين : كان على أن اهرب من الجزيرة فى أسرع وقت أستطيعه ، ولكن أين اتجه ؟ قطعا ليس إلى الشاطىء ثانية . ولست أعلم شيئا عن الاتجاهين الآخرين ، ولا عن عدد العابير والذين يبحثون عنى . لم يبق لدى سوى الاتجاه إلى الأمام . إلى حيث مستعمرة العابيرو . فهناك ربما تكون الحراسة أقل إذ لا يتصورون أن آخذ هذا الاتجاه . وهناك أقرب مكان قطعا إلى الأرض حيث أستطيع أن اتجه إلى أى إتجاه شئت .

ما أن استقر رأيى حتى بدأت التنفيذ . بالرغم من التعب ، والارهاق الذين كنت أعانيهما ، وبالرغم من الجرح فى كتفى . وبالرغم من أن قدماى كانتا تؤلمانى فى كل خطوة ، فإننى تحاملت على نفسى ، ... واتخذت سبيلى . لم يكن لدى أية قوة حتى أسرع فى سيرى ، لكننى لاحظت أن هنالك طريقا ممهدا نسبيا ، كان السير أسهل عليه ... ما أن سرت مدة حتى تأكدت أن الضباب يخف كلما توغلت ، وأضحت الأرض خالية تماما من المياه عدا الرطوبة العادية الناشئة من الليل والضباب .

بدأت الرؤيا تكون لدى أبعد ، واستطاع ضوء القمر أن يتخلل الضباب كما ظهرت خيالات الأشجار متناثرة بدت أطول ، وأضخم من تلك التى رأيتها فى المستنقعات . اختفت الأعشاب الطويلة تقريبا ، وتحولت إلى ما يشبه الغيضات

المتباعدة . وخيل إلى فى مرة أننى رأيت خيال رجلين يسيران بعد أمتار منى فجمدت مكانى ، وأنا أتوقع بين لحظة وأخرى أن يهجما على ، أو يطلقا صيحات انذار ، لكنهما مرا دون أن يلحظا وجودى .

منذ هذه اللحظة توخيت الحذر فى كل خطوة حتى أننى فضلت بعد قليل أن أتقدم زحفا . إذ ربما يظهر لى فجأة من الضباب كل أو بعض أعدائى فتكون فرصة رؤيتى لهم قبل أن يرونى أكبر، وربما يكن فى الثوانى التى أسبقهم فى الرؤيا الفارق بين الحياه والموت . كان زحفى ببطء شديد ، كما أننى كنت كلما تقدمت عدة أذرع ، توقفت قليلا لأتسمع وأنظر . وأحيانا كنت اضع اذناى على الأرض حتى يكون السمع أقوى .

مر الوقت ثقيلا بطيئا . ولست أدرى كم استغرقت فى زحفى . سمعت مرة وأنا أضع اذنى على الأرض صوت وقع اقدام . فتصلبت فى مكانى وأمعنت النظر فى الضباب . لكن الأصوات كانت تبتعد ، ومرة ثانية وصلت إلى اذنى أصوات كلمات هامسة صدرت من اثنين لا يمكن أن يكونا أبعد منى بأكثر من ذراعات قليله ، ولم أر المتكلمين . وجمدت فى مكانى حتى بعدت الأصوات . وازداد حذرى ، فمعنى تعدد الحاسة اننى دنوت جدا من المستعمرة وربما لم تكن تبعد عنى كثيراً .

لبثت فى مكانى وإنا متردد بين أن أستمر فى تقدمى ، أو أن أنتقى غيضة اوشجره قريبة أختبئ فيها لأستريح قليلا فإننى كنت أخشى أن يتخلى الحظ الذى حالفنى إلى الآن فاضطر أن أواجه اعدائى ، وحينئذ لا شك أننى سوف أحتاج لكل قوتى ، وصفاء تفكيرى ، أن كان هنالك أمل فى النجاة . ومن ناحية أخرى كنت أخشى إن استرحت أن أنام ، ولا أستيقظ الا فى الصباح ، أو أن يكتشف احدهم وجودى وأنا نائم وبذا يسهل التغلب على ، أو قتلى . وكانت هنالك طريقة أخرى هى أن اروح فى شبه غيبوبة اختيارية وأن أفصل كا ـــ ى عن خات (القرين عن الجسد) وأن ادع خات ينام ، وتقف عليه الكا حارسة .

لم أتردد فى إختيار الطريق الأخير . صممت أن اريح خات عند أقرب غيضة اراها ، والواقع اننى لم اقطع مسافة كبيرة حتى لقيت مرادى فى شكل بعض أعشاب تجمعت حول شجرة ضخمة . تقدمت بحذر شديد خشية أن يكون بالغيضة

واحد من أعدائى ، أو بعض الزواحف الخطره . لكننى لم أر شيئا يريب ، ولم أسمع صوتا . ومع هذا فقد مضت مدة طويلة قبل أن اتجرأ ، وأقتحم المكان . لم تمض بعد ذلك دقائق حتى كان خات ى قد إسترخى فى غيبوبة عميقة فى حين وقفت كا — ى حارسه عليه .

لست أدرى كم ساعة قضيتها نائما ، إن صح التعبير . ولكننى إستيقظت فجأة وانا فى كامل انتباهى . لم تكن كا — ى هى التى أيقظتنى فلم ترعدوا يقترب ، وحشره تهاجمنى ، لكن الذى نبهنى من غفوتى صرخة عالية شقت سكون الليل ، وإخترقت دياجيره ، واستار الضباب . ولسبب لاأستطيع تعليله لم يكن عندى شك فى أن هذه الصرخة صرخة موت أطلقها الحارس المسكين الذى سقط فى أيدى العابيرو لم اكن سمعت من الرجل سوى كلمات قلائل تبادلناها فى المدة التى مكثنا فيها سويا ، وبذلك فلا أستطيع أن أقول إننى تبينت صوته فى هذه الصرخة ، ومع هذا فلم يكن لدى أدنى شك فى أنه هو الذى أطلقها ، وأنها كانت صرخة موت .

دفعت الحذر جانبا ، ونهضت من مكانى بسرعة ، واندفعت عدوا فى اتجاه الصوت . لا ليس فى اتجاه الصوت ، فالصرخة كانت كأنما أتت من كل مكان فى الضباب ، لكنى جريت نحو المكان الذى اعتقدت أن فيه المستعمرة . كان الذى خطر فى بالى إن الرجل ربما لم يكن قد مات بعد ، وانى أستطيع أن انقذه . وبالرغم من أننى شعرت فى أول الأمر أن أعضائى متصلبة ، الا أنها سرعان ما استعادت ليونتها الطبيعية ، وأضحى جريى سهلا يسيرا ، ولولا بعض الآلام فى كتفى الأيسر الذى إستمر فى تصلبه ، وبعض الأوجاع فى قدمى ، لقلت إننى عدت إلى حالتى الطبيعية .

لكن عقلى كان صافيا تماما . كنت أعلم ما أنا مقدم عليه من مخاطرة ، وأن الأغلب أننى لن أنقذ صاحبى ، وأنما سوف أموت معه . ومع هذا فلم استطع أن أتقبل الوقوف بلا حراك ، وهنالك أى أمل فى إنقاذه . إذا كان لابد من الموت فلا بأس بأن آخذ معى بعض العابيرو .

تتالت الحوادث بعد هذا بسرعة حتى أنه من العسير أن يتابعها القلم بدقة . من وسط الظلام ، والضباب ظهر أمامى فجأه شبحان يسيران جنبا إلى جنب .

ولابد أنهما رأيانى فى اللحظة نفسها التى رأيتهما فيها ، إذ إمتدت أيديهما إلى منطقتيهما يريدان نزع خنجريهما . لم أضع الوقت فى إخراج الخنجر ، واستمر إندفاعى نحوهما دون ترقف . وقبل أن أصل إليهما طار جسمى فى الهواء لترتطم ساقاى بشدة فى صدر أحدهما . وفى الحركة نفسها كانت يداى تنفردان لتأخذ الرجل الثانى معى إلى الأرض . اصطدمت قدماى بشدة فى صدر الرجل الأول لتدفعانه بعيدا . وأحسست بضلوع صدره تتكسر، ولابد أنه وجد صعوبة كبيرة فى محاولة التنفس، أو إخراج صرخة . وفى اللحظة التالية كان قد ارتطم بالأرض ولم يقم ، فى حين رأيت شيئا يطير من يده ، يقع على بعد خطوات منى. وأيقنت أن الرجل خرج من المعركة على الأقل لدقائق .

سقطت بدورى على الأرض ، لكن يداى لم تتركا الرجل الثانى فأخذته معى . لم يكن الرجل قد استل خنجره تماما . ولعله فزع حينما رآنى لم أتوقف عن الاندفاع ، فاضطربت يده . ولما سقط معى وارتطم بالأرض طاش عقله ، ونسى كل شىء عن الخنجر ، وبدا جليا أنه يحاول جاهدا أن يبعد عن قبضتى . وبالرغم من أننى إصطدمت بالأرض إلا أن الارتطام كان أخف منهما إذ امتص اصطدام قدماى بالرجل الأول ، وجذبى الثانى ، كثيرا من أثر الصدمة .

لم تمض أكثر من ثانية منذ وقوعنا إلا وكنت قد إعتليت الرجل أكيل اللكمات فى وجهه . ولم يكن خصمى ضعيفا ، لكنه كان جبانا . كان وراءه تاريخ قومه عشرات ، ومئات السنين فى مذلة ، فلم يحاول أن يرد الهجوم بهجوم مثله ، وإنما انحصر تفكيره فى تفادى الأذى قدر جهده . كان يستمد شجاعته من اعتقاده بالأمان وسط أقرانه ، فلما وجد نفسه يقاتل بمفرده زالت عنه الشجاعة ، وانقلبت إلى محاولة إبعاد أكبر قسط من الأذى عن نفسه .

على أنه لم يكن عاجزا كلية . حاول فى مبدأ الأمر أن يتفادى ضربات ، أن يغطى وجهه بذراعه ، ولما وجدت قبضتى طريقها إلى وجهه أكثر من مرة أخذ يدفعنى فى صدرى محاولا طرحى عنه . ولما لم تفلح هذه أيضا بدأ يكيل لى الضربات ظنا منه أننى فى محاولتى تفادى اللكمات سوف أتنحى عنه . وحينما رأى أننى لم أتوقف، إمتدت يداه محاولا أن يصل إلى وجهى وعينى، ولما وجدهما أبعد من أن يصيبهما بمكروه حقيقى ، راحت أظافره الطويلة القذرة تخمش فى كتفى بشدة .

لكن سيل الضربات لم يتوقف ، وانتفخت عيناه ، وتورمت وجنتاه وانبثقت الدماء من فمه ، وأنفه . أخيرا يبدو أنه أحس أنه لن يستطيع الإفلات ، أو المقاومة لمدة طويلة فأطلق صيحة استنجاد ، رن صداها فى أنحاء الجزيرة يخترق الظلام والضباب .

كان يجب أن أتخلص منه سريعا إذا كنت أريد انقاذ صاحبى والنجاة بنفسى ، فلن تمضى دقائق إلا ويكون المكان قد امتلأ بالمابيرو . جمعت كل ما أستطيع من قوة فى لكمة واحدة صوبتها نحو فكه . وشعرت بأن عظام يدى تكاد أن تتحطم من قسوة الصدمة ، ومرق سهم من الآلام ليصيبنى بصدمة كدت أصرخ منها . وسمعت صوت أسنان الرجل تتكسر فى فمه . وفى اللحظة التالية تراخت يداه وسقطتا على الأرض ، وفقد الرشد تماما .

لم أتوان بعد هذا . بالرغم مما كنت أعانيه من آلام ، ومن أن أنفاسى كانت تتردد سريعة فى صدرى ، فإننى تركت الرجل وتدحرجت على الأرض بعيدا عنه .

وفى اللحظة التالية سمعت أصواتا كثيرة تزداد اقترابا . لم أنتظر لأنصت . حينما قدرت أننى على بعد كاف بحيث لا يرانى أحد خلال الظلام ، والضباب ، انتصبت واقفا ، ثم اندفعت أعدو بعيدا .

درت دورة تكاد أن تكون كاملة حول مكان القتال ، ولم أتوقف عن الجرى فى الاتجاه الذى إعتقدت أن المستعمرة لا بد موجودة به . لاحظت أثناء جرى أن الأشجار بدأت تتكاثف لتكون شبه غابة صغيرة . وخف الضباب إلى درجة كبيرة حتى أن الرؤيا أضحت ميسورة لعدة محات (١) . فلم يكن من العسير على أن أتفادى الارتطام بالأشجار .

استمر جرى بضعة دقائق بين الأشجار ، ثم توقفت أحتمى بظل إحداها . كان الضباب فى هذه الأثناء قد إنعدم تقريبا حتى أضحى مجرد سحابات من دخان خفيف . وسطعت أشعة القمر قوية أحالت الغابة إلى ضياء وظلال .

على بعد لا يزيد على عشرة أمتار إنفرجت الغابة عن مساحة كبيرة جرداء

---

(١) المح يقابل ٢٧ كفا وهو تقريبا ٥٢٣ر مليمترا .

تحيط بها الأشجار من كل جانب . وعلى الأرض ، سجد عشرات الأشخاص من كلا الجنسين يعفرون وجوههم فى التراب مرة ، ثم يعتدلون فى جلستهم ويرفعون أيديهم إلى السماء متوجهين إلى الناحية الغربية .

إنتقلت عيناى إلى حيث ينظرون . وصعقت من المنظر . كان هنالك تمثالان هائلان، أحدهما لامرأة عارية مرفوعة على منصة عالية . لكنها لم تكن إمرأة كاملة ،وإنما نصفها الأسفل ذيل ضخم لسمكة تدلى منها على المنصة ليمتد بعدئذ على الأرض . وعرفتها . كانت داجون آلهة الفينيقيين ، ولم أدر لماذا كان هؤلاء العابيرو يعبدونها .

لكن التمثال الثانى هو الذى استرعى إنتباهى حتى أنى سحرت حينما وقع نظرى عليه . كان تمثالا ضخما مصنوعا من معدن يبدو أنه الحديد . له رأس تيس يعلوها قرنان ، وقد أطلت العينان من أعاليها تنظران إلى أسفل فى خبث صامت . وانحدر من الرأس عنق غليظ قصير ، ليستقر على أكتاف عريضة ، وصدر هائل لرجل . ومن الكتف إنفرد ذراعان طويلان صورت يديها ، وكفيهما كأنما سوف يطبقان على الضحية التى تنظر إليها العينان . وتناثرت فى الصدر سبع فتحات كبيرة يخرج منها دخان أسود يتصاعد فى الجو ليختلط بالضباب المنتشر .

لم يكن هذا هو كل شىء ، فقد ارتكز الصدر على قاعدة من حجارة أكثر منه ضخامة تؤدى إليها درجات ثلاث . وفى وسط القاعدة تماما رأيت بابا مقبوا . لا لم يكن بابا ، وإنما مجرد فتحة ضخمة مقبوة . ورأت عيناى المسحورتان أن داخل القاعدة كان مفرغا وقد ملىء بقطع من الأخشاب المتداعمة لتكون أتونا يلتهب . وعرفت الإله . كنت قد قرأت عنه ، وإن لم أكن رأيته ، فقد رأيت رسمه . لم أكن أتصور أنه حقا يوجد ، وأن هنالك أشخاصا يمكن أن تصل بهم الوحشيه إلى عبادته ، واتباع عقيدته . . .

. . . . كان مولوخ ملتهم الأطفال . . . .

مولوخ ، أو ملك بالعبرية ، الذى يتطلب من عباده أضحيات بشرية يقدمونها تجلة له ، وتعبدا . وأية أضحيات ؟ كلما كان السن أقل ، كلما كان رضاء الإله أكبر . . .

هذا هو السر إذا الذى يخفيه العابيرو وسط الاحراش ، والمستنقعات ـ إلى هنا إذا كان يؤتى بالأطفال الذين يختفون من نيوت نحح ، والقرى المجاورة . يذهبون إلى غير رجعة حيث لا يعلم لهم أحد مستقرا ... هنا كان يزاول العابيرو شعيرتهم المشئومة .. يلقون بضحاياهم البريئة فى هذا الجحيم المستعر ...

مكثت فى مكانى أرى ، وأسمع ، وأنا كالمذهول ... رأيت ثلاثة فى ثياب الرهبان يقفون عند فتحه الأتون . اداروا ظهورهم نحو الجماعة ، رافعين أيديهم إلى أعلا يبتهلون إلى ملكهم الملعون ، ولا بد أنهم كانوا يتمتمون بألفاظ التجلة والتعظيم . وعلى الدرج الأول كان يجلس أربعة آخرون وفى ايديهم الطبول يدقون عليها . ووصلتنى أصوات الطبول ، بربرية همجية ، لتطغى على صراخ الضحايا الحية ، ، والنار تأكل اجسادهم ...

ذكرنى هذا الحارس المسكين . أجلت نظرى فى الساحة ، وعند قاعدة التمثال المشئوم ، لكننى لم أرله اثرا . إذا فقد ذهب قربا نا لاشباع نهم الإله البربرى . وعادت بى الذكرى . لهذا إذا كان العابيرو يريدون القبض علينا احياء ، حتى نذهب طعاما للاتون المندلع . سرت فى بدنى قشعريرة ... وامتلأ قلبى بالغضب على هذا الشعب الهمجى المتوحش ... وداخلنى أصرار شديد .. لن ادعهم يقبضون على حيا ... إذا اكتشفوا مكانى فسوف أقاتل ، حتى أقتل منهم أكبر عدد استطيع .: ولن أتوقف عن القتال إلى آخر نفس يتردد ،

وطرأ على خاطر . هل كان خع باوو يعلم بمصيرى إذا ماقبض على ؟! لا بد أنه قد داخلته شكوك ، أو ربما كان يعلم ، وربما كان لايهتم طالما أنه تخلص منى . . . . راودتنى موجة من الكراهية جعلتنى أنتفض . . . . أى نوع من العداء هذا ؟ هل يمكن أن يصل الهوس الدينى إلى هذا الحد ؟ كيف يمكن أن يلقى رجل بعدوه ليكون طعاما للنيران وينسب ذلك إلى الدين ؟

يبدو أنى استغرقت فى التفكير فلم أنتبه إلا حينما لاحظت أن الطبول قد توقفت . دارت عيناى فى الساحة أمامى لأرى أن الكهنة قد إستداروا إلى ناحية الشعب الذى كان مايزال ساجداً يقدم فروض الولاء لملكه السفاح . وعلا صوت كاهن ، لا بد أنه الكاهن الاعلى ، يتكلم بلسان لم أتبينه ، وهو

رافع يديه إلى أعلا كأنما ليبارك جموع الساجدين . وفهمت أن الاحتفال أوشك على نهايته فرجع بى التفكير فى موقفى .

لم يكن هنالك ما أستطيع عمله للحارس المسكين فلا شك أنه ذهب طعاما للنيران ، وتركنى هذا حراً فى أن أفكر فى كيفية الإفلات . . . . دارت عيناى بسرعة استوعب المكان . لاحظت فى أقصى الساحة من الناحية المقابلة بعض العشش التى كانت ولا شك تستعمل كما كن الذين يقيمون بصفة دائمة فى المستنقعات . وكان الاستنتاج المنطقى أن يكون العابيرو قد بنوا مساكنهم فى أقرب بقعة إلى طريق الخروج . وعلى أى الأحوال فلم تكن لدى وسيلة أخرى أستدل بها . إذ يتساوى بعد ذلك ترجيح الجهات .

كان على أن أعمل بسرعة إذ أنه من الواضح أن الكاهن أوشك على الانتهاء من الترانيم التى يختتم بها الحفل المشئوم . تركت مكانى ، وتحركت بخفة بعيداً عن الأنظار ، ثم أخذت انتقل من ظل شجرة إلى أخرى محاذرا أن يرانى أحد . ولم ابتعد كثيرا حتى اضطررت أن التصق تماما فى جذع شجرة ضخمة إذ تناهى إلى سمعى خليط من الأصوات تقترب . لم أشك فى أن القادمين كانوا أولئك الذين كانوا قد أتوا على صوت صرخة الرجل الذى صارعته منذ حين ، والذى ما زالت آثار أظافره تؤلم كتفى ، وصدرى . . . .

إزدادت الأصوات إقترابا ، وإزددت التصاقا بجذع الشجرة . . . . وبعد لحظات ظهرت أشباح القادمين . كانوا ستة أشخاص ، وكانوا يتناقشون بحدة وهم يهرعون إلى المستعمرة . تبين لى مما استطعت أن التقطه من كلامهم أنهم منقسمون على أنفسهم ، منهم من يظن أننى قد قتلت عائدا إلى المستنقعات ، ومنهم من كان يقطع بأننى إتجهت إلى المستعمرة . مروا على بعد خطوات منى . . . . وحبست أنفاسى . . . . كدت أمد يدى لا قبض على الخنجر ، لكننى عدلت خشية أن تلفت الحركة أنظارهم ، فتصلبت حيث أنا . . . ومضت الثوانى ثقيلة رهيبة ، لكنهم كانوا مستغرقين فى المناقشة فمروا بى دون أن يلحظ وجودى أحد .

كنت أعلم أنهم قد قفلوا راجعين إلى كاهنهم الأكبر يستفتونه فى الأمر ، وإن هى إلا دقائق حتى يعودوا مع غيرهم إلى الانتشار للبحث عنى . وتساءلت وأنا فى مكانى عما إذا كان زملاؤهم الذين تركتهم عند المستنقع فى الطرف الآخر من الجزيرة ما يزالون هناك . أم أنهم إستبطأوا زميلهم فعادوا . لكن لم تكن لدى وسيلة المعرفة ، فصرفت التفكير عنهم .

لم أكد اطمئن إلى أن الجماعة قد بعدت بدرجة كافية حتى عدت إلى تنفيذ خطتى . رحت انتقل من ظل شجرة إلى أخرى ، وعيناى تدوران دائما حولى مستطلعة أقل حركة ، بينما صخت اذناى تتسمعان أدنى الأصوات . كنت فى كل تحركاتى لازلت أستطيع أن أرى من بين الأشجار ضوء مشاعل المستعمرة يلوح من وقت إلى آخر ، فكان فى ذلك هدى لى على أننى لم أحد عن الطريق الذى رسمته لنفسى ، وهو أن أدور حول الساحة حتى أكون فى الناحية المقابلة حيث توجد المساكن .

مضت الدقائق تتتالى ببطء شديد وأنا فى حركتى الدائبة . . . . لاحظت أن الأشجار قد إنعدمت ، فلم تكمل الدائرة ، وأن الارض تغيرت طبيعتها فأصبحت كأنما هى معدة للزراعة ، بل أننى رأيت على ضوء القمر بعض المزروعات ، لم أتمكن من تبين ما هيتها سوى الجزء القريب منى إذ كان بصلا .

توقفت فى ظل آخر شجرة قبل المزروعات . واحترت أى طريق اتخذ . . . . كان من الجلى أننى إن سرت فى الأرض الفضاء فإننى أخاطر مخاطرة جسيمة ، وأتعرض لان يرانى أى شخص قريب . كانت الرؤيا قد أضحت جيدة تماما خاصة أنه لم تكن توجد أية شجرة تلق ظلالها . وإنحسر الضباب تماما عن الأرض الفضاء ، وإن كنت قد ظننت أننى آراه على مسافة لا تزيد على مائة متر .

لبثت محتميا فى ظل الشجرة وأنا أفكر قبل أن أقدم على المجازفة . إن هذه المزروعات لا بد لها من ماء وإذا فإن فى نهايتها توجد مياه المستنقع . وزاد

من تأكيد الرأى أن الضباب كان متجمعا كما قلت على بعد من مكانى . إذا فلو أمكننى ، أن أصل إليه فإن الإحتمال قوى أن يكون عند نهايته شبه مرفأ حيث تتجمع زوارق العابيرو ...

لم يكن لدى حل آخر سوى أن أخترق الأرض المزروعة الخالية من الأشجار ، فلا أنا أستطيع أن أبقى فى مكانى إلى الصباح ، ولا أنا أستطيع أن اعود ادراجى . لكن كيف ؟ هل ازحف هذه المسافة مع ما يستغرقه الزحف من وقت طويل يحمل فرصة إكتشاف مكانى أوسع ؟ أو أعدوها ، مع ما فى ذلك من تعريض جسدى بأجمعه إلى الرؤيا تحت ضوء القمر .

نظرت إلى السماء . كلا . لم يكن هنالك أمل فى سحابة تخفى وجه القمر ... أدرت نظرى تجاه المستعمرة كنت أقف تماما عند بداية التمثالين .... وشمخ ظهريهما يطاولان السماء فكان منظرهما رهيبا مرعبا . لكن المستعمرة كانت هادئة . بدا أن جميع قاطنيها قد آووا إلى فراشهم ،أو كأنما قد هجروها خلال الدقائق التى إستغرقتها فى الالتفات حولها . لم يظهر أى شخص سواء فى الساحة أو فى الحقول .

لم يداخلنى أى شك فى أن الكاهن الأكبر قد نصب فخا لاقتناصى حيا . لكن كيف ؟ على قدر ماحاولت أن أعرف لم استطع أن أتمكن بما أعده لى. كان هنالك شىء واحد لصالحى هو أنهم يريدوننى حيا ، وان يحاولوا قتلى إلا كآخر ملجأ . مددت يدى أستل خنجرى . وبدت المسافة كبيرة جدا إلى الضباب ... لكن لم يكن هنالك حل آخر ... إندفعت باقصى سرعتى غير عابىء بالأرض غير المستوية ، ولا بما صادفته من مزروعات . ومضت الثوانى بطيئة تسابقها دقات قلبى . أحسست أن هنالك شيئا يتبعنى . وأننى مهما بلغت من السرعة فانه سوف يلحقنى لا محالة .

التفت ورائى . وفى اللحظة التالية قفز جسم فى الهواء، وأطبق فكان قويان على ذراعى الأيسر ،دافعا اياى على الأرض معه . كلمح البصر .. بدت لى خطة الكاهن واضحة . لقد انتظر حتى أظهر نفسى ، وأرسل ورائى كلبا مدربا

ليقبض على حتى يطبق رجاله ، ويقبضوا على حيا . شعرت بالأنياب الحادة تنغرس فى عضلات ذراعى . وانتابتنى آلام مريعة حتى أن صرخة كادت تفلت منى ...

ثوان معدودات هى كل ما كان عندى . ثوان كان يجب فيها أن أتخلص من الوحش المطبق على ، واجتاز الأمتار القليلة حتى يطوينى الضباب . هبطت على الكلب بخنجرى ، ولم أتوان وأنا افعل ذلك .... لم أحاول أن أتخلص منه وإنما تدحرجت على الأرض لأكتسب بضعة أمتار قليلة .. وسمعت وقع خطوات آتية من الضباب . لقد سمعوا صوت زمجرة الكلب .. وصوت الصراع بيننا فاندفعوا من حيث كان يخفيهم الضباب .

هبطت بخنجرى فى ضربات سريعة متتالية ، وصرخ الحيوان صرخة الموت ثم ترك الفكان ذراعى . أمسكت به ، وألقيته على أول المابيرو الذين بدأوا يظهرون من الضباب ، واندفعت وراءه وأنا اطوح بخنجرى ، أصيب به كل من يقترب .. كنت أعرف أنه لا فائدة ترجى فى الفرار ، ولهذا صممت على الموت وأنا أقاتل .. أحسست بالسلاح يصطدم بأكثر من جسد ، وساد الهرج بين الجماعة لحين .. وقفز فوق ظهرى شخص يريد أن يضطرنى إلى الركوع ... وامتدت أيدى كثيرة تهدف القبض على ذراعى ... لكننى كنت قد عزمت على الا أسلم نفسى حيا . كنت أعلم أننى لا مفر لى ، وأنى هالك لا محالة ، إلا أننى فضلت أن أموت مقاتلا ، لا محروقا .

من ظلام الضباب ظهرت جماعات أخرى ... وعلت أصوات أوامر . كان هنالك شيئاً غريباً فى هذه الأصوات . وفجأة فهمت الشىء الغريب . كان المتكلمون يتكلمون بالمصرية ، وليس بالميرية ... ولا بد أن المهاجمين أيضاً قد تنبهوا إلى هذا ، إذا أنهم بدأوا يحاولون الهرب . سقط الشخص الذى كان مايزال يعتلى ظهرى ... وأحسست بذراعى حرتان ، فرحت أطوح بخنجرى أصيب به كل من أقترب منى ... ومن الضباب صدرت ضحكة جذله ، وسمعت صوتا رقيقا يتكلم .

— إنك دائماً تظهر فى أغرب الأماكن ياصديقى الصغير .

وفى اللحظة التالية رأيت جسر يقاتل إلى جانبى وقد أمسك بسيف قصير يطيح به فى العابيرو .

* * *

— أنك وصلت فى الوقت المناسب .

قلت هذا لجسر ، وأنا راقد على فراشى فى الحظائر الفرعونية . كانت قد مضت أكثر من عشرة أيام وأنا طريح الفراش لا أقوى على الحركة . وقد عادنى فى اثنائها أستاذى السابق رع موسى مرتان ، وحمل لى تحيات الأميرين الذين كانا يتمنيان لى شفاء عاجلا . وأهم من ذلك أنه حمل إلى تحيات تفنت التى كانت تود أن تأتى بنفسها لولا أنه ممنوع على السيدات دخول الحظائر . ولم يتركنى جسر خبرو رع ( حور محب ) فى أى يوم كما أن نترى كثيراً ما كان يأتى لعيادتى . ولعل صفاقة خع باوو بلغت حدها حينما جاء فى يوم يستفسر عن صحتى . وأرى أنه لزاما على أن أقول أنه رغما عن كل شىء ، فقد كان تمثيله متقنا إلى درجة أننى لو لم أكن أعلم علم اليقين أنه السبب فيما حدث لاقتنعت تماما ببراءته . لكن لم يكن ثمة دليل يمكننى به أن أدينه .

تكلم جسر بلهجته المرحة البسيطة .

— الواقع إنك أنت الذى سهلت لنا المهمة إذ أن العابيرو كانوا منهمكين فى البحث عنك ، والقبض عليك حتى أنهم فوجئوا تماما بمقدمنا .

— ولكن كيف عرفت مكانى ؟

— إن « كم » اتجه فورا إلى المعسكرات ورآه نترى وقادنا الجواد بعد ذلك إلى ما اعتقد أنه المكان الذى هاجمك فيه العابيرو ، وقد ظهرت آثار ذلك فى الحشائش والأعشاب ، ثم أننا وجدنا آثار دماء على الشاطىء وانتشرنا بعد هذا نبحث عنك ، واعتقد أننا وصلنا فى الوقت المناسب . . . أننا قبضنا على كل من كان فى المستعمرة ، وقد أمر سيادة الوزير أن يحاصر باقى العابيرو فى حيهم فى

نيوت نحح حتى يتم التحقيق فى الموضوع . هل تستطيع أن ترحل إلى نيوت خلال اليومين القادمين .

— لا أعتقد أنى أستطيع . ربما بعد أسبوع :

— لا بأس سأخطر سيادة الوزير بذلك .

— لكن هل سيحقق الوزير شخصيا .

— أجل أنه يعتقد أن المسألة من الأهمية بمكان حتى أنه لن يحيلها إلى زازات(١) وإنما سيتولى الأمر بنفسه .

* * *

(١) مجلس قضاء المقاطعة ، وينظر فى المسائل الهامة .

# الفصل التاسع عشر

# أموفيس[1] بن حابو

وصلت إلى قصر والدى فى نيوت نحح قبل الموعد الذى حدده أستاذى الوزير بيومين . استقبلنى خندو بهدوئه المعتاد ، وإن كنت أعلم مدى السرور الذى ملأ قلبه الطيب . كانت جروحى قد التأمت، لكننى لم أسترد صحتى تماما . وفى صباح اليوم التالى حضر رع موسى تصحبه تفنت . وكشف على الكاهن ، واعتنى بالذات بـآثار أنياب الكلاب فى ذراعى ، وحينما إقتنع بأن الأمر يسير فى طريقه الطبيعى أعطانى بعض الدهون ، والمشروبات المقوية .

ولم تتوقف تفنت عن الثرثرة طوال الوقت ، لكنها انصتت بهدوء إلى سردى لما حدث فى المستنقعات حينما سألنى الكاهن. بقى الإثنان حوالى الساعة ، ثم إنصرفا بعد أن وعدت بأن أتناول معهما طعام الغذاء فى اليوم التالى بعد مقابلتى الوزير ، وفى العصر حضر الكاهن حمو تى نخت ، كاهو الإله بتاح ، وبقى معى مدة تزيد على ساعتين ، ولم يتركنى بدوره إلا حينما وعدت أن أرد له الزيارة بعد أن استجمع قوتى ، وأؤدى المهمة التى حضرت من أجلها .

حدد سيادة الوزير موعد المقابلة فى الساعة الرابعة صباحا ( العاشرة بتوقيتنا الحالى ) . ولما استيقظت فى أول النهار ، بدأت من فورى أعد نفسى للقائه . والحقيقة أننى كنت هيابا من هذه المقابلة إذ أننى كنت أذكر شخصية الوزير الجبارة ، وماسمعته عن ذكائه من أقاصيص أقرب إلى الخيال . ولم أكن اعتزم أن أسرد كل الوقائع إذ كنت أخشى أن يفهم الوزير من محاولات سى موت وولده أن الأنبيـــاء ، ومنهم والدى ، ضليعون فى المؤامرة .

---

(١) أطلق عليه أيضا أمو نحتب بن حابو فى بعض الكتب .

فى الساعة الثالثة والنصف توجهت إلى القصر الفرعونى حيث مكتب الوزير ، فوصلت إليه قبل موعدى بدقائق ، ومكثت فى غرفة المكتبة الخارجية أنتظر أن يسمح لى بالدخول . كان كل شىء فى المكتب بسيطا لا أثر فيه للفخامة ، إنما أعد للعمل فقط . وكان من اليسير على المرء أن يلاحظ كمية العمل الذى يجرى ، من النشاط الواضح للكتبة ، والسعاة الذين كانوا يروحون ، ويجيئون بلا انقطاع ، كما أن المكتب كان مزدحما بالأشخاص الذين أتوا لعمل ، أو لتقديم مظلمة ، أو لإلتماس وظيفة ، أو خدمة . ودهشت من هذا الرجل كيف يجد مع هذه الأعمال الوقت الكافى ليقوم برسوماته الهندسية ، ويتابع تنفيذها ، ثم هو بعد ذلك يؤلف الكتب ، ويجرى التجارب فى السحر ، والفلك ، والطب ، ويعلم الله ماذا أيضا .

فى الرابعة تماما تحرك أحد الكتبة ، وطلب منى أن أستعد للدخول . وتقدم الكاتب وفتح باب حجرة الوزير وتركنى منتظرا بعد أن أغلقه وراءه . لم يغب أكثر من لحظات ، وعاد ففتح الباب ، وطلب منى الدخول . تسارعت دقات قلبى ، وأعدلت من هندامى ، وتقدمت هيابا وفى الطريق إليه سمعت الكاتب ينبىء المنتظرين أن سيادة الوزير مشغول اليوم ولا يدرى متى ينتهى ، ولم أسمع باقى الحديث إذ أنه كان قد أغلق الباب ورائى .

وجدتنى فى حجرة واسعة ، زينت أرضها برسومات متعددة فى حين امتلأت الجدران بالأرفف التى تحتوى على لفائف بردية ، وكان الأثاث فى الحجرة بسيطا لا يتجاوز منضدة كبيرة عليها أدوات كتابية ، وعدة مقاعد خشبية ، نسقت بذوق رفيع ، لكن دون مبالغة ، سواء فى تصميمها ، أو ترتيبها .

كان الوزير الشهير يجلس خلف المنضدة بمنكبيه العريضين ، ورأسه الضخم ، الذى يميل على أحد الجانبين كأنما هو على وشك النعاس . لكنه حينما تكلم جاء صوته واضحا ، وان كان خفيضا كأنما صاحبه متعب .

— كاى رع سنب ... ؟

تقدمت خطوات حتى جابهته .

— أجل ياسيدى .

تطلعت إلى وجهى عينان لم يكن فيهما أثر للنعاس ، أو الإرهاق الذى يوحى بهما مظهر الرجل . كانتا عينين نفاذتين ، أحسست بهما تتغلغلان فى أغوار نفسى. وأشار الوزير إلى أحد المقاعد .

— تفضل بالجلوس وأرو لى ماحدث .

جلست كالمسحور ثم بدأت أقص الحوادث منذ أن رحلت من بيوت نحح متوجها إلى الحظائر الفرعونية . ولم أذكر شيئا عن خع باوو ، ومؤامرته . لم يتكلم الوزير طوال المدة ، ولم يلتفت إلى ، حتى خيل إلى أنه قد عاد إلى نعاسه ، ونسى وجودى . ولما انتهيت من حديثى سألنى بنفس الصوت الخفيض ، دون أن يرفع رأسه .

— إنك تتدرب فى الحظائر الفرعونية ياسيد كاى .

— أجل ياسيدى .

— وهل من عادتك أن تذهب إليها مصحوبا بالحرس ؟

لم ينتظر إجابتى ، ومد يده إلى جرس صغير على المنضدة ، وحركه . وفى لحظات ظهر الكاتب الذى أدخلنى ، ووقف بعيدا ينتظر فى احترام أوامر الرجل العظيم .

— هل استمع مندوب العابيرو لرواية كاى رع سنب ؟

— أجل يامولاى .

— دعه يدخل .

دلف من الباب شاب نحيل إلى درجة أن الرائى يتصور أنه سوف يسمع إحتكاك العظام ببعضها . لم يكن طويل القامة ، وإن كانت نحافته الزائدة قد أعطته طولا زائدا . أما وجهه فكان أبرز مافيه تلك الأنف المعقوفة التى برزت بين عظام الوجنتين ، فى حين كانت العينان غائرتين غير مستقرتين فى محجريهما . وتقدم الشاب بخطى مترددة هيابة ، واستقرت عيناه على مرة واحدة ثم ثبتت على الوزير . وحينما اقترب سجد على الأرض ولم يرفع رأسه.

لم يتعجل الوزير الكلام ، وترك العبرى ساجدا فترة وهو ينظر إليه نظرة جامدة ، وحينما تكلم جاء صوته لا أثر لأى إنفعال ، أو شعور .

— هل أنت الذى أرسلك العابيرو لتكون ممثلا لهم ؟

— أجل يافخامة الوزير .

كدت أقفز من مكانى حينما سمعت الصوت . منذ حوالى ثلاثة أسابيع سمعت هذا الصوت ، لكن فى مكان آخر ، وفى ظروف أخرى . هناك فى المستنقعات ، حينما كنت مطاردا يحيط بى العابيرو من كل مكان . لكن الصوت وقتئذ لم يكن خافتا ، ناعما ، كله نفاق وضعة ، وإنما كان قويا آمراً حاسما . كان هو صوت رئيس الجماعة التى أرسلت للقبض على ، والحارس المسكين . وتفرست بحدة فى الرجل . لم يكن هنالك فائدة فى هذا إذ أننى لم أتحقق من شخصية الرئيس نظرا للظلام ، والضباب اللذين كانا يسودان . معنى هذا إذا أن جسر لم يقبض عليه ، ومن معه ، وربما كانوا مازالوا يبحثون عنى عند أقصى الجزيرة عندما هاجم المستعمرة ، وبشكل أو آخر علموا بالهجوم ، وهربوا ، وبالتالى لم يقبض عليهم .

من طرف خفى إلتفتت عينا الرجل إلى ناحيتى . ولعلى أتيت بحركة لا إرادية جعلته يعلم أننى شككت فى أمره ومع أن هذه اللفتة لم تزد على لحظة ، فإنى أكاد أن أقسم أننى رأيت الخوف يطل من العينين . وإذا كان الوزير قد لاحظ شيئاً فإنه لم يتكلم ، ولم يبد عليه شىء . وحينما تكلم كان ليسأل عن إسم الرجل .

— ما اسمك ؟ .

— دودو يافخامة الوزير .(١)

— هل سمعت الاتهامات التى وجهها السيد كاى ؟ .

---

(١) دودو اسم حقيقى فى التاريخ ، ولعله توتو . وليس من المؤكد أنه كان من العابيرو ، لكن المؤكد أنه لم يكن مصريا . ويقول سيريل الدريد فى كتابه عن اخناتون أنه لم يكن من الموظفين الذين لوثت ذكراهم نظرا لوجود قبره . لكن الواقع أيضاً أنه كان وصيف اخناتون وأنه دائماً كان يثبط عن عزيمته كلما حاول المخلصون أن يدفعوه إلى التحقيق فى أعمال عزيرو ملك العابيرو . وعلى أى الأحوال فهذا هو تفسيرى لمجريات الحوادث وهو بلا شك لا يعدو أن يكون مجرد تفسير عرضة للخطأ والصواب .

لم يقم الرجل من سجوده ، وإنما اعتدل قليلا حتى يواجه الوزير . وحينما تكلم كان صوته يقطر نعومة .

— أية اتهامات تلك يافخامة الوزير . إنه يدعى أن جماعة من العابيرو قد هاجموه وحارسيه . وأنه قتل منهم أكثر من عشرة أشخاص . يقول إن أحد الحارسين قد قتل ،وقد رآه . لكنه أيضا يقرر أنه قتل القاتل ، أما فيما عدا هذا فهو لم ير الحارس الآخر ، ولعله هرب ، أو لعله مات فى المستنقع ، وجره تمساح إلى الماء . لم يقل إنه رآه وهو يلقى فيما يدعيه من أتون . ولم ير أحدا آخر يلقى فيه . كل ماقاله مجرد ظنون ، وأوهام . أما عن مهاجمته فإن الليل كان حالك الظلام ، وكان الضباب كثيفا ، وقد علمت عشيرتى أن هنالك متسللا إلى المستعمرة ، لعله لص ، فأرادوا القبض عليه ، وتسليمه إلى حكومة جلالة الفرعون ، له الحياة والصحة والسعادة ، وحينئذ لم يشعروا إلا وقد قبض عليهم جنود جلالة الفرعون ، له الصحة والرفاهية والسعادة ، دون ماذنب جنوه .

— وماذا عن الصرخة التى سمعها ؟ .

— إن الضباب كان كثيفا كما ذكرت لفخامتكم ، والمستنقعات مليئة بالوحوش وهوام الليل . لعله كان طيرا من طيور الليل ، أو وحشا هاجما هاجم أحد قومى . لا يمكن لعدالة فخامتكم أن تعاقبوا شعبا لأن شخصا سمع صرخة أثناء الليل فى المستنقعات يدعى أنها كانت لحارسه .

هل يستطيع أن يقسم على أن الحارس المسكين هو الذى صرخ ؟ ، وأن هذه الصرخة كانت لأن قومى ألقوه فى النيران .

التفت إلى الوزير . ولم أكن بداهة مستعدا للقسم ، وإن كنت جازما بذلك . فهززت رأسى نفيا .

— إننى لا أستطيع القسم يامولاى لكننى أجزم بأن مارويته حقيقة لا ريب فيها .

وإنتهز الرجل الخبيث الفرصة فراح يستغلها كأقصى ما يستطيع .

— وهؤلاء العابيرو الذى يدعى أنهم هاجموه . سلوه فخامتكم عن السبب فى ذلك . إن قومى كانوا فى المستعمرة منذ سنين ، ولم يحدث حادث واحد

مشابه ، فلا بد إذا أن هنالك سببا دفعهم لهذا . فهل يستطيع السيد أن يذكره ؟ .

لقد سمع الخبيث الحديث ، ولاحظ أننى لم أذكر شيئا عن خمع باوو ، واستنتج بسرعة بديهته أن عندى من الأسباب ما يمنعنى من التصريح بسبب الهجوم ، فلم يتردد فى أن يستفيد من ذلك . والمرة الثانية التفت إلى الوزير . ولم أتكلم فى هذه المرة . ودفع الرجل فرصته إلى آخرها .

— أرأيتم فخامتكم؛ إنه لا يجيب . إذا فلم يكن هنالك سبب للهجوم عليه وحارسيه . لعلهم هم الذين هاجموا أولا ولم يجد قومى وسيلة إلا الدفاع عن أنفسهم .

ودار رأس الرجل الخبيث بينى وبين الوزير . وصمت الوزير برهة ثم أشار إلى الكاتب .

— أنوبو أكتب هذا حكمنا .

أولا — أن يقدم العابيرو عشرين شخصاً ، شبانا بين العشرين ، والخامسة والعشرين فى صحة جيدة ، ليعدموا . إن شاءوا أن يقدموا من إشترك فى الهجوم على الضابط وحارسيه فيها ، وإلا فأى عشرين شخصا .

ثانيا — أن يدفع العابيرو إلى أسرة كل حارس ثلاثين من الذهب .

ثالثا — يمنع العابيرو من مغادرة حيهم عند الساعة الأولى من الليل، ومن يقبض عليه خارج الحى بعد هذه الساعة يعدم . ويستمر المنع حتى الساعة الأولى من الصباح .

رابعا — تصادر المستعمرة ، ويهدم التمثالان ، ويحرم على أى من العابيرو التواجد فيها . ومن يوجد بها يقتل ،

أكتب هذا وارسله لى للتوقيع .

كان وجه دودو وهو يستمع إلى حكم الوزير قد إزداد إصفرارا ، إن أمكن هذا . وحينما إنسحب الكاتب ليكتب الحكم حاول أن يتكلم ، لكن الوزير نظرا إليه نظرة أسكتته ، فأنسحب متراجعا حتى إختفى وراء الباب ، وهو يحي بكلتا يديه. وهممت بأن أنسحب بدورى لكن الوزير أشار إلى بالمكوث .

— والآن أخبرنى عما أخفيته .

ترددت قليلا ، لكن لم تكن هناك حيلة للصمت امام هذا الرجل . سردت قصة مى موت . ومحاولاته ، ثم قصة ابنه خع باوو ، والشك الذى يخامرنى فى أن له يدا فى المحاولة الأخيرة . وأخيرا ذكرت له إعتقادى الجازم بأن دودو كان هو رئيس الجماعة التى هاجمتنا . ولم يقاطعنى الوزير طوال المدة . وحينما إنتهيت رفع رأسه وقال :

— لو أنك قصصت على كل هذا قبل أن أصدر حكمى لكان جزاؤهم أشد ، وللاقى دودو هذا حتفه . لكنك تكلمت .

كان هذا فصل الخطاب ، ولم يبق لى إلا أن أنسحب . ولم يستوقفنى الرجل العظيم فى هذه المرة ، وبعد أن أديت التحية الواجبة ، تراجعت حتى الباب ، ثم انسحبت .

* * *

استجوبنى الكاهن رع موسى أثناء تناولى الطعام معه وتفنت عما دار لدى الوزير . ولما سردت الوقائع كاملة أطرق برهة ثم قال :

— إن هذا الشخص ماكر وخبيث إنه لم يضع الوقت ، وقدم تظلما إلى الفرعون له الصحة والحياة والسعادة وقد أحالها جلالته إلى سمو ولى العهد الذى عهد إلى باستدعاء الشاكين واستدعائك ، وعليك المثول أمام حضرته غدا فى الساعة الخامسة صباحا ( الحادية عشرة ) .

— لكن لماذا لم يحقق الفرعون ، له الصحة والحياة والسعادة فى التظلم بنفسه .

— لعدة أسباب فأولا هو لا يود أن يشغل نفسه بأمور المملكة ، وثانيا هو أضعف من أن يعارض حكما أصدره الوزير ، وثالثا أنه يود أى يبدأ باسناد مهام الملك إلى ولى العهد فى أسرع وقت . وهذه فرصته .

وتدخلت تفنت فى المناقشة .

— لكن ياعماه إن هؤلاء الأشخاص قتلوا حارسين ، وكانوا بصدد قتل كاى ، وأى أنواع القتل ، حرقا . ثم هنالك شبه تأكيد أنهم قتلوا عشرات الصبية الأبرياء فكيف يمكن أن يسمح لهم بالتظلم ؟ أنا شخصيا أرى أن حكم الوزير أقل مما يجب .

ورد عليهما الكاهن باسما .

— بنيتى ليس المهم الآن هو ماذا فعلوا ، وإنما هل من حقهم التظلم أم لا ؟ إنك لاتستطيعين أن تضعى قاعدة ثم تطبيقها على بعض الفئات دون الأخرى حسب أهوائك ، إنما تطبق القاعدة أيا كانت الأسباب ، وأيا كان الأشخاص .

هذا كلام أفهمه . لكن تفنت لم تكن مستعدة لفهمه ، فبدأت تعارض لولا أن الكاهن قطع الحديث برفق . وانتهزت الفرصة لأسأله بدورى .

— سيدى ألم يحن الوقت بعد لأن نحدد موعدا للزواج ؟

وبان الجد على وجه الرجل العجوز ، وارتبكت تفنت ، ثم قامت معتذرة بأن لديها بعض الأعمال . وتريث الكاهن حتى انسحبت ثم قال :

— بنى ، لقد قبلت أن تكون زوجة ثانية ، على هذا فلا يمكن أن يتم زواجكما قبل أن يتم زواجك من نيت افرت .

— لكن ألا يمكن على الأقل أن نحدد يوما لإعلان الخطبة ؟

وتفكر الكاهن مليا ثم أجاب .

— لابأس من هذا . وسأخاطب والدك فى الأمر . والآن فإننى لابد أن أعتذر إذ لدى بعض المهام التى أريد أوديها . هل سنراك فى العشاء ؟

— كلا ياسيدى وشكرا إننى لازلت متعبا وأود أن أستريح .

— حسنا إلى اللقاء فى الغد إذن .

* * *

كانت الساعة الخامسة صباحا ( الحادية عشرة ) حينما أذن لى فى الدخول عند سمو ولى العهد . رأيت سموه جالسا وراء منضدة مستطيلة وإلى يمينه جلس الوزير أمنوفيس بن حابو ، وإلى يساره الكاهن رع موسى . تقدمت فى الغرفة الفسيحة ، ثم ركعت على الأرض محييا ، ومتمنيا لهم الصحة والسعادة . واستقبلنى الأمير باسما بترحاب حقيقى ، ومشيرا إلى مقعد أمام المنضدة .

— أهلا ياكاى اجلس . لقد مضت مدة طويلة لم نرك فيها ، وسمعنا أن العابيرو أرادوا قتلك ، ولو سألونا لنصحناهم ألا يحاولوا .

إبتسم الكاهن ، ولم تتحرك عضلة واحدة فى وجه الوزير . وتناول الأمير

جرساً صغيراً من الذهب ، وهز بيده . وفى لحظة كان الوصيف الأول قد دخل من الباب يتبعه الرجل دودو . كان يرتدى الجلباب الرث الذى رأيته به فى اليوم الماضى . ولم تتغير خطواته أو نظراته بل حتى الحركات كانت واحدة ، إذ سجد على الأرض وهو يلقى التحية للأمير ورفيقيه . وكانت هذه هى المرة الأولى ، فى حدود ما أعلم التى رأى فيها الأمير ذلك الشخص ، دودو . وتكلم ولى العهد .

— لقد روى لنا نيافة الكاهن ما حدث ، كما أن أمامنا صورة من حكم الوزير فارو لنا مظلمتك .

رفع الرجل رأسه ، لكنه لم يقم من الأرض ، ولم ترتفع العينان إلا بالقدر الكافى لتوجيه الخطاب . وحينما تكلم جاء صوته خفيضاً ذليلا ، لكنه واضح الكلمات محدد المعانى .

— إن جلالتكم لاشك ترون بحكمتكم مدى شدة الحكم الذى أوقعه فخامة الوزير على شعبى المسكين . إننا لا نشك مطلقا فى عدالة فخامته ، ولا بد أننا نستحق ما أوقعه بنا ، لكننا نلجأ إلى جلالتكم طالبين الرحمة والعفو .

إن معالى الوزير أمر بقتل عشرين شابا من شعبنا الضعيف ، بالاضافة إلى من قتله السيد المبجل الضابط وحارساه ، وهم عشرة أشخاص ، هذا عدا أحد عشر آخرين قتلوا أثناء إلقاء القبض على المجتمعين . ألا ترون جلالتكم أن واحدا وعشرين رقم كاف لقاء اثنين من المشكوك فيه أن أحدهما قتل . ألسنا جميعا سواء ؟ إننا نعلم عن جلالتكم بغضكم لسفك الدماء . وإننا نطمع فى رحمتكم أن تخففوا هذا الحكم .

لست أدرى كيف عرف الخبيث أن سمو ولى العهد يكره سفك الدماء فأثار هذه النقطة عامدا . ولا بد أنه علم أيضا أن الدين الجديد يدعو إلى مساواة الناس ببعضهم ، وأنه أنزل للكافة ، وليس للمصريين فحسب . توقف الرجل عن الحديث تاركا دفاعه يرسخ فى عقل الأمير ، وحينما استطرد كان دهاؤه محل إعجابى .

إن شعبى يرحب بأن يدفع غرامة لأسرتى الحارسين . بالرغم من أنه لا ذنب له ، لكننا نرى أن أية معونة تقدم للأسرتين واجب قومى ، ومع أن أربعة تالنتات من الذهب سوف تعجزنا إلى أمد طويل إلا أننا سوف نتحمل العمل الشاق المتواصل حتى نحصل عليها . وكل ما نرجوه أن نعطى بعض الوقت حتى نتمكن ، نحن الفقراء ، من جمع هذا المبلغ الضخم .

توقف الداهية للمرة الثانية ، ونكس رأسه فى الأرض كأنما ينتظر الإذن له فى الكلام . ولم يخطر فى بالى وقتئذ أنه أراد بتوقفه أن يعلم مدى وقع كلامه على الأمير ومن معه . أراد أن يستشف من اقوالهم الروح التى تسودهم، خاصة الأمير . وطال صمته وأخيرا تكلم الأمير .

— هل هذه هى مظلمتك ؟

— إنى أرجو الرحمة فقط من جلالتكم . هل يمكن أن يسجن شعبا فى منطقته لمجرد إدعاء لايقوم عليه دليل بتهمة وحشية ، هى أخس مافى الأرض بأنه يقتل الأطفال حرقا ؟ إننا كما تعلمون جلالتكم شعب مسالم عشنا قرونا فى ضيافتكم فكيف يمكن أن نجازى هذا الإحسان بتلك الجرائم الوحشية الدنيئة؟ أن الكثيرين منا يعملون فى خدمة جلالتكم ليلا ، ومنا من يعمل فى الحانات ، والمطاعم، فكيف يكتسب هؤلاء رزقهم إذا منعوا من ترك المنطقة ليلا؟ إنهم سوف يموتون جوعا وعائلاتهم .

أطرق الرجل للمرة الثالثة كأنما إنتهى من مظلمته . وسأل الأمير .

— هل تنكران شعبك يعبد مولوخ وداجون ؟

— قليل منهم جدا ياصاحب الجلالة . ونحن إن أذنتم لنا جلالتكم سوف نعاقبهم على هذا ، لكنهم لم يذهبوا إلى حد تقديم أضحيات بشرية .

أشار الأمير بيده إلى الوصيف الذى كان مايزال ينتظر أو أمر سيده . وحينما رأى الاشارة وضع يده على كتف الرجل ، فقام واقفا ، وتراجع منحنيا حتى أغلق الباب وراءهما — والتفت إلى ولى العهد .

— والآن ياكاى لقد سمعت اقوال الرجل فهل لديك شيئا تضيفه ؟

— كلا يامولاى ،

— حسنا ، لك أن تنصرف الآن . لا ، انتظر حتى ننتهى فربما كان لك رأى وتحول الأمير بنظره الى الوزير .

— الست تظن أن حكمك جاء قاسيا ؟

— لا يامولاى .

— كيف يمكن أن تقتل عشرين شخصا فضلا عن مثلهم تقريبا قتلوا فى سبيل شخصين ؟ وكيف يمكن أن تسجن شعبا لمجرد شك لم يقم عليه دليل ؟

— إن بنى إسرائيل(١) يحتاجون دروساً من وقت إلى آخر فهم شعب خشون . وإنى أود أن أذكر سموكم بخيانتهم وإتفاقهم مع الحاسوت (الهكسوس الرعاه ) إذ ما كان يمكن للحاسوت دخول تاورى إلا عن طريق خيانة بنى إسرائيل لنا .

— إن هذا حدث منذ مئات السنين ولسنا آلهة لنأخذ الأبناء بجريرة الآباء وعلى أى الأحوال فقد أخذوا درساً قاسياً على يد صديقنا الصغير ، ولاأحسبهم سوف يعودون لتكرار محاولتهم .

أحنى الرجل الحكيم رأسه بجمود .

— إن رحمة سموكم تعلو على كل عدل .

ودهشت لجرأة الرجل العظيم . كان لفظاً جافا يكاد أن يكون فيه إتهام لولى العهد , للحظة شاهدت عينى الأمير تلتمعان غضبا ، لكنه سرعان ما تمالك نفسه ، وأطلق ضحكه أقرب إلى المرح .

— ربما كنت محقا فإننى أكره سفاك الدماء .

— قد يكون فى سفك بعض الدماء حقنا لسيل منها .

— ربما .

صرف الأمير الموضوع بهذه الكلمة ، وانتقل إلى الموضوع الآخر .

— وما رأيكم فى عدم السماح للعابيرو بترك منطقتهم ليلا ؟ ألا ترون فى هذا إجحافا بحقهم لمجرد بعض الشكوك ؟

هنا تدخل الكاهن لأول مرة .

— لكنها شكوك قوية لها دعامتها يامولاى .

— أنها فئة قليلة فقط التى كانت تعبد مولوخ ، وداجون .

---

( ١ ) النص الوحيد الذى ذكر فيه بنو إسرائيل فى حدود علمى فى النقوش الفرعونية هو لوح من الجرانيت القاتم ذكر فيه منبتاح بن رمسيس الثانى إنتصاره عليهم . وهو موجود بدار الآثار تحت رقم ٥٩٩ ونظرا لتقارب العهدين ، إذ أن المدة بينهما لاتزيد على مائة وخمسين عاما لقد استبحت لنفسى إستعمال اللفظ .

( ٢ ) عثر على جعل يحمل إسم يعقوب حر أى آل يعقوب ، ويرجعه الأثريون إلى عصر فراعنة الهكسوس .

وتكلم الوزير

— إن مولاى رأى من رحمته أن يحقن دماء بعض بنى إسرائيل ، ألا يكون من الرحمة كذلك حماية أطفالنا من ميتة شنيعة ؟

تنهد الأمير كأنما يسلم فى مناقشة كان يود أن تكون نهايتها على النقيض .

— حسنا . يبدو أنكما الإثنين مصران على موقفكما . فليكن إذا ماتريدان . ونرجو أن يعدل الحكم إذا بإلغاء شقة الخاص باعدام العشرين ، وأن يمنح العابيرو مدة سنة لدفع الفدية ، وتبقى البنود الأخرى كما هى .

وقف ولى العهد ، فوقفنا ، ودون كلمة أخرى ترك الغرفة . وأردت أن انسحب بدورى فإلتفت إلى الوزير مستأذنا ، لكنه إستوقفنى كما إستوقف الكاهن .

— لا تنصرفا لدقائق . إن هذا الاسرائيلى رجل ماكر ، وكم وددت لو استطعت قتله . على أن هنالك شيئا أهم من ذلك أرجو أن أناقشكما فيه . أن ابنة جلالة ملك ميتانى فى طريقها الآن على ما اعتقد إلى تامرى لتتزوج من جلالة الفرعون له الصحة والحياة والسعادة فهل هنالك فرصة أحسن من هذه للعابيرو ؟

لم أفهم فى باذىء الأمر ما يهدف إليه الوزير ، لكننى رأيت الكاهن يقطب ما بين حاجبيه ، كأنما قد إستغرق فى تفكير عميق . وترك الوزير لنا فرصة تستوعب فيها رأيه ثم قال :

— إن الاسرائليين لن ينسوا قتل واحد وعشرين شخصا وسوف يسعون إلى الإنتقام . وأية فرصة أحسن من أن يخطروا قومهم فى جارو ، وكوميدى ( منطقتان بفلسطين ) ليعترضوا قافلة الأميرة ويأسروها أو يقتلوها . إن ملك ميتانى لا شك سوف يطالب بالثأر وقد تقوم حرب بين البلدين .

وتكلم الكاهن كأنما هو فى حلم .

— ولا شك أيضا فى أن هذه فرصة جيدة لكى يوقف كهنة آمون اعتلاء سمو ولى العهد العرش .

زم الوزير شفتيه .

— ربما كانوا على حق فى هذا ، لكننى مؤقتا يهمنى ألا تتعرض الأميرة وقافلتها لأية متاعب . إن المفروض أن حرس الشرف سوف يلاقى القافلة عند حدود تامرى ، لكننى أريد أن يذهب بعض الرجال الأشداء إلى كوميدى (شمال فلسطين) قبل وصول الركب .

والتفت الوزير إلى .

— إنك صغير جداً على أن أسند إليك هذه المهمة ، لكنك تتدرب فى الحظائر الفرعونية فهل تعرف أحدا يمكن أن يكون محل ثقة لأدائها .

— أجل يامولاى . قائدى جسر خبرورع.

التفت الوزير إلى الكاهن متسائلا فهز الآخر رأسه بالموافقة .

— حسنا فليستدعه نيافة الكاهن إذا ، ويوكل إليه المهمة،وسأعد تفويضا بمنحه سلطة كاملة فى سبيل أداء مهمته .

وهم الوزير بعد ذلك بالانصراف ، لكننى استوقفته .

— مولاى هل أستطيع أن أرافق الضابط جسر ؟.

— مادمنا سنوكل إليه القيام بحماية الأميرة وقافلتها ، فلا أقل من أن نترك له حق إختيار معاونيه . ولسنا نريد أن نفرض عليه شخصا معينا ، لكن إذا شاء اختيارك فلا مانع لدينا .

بهذه الكلمات ، وبتحية مقتضبة تركنا الرجل العظيم .

* * *

# الفصل العشرون

## منتوستت - البدو الآسيويون

استمع جسر إلى قصتي في صمت ، ولم يقاطعني بسؤال واحد . لم يظهر على وجهه النبيل أي شعور أو إحساس . وحينما انتهيت ، مكث في مكانه مطأطئا يفكر . ساد السكون لحظات . وأخيرا رفع رأسه ، ولاحت على وجهه ابتسامته اللطيفة .

— وما رأيك في نترى ؟

— إنه صغير نسبيا ، لكنه جرىء مقدام .

— وطبعا سنأخذ معنا خع باوو .

وصعقت . كنت قد أخبرته بشكوكى ، ولهذا أدهشني اختياره للشخص الوحيد الذى لم أكن أتصور إن يصحبنا فى المهمة ، فابديت اعتراضى بشدة .

— اننى قد أخبرتك بشكوكى فى خع باوو . والواقع أنها أكثر من شكوك ، إنها تقارب اليقين : إن هذا الشخص عدو لسمو ولى العهد ولاشك فى أن صالحه ألا يعتلى سموه العرش مع الفرعون له الحياة والصحة والقوة . بالتالى فسوف يقوم بكل ما يستطيع ليمنع الزواج .

نظر إلى جسرو من تحت حاجبيه ، وقد بدت عليه أمارات الصبر .

— لست أشك فى كلامك ، ولعله قد آن الأوان أن تأخذ أول درس فى تكتيك الحرب . إذا كان لك عدو ، فمن صالحك ألا يكون وراءك . اننى شخصيا أفضل أن يكون عدوى حيث يمكن أن أراه ، وأن أراقبه .

— لكننى لا أظن أن السيد الوزير أو نيافة رع موسى يوافقان على أنه تصحب خع باوو معك .

هنا ظهر لى جزء من أخلاق جسر لم يكن قد داخلنى شك فى وجوده . كان معى صبورا يناقش فى أناه ، وحلم ، ويقرع الحجة بالحجة ، أما هنا فقد أجابنى بحدة قطعت كل مجال للتفاهم .

— انني ظننت أنك قلت أنهما قد تركا جميع الترتيبات لى !؟

كانت لهجته قاسية ، صارمة . لهجة أظهرت ماوراءها من شخصية قوية ، رفعت صاحبها من مجرد ضابط صغير إلى فرعون من أقوى فراعنة مصر ، وأخلدهم ذكرا فى التاريخ . وفى لحظات أخرى انقلب جسرو إلى الشخص الوديع المسالم الظريف .

— هيا بنا ياصديقى الصغير ، لايجوز لنا أن نضيع وقتنا فى المناقشة فى حين أن لدينا عملا ينتظرنا . عليك أن تخطر نترى . وبالمناسبة إذا أردت أن تصحب معك خندو فلابأس . ومن البدهى أنك ستمتطى « كم » هل يستطيع خادمك أن يمتطى جوادا ؟

— كلا ، لكنه يستطيع أن يجرى إلى جانبه بحيث يكل أى جواد قبله .

— لابأس . سأنتقى له بغلا من الاسطبلات . بل ساختار أنا الجياد ، وعلى خندو أن يتعلم ونحن فى الطريق .

— ربما أراد نترى أن يصطحب معه فرسته نفر .

— كلا ان الأفراس قد تلهى الجياد . نحن لانريد استعراضا لجمال الجياد إنما نريدها جيادا قوية تتحمل السفر يوما بعد يوم . هيا ياصديقى .

— هل سنذهب نحن الأربعة فقط ؟

— سنأخذ معنا من نريد من الرجال ... من حصن ثارو ( القنطرة ) .

لم تمض ساعة بعد ذلك حتى كنا ، نحن الأربعة ، فى طريقنا إلى ابيوت نحح ، وبالرغم من أن الظلام كان قد حل . وصلنا إلى المدينة الجميلة فى الساعة الرابعة ( العاشرة ) مساء . وأراد خع بارو أن يقضى الليلة فى قصر والده ، لكن جسر رفض ذلك ، وقرر أننا سوف نبيت جميعا فى قصر والدى .

أعد لنا سحتب أيب ، مدير القصر عشاء فاخرا يتكون من الأوز ، والبط ، وبعض البقول ، والفواكه ، كما قدم الساقى نبيذا معتقا . وعلى المائدة أطلق جسر إحدى ضحكاته المرحة .

— كلوا يا أصدقائى فأحسب أن هذه آخر وجبة شهية سوف تستمتعون بها لمدة طويلة .

والمرة الثانية طلب خع باوو أن يذهب إلى قصر والده .

— ان لدى مهام يجب أن أقضيها قبل أن أرتحل .

وبصرامة غير عادية أجاب جسر .

— فى الجيش ياخع باوو ليس هنالك أهم من تنفيذ الأوامر كما هى ، وأعتقد أنك طلبت هذا الطلب قبل ذلك ، ورفضت . ولست معتادا على تكرار أوامرى ، ولن أكررها بعد هذا .

ثم التفت جسر إلى وقال بلهجة مغايرة تماما .

— أين خندو ؟ أريد أن أعرف عن مهارته .

فى لحظات كان خندو قد حضر إلى غرفة الطعام . نظر إليه جسر لمدة ثم قال :

— ماذا تحسن من أنواع القتال ؟

ولم يزد العبد على أن قال :

— جميعها .

— حسنا لقد أحضرنا بغلا من الحظائر الفرعونية ، وعليك أن تمتطيه .

وبان القلق على العبد .

— سيدى لا تؤاخذنى إنى أفضل العدو .

أطال جسر النظر إليه وبدا كأنما هو يختزن هذه المعلومات .

— هل تعنى أنك تستطيع أن تعدو إلى رتنو ( سوريا ) مثلا ؟

— إذا استطاعت ذلك الخيل فإنى أستطيع .

زم جسر شفتيه غير مصدق ، لكنه عاد وقال .

— لا بأس سوف يكون لك معنا بغلا على أى حال ، وإذا لم ترد أن تمتطيه فسوف نحمله زادنا لكى نريح الجياد .

أحنى العبد رأسه ثم انسحب ببطء . والتفت إلينا جسر .

— أود قبل أن نأوى إلى فراشنا أن أقرر لكم أنه إذا حدث لى حادث فالقيادة من بعدى لكاى . هذا حتى نصل إلى ثارو ( القنطرة ) وإن كنت لا أعتقد أننا سوف نصادف أية متاعب حتى هناك . كاى متى نستطيع أن نقابل نيافة الكاهن رع موسى غدا ؟

— أنه يستيقظ مبكرا ولا أعتقد أن الساعة الثانية صباحا ( الثامنة بتوقيتنا ) وقت مبكر بالنسبة له .

— حسنا هيا بنا إلى الفراش إذاً . سوف نبدأ مسيرتنا إلى قصر نيافة الكاهن فى الساعة الثانية تماما .

* * *

كانت الساعة الثانية والربع صباحا حينما استقبلنا أستاذى السابق فى قصره . وإن كان قد دهش لمرأى خع باوو معنا فإنه لم يبد على وجهه الصارم أية آثار عما يعتمل فى نفسه . لم يضع الكاهن وقتا . وناول جسر لفافة صغيرة من البردى قائلا .

— إليك خطابا من فخامة الوزير . وستجده ممهورا بتوقيعه ، وإنه يعطيك سلطة فى التصرف فى الاستعانة بمن تراه بين الجنود ، أو الضباط ، أو الميجاوو (حرس الحدود) كما أن لك أن تطعم نفسك ، ومن معك ، وجيادكم من أى حقل ، وسوف يعتمد توقيعك لتعويض الأشخاص الذين تأخذ منهم احتياجاتك . واخيرا إليك صرة بها خمسة تالنتات من الذهب . هل هنالك شىء آخر تريده .

تناول جسر الرسالة وصرة المال وهز راسه نفيا .

— إذا رافقتكم السلامة ، واتمنى لكم رحلة موفقة .

وانسحبنا . وفى الردهة الخارجية تكلم جسر .

— كاى . لديك خمس دقائق لتودع فيها خطيبتك . سننتظر عند الباب الخارجى للقصر .

لابد ان جسر قد رأى تفنت وهى تقف خلف باب إحدى حجرات الاستقبال الأخرى ، وإلا فلست ادرى كيف طرأت على تفكيره العملى تلك اللمحة العاطفية . على أى الأحوال فإنه قال هذا وتوجه من فوره إلى الشرفة الخارجية مصطحبا معه سائر الجماعة .

لم أضع وقتى ، واتجهت من فورى إلى تفنت التى ما ان رأتنى مقبلا حتى ألقت بنفسها بين احضانى وقد بللت الدموع خديها . مسحت بيدى على شعرها الناعم ، وأنا أتمتم بألفاظ رقيقة محاولا التسرية عنها ، ومقررا اننى سوف اعود خلال شهرين أو ثلاثة على الأكثر : وحينئذ سوف نلتقى إلى غير فراق ، لكن

يبدو ان كلامى قدزادتأثرها بدلا من ان يهدىء من شعورها إذ ازداد بكاؤها، ولم تهدأ إلا بعد ان وعدتها ان اتصل بها بين الحين والآخر عن طريق السكا، ومع هذا فقد ظلت متشبثة بى، كأنما تخشى ان اخرج إلى غير عودة.

اخيرا اضطررت ان انتزع نفسى منها انتزاعا. وهرولت مسرعا إلى رفاق الذين كانوا ينتظرون بصبر عند مدخل القصر. وابتدأت الرحلة.

* * *

اصر جسر على ان يبدأ خندو بامتطاء البغل مقررا ان عليه ان يتعلم الركوب، وأنه كلما بدأ مبكرا كلما كان هذا اوفق. ولم نأخذ طريق حورس،(١) بل اخذنا الطرق الجانبية. اتجهنا إلى برنها (بنها) على مسافة اربعة يترات (٢) من نيوت نحح حيث قضينا ليلتنا مارين بتانفت ( طمنا قليوبية ). ولم تكن هذه المسافة بالمرهقة لنا، وكان يمكن ان نستمر على الأقل إلى حات خبر آت (اتريب) لكن جسر رأى أن نريح الجياد حتى يكون فى استطاعتها مواصلة الرحلة، كما أنه لاحظ أن حالة خندو لم تكن على مايرام، إذ أنه بالرغم من إرشاداتنا المتوالية كاد أن يسقط من الحيوان أكثر من مرة.

أيقظنا جسر فى آخر ساعات الليل، وكانت حالة خندو سيئة حتى أننى كدت أطلب إما أن يترك فى المدينة، أو أن يلحقنا بعد فترة، لكننى رأيت أنه تحامل على نفسه، والتمس ان يقطع المسافة التالية عدوا. ووافق جسر على ذلك، وإن كان اشترط على العبد إما ان يتابعنا او انه سوف يتركه فى اول مدينة. لم تمض ساعة بعد ذلك إلا وكنا قد تناولنا افطارنا، وابتدانا مسيرتنا نحو قاه حور (اسنيت مركز بنها) ثم برباتست ( تل بسطة ) ومنها إلى هرونفر (قرية رزنه) حيث توقفنا لتناول بعض الطعام، وقضاء الليل.

كانت قدرة خندو عجيبة، فهو لم يتوقف لحظة طوال هذه الرحلة، كما انه

(١) هو الطريق المعبد للجيش حينما يتوجه إلى الحروب فى آسيا. وفيما عدا هذا الطريق توجد طرق من تطهير الترع ليلقى الناتج على شاطئها ثم يعبد ليكون طريقا.

(٢) اليترو كما ذكرت سابقا ١٠،٥ كم.

كان يجارى الجياد فى عدوها ، لكن من ناحية أخرى يجب أن أقرر أن الطرق لم تكن معبدة تماما بحيث أنه كان من العسير اطلاق الجياد ، وأننا لم نرد أن نستنفذ قوتها كما قرر جسر ، خاصة وهى فى أوائل الرحلة .

استأنفنا الرحلة إلى هيبو (هيبا) . ويبدو أن جسر قد قرر أن تكون كل مرحلة حوالى أربعة يترات إذ أنه لم يتوقف فى المدينة ، وإنما اخترقناها ، إلى بر اتوم ثو (التل الكبير) ثم إلى نوفير رع (فنتير) . وفى نوفير رع صادفتنا أول المتاعب إذ لم نجد خانا نستطيع أن نقضى فيه ليلتنا . لكن جسر ذهب إلى حاكم المدينة الذى سرعان ما إستضافنا فى منزله .

إتجهنا فى الصباح إلى با كس (فانوس) ، وسرنا بمحاذاة فرع النيل(١) حتى كنا فى آخر النهار عند أبواب ثارو (القنطرة) . وتحدانا حارس بوابة الحصن ، فابتدره جسر بلهجة آمرة طالبا ان يقابل القائد . غاب الرجل ، فى حين بقينا خارج الأسوار ، والسهام مصوبة نحونا . وبعد حوالى ربع ساعة ظهر عند البوابة الضخمة رجل طويل القامة نحيف البنية يرتدى ملابس الضباط ، وحينما وقع نظره على جسر هتف مرحبا .

ـــ أهلا ياصديقى . تفضلوا بالدخول .

وفتحت البوابة على مصراعيها فى حين ترجلنـــا لنسلم على القـائد . وتكلم جسر .

ـــ أهلا يامن (رمسيس الاول فيما بعد) لعلك تذكر صديقنا الصغير كاى الذى قدمته لك فى تهق (طيبة) .

تقدم من يحق مى مادا يده ومحييا باخلاص باد .

ـــ قطعا اذكره لقد مضت أكثر من سنه على لقائنا ، لكن صديقنا هذا لا يسهل نسيانه .

ضغط من على يدى بحرارة ، فبادلته التحية ، ثم التفت إلى خع باوو ونترى ، وحينما قدمهما إليه جسر حياهما بأدب وقال لرئيس حراس البوابة .

---

(١) كان للنيل سبعة افرع عند الدلتا يصل احداها من منف القاهرة إلى ثارو (القنطرة)

— عليك أن تجد مكانا مناسبا يستريح فيه العبد ، وأعطه طعاما ، وشرابا وما قد يحتاج إليه . وخذوا الجياد إلى الحظائر وأطعموها :

واضطررت أن أتدخل فوجهت كلامي إلى من .

— اعتقد أني يجب أن أذهب لأضع « كم » حيثما تريدون .

ابتسم من وهو ينظر بإعجاب إلى جوادي .

— حسنا سوف ننتظرك في مكتبي .

تركني الثلاثة ، وسرت مع خندو وأحد الحرس حتى أودعت « كم » في الحظيرة ، واطمأنيت على مأكله وشرابه ، ثم قادني الحارس إلى غرفة من بعد أن أكدت عليه وجوب مراعاة راحة خندو . ويبدو أن جسر كان قد اخبر من بحتي فعلا بالمهمة الموكولة إلينا إذ أنهم كانوا يتناقشون حينما دخلت عليهم وسمعت من يقول .

— . . . . . . . . لكن قطعا هنالك وفد رسمي ليقابل الأميرة ، وحاشيتها .

— أجل . وإنما لن يقابلها إلا عند حدود تامري . عند ربح ( رفح ) أما قبل ذلك فلن تكون لها حماية سوى حرسها الخاص ، وما قد يقدم إليها من الحاميات المصرية المتناثرة .

واعتدل من في جلسته .

— مهمتك الآن هي تأمين وصول الأميرة وحاشيتها إلى شاروهن ( عند غزة ) .

— أجل .

— وما هو المطلوب مني ؟ .

— اعتقد أن عشر رجال تنتقيهم من الأشداء يكون فيهم الكفاية ؟ .

وتكلم خع باو لأول مرة .

— ولماذا لا يذهب حرس الشرف ليستقبل الأميرة وحاشيتها إلى كوميدي ( شمال فلسطين ) أو حتى زاحي ( عند سوريا ) .

ورد جسر .

— أعتقد أن السبب فى ذلك يرجع إلى المراسم . وعلى كل حال فهنالك دائما الحاميات المصرية ، فى كل بلدة يذهبون إليها . أيا كانت الأوضاع فمهمتنا مهمة خاصة أوكلت إلينا من فخامة الوزير . هذا يكفى بالنسبة لنا .

وسأل نترى .

— هل هنالك أى نبأ عن ارتحال سمو الأميرة ؟

ورد من

— كلا . اعتقد أن الموعد المحدد سيكون سريا حتى تقل الأخطار .

— وهل من حرس الشرف عليكم ؟

— كلا .

— إذا فلدينا وقت كاف ، ولا داعى للعجلة .

وقال جسر .

— أننا لا نعلم تماما الموعد ، ومع هذا فإننا كلما بكرنا فى الذهاب كان أوفق .

والتفت من إلى جسر .

— هل لديك مانع أن أصحبكم . أن الحياة هنا أضحت لا تطاق ، ففيما عدا مطاردة بعض الأعراب الذين يهاجمون عمالنا فى المناجم لا توجد أية حركة .

وابتسم جسر .

— أننى قطعا أرحب بزمالتك. لكن أليس من العسير عليك ترك القيادة فى الحصن .

— مطلقا هنالك أمن مس ، التالى فى القيادة ، وهو شاب كفء طالما تركت له الحصن أثناء مطاردتى لبعض المنوستت ( البدو الآسويون ) أعتقد أننى يجب أن أقدمه لكم .

قال هذا وقام من مكانه وغادر الغرفة ، وبعد دقائق عاد بصحبة شاب طويل القامة وسيم الوجه .

— دعونى أقدم لكم ياسادة الضابط أمن مس نائبى فى الحصن ورفيق القتال .

انحنى الضابط بأدب ثم قال .

— لابد أنكم لم تتناولوا طعاما اليوم . وان كنت أخشى أن مالدينا لايرقى إلى مرتبة الرفاهية ، لكنه طعام جيد ، وأرجو أن تسمحوا لى باستضافتكم .

* * *

مكثنا يومين فى حصن ثارو ، إذ أصر جسر على أن يريح الجياد ، وفى هذه الأثناء وردت الأنباء بأن بعض الأعراب قد اتجهوا إلى المناجم يريدون الاغارة عليها . واضطر أمن مس أن يرتحل ، ومعه بعض الحامية ، ولم يبق هنالك من يستطيع من الاستغناء عنهم ، ولهذا اضطر ان يعتذر عن ارسال الرجال الذين طلبهم جسر ، لكنه قرر انه يستطيع ان يرافقنا شخصيا تاركا الحصن لقيادة احد صف الضباط . وفى الصباح المبكر من اليوم الثالث بدأنا رحلتنا نحو بر آمن ( الفرما ) .

لم تحدث حوادث تذكر فى طريقنا إلى برآ من سوى أن خندو ترك امتطاء البغل أكثر من مرة وفضل أن يعدو إلى جانبنا . ومن الغريب أن خطواته لم تكن تتغير كما لم يبد عليه أى تعب ، وإنما كان جريه متناسقا يدعو إلى الإعجاب ، ويحمل المرء على متابعة حركاته السهلة الهينة . ومن برآمن اتجهنا إلى بى كورن ان حيث قضينا الليلة فى الحصن ، وارتحنا فى الصباح متجهين إلى اروس ( العريش ) .

وصلنا إلى أروس ( العريش ) بعد ثلاثة أيام من تركنا بى كورأن ، وقضينا الليالى الثلاث فى العراء . وفى الطريق هاجمتنا ثله من قطاع الطرق ، وهنا تذكرت كلمات جسر التى قالها لى عند أول تعارفنا فى أيه ( طيبة ) من أن من أحسن من يرمى السهام . والواقع أن السرعة التى توالت بها سهامه ، ودقة التصويب التى أبداها كانتا أقرب إلى الإعجاز ، إذ ان العين لم تكد ترى حركة يديه وهو يسحب السهم تلو الآخر ، كما أنه لم يكن يبدو عليه أنه يصوب نحو الهدف ، ومع هذا فإن كل سهم أصاب هدفه تماما حتى انى أعتقد مخلصا انه كان يكفى بمفرده ليرد الهجوم .

كان يحمل سلة للسهام وراء ظهره . وبحركة تكاد أن تكون واحدة

ينطلق السهم من القوس فتمتد يده وتسحب سهما من السلة ويشده إلى القوس لينطلق إلى هدفه لا يخطيء . كانت حركات فيها توافق غريب بحيث بدت يسيرة لا إجهاد فيها. ومع هذا فقد كانت السهام تنطلق تباعا لا يفصل بين الواحد والآخر سوى لحظات حتى بدت كأنما هي خيط واحد لا ينتهى .

وانتهت المعركة فى دقائق معدودة إذ ولى المهاجمون الأدبار تاركين ثمانية من القتلى ، والجرحى أصابت سهام من معظمهم . ويبدو أن الدرس الذى لقنوه كان من الشدة بمكان فلم يحاولوا إعادة الكرة .

قضينا فى أروس ليلتين . وهنا ظهرت حيوية جسر الفياضة . بالرغم من اننا كنا مجهدين من مشقة السفر ، فأننا ما كدنا نستقر فى النزل حتى تركنا قائلا إنه سيذهب ليتسقط الأخبار ، كما همس فى اذن خندو ببعض اوامر اختفى بعدها العبد . ولم تكن آروس حصنا بالمعنى العادى ، وانما كانت أيضا قرية تضم بعض السكان الذين يتكسبون من قوافل التجار ، سواء الواردة إلى تامرى أو الصادرة منها ، وبذلك كانت ايضاً مركزا لتسقط الأخبار .

لم يظهر اى اثر لجسر حتى ظهر اليوم التالى ، إذ دخل علينا فى غرفة الطعام وقد بدا متمهكا متربا . واتجه من فوره إلى حيث وقفت احدى الخادمات ( حسمنيت ) تصب له الماء فغسل وجهه ثم جلس إلى المائدة يشاركنا الطعام . ولم نحاول أن نستجوبه ، كما لم يتكلم طوال الوقت الذى قضيناه على المائدة . ولما انتهينا طلب منا الانتقال إلى حجرته وما كدنا نستقر حتى قال .

— لقد قضيت وقتا متعبا إذ يبدو أن التجار لا يبوحون بشيء إلا لمن يثقوا فيه خشية قطاع الطرق الذين ينصبون شباكهم للقوافل ، على أى حال فإن هنالك أخبارا بأن قافلة كبيرة ، لاشك أنها قافلة سمو الأميرة قد وصلت فعلا إلى زاحى ( بلدة فى سوريا ) وهى فى طريقها الآن إلى ينعم (بلدة قريبة من طبرية) .

وسكت جسر بعد أن أعطانا الأنباء فابتدرته بالسؤال :

— وأين خندو إذاً .

— إنه فى طريقه إلى بى كوران فقد علمت أيضا أن حرس الشرف الذى سوف يستقبل الأميرة قد وصل إلى ثارو ، وهو فى طريقه الآن إلى بى كوران

فاعدت خندو ليتعجل وصوله حتى يكون فى شرف استقبال سمو الاميرة .

وأعتقد الآن يجب أن نعد أنفسنا للرحيل فى الصباح المبكر . من كان يرعى الخيل ؟

وأجاب نترى .

— أنا . وهى جميعها فى حالة جيدة . وسأذهب الآن للتأكد من طعامها وشرابها ، وراحتها .

التفت جسر إلينا بعد أن انسحب نترى .

— إن الأمر أهم مما يبدو إذ أن الاميرة لم تأت فقط ومعها حاشيتها وجواهرها وإنما أرسل ملك خيتا معها حوالى أربعمائة فتاة ولابد أن مثل هذه القافلة ستكون محل طمع كل أمير ، وكل قبيلة تمر فى طريقها .

وقال من بهدوئه المعتاد .

— هذا طبعا إذا أمن الإفلات بجريمته مع علمه بأن أقوى ملك فى الارض سوف يطارده إلى أن يقتص منه بالإضافة إلى أن جميع الملوك ، والأمراء الآخرين لن يستطيعوا مساعدته ، او عدم المعاونة فى القبض عليه .

وقال خع باوو .

— لاشك ان مثل هذه القافلة سوف تكون تحت حراسة قوية .

ونظر إليه جسر كأنما يراه لأول مرة .

— اجل . لكن هنالك نقطتى ضعف . الأولى ان الثقة الكاملة فى قوة المملكين وسطوتهما ربما تكون مدعاة للإهمال . والثانية ان وجود حوالى اربعمائة فتاة فيها تؤدى إلى الارتباك . والآن لننظم انفسنا ونضع خطتنا . هل ذهب ايكما إلى زاحى ؟

قال هذا والتفت إلى خع باوو ، وإلى . ولما هز كلانا رأسه نفيا استطرد .

— هذا يقصر المناقشة بينى وبين من .

كان فى هذا إشارة إلى انه لايريدان نبقى فى الحجرة . وتمطى خع باوو ثم قام من مجلسه متمهلا وقال :

— اظن اننى لاارى مانعا من ان انسحب لألقى نظرة على البلدة . هـــذا إذا سمح السيد القائد .

— لابأس . ولـكن عليك ان تنام مبكرا فسوف نستيقظ فى الصباح الباكر .

هممت ان اقوم من مكانى بدورى ، لـكن نظرة جانبية من جسر جعلتنى استقر . وحينما انسحب خع باوو تـكلم جسر .

— لننظر إلى موقفنا . إن سيادة الوزير ارسلنا على اساس ان العاموريين يريدون الانتقام من تامرى لما لحق بهم . هذا حسن . ولعلك ياكاى لاتعلم ان بعض العاموريين استقروا عند كوميدى ( منطقة شمال فلسطين ) قريبا من زاحى .

وتدخل من فى المناقشة .

— لـكننى لااعتقد ان العاموريين سوف يهاجمون القافلة ، فهم لاشك انهم إن فعلوا ذلك فى ارضهم فلاشك ان الفرعون ، له الحياة والصحة ، والرفاهية ، سوف يصب جام غضبه على اى شعب هو جمت القافلة بين ربوعه .

— هذا حق . لـكن إلى الجنوب ، عند حدود تامرى تقريبا يوجد الـكنعانيون[١] وهم اولاد عم العبرانيين وقد استقر بعضهم مع الفلسطين على الساحل .

— لـكن اليس العاموريين ، والـكنعانيين قبائل رحل لالإستقرار لهم ،

— اجل وهذه مناطق نشاط قبائلهم المختلفة . فهم يغيرون ويسلبون السكان المستقرين . ولست احسب ان الـكنعانيين سوف يقبلون ايضا ان يتم اى هجوم على القافلة فى هذه المنطقة .

— إذا فى اية منطقة يمكن ان يتم الهجوم ؟

وتدخلت فى الموضوع .

— أنى لا أعلم طبيعة الأرض ولا السكان الأصليين فى المناطق ،إنما يمكن أن أتصور ما يمكن أن أفعل لو كنت أريد مهاجمة القافلة دون أن أتعرض لانتقام الفرعون ، أو أى ملك أو أمير .

---

(١) ورد اسم الـكنعانيين فى النوص المصرية لأول مرة فى حدود على فى عهد امنوفيس الثانى إذ قرر انه اسر منهم ستمائة واربعين أثناء عودته إلى تامرى من حملته الاولى .

التفت إلى الاثنان دون أن ينبثا بكلمة منتظرين أن اتم كلامى ، فأردفت .

— هل هنالك منطقة صحراوية لا توجد فيها اية قبيلة بحيث يمكن ان يحدث فيها الهجوم ، على ان تكون سبل الهرب فيها سهلة ، وان تكون الأسواق قريبة منها بحيث يمكن تصريف الأسلاب فى اسرع وقت ؟

ظهر التفكير على الضابطين برهة ثم تكلم من .

— اعتقد أن هذا كلام منطقى . وإذا صح هذا التفكير فإن قبائل سيمون هى احسن مكان يمكن تصوره .

قطب جسر ما بين حاجبيه .

— اين هى هذه القبائل ، لا احسبنى سمعت عنها قبلا .

— إنها قبائل نزحت لا ادرى من اين ، وهى تحتل مكانا إلى الجنوب الشرقى من شاروهين ( غزة ) .

— لكن هذا يكون قريبا جدا من حدود تامرى .

تدخلت ثانية .

— ربما تكون هذه ميزة . إذ ان الحرس سوف يكونون اقرب إلى الاطمئنان ، وبالتالى ادنى إلى الاسترخاء فى الحراسة .

وقال جسر .

— حسنا . سوف نذهب لنلتقى بالقافلة فى زاحى . وان نعتمد على استنتاجاتنا فقط . لكننا لن نظهر أنفسنا الا عند الضرورة فقط .

وابتدرت .

— لكن هل نكفى نحن الخمسة فقط لتعزيز الحرس وصد أى هجوم . إن المهاجمين يلزم أن يكونوا كثيرى العدد . قطعا عشرات ، وربما مئات ، ولست اعتقد أننا نحن الخمسة نكفى للتأكد من هزيمتهم ، حتى وإن كان عنصر المفاجأة لصالحنا .

ابتسم جسر وهو ينظر إلى .

— يبدو يا كاى انك لا تفينا حقنا . إننا خمسة ضباط فى الجيش الرعونى

ومن هنا يقوم بمفرده مقام فيلق كامل . ولكن الواقع إننى لا أعتمد علينا فحسب فإن هنالك حاميات من تامرى على طول البلاد وعرضها ، من أورصا (أشدود) إلى زاحى، وكتتو ( عند جبل الكرمل ) ،

حينما إنتهى جسر من كلامه التفت نحونا ثم أردف .

— أعتقد أن هذا كل شىء سوى أننا ان ننضم إلى القافلة حين نلتق بها ، وإنما سنراقبها من بعد حتى يحين الوقت الذى يجب فيه التدخل .

* * *

بدأنا رحيلنا فى الصباح الباكر ميممين دائما نحو ابنت ( الشرق ) متجهين إلى ربح ( رفح ) على الطريق الساحلى . ولم يغب أيوم ( البحر ) عن نظرنا طوال المسافة. كان الجو صافيا جميلا ، والمناظر الطبيعية ساحرة من ( تشا ) الرمال الناصعة البياض ، إلى البحر اللازوردى الصافى ، إلى أشجار النخيل الممتدة على الشاطىء ، حتى تكاد أن تلامس المياه ، وكانت نسمة خفيفة باردة تهب علينا من البحر حتى أننا لم نشعر بأى مجهود ، او ضيق أثناء الرحلة ، كما أن الجياد بدت فى أحسن حالاتها بعد أن أخذت قسطها من الراحة فى أروس .

وصلنا إلى شدو ربح ( قرية رفح ) حوالى الساعة العاشرة صباحا ( الرابعة مساء بتوقيتنا) ولم نتمهل بها ، وإنما إتجهنا فورا نحو شارهين ( غزة ) فدخلناها بعد ذلك بحوالى الساعة .

كان من الجلى أن من بحق يعرف طريقه جيدا ، إذ أنه قادنا فورا إلى نزل يقع فى الشمال الشرقى من المدينة . وليست شارهين ، كما يدل عليها إسمها من مدن تامرى ، وإنما يعيش فيها الفلسطينيون الذين يستقرون فى المنطقة بين حدود تامرى حتى إيكى ( شمال فلسطين ) وهى منطقة تحدها المناطق التى يقطنها الفينيقيون والفنخو ( اللبنانيون والسوريون ) فيما نطلق عليه إقليم رتنو ( سوريا ) .

كان من اليسير على أى شخص أن يعلم أنه قد اخترق حدود تامرى ، إذ كان جليا من مناظر المبانى الواطئة المبنية من الحجارة ، ومن الأزقة والطرقات الضيقة، والرجال ذوى اللحى ، والشعور الطويلة ، والملابس الزاهية المتعددة الألوان . ولم يكن سوى نفر قليل من المصريين ،لعلهم تجار ،وفدوا إلى المدينة ،أو ربما

كان يقيم بعضهم فيها . وكانت الحامية المصرية تحتل الحصن الذى يقع فى السور المحيط بالمدينة ، ولا يكاد أعضاؤها أن يبرحوا أماكنهم إلا فى النادر .

ولما دخلنا المنزل تقدمت منا حسمنت ( الخادمة التى تصب الماء ) ومعها الطست والإبريق لتزيل عنا آثار السفر ، فغسلنا وجوهنا ، وأقدامنا ، ثم جلسنا على مقاعد خشبية مستطيلة يسع الواحد منها ثلاثة أشخاص ، وطلب جسر منا طعاما فأسرع صاحب المنزل يقدم نبيذا جيدا ، وأطباقا تحتوى على بازت ( سمان ) مشوى وحجو ( بصل ) . ويافت ( كرات ) ، وخبزا مصنـــوعا من شوت ( الشعير ) .

كان الطعام جيدا ، والأطباق نظيفة ، فأكلنا بشهية ، خاصة وأننا لم نكن قد ذقنا الطعام منذ الصباح ، حينما تركنا أورس ( العريش ) . وحينما إنتهينا أخطرنا جسر أننا سوف نبقى فى اليوم التالى فى شـــاروهين ، وأن لديه بعض الأعمال يريد أن يؤديها ، وعلينا ، أن نمضى وقتنا بأية صورة نراها . وانسحب بعد ذلك إلى غرفته فى الفناء الداخلى .

فى الصباح التالى لم يظهر جسر ، ولا بحتى ، على هذا صحبت نترى وذهبنا إلى شاطىء البحر ولم نستطع أن نقاوم جمال المياه فخلعنا ملابسنا ، وأمضينا بعض الوقت فى السباحة . وعندما توسط رع كبد السماء عدنا إلى المنزل . وكنا قد أعطينا ما نحمل من ملابس أخرى إلى حسمنيت ( الخادمة ) لتغسلها فأتت بها بعد أن جففتها ، وأبدلنا ملابسنا ، وأعطيناها الملابس المتسخة ، على أن ترجعها فى المساء .

لم يعد جسر ولا من بحتى طوال اليوم ، لكننا رأيناخع باوو فى حجرة الطعام . تناولنا غذاءنا معا فى صمت لم نتبادل فيه الحديث إلا لماما ، وحينما فرغنا استأذن نترى للذهاب إلى الحظائر حتى يتأكد من إحتياجات الجياد ، فانتهزت الفرصة وقت معه لارعى « كم » .

شعرت بضيق شديد لامبرر ظاهرى له ، وحام حولى شبح كارثة وشيكة الوقوع . فاستأذنت من نترى وذهبت إلى حجرتى . ولم تمض دقائق حتى كنت قد أرسلت كا ـــ ى تحوم فوق شاروهين بحثا عن صديقى الغائبين . لم أر لهما أثرا فى البلدة . فحولت كا ـــ ى خارج أسوار المدينة . رأيت الصحراء ممتدة بوهادها ،

وتلالها الرملية ، كثيبة ، مقبضة ، صامتة كالقبور لا نسمة فيها ولا حياة . وطافت الـكا ببطء وتأتى تبحث متفحصة عن الغائبين . أخيرا شاهدتهما يسيران بتثاقل شديد فوق كثبان الرمال على بعد يزيد على ثلث يترو ( حوالى ثلاثة كيلو مترات ) إلى الجنوب . ولم يكن معهما جواديهما بالرغم من عدم وجودهما فى الحظيرة . وكان من الواضح أن الإرهاق قد نال منهما إذ كانا يجران أقدامهما جرا .

لم يكن هذا هو كل مارأته كا — ى . على بعد لا يزيد كثيرا على نصف المسافة بين سور المدينة والراجلين رأيت جماعة من منتوستب ( البدو الآسيويون ) يمتطون الجياد وهم يتبعون آثار الهاربين .

لم أتوقف لحظة بعد هذا إذ رأيت أن أى تأخير قد يؤدى إلى مقتل صاحبى أمدت كا — ى إلى خات — ى ( جسدى ) ، وأسرعت إلى الحظيرة حيث كان نترى مازال يعتنى بالجياد . لم يكن خع باوو قد أخذ جواده وبهذا كان هنالك ثلاثة جياد .

فى ثوان كنت قد أخبرت نترى بمخاوفى دون أن أبوح له بالواقع ، وفى الدقائق القليلة التالية كانت الجياد قد ألجمت ، واندفعنا بها خارج الحظيرة متجهين نحو الباب الجنوبى للسور ، مخترقين الطرقات بسرعة جنونية حتى أن الناس كانت تقفز من أمامنا ، وتلتصق بجدران المنازل .

كانت البوابة الجنوبية مفتوحة وقد وقف عليها حارسان يستجوبان بعض الداخلين من التجار . ولم يكن لدى أى وقت أضيعه فى الانتظار ، والإجابة على أسئلتهما ، فتركت الجواد الذى أسحبه ورائى ، وصرخت فى نترى أن يلحقنى إلى الجنوب ، واندفعت « بكم » وسط المجموعة التى تسد الباب .

لم يتوقف الجواد وكأنما أحس بضيق الوقت . رأيت واحداً من الحراس يصرخ ، وارتبكت حركاته وهو يحاول أن يشير آمرا بالوقوف ، وفى نفس الوقت إمتدت يده لتخرج السهام من وراء ظهره

ساد الهرج والذعر بين الواقفين ، وجرى كل منهم فى اتجاه محاولا الابتعاد عن طريق الجواد الضخم . ولم يفلح الجندى المسكين فى أن يبتعد فى الوقت المناسب ، فصدمه صدر « كم » صدمة قوية ألقته بعيدا أمام الحوافر القاتلة

تصايح الناس ، وصرخ الحارس الآخر . وسادنى الذعر لحظة . وأنا أرى أن الحارس الملقى على الأرض لا يستطيع حراكا وهو على قيد خطوات من الجواد المندفع بأقصى سرعته .

هنا ظهرت براعة « كم » . لعله فهم أن الجندى لم يكن حقيقة عدوا ، أو ربما شعر بى ، وأنا أحاول أن أحيد به عن طريق الجسد المسجى أمامه . لم يكن هنالك وقت ليتوقف أو يحيد . لكنه قفز قفزة رائعة جعلته يتخطى الحارس . ولم يتوقف أو يبطىء بعد هـذا ، وإنما استمر فى عدوه السريع متوغلا فى الصحراء الممتدة .

مرق شىء إلى جانب رأسى . ورأيت سهما ما يقع على بعد خطوات منى . وتتالت السهام بعد هذا ، لكن السرعة التى كان يعدو بها « كم » لم تعط الرجال وقتا لكى يحسنوا التصويب . ولم تمض لحظات حتى كنا بعيدين عن مرمى السهام .

التفت ورائى ، وأثلج صدرى أن أرى أن نترى قد تخطى البوابة مصطحبا الجواد الثالث . وداخلنى القلق للمرة الثانية على الحارس المسكين الذى كان « كم » قد ألقاه على الأرض ، وتمنيت ألا يكون قد أصابه مكروه حقيقى ، وأن يكون أقرانه قد تمكنوا من سحبه من أمام الجوادين المندفعين .

لكن الواقع أن تفكيرى فى الحارس لم يدم لأكثر من لحظات إذ كان قلقى منصبا على جسر ومن بحق . فرحت أهمس فى أذن « كم » أن يبذل قصارى جهده . ولم يكن الجواد فى حاجة إلى مزيد من الحث فكانت قوائمه لا تكاد أن تلمس الأرض حتى أن الغبار الذى كانت تثيره لم يكن شيئا مذكورا . فبالرغم من أن الجوادين الآخرين كانا من الجياد المنتقاة من الحظائر الفرعونية إلا أنه لم تمض دقائق حتى كانت المسافة بيننا تزيد على عشرة خنات[1].

كنت قد رأيت صديقى إلى الجنوب من المدينة ، وفى هذا الاتجاه دفعت جوادى ، لكن الصحراء واسعة ، والجنوب فيها واسع ، وساورنى القلق ، والدقائق تمضى سراعا دون أن أرى أثرا أو أسمع أى .. صوت .. كان الجواد

---

(١) الخت عشرة مح والمح ٢٧ كفا أى مايوازى ٢٣ر٥ مليمترا .

يلتهب الأرض بسرعة فائقة ، ولم تكن سرعته تختلف إلا قليلا وهو يصعد أو يهبط ما يصادفنا من كثبان رملية . حتى أننى خشيت أن تصاب قوائمه بسوء . لكن الجواد لم يتوقف ، ولم يتعثر مرة واحدة . كان كأنما ينتقى مواطىء حوافره بالغريزة المجردة دون أن يكلفه هذا أى مجهود .

للصحراء نوع من الصمت خاص بها . كلما توغلت بعيدا عن المدينة كلما ازداد احساسك بوجوده ، حتى صفير الرياح وعويلها لا يؤثران فى السكون ،

أو ربما زادا من شعور المرء به

هو صمت له كيان مادى ، فيه تهديد ، ووعيد ، تشعر كأنما هو يحتويك داخله ، وأى اختراق له . كأنما أنت تلقى بقطرة ماء فى بحر ما يلبث أثرها أن يتبدد هباء .

داخل الصحراء توغل « كم » ، وبدأ الصمت الرهيب يحتوينى كأنما يلفنى فى غلالات رقيقة . ما تلبث أن تتكاثف حتى تصير عبئا ثقيلا يكتم الأنفاس . وبلا إرادة حقيقية ، وجدت نفسى أصيخ السمع . ليس لأصوات صديقى ، وإنما لأى صوت يبدد السكون المطبق .

إستمر « كم » يقطع الخت وراء الخت ، وإزدادت غلالات الصمت أحكاما حولنا . مضت الدقائق ثقيلة كأنما لا نهاية لها . ولا أثر للصديقين .

لم أكن أهتم بنترى ، فقد كنت أعلم أن ما عليه إلا أن يتتبع آثار « كم » ، وهى واضحة فى الرمال . فهو إذا ورائى لا يفصلنى عنه سوى بضعة دقائق .

فجأة طرقت أذناى أصوات قفز لها قلبى فرحا وجزعا . كنا نرتقى تلا من الرمال أخفى عنى باقى الصحراء حينما سمعت أصوات رجال يشجع بعضهم بعضا وصليل سيوف .

بغير شعور لكزت الجواد . وما كان بحاجة إلى ذلك فقد إزدادت سرعته بالرغم من صعوبة المرتقى ، كان العرق يتصبب منه ، ولا شك أنه كان يبذل مجهودا جبارا وهو ينتزع قوائمه من الرمال الناعمة ، تدل على ذلك أنفاسه التى بدأت تتردد عالية قصيرة ، ومع هذا فلم يحاول التوقف .

بلغت القمة ، ورأيت صديقى يقاتلان جنبا إلى جنب أكثر من ثلاثين شخصا من المتوسطة (الأعراب الآسيوبون) . كانا يحميان ظهريهما وراء كثيب ضخم من الرمال الناعمة التى يصعب ارتقاؤها . ويبدو أن أعداءهما لم يريا حاجة إلى المجهود الإضافى وهم واثقون من قتلهما دونه ، فلم يعتنوا بالالتفاف حولهما .

كانت المسافة بينى وبينهم أقل من خمسين (حوالى مائة متر) قطعها « كم » فى ثوان معدودات . ولم يرنى الإعراب وأنا أندفع نحوهم ، إلا بعد أن صرت على قيد خطوات منهم . صحت صيحة الحرب ، ولم أحاول أن أخفف من سرعة الجواد ، وإنما تركت الجسد الضخم يرتطم فى جوانب جياد الأعداء .

سقط جواد براكبه من أثر أول صدمة ، وأسقط سيفى رجلين مضرجين بدمائهما تحت أقدام الجياد . وذعر الاعراب فلم يتصوروا أن من هجم عليهم هو مجرد فرد . حاول بعضهم الهرب ، وحاول آخرون الابتعاد عن طريق الجواد المندفع ، والسيف البتار . وساد الهرج لحظات تمكنت فيها من إختراق صفوفهم ، ووصلت إلى صديقى .

كانت النظرة الخاطفة التى ألقيتها عليهما كفيلة لأن أعرف منها مدى الإرهاق الذى يعانيانه ومع هذا فقد جاءنى صوت جسر مرحا من خلال أنفاس لاهثة .

— إنك يا صديقى الصغير اتظهر دائما فى أغرب الأماكن ، وأعجب الأوقات .

إستدرت بجوادى أقابل هجوم الأعراب الذين عاودتهم الشجاعة حينما تبينوا أن المهاجم لم يكن سوى مجرد فرد . تعمدت أن أتلقى الهجوم كاملا بحيث أعطى الرجلين المنهكين فرصة يستردان فيها أنفاسهما الضائعة .

فى ثوان كنت عاطاً بالأعداء . وراح سيفى يعمل بلا هوادة . سقط رجل ، وتبعه آخر ، وأصابتنى طعنة سيف فى ذراعى الأيسر ، لكننى لم أعرها التفاتا . ويبدو أن طعنة أخرى أصابت « كم » لأنه ارتفع بقائمتيه الأماميتين ، ولكز جوادا بإحديهما بينما أصابت الثانية الفارس فى رأسه .

سقط الفارس على الأرض ، وصرخ جواده ألما ، وإندفع مذعورا وسط

جياد العدو . لحظات خف الحصار حولى ، فإنتهزت الفرصة ، واعملت سيفى فى الرجال ، وهم منهمكون فى محاولة كبح جماح جيادهم .

إزداد الارتباك فى صفوفهم ، وإزداد هياج الجياد التى تجرى دون قائد حتى اضطر الأعراب إلى التراجع بعيدا عن السيف الذى أعمل فيهم القتل والجرح .

وقفت الأعراب على بعد آمن وبدا جليا أنهم يتشاورون ، إذ أن بعضهم كان يشير إلى كثيب الرمل وراءنا . وتكلم جسر .

— أنك مجروح .

— أنه جرح سطحى ليس بذى بال ، ومع هذا فاننى أرى بكما جراحا .

وضحكنا . ثم جاءنى صوت من بحتى .

— يا يوسف له ياصديقى أنك أتيت دون قوسك وجعبه سهامك . أن جعبة سهامى قد فرغت ، وفقدت قوسى فى المعركة الأولى .

وقال جسر بمنطقه العملى .

— إن الأعراب يريدون تطويقنا فقد أرسلوا عشر فرسان ليرتقوا التل وراءنا ، وهذا سوء . إذا بقينا فى مكاننا .

وجاء دورى .

— أن نترى قادم ومعه جواد آخر ، ولن تمضى دقائق قليلة ألا ويكون قد وصـــل .

انطلقت ضحكة مرحة من فم جسر .

— هذا حسن . سوف ننتظر قليلا حتى يصعد الفرسان إلى التل . هل يستطيع جوادك أن يحملنا نحن الثلاثة ؟ .

— أعتقد ذلك .

ساد الصمت بيننا بعد ذلك . صمت إنتظار وتوقع . لست أحسب أن أكثر من عشرة آنات (١) مضت منذ أن اشتركت فى القتال ، ومع هذا فقد كانت مدة كافية لأن يلحقنى نترى ، لكن لم يبد له أى أثر ، حتى أن القلق بدأ يساورنى . ومضت دقيقتان أخرتان قبل أن يتكلم جسر .

(١) ا ت أى دقيقة .

— هيا بنا . إقفز يامن وراء كاى .

وقفز من ، وتململ « كم » فى وقفته لكنه لم يتحرك . وبغته صفع جسر الجواد على خلفيتيه فانطلق كالسهم ، وجرى جسر إلى جوارنا وهو يقول .

— سأجرى إلى جواركما قليلا حتى نريح الجواد .
حاول من أن يقفز من ظهر « كم » لكن صوت جسر جاء آمرا .
— إبق مكانك .

تململ من ، لكنه أطاع الأمر . شددت عنان الجواد حتى يساير عدو جسر والواقع أن الضابط كان يجرى بسرعة لا تقل كثيراً عن سرعة الجواد .

ورآنا الأعراب ، ولم يكونوا يتوقعون أن نترك مكاننا الحصين نسبيا فتصايحوا وأخذوا يشيرون إلى زملائهم ، ويلوحون بأيديهم . والواقع أننى نفسى دهشت لأوامر جسر إذ أننى لم أكن أتصور أننا سوف نستطيع أن نقاتل الاعراب فى العراء .

صحيح أن من أمامنا لم يكونوا أكثر من خمسة عشر شخصا ، لكن هذا عدد يكفى على الأقل لا عاقتنا حتى يصل إخوانهم الذين كانوا يرتقون التل ، هذا بالاضافة إلى أن إكثر أعدائنا يمتطون الجياد فى حين لم يكن معنا سوى جواد واحد .

مع هذا لم يكن لى أن أناقش . تقدمت بجوادى مشهرا سيفى وسط الجماعة . وسمعت صوت من بجتى من ورائى يهمس :

— اعتنى بالناحية اليسرى ، والامام ، وسأعتنى باليمين ، والخلف .

وعاد الالتحام بالسيوف . وجه جسر أول طعنة إلى بطن جواد . تفادى سيف الفارس ، وتنحى عن طريق الجواد بخفة ثم طعنه . ويبدو أنه كان يقصد رجل الرجل لكن الطعنة أخطأت ، وأصابت الجواد . صرخ الحيوان من الألم وإندفع براكبه بعيدا عن المعركة . وبعد هذا لم أعر أحدا التفاتا إذ كنت فى شغل شاغل بالقتال .

تمكنت فى الدقائق القليلة التالية أن أتفادى الطعنات التى وجهت إلى ، بل وأسقطت أحد الأعراب مضرجا بدمائه . وسمعت صرخة موت أطلقها من ورائى ، وصرخة أخرى إلى يمينى حيث يقاتل جسر . لكن قلبى قفز بين

ضلوعى حينما تناهت إلى أذنى صيحات الفرسان وراءنا وهم يندفعون من من كثيب الرمال ، ويشجعون أصحابهم على الثبات .

فى اللحظة نفسها ظهر نترى، فوق تل الرمال ، وسمعت صوته وهو يطلق صيحة الحرب ، ويندفع بجواديه نحونا .

حاول بعض الفرسان القادمين أن يقطعوا عليه الطريق ، لكنه كان أقرب منهم إلينا ، وفى لحظات كان إلى جوارنا مشهرا سيفه ، وهو يقاتل بسرور واضح.

لست أدرى متى قفز جسر على ظهر الجواد الذى أتى به نترى ، ولا كيف استحوذ من بحتى على جواد ، ولعله جواد إعرابى قتله ، لكننى رأيت فجأة أننا أربعة فرسان نقاتل. وازداد أملى فى الحياة .

سقط شخص ، وتلاه آخر . لكن الفرسان الآخرين كانوا قد وصلوا . ووجدنا أنفسنا محاطين تماما بحوالى عشرين فارسا . الحق يقال إن الاعراب كانوا مقاتلين شجعانا . فبالرغم من أنهم فقدوا حوالى ثلث عددهم بين قتيل وجريح ، إلا أنهم كانوا يقاتلون ببسالة ، لا تعرف الجبن أو الخوار . وعرف كل منا أن النتيجة الحتمية آتية لاريب فيها ، وأن كل مانستطيعه هو مجرد تأخيرها لدقائق قليلة .

لكن النجدة أتت من حيث لا نحتسب . فجأة رأيت الأعراب ينسحبون ويولون هاربين . توقفت عن القتال ، ونظرت حولى فى دهشة ، زالت حينما رأيت ثلة من الميجاوُو(١) قد ظهرت فوق التل ، وراحت تهبط بأسرع ما تحملها به الجياد .

هنا رأيت مثلا رائعاً من الشهامة ، والفروسية . بالرغم من أن كفة الميزان قد انقلبت تماما ضدهم فإن بعضا من الاعراب راح يبحث عن الجرحى . دون أن يبطىء فى جريه ، كان الواحد منهم يميل على ظهر جواده ، ليمد إلى الجريح يده يتعلق بها . وفى لحظات يكون الاثنان قد اعتدلا فوق الجواد .

فى دقائق كان المجاوُو يحيطون بنا ، بينما اختفى المتوسمت وراء كثبان الرمال .

---

(١) حرس الحدود .

# الفصل الحادى والعشرون

## الخدعة

أشار الضابط الصغير إلى نترى ، وإلى ثم أمر جنوده .

ـــ اقبضوا على هذين وجردوهما من أسلحتهما ، وانزلوهما عن جواديهما

تقدم الجند منا لتنفيذ الأمر ، لكن صوت جسر الهادى أوقفهم .

ـــ مهلا ياحضرة الضابط . لست أدرى ما جريرتهما لكنك لا تستطيع القبض عليهما . مرجنودك بالابتعاد .

التفت الضابط إلى جسر بغضب ظاهر وصاح .

ـــ مامعنى هذا ؟ من أنت ؟

كانت ملابسنا جميعا ممزقة متسخة ، وكانت الدماء قد اختلطت بالتراب حتى أننا كنا نبدو فى حالة رثة ، ومع هذا فإن صوت جسر الهادىء لم يدع مجالا للمناقشة .

ـــ لا يهمك من أنا . خذنا جميعا إلى قائدك ، إننى أريد أن أراه على كل حال .

زادت حدة الضابط الشاب ، وكاد الأمر يتطور لولا أن تدخل من بحتى بصوته الحاد .

ـــ لابد أنك حديث العهد هنا . أنظر إلى جيدا فلعلك تعرفنى .

لم يكن الضابط قد أعار من بحتى أى إنتباه حتى هذا الوقت ، وحينما التفت إليه كان الغضب باديا عليه ، ومع هذا فأنه بقى برهة يحدق فيه ، ثم إنفثأ غضبة فجأة ، وبانت الدهشة على وجهه . وفى اللحظة التالية رفع يده بالتحية العسكرية . وقال والحيرة بادية عليه .

ـــ سيدى من بحتى قائد حصن ثارو . إننى لا أفهم . . . . . .

ـــ سوف تفهم فيما بعد . والآن سر بنا إلى قائدك .

تردد الضابط قليلا وقال مشيرا الينا .

— إن هذين مطلوبان لأنهما تعديا على أحد جنود الحامية وكادا يقتلانه .

— سوف نبحث هذا مع قائدك .

أذعن الضابط أخيرا ، وأمر جنده بالسير خلفنا ، لـكن كان يبدو أنه بالرغم من تحققه من شخصية من بحق فإنه لم يـكن يعتزم أن نفات منه . إستراح ضميرى حينما علمت أن الجندى الذى دفعه « كم » لم يمت ، فشعرت كأن عبئا ثقيلا قد أزيح من صدرى .

وصلنا إلى الحصن، وقد ذهب اتوم ( شمس الغروب ) إلى مانو ( جبل الغرب )، تركنا جسر ، ومن ، فى حراسة الضابط ، ودخلا إلى غرفة القائد . جلست إلى جوار نترى على مقعد خشبى فى الساحة ، وقد أمسك كل منا بلجام جواده. وسألت نترى .

— ما الذى أخر وصولك ؟ لا يمكن أن يـكون « كم » قد سبق جواديك بكل هذه المدة فى هذه المسافة القصيرة !

وضحك نترى

— كلا . . . لـكننى ظننت أنه ربما كان من الصالح أن أدع لإخواننا الميجاؤو فرصة اللحاق بى . . ولا شك أنهم أفادونا فعلا .

كنا فى حالة شديدة من الاعياء ، وشعرت بالجرح فى ذراعى الأيسر يؤلمنى، ومع هذا فلم أشأ أن أطلب من الضابط حتى قليلا من المياه .

لم تمض دقائق بعد هذا حتى ظهر جسر ، ومن بحق . يصحبهما شخص ثالث اتضح أنه قائد حصن شاروهين ، وأمر القائد الضابط بأن يدعنا لحالنا . ومع أنه كان من الجلى أن الأمر لم يصادف هوى فى نفس الضابط ، الا أنه أمر جنده بالإنصراف ، وأدى التحية العسكرية ثم أنصرف بدوره .

وقال جسر موجها خطابه إلينا .

— إذهبا أنتما الآن إلى النزل ، وعالجا جروحكما ، وسوف نراكما فى الغد.

لم أسترح إلى مقالة جسر ، إذ أنه بدا لى ، أنهما ، جسر ، ومن ، كانا فى حالة شديدة من الاعياء ، خاصة من بحق الذى كانت الدماء تغطى صدره ، والذى ، وإن كان معتدلا فى وقفته ، كان يترنح بشكل واضح . واعترضت قائلا .

— وأنتما من سيعتنى بكما ؟ .... أنسكما فى حالة أسوأ منا كثيرا .

— إن بالحصن طبيبا سوف يتولى علاجنا .

بالرغم من أن رد جسر كان هادئا إلا أنه حمل فى طيات نبراته لهجة الأمر، فلم أملك إلا أن أنسحب مع نترى .

* * *

استيقظت فى الصباح التالى وأنا أشعر بألم شديد من ذراعى الأيسر ، وحينما حركته إزداد الألم وتبينت مدى ثقل الذراع ، ومع أنه من اليسير على أن أفصل الألم عن ذات ( الجسد ) فلا أشعر به مطلقا ، إلا أننى أعلم أن الألم له فائدة فى الإنذار بما قد يطرأ على الجرح من تطورات ، ولهذا تركت نفسى للحالة الطبيعية .

وكان خع باوو هو أول من رأيت فى غرفة الطعام . وحينما رأى ذراعى المضمد تسائل عن السبب فأجبته إجابة مقتضبة عن قتال مع بعض الأعراب . ولما جلسنا إلى الطعام ، حضر نترى الذى كانت إصاباته فى الواقع جميعها سطحية ، فلم يتأثر كثيرا بها ، وبدا نشطا كعادته .

تناولنا إفطارنا فى صمت ، قطعه خع باوو حينما تساءل عن جسر ، ومن بحتى . وأجبته صادقا أننى لم أرهما منذ البارحة . وحينما استفهم عن موعد رحيلنا أخبرته بأننى لا أعرف .

انتهى الإفطار ، ومضى الصباح ، واعتلى رع كبد السماء ، ولم يظهر أى أثر لجسر ، ومن بحتى ، كما لم تصل منهما أية أخبار . وبدأ القلق يساورنى فإن المفروض أننا كنا سنرحل عن شاروهين فى الصباح ، كما أننى كنت قد لاحظت أن من بحتى كان يتألم من جروحه ، ويبدو أنها كانت عميقة خطيرة ، وأنه انما كان يتحملها بصبر ، ولهذا مكثت مع نترى فى المنزل لانبرحه عسى أن ترد أنباء منهما .

تردد علينا خع باوو أكثر من مرة فى هذه الأثناء وبدا قلقا يتساءل عن موعد رحيلنا بصبر نافذ . وسادنى العجب عن سر هذا القلق الذى لم يكن يبدو أن له مبررا .

حل موعد الغذاء ، ولم تصلنا أية أخبار فتناولنا طعامنا دون أية شهية .
حاول نترى أكثر من مرة أن يمضى بالذهاب إلى قائد الحصن للاستفسار عن زميلينا ، لكن صبرى لم يكن قد نفذ ، وكان على أن أطيع أوامر جسر ، فرفضت طلب نترى .

فى المساء حضر جسر بمفرده . كان يبدو مجهدا حزينا حتى أنه تهالك على مقعد أمامنا ، ولم يتكلم لبرهة . وأعطيته فرصة ليلتقط فيها أنفاسه قبل أن أسأله .

— أين من ؟

نظر إلى نظرة حزينة طويلة قبل أن يقول .

— يؤسفنى أن أخطركم أن من لن يرافقنا .

كان جوابه مقتضبا لا يدع مجالا للشك فى معناه ، إن الجروح التى أصابت صديقنا قد قتلته .

حل علينا حزن عظيم ، وسادنا صمت القبور مدة قبل أن يقطعه خع باوو ،

— ومتى سنرحل ؟

أدار جسر رأسه نحوه بسرعة كأنما هو ينتفض من حلم . وفى لحظات تغير منظره من مجرد شخص مكدود مهموم ، إلى رجل عملى بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .

— غدا صباحا . ان الأميرة وحاشيتها قد وصلت فعلا إلى كنثو ( عند جبل الكرمل ) منذ ثلاثة أيام ، واعتقد أنها الآن قد ارتحلت نحو أورصا ( أشدود ) . لكن سير القافلة بطىء كما أننى أعتقد أن الأميرة غير متعجلة وربما تبقى يوما أو أكثر فى إحدى المدن ، أفن أو يوحم ، وبذلك نستطيع بسهولة أن نلحق بالقافلة قبل أن تدخل أورصا . وأرجو ألا يحدث شىء فى هذه الأثناء .

انتهى جسر من كلامه ثم قلب وجهه نحونا منتظرا أن يلقى أحدنا سؤالا ولما لم يتكلم سألنى .

— كاى هل تستطيع السفر مع ذراعك المجروح ؟

وقبل أن أجيب تدخل خع باوو بحدة .

— لقد بدأنا خمسة أشخاص عدا العبد . وقد أرسلت العبد لا ندرى إلى أين ،

وفقدنا من بحتى الذى كنا نعتمد إعتمادا كبيرا على سهامه ، والآن تريد أن يبقى كاى ، أية نجدة هذا لقافلة التى تتكون من ثلاثة أشخاص ؟!

بالرغم من الغضب الذى بدا جليا على محيا جسر الا أنه لم يحاول أن يقاطع خع باوو ، وحينما إنتهى الأخير من كلامه جاء رده هادئا ، وإن كانت نبراته تخرج كضربات السياط .

— لقد آن لك ياخع باوو أن تعرف أننى القائد ، وأن عليك أن تطيع فقط . وأى أعتراض آخر منك سوف يعرضك للسجن . وللمحاكمة العسكرية عند عودتى .

للحظات التمعت عينا خع حقدا وكراهية . وظننت أنه سوف يقوم بعمل جنونى ، فتحركت فى جلستى قليلا استعدادا . لكن فى اللحظة التالية ارتسمت على شفتيه ابتسامة صفراء وهز كتفيه قائلا .

— كما تقول . انك أنت القائد .

لم تتحول نظرات جسر الصارمة عنه برهة ، ولعله كان يفكر أن يستغنى عن وجوده ، لكنه عاد والتفت إلى قائلا بهدوء .

— لم أسمع ردك على سؤالى ياكاى ؟

— لست أحسب أن ذراعى يعوقنى عن القتال ، أما إمتطاء « كم » فأمر سهل لا أحتاج فيه إلى أكثر من كلمة .

— لابأس . علينا أن نستريح جميعا ، لنبدأ رحيلنا مبكرين ، وعسى أن تكون ذراعك أحسن فى الصباح لقد استعرت جوادا من الحصن ، وأرجو يانترى أن تراعى الجياد حتى تكون مستعدة غدا .

أنسحب نترى لتنفيذ الأمر . واعتذرت عن البقاء متعللا برغبتى أن أريح ذراعى، وتركت جسر وخع باوو بمفردهما واتجهت إلى حجرتى .

لم أكن قد إتصلت بتفنت منذ يومين ، وخشيت أن تكون قد حاولت الإتصال بى عن طريق الكا ، ولم تستطع ، لهذا آثرت أن انفرد بنفسى .

ما أن رحت فى غيبوبتى الإرادية حتى التقت كاى بكا شى ، وابتدرتنى قائلة .

— كاى . ما الذى حدث لذراعك ؟

— لا شىء مجرد جرح سطحى كما ترين .

— وهل إنتهت المهمة التى أرسلوك إليها ؟

— كلا ، وان كانت قد شارفت النهاية . أن هى إلا بضعة أيام أخر .

كانت تتكلم بلهجة حزينة دون أى مبرر ظاهر . وشعرت بقلبى ينقبض كأنما توقعا لأمر جلل . ولم أتمالك أن سألتها .

— تفنت إنك تتكلمين بلهجة حزينة ، ألست مسرورة لقرب انتهاء المهمة ولقيانا ؟ .

ظهرت على وجهها الجميل ابتسامة ساذجة باهتة .

— طبعا مسرورة . لكننى أشعر بأن كا ـ ى خفيفة . كأنما قد انفصل جزء منه ، أو كأنما با ـ ى غير مرتبطة به تماما .

— دعك من الأوهام، هل حدث شيء ؟ كيف حال السيد الوالد المبجل رع موسى ؟

— أنه بخير . لكن لعلك تذكر وصيفتى عشابيت ؟

— أجل أذكرها أنها فتاة طيبة. ماخطبها ؟

— لقد ماتت البارحة .

— ماذا ؟ كيف ؟

— لا شيء . فقط وجدناها على فراشها وقد فارقتها الحياة .

— دون سابق مرض ، أو أى سبب آخر ؟

— إن عمى يقول إن السبب يرجع إلى حكا ( القوى الخفية فى الطبيعة ) .

— خع باوو .

— أجل . أو والده مى موت ؟ .

— لكن لماذا؟ .

— لست أدرى ، وإن كان عمى قد بدا قلقا مهموما .

كانت تتكلم والإعياء باد عليها كا أن كا ـ شى كان يضمحل شيئاً فشيئاً كأنما دون أن تعلم . وملأنى الانزعاج . فأشرت عليها أن تعود إلى حالتها الطبيعية ،

واعدا إياها أن اتصل بها خلال يوم أو اثنين . ومكثت كا - ى تراقب إنسحاب كا - شى . ولم اطمئن إلا حينما عادت إلى خات - شى ( جسدها ) .

° ° °

وصلنا إلى اورصا ( اشدود ) حوالى الظهر، ولما استفسرنا عن قافلة الأميرة تادوجيبا علمنا أنها لم تصل بعد ، وإن كانت قد ارتحلت من كنتو ، متجهة إلى لدا ، إلى الجنوب الشرقى ، وأنه ينتظر ، وصولها إلى أورصا خلال يوم أو اثنين .

وحينما جلسنا نتناول الغذاء رأيت أن جسر متردد بين الرحيل ، إلى لدا لمقابلة القافلة ومرافقتها بعد ذلك أو الانتظار فى أورصا . وحينما أخذ رأينا كان من رأى خع باوو الرحيل ، بينما أشار نترى بالبقاء والانتظار . وامتنعت أنا عن إبداء الرأى إذ شعرت أن جسر يضمر شيئاً لا يريد أن يطلعنا عليه .

أخيراً إستقر الرأى على البقاء فى المدينة ، فأكترينا أربع حجرات فى نزل قريب من البحر . وأخطرنا جسر أننا يمكننا أن نتنزه حيثما شئنا بشرط ألا نتغيب عن النزل الا لساعات قليلة .

لم أر جسر بعد ذلك باقى اليوم ، كما لم أره حتى ذهبت إلى فراشى . وفى الصباح التالى لم أكد انتهى من زينتى، وافطارى حتى طرق الباب ، ودخل جسر ليخبرنى أن قافلة الأميرة على بعد لا يزيد على يترو واحد(١) من أسوار المدينة، لكن نظرا لسير القافلة البطىء فلا ينتظر أن تصل قبل المساء . وسألنى إن كنت أود أن أرافقه لنقابل القافلة .

لم أتردد فى القبول ، وسرعان ما كنا قد امتطينا جوادينا فى طريقنا إلى خارج المدينة ، بعد أن تركنا رسالة مع صاحب النزل ليخطر خع باوو ، ونترى أننا قد نتغيب طوال النهار .

كانت الساعة حوالى الرابعة صباحا ( العاشرة بتوقيتنا ) حينما وقفنا على قمة ربوه عالية نشرف على القافله .

---

(١) حوالى ١٠٫٥ كم .

ورأيت العبيد يحـ ' ن محفات الأميرة ، وحاشيتها من الاماء الذين أرسلهن ملك خيتا هدية عر لفرعون . حاولت أن أحصى عددد العبيد ، لكننى لم استطع سوى إجراء رقم تقديرى .

قدرت أن القافلة تحتوى على ألف وخمسمائة شخص على الأقل ، منهم أربعمائة من النساء ، وسبعمائة من العبيد ، وزهاء أربعمائة من الجنود نصفهم من المشاه ، والباقون من الفرسان .

كانت القافلة ضخمة تسير ببطء شديد . نظرا لأن حاملى المحفات لم يكن فى استطاعتهم الاسراع حتى لا تهتز النساء فى الداخل(١) . كما أن بعضهم كان يقود الحمير ، والبغال الى تحمل المؤن ، والملابس والهدايا ، وغير ذلك من لوازم القافلة . وانقسم الفرسان إلى فريقين ، أحدهما يسير فى المقدمة ، والآخر فى المؤخرة فى حين أحاط الجنود المشاة الجانبين .

كان منظر القافلة مهولا حتى أننى كدت أوقن أن قاطعى الطرق ان يجرؤوا على مهاجمتها . تصورت أنه يلزم جيش بأكمله ليكون ذا فاعلية مع هذا العدد الضخم من العبيد والحراس . وكأنما أحس جسر بما يدور فى خاطرى فالتفت إلى قائلا .

— لا يغرنك ضخامة القافلة فإن عدد المحاربين فيها لا يزيدون على أربعمائة ، بل إنك تستطيع أن تقول ثلاثمائة إذ أنه من اليسير على فارس أن يقاتل جنديين من المشاه .

وتساءلت .

— والعبيد ؟ !

— إنهم ليسوا جنودا وإذا ماحدث قتال فانهم سوف يتركون أحمالهم ، وأعمالهم ، وينتهزون الفرصة للهرب آملين أن يظفروا بحريتهم . بل إنهم قد يقاتلون مع العدو ضد أسيادهم .

— كم مقاتل تظن أنهم يكفون للاستيلاء على القافلة ؟ .

---

(١) لم تكن الجمال فى حدود علمى معروفة فى هذا التاريخ ، ولهذا لم تكن الهوادج أيضاً معروفة وكانت المحفات بدلا منها .

— فى المكان ، والوقت المناسبين أعتقد أنه يكفى ثلاثمائة فارس .

— فقط ؟ !

— أجل . انظر إلى الدافع الذى يغرى المهاجمين . أربعمائة فتاة ، وسبعمائة عبد ، وعشرات الحمير والبغال ، وربما أيضاً بعض الجياد . هذا طبعاً غير الهدايا والمجوهرات ، والنقود ، والملابس . أنها غنيمة كبيرة تغرى الكثيرين وتستحق القتال من أجلها .

— هل نكفى نحن الأربعة فقط لنغير كفة القتال ؟ ،

علت على وجه جسر ابتسامته اللطيفة ولم يزد على أن قال .

— ألم أقل لك يا صديقى . أنك لا تفينا حقنا !! .

وقفنا بعد ذلك فى صمت نرقب القافلة . وهى تسير فى بطء حتى أنها تبدو كأنما هى لا تتحرك . ولم يبد على جسر أنه يريد أن يترك مكانه فبقيت إلى جواره انتظر فى صبر . وبعد نصف ساعة تقريبا التفت إلى قائلا :

— هيا بنا . لم يعد أمامنا ما نفعله اليوم . هل لاحظت أنه قد مضت نصف ساعة منذ أن تخطانا أول فرسان المقدمة وأن آخر فرسان المؤخرة يتعدى مكاننا الآن .

— أجل .

— إن طول القافلة حوالى مائتى خت(١) ، ومعنى هذا أن معدل سيرهم هو أربعمائة خت فى الساعة أو خمس ساعات تقريبا لكل يترو(٢) فاذا ما اعطيناهم ساعتين أيضا للغذاء والراحة فانهم لا يمكن أن يقطعوا أكثر من يترو ونصف فى اليوم . اعتقد بهذا أننى استكملت كل المعلومات التى أريدها .

قال هذا وأدار جواده نحو الجنوب الشرقى بعيدا عن خط سير القافلة . أدرت بدورى « كم » وعدوت خلفه .

تناولنا غذاءنا فى قرية لا أذكر اسمها ، وإن كنت أذكر أنها كانت عند

---

(١) الخت حوالى ٥٢٫٣٠٠ م وبذلك تكون المسافة حوالى الكيلو متر .

(٢) اليترو ١٠٫٥٠٠ كم

سفح تل تكسوه الخضرة ، وأنها قرية نظيفة ، مبانيها جميعا بالحجارة ، وهى ظاهرة لاحظتها فى كل المدن والقرى التى مررنا بها فى زاحى ، وكوميدى ولعل السبب فى ذلك أن الأمطار تسقط بها أكثر مما تسقط فى تامرى ، وأن جوها أشد برودة .

عدنا إلى أورصا قبل أن ينتقل اتوم إلى مانو(١) . وقبل أن ندخل من سور المدينة شاهدت موكب الأميرة وهو ينصب خيامه عند الساحل خارج الأسوار . كما صادفنا موكب الحاكم أثناء خروجه لاستقبال الأميرة وحاشيتها .

توجهنا إلى النزل فورا فوجدنا نترى غائبا ، بينما كان خمع باوو ملازما حجرته . ولم يحضر نترى الا فى وقت متأخر ، وحينما سأله جسر أين كان أجاب باقتضاب أنه كان يتنزه فى أرجاء المدينة ، لكنه أتى بعد ذلك إلى حجرتى ليعترف لى أنه كان بصحبة إحدى فتيات القافلة ، وأخذ يتكلم عنها ، وعن جمالها بحماس شديد ولو تركته لقضى الليل كله يتحدث عنها الا أننى قاطعته راجيا أن يدعنى لأنام .

° ° °

مكثنا يومين فى أورصا نظرا لأنه يبدو أن الأميرة قررت أن تستريح فيها قبل أن تقطع الجزء الأخير من الرحلة . وكان نترى يتغيب كل ليلة ، ثم يعود ليقص على مغامراته مع الفتاة ، ولا يسكت عن الثرثرة حتى اضطره إلى ذلك

على أن شيئا واحدا إستفدناه من علاقة نترى الغرامية . ذلك أننا عرفنا أن الأميرة تزمع اتخاذ الطريق الداخلى ، دون الساحلى ، إلى شاروهين ، لأن الأول أكثر تعبيدا ولا توجد به المرتفعات الصخرية مثل تلك التى فى بعض مناطق الساحل . هذا بالرغم من أن الجزء الأخير منه يمر فى مناطق صحراوية قبل أن يعرج غربا إلى شاروهين .

انتظرنا فى الصباح التالى حتى تأكدنا من أن القافلة قد تحركت فعلا متجهة

---

(١) قبل أن تغيب الشمس .

إلى الجنوب الشرقى ، ثم أمر جسر فامتطينا جيادنا ، وإتخذنا الطريق نفسه ، وسرعان ما لحقنا بها . ورأيت نترى يتطلع إلى بعض الفتيات اللاتى كن قد دفعهن الفضول إلى النظر من خلال المحفات . لكن يبدو أن معشوقته لم تكن منهن إذ بدت عليه خيبة الأمل .

لم تمض دقائق بعد هذا حتى كنا قد تجاوزنا آخر الفرسان ، وبعد ربع ساعة أخرى بعدنا تماما عن القافلة حتى أننا لم نعد نراها . إستمر سيرنا فى الاتجاه نفسه ، ولاحظت بعد فترة أن الخضرة بدأت تخف . ولاح لونها أقرب إلى اللون الباهت الذى يداخله الاصفرار .

* * *

لا تتجاوز المسافة بين أورصا ، وشاروهين ثلاثة يترواات، تقل على الطريق الساحلى ، لكنها تزيد عن ذلك حوالى يترو على الطريق الداخلى الذى يمر بمدينة لاتشيش ، نظراً لأنه يتجه إلى الجنوب ، مع ميل يسير إلى الشرق ، ثم ينحرف إلى الغرب .

وقدرت إن القافلة بسيرها البطىء سوف تستغرق فى هذه الرحله القصيرة نسبيا يومين . هذا بالطبع إذا لم ترد الأميرة قضاء بعض الوقت فى مكان أو آخر .

لاحظت أن جسر طوال الرحلة كان يتطلع إلى الطبيعة حوله كأنما هو معجب بها . حتى حينما وصلنا إلى المناطق الصحراوية كانت عيناه مازالتا تدوران فى تلال الرمل ، والكثبان المتناثرة على طول الطريق .

على العكس مما توقعت لم نتوقف فى أى مكان إلا مدة يسيرة سمح لنا بها جسر حتى نتناول طعامنا ، وقليلا من الماء ، ونطعم الجياد ونريحها ، ثم واصلنا السير حتى وصلنا إلى شاروهين فى مستهل المساء . ولم يبق معنا جسر فى النزل ، وإنما تركنا فورا وذهب إلى إحدى رحلاته الغامضة . ومكثنا نحن الثلاثة نتناول طعام العشاء . وتساءل خيع باوو .

— أى نوع من الحماية تلك التى يضفيها وجودنا على الأميرة ، وقافلتها

إننا لم نفعل شيئا، لقد ذهبنا، وعدنا إلى شاروهين، ويوجد الآن الحرس الفرعونى ليستقبل القادمين ، ولاشك أنه سيصحبهم إلى نيوت ولا أرى داعيا لبقائنا .

لم أتكلم ، وتولى نتوى الرد .

— لست أدرى أنا أيضا . لكن لاشك فى أن جسر يعرف مايفعل . لماذا لاتكن مثلنا ، وتفعل ماتؤمر به دون إعتراض ؟

نظر إليه خع باوو مدة طويلة دون أن يتكلم ، ثم استأنف تناول طعامه..

ساد الصمت بعد ذلك حتى فرغنا من العشاء وانسحبت إلى حجرتى :

حاولت أن أتصل بتفنت عن طريق الكا لكننى لم أفلح . أعدت الكرة ثلاث مرات ، وحينما لم أحظ بنتيجة تجرأت ودلفت إلى مخدعها ، أو لعل الأصح أن أقول أن كا — ى هى التى دخلت .

رأيتها مستلقية على فراشها تبكى ، حاولت أن أشعرها بوجودى دون جدوى ، وشعرت بعجز شديد وأنا أرى محبوبتى تبكى ولا أستطيع حيالها شيئا ، وتمنيت لو أننى لم أتلصص عليها ، لكن عذرى فى هذا كان قلقى .

جافانى النوم ساعات طويلة ، وحينما أتى أخيرا كان مضطربا تتخلله الأحلام المزعجـــة . رأيت تفنت تتنازعها آلهة الشر ، سخمت . ست ، بوتو ، بخت . سلكت . آلهة تجسدت فى رءوس بشعة للحية ، واللبؤة ، والعقرب ، والحمار . رأيت حورس الصقر ، ينقض من حالق على رأس محبوبتى ، وينشب مخالبه فى كتفيها ، وتسربل الكتف الأملس باللون الأحمر ، واختلط الشعر الجميل بالدماء القانية .

صرخت منزعجا محذرا ، وفتحت عينى لأجد أن النهار قد سطع ، وأن جسر واقف عند رأس الفراش يهزنى . وجاءنى صوته المرح .

— لابد ياصديقى أنه كان كابوسا مزعجا . ماهذه الرائحة ؟

لم أكن قد أفقت تماما من الحلم الكريه ، وحينما نبهنى جسر إلى الرائحة لاحظتها لأول مرة . وما كنت لاخطىء فهمها : كانت رائحة تفنت . إذا فإنها كانت هنا ، وأنا نائم . لابد أن با — شى قد أحست بقلقى عليها ، وأنى ناديتها أثناء نومى فحضرت . تماما كما أتت حينما استغرقت فى التفكير فيها على سطح السفينة . وحينما رأتنى نائما رحلت تاركة خو — شى ، عبيرها ، يملأ الحجرة .

كادت الدموع أن تطفر من عيني، حنينا ، وشوقا وجزعا، وقلقا . كانت حبي الوحيد ، حب شاب . لابل صبي ، لم يعرف قلبه السعادة الحقيقية أبدا . لقد قاموا على تربيتي لأنشأ رجلا ، وكاهنا . لم تكن لي طفولة أفرح فيها ولا صبا أتمتع به . غلبوا العقل والعلم ، فتجمد القلب حتى تفتح عليها فاندفع يعطيها كل ماخبيء فيه من حب ، وحنان .

يبدو أن جسر رأى النظرات الحالمة التي ارتسمت على عيني فانتظر قليلا بصبر . ثم قطع حبل التفكير بإحدى ضحكاته .

— أنك في عالم آخر بعيد . ويؤسفني أن استدعيك منه . هيا انهض ان لدينا عملا كثيرا اليوم . أمامك نصف ساعة لتقضي حاجياتك الصباحية ، وسألقاك في القاعة .

وتردد قليلا ثم أضاف بلهجة كلها حب وعطف .

— كاي . إنك تبدو مضطربا جزعا هل هنالك ماأستطيع عمله ؟

قابلت نظراته بشكر عميق كنت أشعر به ، ثم هززت رأسي نفيا .

خرج جسر ، ونهضت من فراشي طارحا عني الأفكار ، ولم يمض الوقت المحدد إلا وكنت قد دلفت إلى القاعة حيث شاهدت الثلاثة رجال في إنتظاري . ودون كلمة سرنا متجهين إلى الحظيرة ، وبعد دقائق أخرى كنا نجتاز البوابة الخارجية لسور المدينة .

لم نأخذ الطريق العادي ، وإنما توغل بنا جسر في الصحراء ، بعيدا عن الطريق . لم يتعجل السير ، ربما لكي لاتثير حوافر الخيل غبارا ، وربما ليريحها حتى تحتفظ بنشاطها ، وقوتها حين الحاجة إليها ، وربما لأنه كان ينبغي أن نصل مكان معين ، في وقت معين . كنا نسير دائما عند السفح ، ونتفادى التلال الرملية ، والكثبان حتى أن قائدنا كان يؤثر أن نقطع مسافة كبيرة حتى لانضطر لارتقاء إحداها .

فجأة صهل « كم » . وتوقف جسر مشيرا إلينا بالصمت . راح كل منا يهدىء جواده بالطريقة التي تناسبه . وعدنا نتقدم ببطء أكثر وحذر أكثر .

لم يكن لدى أدنى شك في أن جسر قد جاء إلى المكان أكثر من مرة

إذ أنه كان يتقدم بخطى ثابتة لاتردد فيها ، بل إنه اختار تلا معينا ، وفى هذه المرة لم يتفاداه ، وقاد جواده مرتقيا . وتبعناه .

وصلنا إلى القمة ، وهنا أيضا إتضح لى أحد الأسباب التى حدت به إلى اختياره التل . كان هنالك شبه تجويف كهفى من الرمال يكفى لأن نخبىء فيه الجياد . وفعلنا .

زحفنا على بطوننا بعد ذلك متبعين أوامر قائدنا حتى وصلنا إلى حافة القمة . وانكشفت أمامنا الصحراء . بانت الأسباب التى دعت لاختيار التل . كان أولا عاليا بدرجة تسمح بأن نرى منه معظم الصحراء حولنا . بما فيها من تلال وكثبان ووديان . وكان من ناحية أخرى يطل على ذلك الجزء من الطريق الذى ينحنى فيه متجها إلى الغرب ، إلى شاروهين ، فأمكننا بذلك ، مع حركات يسيرة ، أن نراقب كل عابر يأتى من الشمال أو من الغرب .

ورأينا القافلة . كان الطريق يمر بين سلسلة طويلة من التلال إحداهما إلى الشمال ، وهى التى كنا نقبع على قمة أعلاها ، والأخرى إلى الجنوب . وبدت الفرسان فى المقدمة تدور مع المنحنى ببطء شديد لتدخل بين الإثنين. كان المكان أنسب مايكون لعمل كمين .

دارت عيناى فى الصحراء حولنا متفحصة منقبة تبحث عن أية حركة غير عادية، لكننى لم ألحظ شيئا .

كانت الصحراء ساكنة لاحركة فيها . حتى تقدم الفرسان فى الطريق لم يكن له أثر حقيقى على السكون . بدت القافلة برمتها كأنها قارب صغير فى خضم من الرمال التى لانهاية لها .

لاحركة ولاصوت ، سوى صفير الرياح يزيد من وحشة المكان . أما أصوات القافلة فلم يكد يصل منها شيئا .

فى لحظة كان السكون ، وكان الصمت . وفى اللحظة التالية إمتلأ المكان بالفرسان الذين ظهروا من وراء أحد التلال كأنما انشقت الأرض عنهم . وعلت أصوات صياحهم تشق عنان السماء . كانت نظرة واحدة تكفى لأن أعرف أنهم لم يكونوا يزيدون على عشرين فارسا ، لكن صياحهم ، والغبار الذى أثارته حوافر جيادهم أعطى مظهرا أضخم من الحقيقة .

اتجه نظرى إلى القافلة التى كانت لاتبعد عن مكان قاطعى الطريق بأكثر من خمس خطوات ( حوالى ٢٥٠ م ). رأيت فارسا يبدو أنه قائد القافلة يشير إلى باقى الجنود . وفى نظام بديع انفصل نصفهم عن القافلة ، واندفعوا يلاحقون المهاجمين.

هنا حدث شىء غريب . توقف المهاجمون لحظات كأنما هم يترددون ، ثم أداروا جيادهم ، وإنطلقوا هاربين أمام كتيبة الفرسان المهاجمة . لم تستمر المطاردة إذ توقفت الكتيبة إثر إشارة أخرى من القائد . وعادوا أدراجهم . وسمعت صوت جسر .

— هذا قائد جيد لقد أدرك خطة المهاجمين فى فصل جزء من الحرس ، وابعادها عن القتال .

وقال خيع بارو .

— أليس من المستحسن أن يعود أحدنا إلى شاروهين ليطلب نجده من الجنود ؟

هز جسر رأسه نفيا .

— ان بينك وبين الحصن أكثر من ساعة ونصف على الأقل ، وحتى تأتى النجدة لاأقل من ساعتين (١) ، وفى هذه المدة تكون المعركة قد انتهت .

— إذاً أفليس من الحكمة أن نتدخل الآن ؟

— كلا سنصبر ونراقب الأحداث .

قال هذا وأدار وجهه يتفحص بنظراته الطريق . كانت الكتيبة المنفصلة قد لحقت بالقافلة ، وبدأنا نرى حركات غير عادية . إنقسم الفرسان، فبقى جزء فى المقدمة وانشطر الآخرون إلى قسمين يحوطان القافلة من الجانبين .

رأينا القائد يجرى بجواده ، وهو يلقى أوامره ، ويشير إلى الجنود والفرسان. ورأينا فرسان المؤخرة أيضا تقوم بالمناورة نفسها حتى أضحت القافلة محوطة من كل جانب بالفرسان .

والتفت جسر إلى .

---

(١) راعيت فى تقديراتى لسرعة الخيل والمسافات التى يمكن أن تقطعها يوميا أن الحدوة لم تكن معروفة فى هذا التاريخ وبذلك كانت الحوافر عارية بمايقلل من سرعة الجواد ، وقدرته على الاستمرار فى العدو لمسافات طويلة .

— كاى كيف حال ذراعك ؟

— بخير ولن يعوقنى فى شىء .

— حسنا فإننا سوف نحتاج إلى كل نشاطك وحيويتك بعد قليل .

ران الصمت مرة أخرى على الصحراء . صمت توقع ، وتحفز لم يدم طويلا . وصلت إلى آذاننا أصوات أزيز يخترق الهواء . ورأينا مئات السهام ترتفع إلى عنان السماء لتتهاوى ، وتسقط على القافلة الآمنة . لم يظهر أى من قطاع الطرق. كان من الجلى أنهم انتقوا بعض الكثبان الرملية ، وقفوا خلفها يقذفون سهامهم إلى أعلى بحيث تسقط وسط الطريق .

لم تكن لمثل هذه السهام فاعلية جدية فى القتل ، والإصابة ، لكنها كانت شديدة التأثير على الأفراد ، خاصة النساء والعبيد . ألقى العبيد حفاتهم ، وأحمالهم وتركوا البغال ، والحمير ثم اندفعوا فى كل اتجاه محاولين الفرار من السهام المتساقطة . حاول بعضهم إختراق صفوف الجند ، والفرسان المحيطين بالقافلة ، لكن قتل بعضهم بسهام الجند أعاد الباقين إلى الداخل .

صرخت النساء وولولن ، وطفقن يجرين فى فزع من مكان إلى آخر دون هدى ، أو مقصد إلا محاولة تفادى السهام المتساقطة . وحل الرعب ببعض الحيوانات فانطلقت تعيث فى القافلة ، حتى وجد الجند صعوبة كبيرة فى السيطرة عليها .

وسط هذا الهرج الذى حل بالقافلة ، ظهر من وراء الكثبان الرملية مئات من الفرسان قاطعى الطريق . لم يكن من شك فى أن عددهم كان يفوق كثيرا عدد الجند ، المشاه والراكبين معا .

كانت السهام ماتزال تتساقط حينما إندفع قاطعو الطريق ، وكانت القافلة من ناحية أخرى فى حال شديدة من الفوضى . وللمرة الثانية أظهر القائد مهارته . رأينا حوالى خمسين من الجند المشاه يقودهم ضابط ، يديرون وجوههم للمهاجمين ، ويركزون جهودهم فى تهدئة النساء ، والعبيد ، محاولين إعادة النظام .

أدرت نظرى نحو جسر أنتظر أوامره ، لكنه لم يحد بنظره عن المهاجمين ، فانصرفت بدورى إلى مراقبة تطور الحوادث ، كان المهاجمون قد اقتربوا من الجنود ، وتوقفت السهام المتساقطة ، وحلت محلها السهام المباشرة . لاح أن خطة قاطعى الطريق كانت ببساطة الهجوم دفعة واحدة ، واكتساح الجنود بمجرد الضغط بالكثرة العددية .

على العكس من ذلك أظهر قائد القافلة للمرة الثالثة أنه شخص مفسكر هادىء . لم يتقدم الفرسان لملاقاة المهاجمين وإنما وقفوا وراء المشاة ، الذين ركعوا على الأرض ، وباشارة من القائد انطلقت سهامهم تحصد الرجال والجياد .

لكن المهاجمين لم يتوقفوا ، كانوا بدورهم يطلقون السهام ، ويلوحون بأسيافهم . وتناقصت المسافة بينهم والقافلة بسرعة رهيبة حتى خيل إلى أنهم سوف يقتحمونها فى دقائق معدودات . وهنا تقدم الفرسان لمقابلتهم فى حين بقى المشاة فى أماكنهم يتصيدون أعداءهم ، ويكونون حاجزا منيعا لصد أية محاولة لاختراق الخطوط

توقف تقدم قاطعى الطريق وبدأ الإلتحام بالسيوف . كان من الجلى أن الجنود ، والفرسان المدربين يكلفون العدو خسائر أكثر ما يستطيع تحمله بالرغم من تفوقه العددى الساحق . تساقط القتلى ، والجرحى . ووصلتنا أصوات قعقعة السلاح ، وصيحات الحرب ، وصرخات الموت .. .. .. ومع هذا لم يتحرك جسر .

كان يمكن أن يستمر القتال ساعات بل ربما كان يوجد إحتمال أن يستطيع الجنود صد المهاجمين ودحرهم ، لولا أن ظهر فجأة من الناحية الأخرى من التلال مئات عديدة أخرى من الفرسان ، والمشاة من قاطعى الطريق ، دوت صيحاتهم فى أرجاء الوادى لتثير الذعر فى قلوب الحرس .

لم يبق عندى شك حين رأيت القوة الجديدة أن الحرس سوف يفنون عن آخرهم ، وأن القافلة قد انتهى أمرها . التفت إلى جسر مستفسرا كما التفت إليه رفيقانا ، لكن لم يكن يبدو على وجهه الصارم أى تأثر لما يحدث . بهدوء عجيب يكاد أن يصل إلى حد التكاسل وقف الرجل وقال ، وهو يطوح بيديه فى الهواء .

— هذا ما كنت انتظره .. .. أعتقد أنه قد حان الوقت للتدخل .. .. هيا بنا نغير مجرى القتال .

خيل لى أن جسر قد فقد عقله ، فما كنت أتصور أننا نحن الأربعة نستطيع

مهما أوتينا من شجاعة وقوة ومهارة ، أن نكون ذوى فاعلية ، تذكر أمام مئات المهاجمين فرساننا ، ورواجلين . تصورت أن كل ما نستطيعه هو الموت مع سائر الحرس ، لكننى ما كنت لأناقش أو أتردد . فى لحظات كنا قد اعتلينا جيادنا ، الا خع باوو فانه ظل ينظر إلى جسر كأنما هو يرى مجنونا أو أبلها .

وخاطبه القائد بلهجة ناعمة .

— ألن تأتى ؟!

— إن هذه ليست شجاعة أنما هو مجرد انتحار .

لم يرد عليه جسر . ولوى عنان جواده . واندفعنا وراءه .

صاح جسر صيحة الحرب . « منتو حر خبشف ، منتو(١) فوق حسامه» واندفع بجواده هابطا التل . لم نكد نصل عند السفح حتى شاهدنا خع باوو هابطا بدوره يلكز جواده يريد اللحاق بنا وهو يصيح صيحة الحرب . وتبسم جسر وهو يقول .

— إذا فقد رأى .

لم أفهم فى أول الأمر ما قال ، وحسبت أنى لم أحسن السمع إذ نطق جسر بالجلة ونحن نمتطون الجياد ، على أننى فهمت ماذا كان يعنى بعد لحظات إذ رددت جوانب الوادى صيحة الحرب ، منتو حر خيشف ، وكانت نظرة واحدة بعد هذا تكفى لأن أرى الصحراء حولنا ، والتلال من ورائها وقد امتلأت بالفرسان ، والجنود المندفعين نحو الفئتين المتقاتلين .

هذا إذا هو ما كان قد رآه خع باوو ، وجعله يغير رأيه فى القتال ...... !

لا بد أن الفريقين المتقاتلين سمعا أيضا الصيحة تدوى فى جنبات الوادى ، وتردد صداها التلال . ولا بد أنهم أيضاً رأوا جنود جلالة الفرعون العظيم وهم يندفعون هابطين التلال ، والكثبان الرملية ، إذ أننى رأيت قاطعى الطرق ، يلوون أعنة جيادهم فى محاولة للهرب من المصيدة المحكمة التى أطبقت عليهم فى حين انطلقت جحافل الحرس تطاردهم .

---

(١) منتو اله الحرب عند قدماء المصريين .

فى اللحظات التالية كنت فى وسط المعمعة ، شاهرا سيفى أقاتل قاطعى الطرق . لم أعد أشعر بالزمان أو المكان . كانت ساحة القتال قد امتلأت بالغبار الذى يكاد المرء أن يختنق فيه .

إنقلبت المعركة بعد دقائق إلى مذبحة ، فقد تملك قاطعى الطرق الذعر ، وافرغوا جهدهم فى الفرار من الجحيم الذى وجدوا أنفسهم فجأة فى وسطه .

وطاح سيفى يجندل كل من اقترب ، ولحت جسر ، ونترى يشاركان بدورهما فى القتال ، واندفع الاعداء فى محاولة يائسة لشق خطوط جنود الفرعون ، لكنها كانت محاولة مقضيا عليها بالفشل .

فجأة سمعت صيحة حرب إلى جوارى . ودون إرادة التفت لأرى منظرا أثار عجبى ، ودهشتى . لم يكن الصوت غريبا ، لكننى كنت أظن أن صاحبه فى عداد الأموات . كانت نظرة واحدة تكفى لان أتأكد من أن أذناى لم تخطئا وأن صاحب الصيحة هو من بحتى رع .. .. .. !

غمر الفرح قلبى ، وزادنى حماسة فى القتال ، ومن خلال صليل السيوف ، وصرخات الموت ، وأنات الالم صحت به .

— مرحبا بك فى عالم الأحياء .

لاحت ابتسامة لطيفة على وجهه ، ولعلها من المرات النادرة التى رأيته يبتسم فيها بمرح . ولم يتوقف عن أعمال سيفه وهو يقول .

— حذار أنت والا رحبنا بك فى عالم الأموات .

وأمكننى أن أتفادى ضربة وجهها أحد الأعداء إلى ، وأن أتلقى أخرى على حسابى . وأنصرف كل منا إلى القتال .

والواقع أن القتال الفعلى كان قد أوشك على نهايته ، اذ بدأ الفرسان والجنود فى مطاردة الفارين . وما كدت انتهى من قتل آخر الأعداء حولى حتى سمعت صيحة أخرى . وتبينت أيضا الصوت .. .. لم يكن صوت من بحتى فى هذه المرة ، وإنما كان صوت خع باوو . لم تكن الصيحة صيحة حرب ، وانما كانت صرخة استنجاد وفزع .

إلتفت ورائى حيث أتى الصوت ، وكانت مفاجأة ثانية . رأيت خندو ، عبدى الأمين ، وقد أطبق بيد من حديد على عنق خع باوو ، وقبضت الأخرى على بطنه . رأيته يرفعه فى الهواء كأنما هو ألعوبة فى يده ثم يلقيه على الأرض .

وقفت مشدوها مما أرى . كانت الصدمة التى تلقاها خع باوو من الشدة بحيث أفقدته شعوره لحظات فبقى مكانه على الأرض لا يتحرك . جثم خندو على صدره ، وقبض على عنقه بكلتا يديه . ثم راح يضغط فى بطء يزهق أنفاس الرجل تحته .

أسرعت بالنزول من ظهر جوادى « كم » . وأمسكت بكتف خندو أبعده عن خع باوو . لم يكن يهمنى أن أنقذ حياة خع باوو ، وإنما لم أكن أدرى ماحدث ، فخشيت أن يعاقب عبدى الأمين ، ويذهب ضحية بريئة .

تراجع خندو ، ورفع يديه عن عنق غريمه ، لكنه لم يبتعد . بتثاقل شديد نهض خع باوو ، ثم وقف يتحسس عنقه بيديه ، وهو ينظر إلى خندو نظرات ملؤها الكراهية والرعب .

نظرت إلى عبدى الأمين متسائلا فقال ببساطة .

— لقد حاول أن يطعن مولاى من الخلف .

صرخ خع باوو مكذبا .

— إن العبد اللعين كاذب ، لم أحاول مطلقا أن أفعل شيئاً كهذا .

تقدم خندو خطوة وقد تقلصت عضلات ذراعيه المفتولتين ، وبان الغضب على وجهه . وتراجع باوو مذعورا وهو يصرخ ويشير بيديه .

— ابعده عنى . إن قتلنى ماتت تفنت .. . أتذكر الوصيفه عشا ييت ؟

* * *

## الفصل الثانى والعشرون

# المبـــارزة

تسمرت فى مكانى كأنما أصابتنى صاعقة ، ثم اندفعت نحو خع باوو أقبض على عنقه بأصابع من حديد .

— قل ماذا تعنى ؟ ماذا فعلت بتفنت ؟ تكلم ولا تكذب وإلا بحق الآلهة فلن أترك عنقك إلا بعد أن تزهق أنفاسك .

كنت أتكلم وأنا أهزه بشدة حتى أننى كدت أقتله فى ثورة غضبى دون أن أشعر . لم يكن خع باوو ضعيفا ، ولم يكن جبانا ، لكننى كنت فى ثورة عارمة من الغضب أفقدتنى كل شعور أو إحساس ، فكان كأنه طفل صغير بين يدى .

أمسك خع باوو بيدى فى محاولة لابعادهما عن رقبته ، ومن خلال أنفاس متقطعة جاء صوته ضعيفا متحشرجا .

— لقد ربطت كا — شى بكا — ى ، فإن أصابنى سوء ماتت تفنت .

لم أترك رقبته بالرغم من محاولاته اليائسة ، ومن أن أظافره كانت تمزق جلد ذراعى .

— إنك تكذب . . . لا يوجد شىء فى « الحكا » يؤدى إلى مثل هذا الترابط الذى تدعيه .

لكننى لم أكن واثقا . وجدت نفسى رغما عنى أرفع قبضتى عن رقبته وهبط ذراعاى إلى جانبى فى يأس وبر .

انتهز الملعون الفرصة ، وراحت الكلمات تنساب من بين شفتيه سما ناقعا يشفى غليل كراهية متأصلة ، وحقد دفين .

— أتظن ذلك ؟ . هل تعلم ماذا حدث لوصية عشا بيت ؟ وهل تظن أننى ذهبت إلى قصر الكاهن عبثا ؟

— ماذا حدث لها ؟

بدت على عينيه نظرة خبيثة . مضى يرمقنى بها دون أن يتكلم . كان يعلم

أن أية كلمة يقولها سوف تعد اعترافا بقتل الفتاة . ولهذا آثر الصمت . وباحتقار شديد أدار ظهره لنا ، واتجه إلى جواده . أحسست بأن عبئا ثقيلا قد حل على كتفي يمنعني من الحركة . لم أحاول أن أوقفه ، أو أعيد استجوابه ، إنما وقفت ساكنا أحدق فى الرمال المنبسطة أمامى وكأنى فى عالم لا يوجد به سواى .

ربما أكون قد وقفت مكانى لحظات ، وربما دقائق ، الحقيقة أننى فقدت الشعور بالزمن . لم يكن عقلى يفكر إنما كانت تدور فيه كلمات محدودة تتكرر حتى أضحت هى نفسها دون معنى ... إن حياة تفنت معلقة بخع باو و . جملة واحدة ظلت تكرر نفسها فى عقلى المذهول ، حتى أضحى الكون كله حلقة مفرغة إطارها الكلمات السبع .

إن حياة تفنت معلقة بحياة خع باو و ...

— كاى .. كاى .. ماذا بك ؟

جاءتنى الكلمات من مكان ما .. بعيدا عنى من غور سحيق .

— كاى ... !

التفت لأرى المتكلم . هنا فقط شعرت أيضا بالأصابع القوية تقبض على كتفى ، وتهزنى كأنما لتوقظنى من نوم عميق . كان الوجه الذى طالعنى هو وجه نترى ، وقد لاحت عليه أمارات القلق ، والاهتمام . وعلى بعد منه قليل ، وقف خندو ينظر إلى بوجه صارم ، تتنازعه عواطف شتى .

— ماذا حدث يا كاى ؟

— لاشىء ... اننى فى الواقع كنت مستغرقا فى التفكير .

— ألا أستطيع المساعدة ؟

— شكرا .. لكننى لا أظن .

خرجت إجاباتى مقتضبة كما خرج صوتى أجشا لا حياة فيه . كان عقلى تحيطه غابة سوداء لا يجد منها فكاكا . وعلى قدر ما بدا مغلقا ، فأنه كان يعمل بسرعة داخل الغمامة . كيف يمكن لشخص أن يربط حياته بحياة فتاة بريئة وهو ذاهب إلى القتال وقد يموت فيه فى أية لحظة ؟ ما جريرة هذه المسكينة ؟ هل لمجرد أنها تعبد ربا دون آخر ؟ أم لارتباطها بزع موسى ، وبى ؟

وعاد إلى صوت نترى .

— كاى . . إنك تعود ثانية إلى أحزانك . . تعالى معى. لقد أتيت لأخبرك أن جسر يطلب حضورنا عند محفة الأميرة إذ يبدو أنها تود لقاءنا لشكرنا .

إغتصبت ابتسامة باهتة ، وأعتليت « كم » وتركت نترى يتقدمنى بجواده ، فى حين تبعنا خندو عدوا .

وصلنا عند محفة الأميرة حيث كان جسر ، ومن بحث فى انتظارنا . . وسألنا جسر .

— أين خع باوو ؟

ورد نترى .

— لست أدرى فقد بحثت عنه ولم أجده .

— ربما كان هذا أوفق .

تقدمنا من المحفة التى كانت قد وضعت على الأرض وهالتنى ضخامتها . لم تكن فى الواقع سوى حجرة كبيرة إنسدلت على جوانبها الأقمشة الحريرية . لاحظت أن المحفة قد صممت بحيث يمكن أن توضع على عجلات لتجرها الجياد فى الأرض السهلة المنبسطة ، أو أن تحمل فى الأرض الوعرة ، أو أن توضع على الأرض لتكون خيمة متسعة بحيث تتوفر للأميرة جميع وسائل الراحة دون أن تنتقل منها أن هى شاءت .

إستوقفنا ضابط ريثما أخبر وصيفة الأميرة التى عادت بعد لحظات تقرر أنها قد أذنت لنا بالمقابلة ، ورفعت الستر فدخلنا . كانت المحفة . أو الحجرة ، أكبر كثيرا من الداخل عما يتصور المرء الذى يراها من الخارج ، أو ربما كان إستغلال كل جزء فيها أعطاها منظرا أكبر من حقيقتها .

فرشت الأرض بالطنافس والسجاجيد . وانقسمت الحجرة إلى قسمين أحدهما النوم ، والآخر للجلوس أو تناول الطعام . أما قسم النوم فكان فيه فراش وثير تناثرت الوسائد عليه وتحته . وعلى الفراش استلقت الأميرة مرتدية حلة بيضاء ناصعة .

كانت صغيرة السن إلى درجة ذهلت لها ، وأنا أعلم أنها سوف تتزوج فرعون

مصر الذى جاوز الاربعين من عمره ويبدو فى الستين . لست أحسب أنها كانت تزيد على ثلاثة عشر ربيعا ، ذهبية الشعر بيضاء البشرة بديعة الملامح . لكن جمالها كان من ذلك النوع الجامد الذى لاحياة فيه .

على أن الذى استرعى انتباهى أكثر كان نترى . رأيته وقد وقف جامدا كأنما قد صعق ، وظل يحدق فى الأميرة دون أن يحيد بنظره عنها . فى لحظات وضحت لى الحقيقة . إن الأميرة هى التى كان نترى يقابلها ، وهى التى أحبها ، لكنها لم تكن قد صارحته بشخصيتها . وإن كان جسر ، أو من بحتى قد لاحظ شيئا فإنهما لم يبدياه ، وإنما ركعا على الأرض تحية لفرعونة مصر المستقبلة . وحذوت حذوهما ، بعد أن قبضت على ذراع نترى أجره معى جرا .

لم يطل بقاؤنا لدى الأميرة ، ولم تبد هى أية معرفة سابقة بنترى . شكرتنا ببساطة بلغة لم نفهمها ، وترجمتها لنا إحدى وصيفاتنا ، ثم طلبت منا العشاء معها ، لكن جسر اعتذر بأنه يلزم أن يرى حال الجيش والأسرى ، وأننا يجب أن نكون معه لمعاونته . ولم يدع للأميرة فرصة . إذ انسحب فورا

إنتقلنا بعد ذلك إلى الخيمة التى نصبها الجند مؤقتا لقائدهم من بحتى . وهناك قال جسر موجها خطابه لنترى ولى .

— أظن أننى مدين لكما ببعض الشرح . اننى كنت أشك فى أن خع باوو خائن ، ولهذا زعمت اننى أرسلت خندو لاستعجال حرس شرف الأميرة بينما كلفته فى الواقع بمراقبة خع . وصدق حدسى فقد حاول فى مبدأ الأمر أن يقتلنى ومن بحتى بواسطة الأعراب . ولهذا أيضا رأيت أن أوهم بأن من بحتى قد قتل . وكان خع باوو أيضا هو رسول العابيرو إلى قبائل سيمون الذين أغرتهم القافلة بما تحمل من عبيد ، وإماء ، ونفائس وأموال لم يترددوا فى القبول . وأعتقد أنكما تستطيعان بعد هذا أن تتصورا تسلسل الحوادث فقد كلفت من بحتى أن يعد جنوده كمينا لرجال قبيلة سيمون ، وتقدمت معكم أستطلع الطريق ، والقافلة وتقدير عدد الرجال اللازمين ، وغير ذلك من التفاصيل ، ثم نقلتم إليه حين عودتنا إلى شاروهين ، وتم إعداد الكمين ، ونجحت الخدعة . وأعتقد أنه لم يبق بعد هذا إلا محاكمة خع باوو لخيانته ان هوسه الدينى قد فاق كل تصور ، وخرج عن حدوده ولابد أن يموت .

— لا

خرجت الكلمة منى دون أى وعى. والتفت الثلاثة إلى وقد علت وجوههم الدهشة. كان أسرعهم فى تمالك نفسه هو جسر الذى نظر إلى مستفهماثم قال.

— ماذا تعنى ياكاى ؟

كانت الكلمة قد خرجت منى دون تفكير إلا ان موت خع باوو موت لشفنت، وهذا يجب أن أمنعه بأى حال. أما كيف أمنعه، فلم يخطر لى على بال. وحين ألقى جسر سؤاله لم تكن عندى الإجابة عليه فراح عقلى يعمل بسرعة لأجد تعليلا أمنع به الكارثة التى توشك أن تحل على حبيبتى.

لو أننى صارحت جسر بالموقف فإنه لاشك سوف يهزأ منى، ولن يعوقه هذا عن تنفيذ مايراه واجبه العسكرى. كنت أعرف طبيعته السمحة، لكنه مع هذا لم يكن يتهاون فيما يتعلق بالتزاماته العسكرية حتى لو كان فى ذلك تضحية بأعز صديق لديه. لهذا كان يجب أن ألجأ إلى هذا الشرف العسكرى لأمنع إعدام خع باوو.

— إن أية محاكمة عسكرية سوف تضع جيش تامرى فى موقف غير مشرف، هل نسيت أن خع باوو كان من ضمن البعثة التى أرسلها الوزير للمحافظة على القافلة؟ هل نسيت أنه ابن النبى الرابع لآمون ؟ هل نسيت أنك بالذات الذى إخترته ليكون من رفاق سلاحك ؟

نظر إلى جسر بغضب ثم قال بحدة.

- إننى إخترته لأضعه تحت المراقبة وحتى لايرسل العابيرو شخصا سواه، فلا نعلم خططهم.

— ومن سيصدق هذا ؟ ألن يقولوا إنك ببساطة أسأت الاختيار ؟ بل إنك دبرت كل هذا لتظهر بمظهر البطل.

إشتد غضب جسر وهو يسمع كلامى، وحينما إنتهيت. إجابنى بنفس الحدة التى بدأ بها.

— ماهذا الذى تقوله ياكاى ؟ فليقل من يشاء ماشاء. لكننى لن أترك هذا الخائن يفلت من العقاب أيا كانت النتائج.

وتدخل من بحتى مهدئا.

— أعتقد أن كاى لديه خطة ، وهو لم يقل حتى الآن أن يفلت خع باور من العقاب . لماذا لاتتركه يكمل رأيه ياجسر ؟

صمت الجميع ، واتجهت ، أنظارهم إلى ينتظرون . وحينما تكلمت كانت الخطة قد اكتملت فى ذهنى .

— لماذا لاتدعنى أبارزه ؟ سوف أتحين الفرصة لأن يهيننى ثم أدعوه للمبارزة حرصا على شرفى .

لم يبد على جسر أنه اقتنع بهذا الراى ، ومع ذلك فإنه سايرنى فيه متسائلا .

— ولماذا لا أبارزه أنا ؟ أو من بحتى ، أو نترى ؟

— إن خع باور نجل النبى الرابع لآمون ، ولو قتله أحدكم لعرض نفسه للمحاكمة ، أما أنا فإننى أيضا نجل أحد أنبياء آمون ، وتكفى كلمتى لأن أفلت من العقاب . فإن أضفنا إليها شهادتكم لم يبق هنالك مجال للشك ؟

— وماذا يحدث لو قتلك ؟

كانت هذه نقطة الضعف الشديد فى خطتى ، ولهذا خرجت الكلمات من فمى بتؤدة .

— أعتقد أننى أقوى منه بنية ، وأكثر مهارة فى استعمال السلاح . ومع هذا فإن السؤال نفسه يثور لو أن أيكم بارزه . ماذا مايحدث إن بارزته أنت ياجسر ، وتغلب عليك ؟ لاشك أنه يفوز بحياته .

بدا على جسر أنه لم يعجبه هذا الرأى ، ولعله كان سوف يرفض ، لولا أن نترى الذى ظل صامتا طوال الحوار تدخل فجأة .

— اننى أوافق كاى على رأيه . إن هذا يمنع أى مساس يشرف جيش تامرى ، كما أنه يمنع أى شقاق بين سيادة الوزير والفرعون له الحياة ، والصحة ، والرفاهية .

وتردد من بحتى قليلا ثم أضاف .

— وأنا أضم صوتى إلى نترى . إن حياتنا مقامرة . فلماذا لانترك كاى يقامر بحياته ؟

تطلعت عينا جسر تنظران إلى وجوهنا ، وظل صامتا يفكر ، وانتظرنا بدورنا حتى يبدى رأيه . وأخيرا لاح أنه استقر

ــ حسنا لكم ماتريدون .... وأن كنت لا أرى حتى الآن أى مانع حقيقى من أن يقدم الخائن للمحاكمة . لكننى سأترك لك يومين يا كاى لتنفذ فيهما خطتك . إننا سنعود إلى شاروهين اليوم ، وسنبقى فيها يومين لتوزيع الأسلاب ، والغنائم والأسرى . فإن لم تفلح حتى نهاية المدة فانى سوف أقدم الخائن للمحاكمة أيا كانت النتائج .

بالرغم منى صدرت تنهيدة راحة . وشعرت بأن عبئا ثقيلا قد إنزاح عن صدرى ، وهتف قلبى فى شوق وارتياح بإسم معبودتى ....... تفنت .

***

ما كدنا نصل إلى شاروهين حتى ذهبت إلى حجرتى أفكر فى تفنت . كنت أكاد أجن شوقا لرؤياها لكننى خشيت أن تعرف بشكل ، أو آخر ما أضمره . لهذا آثرت الا أرسل كا ــ ى إليها . بل أننى خشيت أن أغرق فى التفكير فيها حتى لا أستدعى با ــ شى كما حدث فى المرتين السابقتين ، فحاولت جهدى أن يكون تفكيرى فيها بقدر محدود .

كنت أرتب أشيائى ، وأكتب رسالة إلى والداى ، وإخوانى حين طرق الباب ، ولما أذنت دخل خندو . نظرت إليه مستفهما فلم أكن قد طلبته ، ولم يكن من عادته أن يدخل على إلا تلبيه لى ، ولهذا دهشت حينما وجدته يقف مترددا عند المدخل .

سألته عما يبغى فارتمى على قدمى يسألنى .

ــ لماذا ............ لماذا يامولاى ؟

ــ لماذا ماذا ياخندو ؟

ــ أننى سمعت أنك ستبارز السيد خع باوو . وإننى أعلم انك لن تستطيع قتله ... وسوف تدعه يقتلك . لماذا تبارزه إذا يامولاى ....... ؟

ــ ليست أمامى خيرة ... إن لم افعل قدمه جسر للمحاكمة ، ولا شك فى أنه سيعدم .... ؟

نظر إلى خندو بحزن عميق .

ــ وعندئذ ستموت السيدة الصغيرة ...... ! ؟

ــ أجل ياخندو .... ولا أظنك ترضى هذا ؟ !

— أليست هنالك وسيلة أخرى ياسيدى .. .. ؟!

— لا أحسب .

— سيدى .. .. إنى لم أفهم ماذا كان يعنى الخائن وهو يقول إنه ربط حياة السيدة الصغيرة بحياته ؟

— إنه يعنى أنه إستعمل وسائل « الحكا » فى ربط روحها بروحه فان مات ماتت .

— ألا يجوز أن يكون فى الأمر خدعة يامولاى ؟!

— ربما .. .. فإننى لاأعرف أية وسائل تؤدى إلى مثل هذا الترابط .. .. لكننى لا أستطيع أن أجازف .

تقدمت من عبدى الأمين ، ووضعت يدى على كتفه ، ثم خاطبته ببساطة .

— خندو .. .. لا تبتئس .. إنك تعلم أن الحياة الثانية أفضل من هذه .. هل أستطيع قبل أن اذهب إليها أن أفعل شيئا لك ؟

— لا يامولاى .... شكرا .

— ألا تريد حريتك ؟ أننى أستطيع أن أرجو والدى ان يهبها لك .

هز الرجل رأسه بحزن ثم قال .

— وماذا أفعل بحريتى ؟ لقد ولدت ونشأت فى ظلكم . ولا أعرف لى أهلا سواكم .

— حسنا .. والآن دعنى ارتب بعض حاجياتى ، وأتمم رسالاتى لوالدىّ وأخوتى ، وتفنت . وأرجو أن تسلمهم الرسائل شخصيا .

كان هذا أطول حديث دار بيننا على ما أذكر . وشعرت بحب وتقدير عميقين للعبد الأسود وما يكنه لى من إخلاص . ورأيته ينكس رأسه فى الأرض ويقف مترددا ثم ينسحب بهدوء .

بمجرد أن خرج تلفت حولى . كانت قد وصلت إلى أنفى رائحة ما كنت لا خطئها بين مئات الروائح . علمت أن تفنت تحاول الاتصال بى ، وأصبح حتما على أن اتصل بها .

لم أدر منذ متى كانت موجودة معنا ، وهل سمعت الحديث الذى دار بينى وبين خندو جميعه أم لا . ولهذا كان على أن اتصل بها . . . لأعرف .

رحت فى غيبوتى الاختيارية ، وارتفعت كاـــ ى مفارقة خات ـــ ى ،
وعلى الفور رأيت كا تفنت . نظرت إلى وعلى وجهها ابتسامة جميلة . وبادرتنى
متسائلة

ـــ كاى . . . هل انتهت مهمتكم ؟

ـــ أجل وسوف نبقى يومين فقط فى شاروهين لتوزيع الأسرى
والأسلاب .

ـــ إذا فسوف نراك بيننا قريبا .

تفاديت الاجابة على السؤال وقلت لها مبتسما .

ـــ إنك تريننى الآن .

ـــ كيف حال ذراعك ؟

ـــ بخير وان كان يؤلمنى قليلا .

ـــ لقد رأيت خندو يخرج من عندك حزينا مهموما . ما ذا به ؟

داخلنى سرور غامر بسؤالها إذ أنه كان يعنى أنها لم تأت أثناء الحديث ،
وإنما فى آخره ، ولم تسمع شيئا مما دار بيننا ، ولهذا أدرت الحديث فورا إلى
وجهة أخرى .

ـــ دعك من خندو إن وجهه يبدو حزينا دائما وهو يملق لاتفه ا...
كيف حال سيدى الكاهن ؟

ـــ بخير . . . وإن كان دائما يبدو شاردا مهموما . . . كاى إننى
أشعر كأن كارثة وشيكة الوقوع .

كان على أن أحيد عن هذا الموضوع أيضا ، فتصنعت الابتسامة وأنا
أداعبها .

ـــ لا تقولى أنك أصبحت متنبئة أيضاً . . . !

هزت رأسها نفيا .

ـــ إننى أعلم أنك ستظن أننى فتاة صغيرة حمقاء لكننى لا أملك إلا أن
أقرر أن شعورا قويا بقرب حدوث كارثة يسيطر على .

دفعت الحديث مرة ثالثة بعيدا عن المواطن الخطرة، وفى هذه المرة أفلحت
تماما . . .

• • •

لم يكن افتعال مشاجرة مع خع باوو بالأمر العسير فقد انتهزت فرصة وجوده على مائدة العشاء فى اليوم التالى واصطحبت معى نلزى ليكون شاهدا على مايحدث .

وقفت أمام المائدة وصحت بصوت سمعه كل من كان فى القاعة .

— خع باوو . إن خندو قد إتهمك بشوء فى ساحة القتال أود أن تعترف به .

رفع خع باوو نظره إلى دهشا ، فلم يكن يتصور أن أفتعل مشاجرة . وأنا أعلم أننى لا أستطيع أن أبارزه أو أقتله . بان التردد عليه لحظات لعله كان يتساءل فيها إن كنت قد إكتشفت سر ماصنعه لربط حياته بحياة تفنت ، وأبطلت مفعوله لكن يبدو أنه إستبعد هذا إذ أجاب .

— لقد قلت لك إن عبدك كاذب .

— إن خندو لا يكذب لقد نشأ فى حمانا ونال أحسن تربية .

كان المعنى جليا ، إن خندو غير كاذب ، وأنت كاذب . إن خندو العبد أحسن منك تربية . ولم يبق هنالك مجال للتردد أو التراجع بعد هذا .

بسرعة خاطفة هب من مكانه ، واندفع نحوى مسددا لكمة إلى وجهى . لكن على قدر سرعته ، كنت أنا أسرع . تحرك رأسى متفاديا لكمته . وقابلت قبضتى معدته لتوقف إختلال توازنه .

إنحنى من أثر الضربة ، وحاول أن يلتقط بعض الهواء الذى قذفه إلى الخارج . ولم أمهله . بتعمد واضح تحرك ذراعى لتلتقى قبضتى بوجهه . وتراجع عدة أمتار قبل أن يسقط على الأرض .

كنت أعلم أننى لا أستطيع قتله خشية على حياة تفنت ، لكن هذا لم يكن يعنى أننى لا أستطيع أن أهشم وجهه ، وأعطيه درسا لن ينساه لأمد طويل ... حتى بعد أن يقتلنى .

بدأ يقوم من سقطته وهو يترنح . إستند إلى أحد المقاعد متحاملا . ولم اتركه لحاله . تقدمت بخطى سريعة ثم إرتفع كلا ذراعاى ليهبطان على رأسه بشدة قبل أن يعتدل . وحينما انكفأ على وجه قابلته ركبتى صاعدة ترتطم بأنفه ، وفمه

أحسست بالدماء تنبثق من الأنف والفم ، ليسقط بعضها على ركبتى ، لكننى لم أكن قد انتهيت منه . قابل كفاى الرأس المندفعة إلى الخلف ، وارتطما بقوة هائلة بالأذنين .

صرخ خع باوو صرخة هائلة ، ورفع ذراعيه يضمهما على أذنيه ، وتراجع مترنحا إلى الوراء ليصطدم بإحدى الموائد فتوقف تراجعه .

كان ما يزال واضعا يديه على أذنيه حينما تلقى لكمة شديدة فى فكه رفعته عن الأرض ، وألقت به على المائدة.

تقدمت لأنهى ما بدأته حينما سمعت صوت جسر الآمر .

— قف حيث أنت . ما هذا ؟ اننى لا أسمح لضباطى أن يتقاتلوا كما تتقاتل الرعاع . نترى عاون خع باوو إلى حجرته وتأكد من أن ينال العناية اللازمة ، وحينما يكون فى حالة تسمح ، عليه أن يقدم إلى تقريرا عما حدث .

أما أنت ياكاى فإننى أتوقع منك تفسيرا الآن . إتبعنى إلى حجرتى .

تقدم جسر يصحبه من بحتى ، وتبعتهما . وحينما دخلنا الحجرة قصصت عليهما ماحدث . ولما إنتهيت قال جسر .

— أعتقد أن فى هذا الكفاية ، ولا مفر الآن من أن تصفيا خلافاتكما . وبما أن لى الحكم بصفتى قائدكما ، فعليكما أن تصفيا الخلاف عن طريق المبارزة العامة فى ساحة الثكنات بعد باكر . هذا يعطينا الوقت للانتهاء من توزيع الاسلاب ، ويعطى خع باوو الفرصة لأن يسترد قوته . أنك لم تمس ذراعيه أو عينيه .

— كلا فقط أنفه ، وأسنانه ، وفكه .

— حسنا إذا موعدكما بعد غد .

* * *

قضيت اليوم التالى مع نترى . وعلى قدر ما كان رأسى مشحونا بمشاكلى الخاصة الا اننى استمعت لقصته مع الأميرة وما يعانيه من غرام .

قرر أنه لم يكن يعلم أنها الأميرة ، وأنه كان يظن أنها إحدى الوصيفات ، وأنه صعق حينما رآها فى الحفلة ، واكتشف شخصيتها . قال إنها أرسلت تستدعيه

بعد لقائنا معها ، وأنه على قدر غرامه بها ، رفض الذهاب ، وأنه يفضل الموت على أن يلوث شرف فرعونه ،

كان نترى فى حوالى الخامسة عشرة من عمره ، وكان حبه للاميرة عميقا فياضا ، ولهذا فإن يؤسه بمعرفة شخصيتها ، واستحالة استمرار العلاقة معها كان حقيقيا . وحاولت التسرية عنه بشتى الطرق . إلا أننى لم أفلح إلا جزئيا . وهكذا قضينا اليوم بائسا حزيناً .

حل موعد المبارزة ، وصحبنى نترى ، وخندو إلى الشكنات حيث وجدت أن الضباط والجنود قد كونوا شبة دائرة كبيرة يجلسون فيها مجلس المشاهدة . وفى صدر الحلبة جلس جسر ومن يحتى وقائد الحصن .

تقدمت من قائدى ، ورأيت أن خع باوقد حضر بدوره ، ووقف منتظرا الأمر . وخاطبنا جسر .

— إن المبارزة سوف تكون بالسيف ، ولكما أن تقررا أما أن يكون الفائز هو أول من يسيل دماء خصمه ، أو أن تكون مبارزة حتى الموت . واعتقد أن خع باور هو الذى له حق الخيار .

لم أتكلم ، ونظر إلى خع باور وقد علت على وجهه إبتسامة خبيثة ، وكأنه يذكرنى بارتباط حياته بحياة تفنت . لم تدم النظرة أكثر من ثوان معدودات ، ثم حول وجهه إلى جسر وقال كلمتين .

— حتى الموت .

— حسنا . إليكما السيوف إختارا منها ماشئتما .

وقال خع باور .

— إن عندى سيفى .

— كلا . نحن لانريد خداعا ، فربما كان السيف مسموما . عليك أن تختار من هذه السيوف .

أخذ غريمى وقته فى إنتقاء السيف ، ومضى يزنه فى يده ، ويجرب قبضته ، وحدة نصله ، بينما لم أعتن بالاختيار فتناولت أقربها إلى . كنت قد وضعت خطتى كاملة . فأولا يجب ان يكون فى المبارزة شيىء من الجدية حتى لا تبدو مفتعله . كما يجب ألا أمس غريمى بأى جرح خشية أن يتلوث الجرح فيما بعد وقد يتسبب فى موته .

لم يكن لدى أى شك فى النتيجة . كنت ذاهبا لأموت ، ولأنقذ حياة خصمى. حفاظا على حياة تفنت . على أن الموت لم يكن يخيفنى إذ أننى كنت أعلم أنه ماهو الا إنتقال إلى أوزيريس . ولما كنت ككاهن لآمون رب الارباب ، أحفظ كتاب الموتى ، وأعرف الإجابة على كل الأسئلة ، فلم أكن مرتاعا من مواجهة محكمة آلهة العالم الآخر .

وقفنا وجها لوجه وقد امتشق كل منا حسامه . وبدا لى جليا من أول وهلة أن خعم باوو مبارز ماهر . كان يصول ، ويتراجع ، ويصد بحركات رشيقة سريعة . ساعده عليها أنه كان نحيل القامة . على اننى فى الواقع كنت ندا له ، وكان يمكن أن القنه بعض الدروس إذ أن حب القتال ، كان يبدو أنه غريزة طبيعية لدى .

أردت أن اظهر فى مبدأ الامر أن المبارزة جدية ، فلم أحاول أن أتراجع أمامه ، وأن لم أضغط ضغطا كافيا . لم استعمل براعتى حتى منتهاها . كما لم يتركز تفكيرى فى النزال . وانما كان دائما يتجه إلى تفنت ، وقد سرنى أننى سوف أموت فى سبيلها . وخيل إلى للحظات أن الجو حولى قد إمتلأ برائحتها . . . فعلمت أنها تحاول الاتصال بى . . . . وبجهد شديد تحولت بتفكيرى عنها .

لعل خعم باوو ظن إننى أبذل قصارى جهدى ، أو لعله كان متأكدا من النتيجة أيضا ، لهذا كثيرا ماكان يفتح لى صدره ، ويكشف دفاعه . ولواردت لأنهيت حياته أكثر من مرة إلا أن الفرصة تلو الأخرى ظلت تفلت منى . وحدث ذات مرة أن تفاديت طعنة وجهها إلى . والتصقنا إثر ذلك ببعضنا . وكان وجهه المنتفخ قريبا منى حينما سمعته يهمس بسرور واضح .

— لن أقتلك دفعة واحدة . وانما سامزقك أولا . سوف تموت على دفعات .

دفعته بعيدا . ويبدو أن الدفعة كانت أقوى مما اردت إذ أنه تراجع إلى الوراء بضعة خطوات ، وتعثر . ثم سقط على الأرض ، وطار حسامه من يده . وقفت منتظرا أن ينهض ويسترد سلاحه . وما كنت فى الواقع فى حاجة إلى هذا إذ أنه فى المبارزة إلى الموت يباح كل شىء . كان يمكن أن اقتله ببساطة حينئذ ، دون أن يعتبر هذا عملا دنيئا . لكننى إمتنعت .

سمعت هتاف الجنود وهم يحرضوننى على قتله . ولم أتحرك من مكانى . مكث

خع باو و على الأرض برهات وهو ينظر إلى أولا برعب ، ثم علت على وجهه المتورم ابتسامة ساخرة إذ تأكد من موقفه . وإننى ان أقتله أيا كانت الأوضاع.

تناول حسامه ، وهب واقفا . وعدنا إلى الالتحام ثانية . ربما كانت قد مضت ربع ساعة ، ونحن فى النزال حينما قررت أن التمثيلية يجب أن تصل إلى نهايتها

بدأت اكشف دفاعى . ليس عامدا ، فإننى كنت أعلم أن عينى جسر الحادتين ترقبان ، ولم أكن أود أن يعرف أن فى الأمر خدعة حتى لايصر على محاكمة خع باو و ، تذهب حياتى هباء .

إنتهز غريمى الفرصة ، وبسرعة خاطفة إمتد سيفه ليضرب فى كتفى الأيسر، وانبثقت الدماء . أحسست بها حارة تلوث ملابسى ، وتلتصق بجسدى . لكن الطعنة لم تكن قاتلة ، ولا كانت حتى تكفى لأن تسبب لى أى عجز .

إرتفع الصياح بين الجنود ، ورأيت الابتسامة الخبيثة تعلو وجه خع باو و ، كأنما لتذكرنى بوعده أنه سوف يمزقنى قبل أن يقتلنى . لقد تعمد الخبيث ألا تكون الطعنة قاتلة ، بل وتعمد أن تكون خفيفة . وسوف يظل يمزق جسدى وهو مطمئن آمن ، أننى لن أمسه بسوء .

لم تمض ثوان بعد هذا حتى أصابتنى طعنة أخرى ، فى الكتف نفسه . إلى جوار شقيقتها . شعرت كأحد القرابين تقدم إلى مذبح رب الأرباب . لكن المذبح لم يكن فى هذه الحالة لآمون ، وإنما كان لنفنت الحبيبة . خيل إلى أننى أرى وجهها أمامى ، قلقا جزعا ، وجاءتنى رائحتها قوية نفاذة لكننى سرعان ما إستبعدت الخيال . وأصابتنى طعنة ثالثة فى صدرى .

كانت الطعنات جميعا تشق الجلد فقط دون أى غور أو عمق . طعنات أستاذ فى المبارزة يود أن يمزق جسد خصمه . لكن الدماء كانت تنزف من كل جرح . وبدأت أشعر بضعف شديد حتى أن ساقاى لم تعودا تتحملان ثقل جسدى ، وسبحت فى الفضاء أمام ناظراى دوائر حمراء .. وشعرت بحد السيف يخترق ذراعى الأيسر .

لابد أن منظرى كان مريعا ، وأنا أبدو كأنما أحاول أن أدافع عن نفسى

الموت ، وقد تسربلت حلتي جميعا بالدماء ، وتدلى ذراعي الأيسر دون فائدة حتى أنني سمعت أحد الجنود وهو يصرخ .

— إقتله وأوقف هذا التعذيب .

لكن وجه خع باوو أمامى ظل قاسيا صارما ، وقد ارتسمت عليه إبتسامة تشف ، وسرور زاد من بشاعتها الشفتان المتورمتان . لم يكن فى نيته أن يعير التفاتا لصرخة الجندى . وما كان فى استطاعة أحد التدخل . لقد قرر أن يمزقنى ، ولن تستطيع قوة أن تمنعه .

دار حولى كالقط يلعب بالفأر ، واستدرت لأواجهه . كدت أسقط على الأرض أثناء هذه الاستدارة ، لكننى تماسكت ، وفى هذه اللحظة إنفتح جرح فى ساق الأيمن أثر طعنة خامسة .

كنت أريد أن يقتلنى لننتهى المبارزة ، فصممت ألا أترك له فرصة لهذا التقطيع فى جسدى . بدأت أهاجم رغم كل ما أشعر به ، وأصد جميع ضرباته الموجهة إلى أجزاء جسمى ، ولم أترك له مايمكن أن ينفذ إليه سوى صدرى ليسدد الطعنة القاتلة .

لم يكن هذا هدفه ، فإمتنع عن الطعنة ، واستمر يحاور دون أن يمسنى بسوء . علم الماكر أننى لم أعد أستطيع الاستمرار طويلا على بذل هذا المجهود ، نظرا لما فقدته من دماء ، فازداد إصراره على تنفيذ ماوعد به .

ويبدو أن المجهود الذى بذلته فى الهجوم قد خدع الجنود الذين اعتقدوا أنى استرددت قوتى . ولم يكن هنالك شك فى أن خع باوو فقد كل عطفهم لما رأوه من إمتناعه عن قتلى ، وإصراره على تمزيق جسدى ، لهذا فإن أصواتهم التشجيعية تناهت إلى أذنى .

لكنهم لم يكونوا يعلمون . إن حياة تفنت هى التى أفتديها ، وما كان يهمنى أن أقطع أجزاء صغيرة ، وما كان يضيرنى أن أمزق فى سبيلها . بدأ التفكير كله يتركز فيها إذ شعرت أن النهاية قد حانت . طعنة أخرى أو إثنتين .. ثم القتل . دقائق معدودات على أسوأ الظروف . ومرة أخرى جاءتنى الرائحة الزكية . ومرة أخرى استبعدتها .

غشيت عينى غمامة على حين غرة . وبدأت الأرض تدور حولى ، ولا بد

أنى كنت أترنح فى وقفتى. تناهت إلى من مكان سحيق أصوات تهتف بكلمات بدت لى مبهمة لامعنى لها . وخيل إلى أنى سمعت صوت نترى يصرخ مشجعا ، وخندو راجيا . لكننى لست واثقا من هذا : ولمس الحسام رقبتى لتنبثق الدماء من جرح جديد .

خذلتنى ركبتاى فى آخر الأمر فسقطت على الأرض ، وتراخت قبضتى فانزلق سيفى من يدى ،

إنتظرت الطعنة القاتلة، لكنها لم تأت . لم يكن خع باوو اكتفى بما نالت فوقف ينتظر أن أسترد أنفاسى وبعض قوتى ، حتى يبدأ من جديد فى تمزيق جسدى . حاولت النهوض ، لكننى لم أستطع فبقيت طريحا على الأرض . ووقف خع باوو ينتظر .

تعالت الصيحات ، وهتافات الإستنكار ، أو على الأقل هذا ماخيل إلى ، وما كانت هذه لتؤثر فى الرجل . كنت أود أن أنتهى حتى تستطيع روحى أن تحلق فوق تفنت ، وتكتمل سعادتى، إلا أنه أبى أن يعجل بالنهاية .

المرة الرابعة جاءتنى الرائحة الزكية . رائحة تفنت . ولم تكن كاى تستطيع أن تدفع الرائحة . كما فعلت سابقا . إن تفنت تود أن تتصل بى . واشتدت الرائحة تملأ الجو ثم بدأ خيالها جليا أمام عينى .

فجأة إنقطعت الهتافات ، فلم يصل إلى أى صوت . وأعمى البصر ، فلم أعد أرى أى شىء مما حولى سوى تفنت . كنت كأنما قد إنتقلت فجأة من هذا العالم إلى مكان آخر بعيد .. لاصوت فيه ، ولاحركة . مكان تملؤه رائحتها الزكية ، إقتصر فيه الوجود عليها ، وعلى .

من مكان ما أتانى صوتها . كلا لم يكن صادرا منها ، فإن خيالها كان يقف فقط دون أن تتحرك شفتاها . لعله كان صادرا منى أنا ، أعنى من داخلى ، لكنه كان صوتها .

— كاى .. لاتقتل نفسك من أجلى .. إنى أهواك .. إننى سمعت مادار بينك وبين خندو . لاتدعه يقتلك .

كان هذا آخر ماهتف به الصوت ، ثم رأيت منظرا مروعا . إرتفعت يد الخيال فإذا بها تحمل خنجرا حادا يلتمع وقبل أن أتمكن حتى من الكلام

كان الخنجر قد هوى فى صدرها ، ودخل النصل إلى آخره ، وانبثقت الدماء ، حمراء قانية تلوث الرداء الأبيض .

أطلقت صرخة ملتاعة مدوية .. تفنت . لكن خيالها كان قد بدأ يتلاشى ببطء كأنما هو يتحلل فى الهواء المحيط .. شاهدتها كأنما هى تسقط راكعة على الأرض .. وخيل إلى أننى سمعت صوتها يردد .. لاتدعـــه يقتلك .. ثم تلاشى الخيال .

لست أدرى ماذا كان يحدث فى الساحة فى هذه الأثناء ، وان كنت أعتقد أنه لم يكن قد مضت أكثر من ثوان معدودات . فجأة عدت إلى حيث كنت ، لكننى لم أسمع هتافا . كان الصمت مخيما تماما .

بدا وجه خع باوو يتسكون أما ناظرى . شاهدت بسمته البشعة المتشفية ، ورأيته يشير إلى بحد سيفه أن أقوم ، والتقط حسامى ، ومادرى أن رغبته الشديدة فى الإيذاء قد أودت بحياته . ان تفنت قد ماتت .. انتحرت لتنقذنى .. ولم يبق هنالك داع للإبقاء عليه .

لم يدر أن بغضاء العالم كله قد تجمعت فى قلبى ، وأنه لن يفلت من يدى . ودوت فى أعماق صرخة ساخطة . آمون .. أى الأرباب انت ؟ .. وأى الاتباع اتباعك .. ! ؟

رحت أستجمع قواى ، لم أتعجل فى النهوض . ولم يتعجلنى خع باوو .. كان واثقا من النتيجة ثقة عمياء ، فتركنى أتحرك على مهل ، ووقف على بعد خطوات مرتكزا على أحد ساقيه ، مهملا الأخرى . وقد تدلى سيفه إلى جواره .. وقفة كلها إحتقار ، واستهتار .

لست أدرى كيف أصور السخط والكراهية اللذين تملكانى ليتجمعا فى غضب مكتوم بارد . لكننى أستطيع أن أقول إنه بالرغم من الجراح العديدة ، والدم المفقود ، والضعف الشديد الذى حل بى من جراء ذلك ، كانت هنالك قوة دافعة فى داخلى ، وعزم أكيد أن أبيد هذا الشخص الكريه . كنت واثقا أننى سوف أموت ، إن لم يكن بحسامه ، فعلى الأقل من جراحى ، والدماء التى نزفت ، لكننى كنت واثقا أيضا أنه سوف يموت معى ، أو قبلى .

أضحت حركاتى متأنية متعمدة تعمد هدفى . ببطء شديد مددت يدى اقبض

بها على سيفى. وبتمهل ، تحاملت على نفسى لأنهض وأواجه خصمى . لعله أعتقد أن هذا البطء الذى يراه نتيجة حتمية للضعف الذى تصور أنى أعانيه ، لكنه لم يكن كذلك . كان استجاعا لقواى .

عم السكون الساحة حتى أنك لتحسب أن الموجودين قد حبسوا أنفاسهم . حتى بعد أن وقفت معتدلا ، لم يتعجل خع باوو .. إلى هذه الدرجة كان واثقا . ولم أتعجل . بإرادة حديدية إستبعدت الدوار ، واستبعدت الغشيان الذى إنتابنى ، والدوائر الحمراء التى تتراقص أمام عينى . استبعدت آلام الجراح فى ساقى وكتفى ، ورقبتى ، بل أحسب أننى أفلحت فى إيقاف نزيف الدماء الذى كان يسحب الحياة من جسدى .

باستهتار شديد تقدم خع باوو ليتمم ما بدأه من تمزيق جسدى . لم يهتم حتى أن يغطى صدره ، وامتد ذراعى فى حركة خاطفة لمس سيفى الصدر المكشوف . وسالت أول دمائه .

إرتفعت الهتافات فجأة مشجعة لكننى كنت مركزا تفكيرى فى خصمى . تراجع إلى الوراء خطوات ، وبانت الدهشة على وجهه . إختفت الابتسامة البغيضة ، وحل محلها الخوف فى عينيه . تقدمت منه ببطء . . كان فى استطاعتى منذ اللحظة الأولى أن أقضى عليه ، لكننى عزمت أن أريه الموت عيانا ، قبل أن أذيقه إياه . هدفت أن أمزق جسده ، كما مزق جسدى . أن يعرف طعم المذلة والهوان ، وأن يعرف الخوف والرعب .

ببطء تقدمت . والتحم السيفان ، فى هذه المرة لم يكن مستهترا ، ولا كانت ابتسامة الاحتقار مرتسمة على شفتيه المتورمتين ، ولا نظرة التشفى تطل من عينيه . إختفى كل هذا وبدا غير مصدق لما يحدث ، محاولا أن يستشف من نظراتى حقيقة نواياى .

تحرك بحذر ، ولم يكشف عن صدره أو أى جزء من جسمه . كان مبارزا ماهرا ، وسرعان ما وجد أنه يحتاج إلى كل مهارته ليتفادى الضربات التى راحت تلاحقه من كل إتجاه . وكأنه يقاتل خصوما متعددين .

كشفت له صدرى ، وظن أن فرصته قد حانت فاندفع بحسامه . كان واضحا أنه قد تنازل عن إتمام هدفه إلى نهايته . تنازل عن تمزيق باقى جسدى ،

وأراد أن يضرب الضربة القاضية . لكنني لم أكن حيث اتجه بسيفه . بخفة متناهية تفاديت الطعنة ؟ وأضحى غريمي مكشوفا أمامي تماما . مرة ثانية كان يمكن أن أقضى عليه ، ولعله أحس بهذا ، ولعله ظن أنني سأنتهز الفرصة ، ولعل الرعب قد سيطر عليه ، إلا أنني لم أفعل .

امتد سيفي ليشق جرحا طويلا فى جانبه الأيسر . شعرت بجلده ، ولحمه ينفصلان عند حد السيف البتار . وسالت دماؤه ثانية . تعالت أصوات الجند مشجعة ، بل وصلت إلى أذنى ضحكات بعضهم ، فقد رأوا ماظنوه معجزة تحدث . لم يكن هنالك فيهم من يشك منذ دقائق أننى قد قضى على ، وهاهم يرون رجلا مائتا ترتد إليه ، الحياة ، ليكيل الصاع صاعين .

إبتعد خع باوو عن حد سيفى ، وقبض على جنبه بيده كأنما ليحاول أن يوقف نزيف الحياة الذى تدفق يسربل حلته . تبعته حيث كان ، والتقى الحسامان فى ضربات سريعة متلاحقة . فى هذه المرة لمس نصل سيفي وجهه . وانبثقت الدماء من وجنته اليمنى . وقبل أن يفيق ، عاد الحد يشق طريقه وسط الوجنة اليسرى .

ندت منه صرخة وهو يقفز متراجعا إلى الوراء . تعثر فى قفزته . وسقط على الأرض . ووقفت مكانى لاأتابعه . لم يتعجل الوقوف حينما رآنى أنتظره . علمت أنه يستغل الوقت فى استعمال « الحكا » ، القوى فوق الطبيعية ، ليستبعد الألم ، ويوقف نزيف الدماء . تماما كما فعلت . وتركته يأخذ وقته ، ويفعل مايريد .

مضت لحظات وهو مازال راكعا على الأرض ، ثم إندفع على حين غرة . إندفع من موضعه ، وقد إمتد سيفه قاصدا بطنى فى طعنة كانت ولاشك تمزق أحشائى . لو أنها أصابت . على قدر سرعته . كنت أسرع . تحرك سيفى ليحول الطعنة الغادرة إلى الهواء ، وحينما اندفع جسده وراءها تنحيت حتى كاد يمر بى ، وامتد حسامى ليشق طريقا آخر فى ظهره . وحينما مر جسده لحقته قدمى بركلة قوية ساعدته فى إندفاعه ، لينكفىء على وجهه على بعد أمتار منى . ووقفت أنتظر .

ربما ظن أننى قد ألحقه لأنهى المعركة لأنه ما كاد ان يستقر من زلته حتى إستدار فجأة يضرب بحسامه بحركة دائرية حوله . لكننى كنت بعيدا . لم يكن يبالى بالألم فقد استبعده ، ولم يعد يشعر به ، لهذا قفز فى خفة النمر ، وعاد إلى النزال . رأى أن الدفاع لايجديه فتيلا فانقلب إلى الهجوم .

إضطررت أن أتراجع أمام هجمته الوحشية ، وأستمر يشدد على الضغط .
لم أحاول أن أقابل الهجمة بأخرى عكسية . إنما تركتها حتى إستنفذت نفسها ، ثم بدأ سيفي يتحرك بسرعة رهيبة . لم أحاول أن أسدد طعنة ، أو أن أخترق دفاعه إنما أقتصرت حركات ذراعي على تلاحم السيفين ، كنت أريد حسامه فى وضع أفقي فناورته حتى جاءت اللحظة المناسبة .

دار نصل حسامي حول سيفه بسرعة خاطفة ، دورات متعددة حتى بدأ السيفان كأنما هما سيف واحد ، وبحركة سريعة وجد خع باوو نفسه يقف اعزلا . طار حسامه من يده ليرتفع فى الهواء ، ويسقط على الأرض إلى جوارى . وتحركت قدمى لتثبته فى الأرض . ووقفت أنظر إلى غريمى الأعزل .

هنا حدث شيء غريب . داخلت أنفى رائحة كريهة ظلت تشتد حتى كدت أن أغشى ، وبدأت غمامة سوداء تتجمع أمام عيني لتطمس الأشخاص ، والأشياء . واشتد السواد شيئاً فشيئاً حتى لم أعد أرى .

كانت الساحة يسودها الهرج ، والهتافات ، وكنت ما أزال واقفا ، وكأنى أنظر إلى غريمى ، واحد الحسامين فى يدى ، والآخر تحت قدمى ، لكننى اصبحت اعمى لا أرى شيئاً . لا لم أكن أعمى تماما ، كنت أرى تلك الغمامة السوداء ، ولا أرى غيرها . لحظات إستولى على الفزع ، وإرتبك عقلى تماما فلم أكن أدرى ما الذى حدث لى .

إشتدت الرائحة الكريهة حتى أنني كدت أختنق ، فجاهدت نفسى محاولا التنفس . وكومض البرق طرأ على عقلى خاطر .. سى موت . إن النبي الرابع لابد كان يرقب المبارزة ، وقد تدخل فى الوقت الحاسم ليمنعنى من قتل إبنه ، وليقلب ميزان القوى .

راح عقلى يعمل بسرعة متناهية .. كيف يمكن أن أتصرف وأنا لا أرى شيئا ؟ لا بد أن فى خطة سى موت ثغرة ما .. ما هى ؟ صحيح أنه تدخل متأخرا نسبيا ، لكن تدخله كان خبيثا فعالا ، وليس أيسر الآن على نجله من أن يتصرف فى كيفما شاء .

كان أول ما طرأ فى ذهنى أننى يجب أن استبعد السيفين من المعركة . ترى هل يعلم خع باوو ما فعله والده بى ؟ .. لمحة أخرى مرت فى عقلى . هذه هى

الثغرة . لا يمكن أن يكون سى موت قد أخبر نجله بما فعله، فهو إذا لا يعلم حتى الآن أننى أصبحت لا أراه ، وأحسبه مازال واقفا حيث هو ينتظر تصرفى .

ظللت مثبتا نظرى حيث رأيت خع باوو آخر مرة ، كأنما أرقبه، وانحنيت ببطء أتحسس سيفه على الأرض حتى عثرت على المقبض ، ودون أن أغير من وقفتى أمسكت بالحسامين ، وطوحت بهما فى الهواء بأقصى ما أستطيع من قوة فيما تصورت أنه سيحملهما بعيداً عن ساحة القتال ، وبعيداً عن الجند .

ساد الهرج لحظات ثم عم السكون . لم أكن أدرى بعد هذا ماذا أفعل . فأنا لا أستطيع الذهاب إلى حيث كان يقف خع باوو ، إذ لاشك أن حركة الأعمى تغاير حركة المبصر ، هذا بالطبع إذا كان غريمى مايزال واقفا مكانه . وخطر لى خاطر .

إذا لم أكن أستطيع أن أذهب إليه فعلى أن آتى به إلى . رفعت يدى إلى رأسى ، وترنحت فى وقفتى كن ألم بهدوار مفاجىء ، ثم وقعت على الأرض . سمعت صيحة إنتصاره وسط السكون الذى ساد إثر تغير ميزان القوى .

جاءتنى صوت أقدامه ، وهو يقطع المسافة ضئيلة التى تفصلنا فى خطوتين . وشعرت بركبتيه تضغطان على صدرى . وأطبقت يداه على عنق يريد أن يزهق أنفاسى . بحركات مازالت ضعيفة ، تحسست يداى ذراعيه كأنما فى محاولة أن تستبعدهما عن رقبتى ، ثم إنزلقتا بحركة طبيعية إلى الكتفين حتى أضحت رقبته بين يدى .

أحسبه لم يشعر فى نشوة إنتصاره بما حدث ، فقد كنت أمثل الضعف فى كل حركة حتى أننى بالكاد كنت ألمسه . لكنه لا شك أحس بأصابعى وهى تطبق على رقبته ، ثم تنغرس فيها بقوة لم يكن يشك فى وجودها ، ولا هو عمل لها حسابا .

هذا فقط علم أنه خدع . وربما علم أيضا أنه كان يقاتل شخصا ليس ضعيفا ، وإنما أعمى . لكن علمه لم يدم الا لحظات ريثما أحسست بفقراته العنقية تنفصل تحت قبضتى .

تراخت يداه ، وسقط جسده على صدرى ، ومع هذا فلم تترك قبضتاى

رقبته . طرحته على الأرض وجثمت فوقه أضغط بكل قوتى . أحسست بيد تلمس كتفى ، وسمعت صوت جسر الهادىء يفبهنى .

— كاى . إنه قد مات .

سقطت على الجثة وقد غبت عن وعيى تماما .

• • •

اليوم يكون قد مضى أسبوعان وأنا طريح الفراش . قضيت الثلاثة أيام الأولى منها ، وأنا فى غيبوبة تامة أتأرجح بين الحياة والموت . لم تكن الجراح بذات بال فقد كانت جميعها سطحية ، لكننى كنت قد فقدت الكثير من الدماء حتى أننى وصلت إلى درجة من الضعف خشى طبيب الشكنات منها على حياتى .

لم يفارق خندو حجرتى . كما كان نترى يعودنى كل يوم ليمكث معى ساعات . أما جسر ، ومن بحتى ، فقد مكثا حتى إطمأنا على حياتى ، ورحل الأول ليخبر الوزير بإنتهاء المهمة التى وكلت إليه ، والثانى ليتولى قيادة حصن ثارو ثانية .

كنت أسترد صحتى ، وقوتى بخطوات سريعة ، لكننى فى الواقع كنت زاهدا فى كليهما فلم يكن للحياة طعم بعد وفاة تفنت ، ولولا وجود عبدى الأمين ، وصديقى نترى إلى جوارى بصفة دائمة يصران على أن أتناول طعامى ، وأن أترك الطبيب يضمد جراحى ، لتركت نفسى دون عناية حتى أموت ، والحق بحبيبتى .

تناولت طعام الغذاء ، وحمل خندو الصحاف وترك الغرفة ، بناء على طلبى ، لأستريح وقت القيلولة . كان النعاس يداعب عينى حينما تجلى لى وجه تفنت الجميل باسما ، ينظر إلى فى حنو وحب . أغمضت عينى وقد وسالت منهما الدموع . وهتف قلبى باسمها ، ولعل شفتاى رددتا الصدى .

وجاءنى صوتها واضحا جليا .

— نعم يا كاى ..!

لم يخطر فى بالى أن أذنى هما اللتان سمعتا ، ومع هذا فقد كان الصوت حبيبا إلى قلبى حتى أننى رددت الهتاف باسمها . وجاءنى الصوت مرة ثانية .

— نعم ياكاى . . . .

وزاد الأمر على ذلك إذ أحسست بيد ناعمة توضع على يدى ، وتضغط بحنو زائد . لم أصدق نفسى ، وخشيت أن افتح عينى فيذهب الشعور الفياض الذى ملأنى . خفت أن أقبض على اليد التى تلامسنى لأجد نفسى أقبض على الهواء . ومع هذا فقد كانت هنالك اليد لا شك فيها .

شددت قبضتى قبل أن أفتح عينى ، وسمعت أنة ألم خفيفة ، وتردد إسمى عذبا الدرة الثالثة ، وقبل أن أفيق تماما كانت تفنت بين أحضانى أضمها إلى صدرى تبادلنى القبلات ، وأنا أتحسس شعرها ، ورأسها ووجها غير مصدق .

— تفنت أهذا أنت حقيقة .. أم ..

— أعتقد أنك قد علمت الآن أننى هنا بلحمى ، ودمى ، وعظامى ، فقد كدت أن تهشمها وهو مالا تستطيعه مع البا أو السكا .

— لكننى رأيتك . . .

وضعت تفنت أصبعها على فمى تمنعنى من الكلام . وظهر على محياها الجميل حنو فائض وهى تنظر إلى .

— ياحبيبى المسكين .. كم قاسيت . إستمع ولا تقاطعنى .. سأروى لك ماحدث .. كنت قد سمعت حديثك مع خندو حينما أرسلت كا — ى لرؤيتك . وعلمت منها أنك تعتقد أن فى وفاة خع باوو القضاء على . والواقع أن الملعون قد حبك أطراف الخدعة حتى كان من العسير الا تصدق. خاصة وأنه ذهب إلى حد قتل وصيفتى لمجرد إيهامك بصدق إدعائه . ولما علمت أنك سوف تتركه يقتلك فى المبارزة ذهبت إلى عمى وأخبرته بما حدث وسألته إن كان هنالك فى الحكا حقيقة مثل هذا الارتباط فنفى نفيا قاطعا .

أردت أن أعود إليك لأخبرك حتى لا تعرض نفسك للموت ، لكنه نصحنى ألا أفعل مقررا أنك لن تصدقنى ، وأنك سوف تعتقد أننى إنما أنفى وجود هذا الإرتباط مع علمى بوجوده لأضحى بنفسى إنقاذا لك ، وهو ماسوف تأباه .

إحترت فى الأمر ، ونصحنى عمى أن أتريث حتى يوم المبارزة ، وأن أقوم أمامك بتمثيلية الإنتحار ، وما كانت الدماء التى رأيتها سوى مجرد صباغ أحمر وضعته فى وعاء جلدى خبأته فى صدرى .

حاولت مرارا أن أتصل بك أثناء المبارزة ، لكنك كنت دائما تستبعدنى . كدت أجن ، وأنا أرى الملعون يمزق جسدك دون أن تحاول حتى مجرد إيذاءه . أخيراً حينما ضعفت إرادتك أمكننى أن أتصل بك،وأنت تعرف ماحدث بعد ذلك .

سكتت تفنت وراحت تنظر إلى بحب وامتدت يدها تمسح وجهى ، وكررت ما قالته .

— يا حبيبى المسكين .. كم قاسيت من أجلى .. أية فتاة لا تتيه فخرا بحبيب يفعل من أجلها مافعلت .

* * *

رقم الإيداع ١٦٤١ / ١٩٧٨

مطبعة المعرفة

- إخناتون .. هل هو نبى ؟ ... أم دعى ؟
- قصة الصراع بين أتباعه، وبين كهنة آمون ... مؤامرات الكهنة لقتله ...
- ومغامرات أتباعه ومحبيه دفاعًا عنه ....
- الحياة في مصر في فترة من أكثر فترات التاريخ الفرعوني اضطرابًا وتقلبًا ..
- قصة تاريخية مليئة بالدسائس والمغامرات والمفاجآت .

مطبعة المعرفة